

عَوْنُ الْحَمِيدِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأَلِيفُ

أ. د. سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي هَيْسَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الْأَسْتَاذِ فِي قِسْمِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ

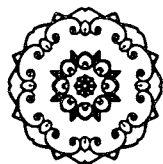
بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - جَامِعَةِ الْقَصِيمِ

المجلدُ الرَّابِعُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الْحَمِيدِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

٤



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص.ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

📌 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح) دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٧٢٦ ص؛ ٢٤×١٧ سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

بجميع الحقوق محفوظة

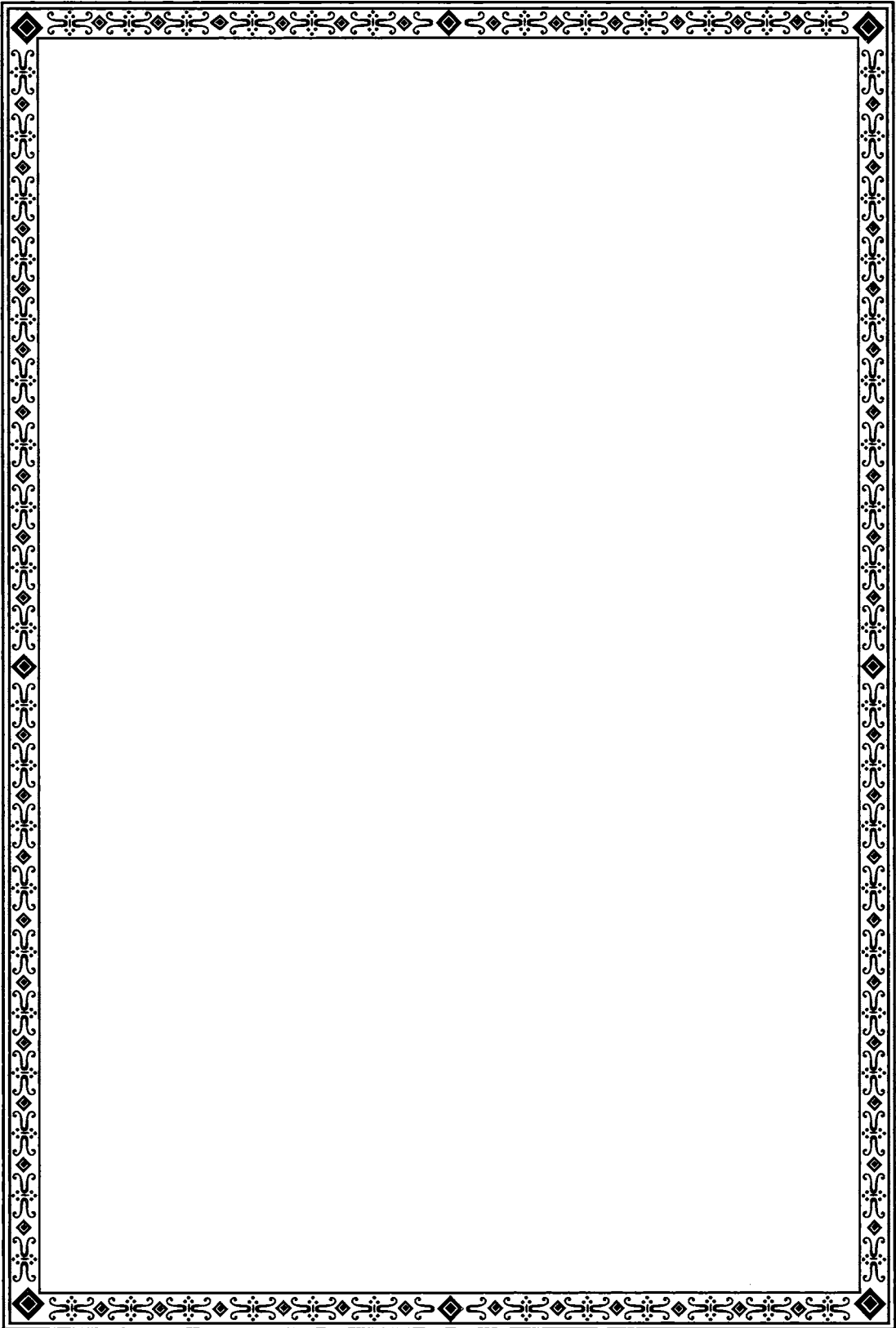
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ



المقدمة

أ - اسم السورة:

سميت السورة «سورة آل عمران»؛ لورود قصة آل عمران فيها بشيء من التفصيل لا يوجد في غيرها وتسمى: «الزهراء»، كما في حديث أبي أمامة: «اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما يجاجان عن صاحبهما يوم القيامة»^(١).

ب - مكان نزولها:

نزلت سورة آل عمران في المدينة، فهي مدنية بالإجماع.

ج - فضلها:

وردت عدة أحاديث وآثار في فضل سورة آل عمران منها ما يلي:

عن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة، وبأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرقي، أي: ضوء، أو كأنهما فرقان، - أي: قطعان - من طير صواف تحاجان عن صاحبهما»^(١).

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما»^(١).

د - موضوعاتها:

تناولت سورة آل عمران في مجمل قضاياها الجوانب التالية:
أولاً: إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وإقامة الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على ذلك، وإثبات أن الدين الحق الذي لا يقبل من أحد

(١) سبق تحريجه.

سواه هو دين الإسلام، الذي ارتضاه الله وبعث به محمدًا ﷺ.

ثانيًا: تفصيل الكلام في أحوال أهل الكتاب؛ لبيان حقيقتهم، وتحذير الأمة منهم ومن مسالكهم وشرورهم، وقد قال المفسرون: إن صدر هذه السورة إلى نحو نيف وثمانين نزل في مناظرة وفد نجران للنبي ﷺ في شأن عيسى - عليه السلام - وكان ﷺ يرد عليهم بالحجة والبرهان إلى أن آل أمرهم إلى دعوتهم للمباهلة.

وقد بينت السورة كفرهم وعدم إسلامهم، وذمتهم بقتلهم الأنبياء والأميرين بالقسط من الناس، واختلافهم، ونبذهم كتاب الله، ومجادلتهم بالباطل، وسوء أديهم مع الله، ونقضهم العهود والمواثيق، وكتمانهم الحق، ولبسهم الحق بالباطل، وكفرهم بآيات الله، واشتراءهم بها ثمنًا قليلًا.

ومن ثم توبيخهم وتوعدهم بالعذاب الأليم، وتحذير المؤمنين من طاعتهم، وحثهم على الصبر على أذاهم وشرورهم.

كما امتدحت السورة من آمن منهم وأثنت عليهم، وأنهم ليسوا سواء، فمنهم المؤمنون الذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل إليهم خاشعين لله قائمين بعبادته، كما قال تعالى: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الآية: ١١٠].

كما تحدثت السورة في بعض آياتها عن المشركين والمنافقين من غير إطالة.

ثالثًا: ذكر أحداث غزوة أحد، وتفصيل الكلام عنها، فكان نحو ستين آية من النصف الثاني من هذه السورة في أعقاب غزوة بدر من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآية: ١٢١]، بدءًا من تهته ﷺ لها، وخروجه إليها بأصحابه، وما حصل فيها من نصر، أعقبه الفشل والتنازع وانصرافهم عن عدوهم، ومن ثم عفو الله عنهم وتفضله عليهم، إلى غير ذلك وما يؤخذ من ذلك من العظات والعبر.

رابعًا: تربية الأمة وتوجيهها إلى ما فيها سعادتها في دينها ودنياها وأخرائها، والنصر على أعدائها، والفوز بالجنة والنجاة من النار: من الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإيمان، والاعتصام بحبل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقتال في سبيل الله والصبر والمصابرة والمرابطة، وغير ذلك.

والحذر من الفرقة والاختلاف، ومن طاعة الكفار من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، أو التشبه بهم ونحو ذلك.

وفيما يلي تفصيل لمجمل موضوعات السورة:

١- افتتح الله- عز وجل- سورة آل عمران بقوله: ﴿الْمَ﴾ كسورة البقرة. والافتتاح بهذا أو بغيره من الحروف المقطعة مشعر بالتحدي بالقرآن.

وكان أول موضوعاتها إثبات الإلهية لله تعالى وحده ونفيها عما سواه، وإثبات كمال حياته وقيوميته، والامتنان بإنزال القرآن على النبي ﷺ بالحق مصداقاً لما بين يديه، وإنزال التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وإنزال الفرقان، وتوعد الذين كفروا بآيات الله بالعذاب الشديد والانتقام.

٢- ثم أتبع ذلك ببيان سعة علمه- عز وجل- وإطلاعه وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، مبيناً من مظاهر علمه- عز وجل- تصويرهم في الأرحام كيف يشاء بعزته وقدرته وحكمته.

٣- تكرر امتنانه- عز وجل- بإنزال القرآن، والتنويه بشأنه وتعظيمه، وبيان أن منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، وبيان اتباع أهل الزيغ ما تشابه منه؛ لأجل الفتنة في الدين وتحريف القرآن، وبيان أن تأويله لا يعلمه إلا الله. وإيمان الراسخين في العلم به، وأنه كله من عند الله، ودعائهم بثبات قلوبهم وسؤالهم رحمة الله وإقرارهم بجمع الله- عز وجل- للناس يوم القيامة، وشهادتهم بصدق وعده عز وجل.

٤- وعيد الذين كفروا، وبيان أنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وأنهم وقود النار، وأن مسلكهم في الكفر والتكذيب كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم بعقابه الشديد، وتأكيد الوعيد والتهديد لكفار قومه ﷺ، بأنهم سيغلبون في الدنيا ويحشرون إلى جهنم في الآخرة، وتوجيههم لأخذ العبرة والعظة مما حصل لهم ولقرنائهم في الكفر من الهزيمة في بدر.

٥- بيان ما جبل الناس عليه من حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والأموال والحليل المسومة والأنعام والحرث، وبيان أن ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده

وأمره لهم بتقوى الله وطاعته، وعبادة الله تعالى.
 وقوله - عليه السلام - لما أحس منهم الكفر: من أنصاري إلى الله، وإجابة الحواريين
 له بقولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٥٢]،
 وتوجههم إلى ربهم بقولهم: ﴿رَبِّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ
 الشَّاهِدِينَ﴾ [الآية: ٥٣].

وحفظه - عز وجل - لعيسى من مكر الماكرين، وإخبار الله تعالى وبشارته له بأنه
 متوفيه ورافعه إليه، ومطهره من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوه فوق الذين
 كفروا إلى يوم القيامة، ومعذب الذين كفروا عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، وموفِّ
 الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجورهم.

وبيان الآية العظيمة في خلقه - عليه السلام - من أم بلا أب، وأن مثل عيسى عند الله
 في خلقه من أم بلا أب كمثل آدم خلقه من تراب، بلا أم ولا أب، وأن هذا هو الحق
 في شأن عيسى - عليه السلام - الذي لا مرية فيه.

وأمره ﷺ بمباهلة من حاجه في ذلك، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ
 وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
 الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴿الآيات: ٥٨-٦١﴾، وبيان أن هذا هو القصص الحق، ونفي إلهية غير
 الله - عز وجل - العزيز الحكيم، ووعيد من تولى، وبيان علمه بالمفسدين.

١٦ - أمره ﷺ بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينه وبينهم بالاجتماع على عبادة الله
 تعالى وحده دون شريك، وعدم اتخاذ أرباب من دونه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا
 بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٦٤].

١٧ - تقرير أهل الكتاب وتوبيخهم، وتسفيه عقولهم في محاجتهم في إبراهيم وقولهم:
 إنه كان يهودياً أو نصرانياً، علماً أن التوراة والإنجيل ما أنزلت إلا من بعده،
 ومحاجتهم فيما ليس لهم به علم وبيان أنه - عز وجل - يعلم وهم لا يعلمون،
 والرد عليهم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[الآية: ٦٧]، وبيان أن الذين هم أولى بإبراهيم هم الذين اتبعوه، وهذا النبي - يعني: محمداً ﷺ والذين آمنوا بالله ولي المؤمنين. ثم بين مودة طائفة من أهل الكتاب أن يضلوا المؤمنين، وهم إنما يضلون أنفسهم وما يشعرون، ووبخهم على الكفر بآيات الله وهم يشهدون، وعلى لبسهم الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمون، وبين مخادعتهم بقولهم: ﴿أَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [الآية: ٧٢]، وتعصبهم لما هم عليه من الباطل، وزعمهم أنه لن يؤتى أحد مثل ما أوتوا، وحسدتهم، والرد عليهم ببيان أن الهدى هدى الله، والفضل بيده يؤتية من يشاء ويختص برحمته من يشاء. ثم أتبع ذلك ببيان أن منهم الأمين الذي لو ائتمن على مال كثير أذاه، ومنهم من لو ائتمن على أقل القليل لم يؤده إلا حال قيام صاحب الحق عليه، وزعمهم أنه ليس عليهم في ظلم الأمين سبيل، أي: حرج، وقولهم الكذب على الله وهم يعلمون. وتفنيد زعمهم فضلهم على الناس، وبيان أن الفضل بالتقوى والله يجب المتقين، وذمهم باشترائهم بآيات الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وتوعدهم بأنه لا نصيب لهم في الآخرة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الآية: ٧٧].

ثم بين أن منهم فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ ليحسبه الناس من الكتاب المنزل عليهم وما هو من الكتاب، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٧٨].

ونفى أن يكون لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله، ولكن يدعوهم إلى عبادة ربهم، ونفى أن يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبين أرباباً، فيأمرهم بالكفر بعد إذ كانوا مسلمين.

١٨- التذكير بأخذه - عز وجل - الميثاق على النبيين بما آتاهم من كتاب وحكمة بالإيمان بمحمد ﷺ، المصدق لما معهم، ونصره، وإقرارهم على ذلك، وأخذ العهد عليهم، وشهادة الله تعالى عليهم بذلك، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم

الفاسقون، والإنكار والتقريع لمن ابتغى غير دين الله الإسلام الذي بعث به محمداً ﷺ. وأمر الله - عز وجل - له ﷺ أن يقول: آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على الرسل، وما أوتي النبيون من ربهم، وعدم التفريق بينهم، وبيان أن من يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

١٩- استبعاد هداية من كفروا بعد إيمانهم، وبعد شهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البيئات إليهم، وبيان أن الله لا يهدي القوم الظالمين، وتوعدهم بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود فيها وفي النار إلا من تاب منهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[الآيتان: ٨٨، ٨٩].

وبيان عدم قبول توبة من كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرًا، وتأکید أنهم هم الضالون، وتأکید عدم قبول الفدية مهما عظمت ممن كفروا وماتوا على الكفر، وتوعدهم بالعذاب الأليم، وما لهم من ناصرين.

٢٠- الترغيب في الإنفاق، وبيان أن البر لا ينال إلا بالإنفاق من المحبوب، وبيان علمه - عز وجل - بما ينفقون، ومجازاتهم على ذلك.

٢١- بيان أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وتحدي أهل الكتاب بالإتيان بالتوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين في دعواهم أن ما كان محرماً في التوراة كان محرماً قبل نزولها، وإنكارهم النسخ في الشرائع، والتحذير من افتراء الكذب على الله من بعد ذلك، وتأکید أنهم هم الظالمون.

وأمره - عز وجل - له ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ٩٥]، أي: صدق الله فيما أخبر به عن حل الطعام كله لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه قبل تنزيل التوراة، وصدق عز وجل في كل خبره وقوله وحديثه.

٢٢- بيان أن أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى للذي ببكة، أي: البيت الحرام، وتعظيمه، وبيان ما فيه من الآيات البيئات مقام إبراهيم، ووجوب تأمين من

دخله، وفرض الحج بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٩٧].

٢٣- ثم عادت السورة إلى تقرير أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وصددهم عن سبيل الله، وابتغائهم لها العوج، وهم شهداء، وتهديدهم بأن الله شهيد على عملهم، وليس بغافل عنه، وتحذير المؤمنين من طاعتهم فيردوهم بعد إيمانهم كافرين، وتأسيس أهل الكتاب من كفر المؤمنين، وهم تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله.

٢٤- ترغيب المؤمنين بالاعتصام بالله، وأمرهم بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام حتى المات، والاعتصام بحبل الله، ونهيهم عن التفرق، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم، فصاروا بنعمته إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها، وأمرهم بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وترغيبهم بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية: ١٠٤]، ونهيهم أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وتحذيرهم بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٠٥].

وتأكيد ذلك بالترغيب والترهيب بذكر اختلاف الوجوه يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضتْ وُجُوهُهُمْ ففي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نتلوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الآيات: ١٠٦-١٠٩].

والثناء على هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، وبيان أن أهل الكتاب لو آمنوا لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون.

٢٥- طمأنة المؤمنين بأن أهل الكتاب لن يضرهم إلا أذى، وأنهم إن يقاتلوهم يولوهم الأدبار، ثم لا ينصرون، وأن الذلة ضربت عليهم أينما وجدوا، وباؤوا

بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانهم واعتدائهم، وبيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء، وأن منهم: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُنْفِقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الآيات: ١١٣-١١٥].

٢٦- بيان أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وتأکید أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، وأن نفقاتهم في هذه الحياة الدنيا لا تنفعهم، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الآية: ١١٧].

٢٧- نهي المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم لا يألونهم خبالاً، يودون لهم المشقة، ويبغضونهم ولا يحبونهم، يُظهرون لهم الإيثار إذا لقوهم، مع ما يحملونه في قلوبهم إذا خلوا من الغيظ عليهم، إن أصاب المؤمنين حسنة ساءهم ذلك، وإن أصاب المؤمنين سيئة فرحوا بها، وبشارة المؤمنين أنهم إن صبروا واتفقوا فلن يضرهم كيد أولئك شيئاً؛ لأن الله بما يعملون محيط.

٢٨- تذكير النبي ﷺ بخروجه لغزوة أحد يبوأ المؤمنين مقاعد للقتال، وما حصل من همّ طائفتين منهم أن تفشلا، وتذكيرهم بما تم لهم من نصر في غزوة بدر مع قتلهم، وأمرهم بتقوى الله وشكره، وقوله ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، ووعدهم إن صبروا واتفقوا بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وبيان أن الوعد بالإمداد إنما هو بشرى لهم، وتطمئن قلوبهم به، وأن النصر إنما هو من عند الله العزيز الحكيم. وبيان أنه ﷺ ليس له من أمر هؤلاء الظالمين شيء فقد يتوب الله عليهم أو يعذبهم بظلمهم، فله عز وجل الأمر كله، وله وحده ما في السموات وما في الأرض، وله التصرف في ذلك كله، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء وهو الغفور الرحيم.

٢٩- تحذير المؤمنين من أكل الربا، وأمرهم بتقوى الله ليفلحوا، وتقوى النار التي أعدت للكافرين، وأمرهم بطاعة الله والرسول؛ لكي يرحموا، والمسايرة إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، والثناء عليهم بذكر صفاتهم، من: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم، وذكر الله تعالى والاستغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها، ثم وعدهم بتحقيق ما سارعوا إليه، وهو مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين.

وتوجيههم للسير في الأرض، والنظر في سنن الله تعالى في المكذبين، وكيف كانت عاقبتهم.

وإعلان أن القرآن بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، وتقوية قلوبهم، ونهيبهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين.

وبيان أن ما أصابهم من قرح يوم أحد قد أصاب عدوهم قرح مثله يوم بدر، والأيام دول؛ وليظهر في علم الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء، وليمحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين، وبيان أن دخول الجنة يقتضي الابتلاء؛ ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين.

٣٠- بيان أن الرسول سيمضي كما مضى من قبله الرسل، وتحذيرهم من الردة بعد موته أو قبله، وأن الآجال بيد الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبْنَا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [الآية: ١٤٥].

٣١- الترغيب في القتال في سبيل الله بالإخبار أن كثيرًا من الأنبياء ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِيَّتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآيات: ١٤٦-١٤٨].

٣٢- تحذير المؤمنين من أن يطيعوا الذين كفروا فيردوهم على أعقابهم فينقلبوا

خاسرين، وتكفله - عز وجل - بتوليهم ونصرهم، وهو خير الناصرين، ووعدهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، بسبب شركهم بالله، وتوعدهم بالنار، وبئس مثوى الظالمين.

٣٣- بيان وتأکید صدق وعده - عز وجل - لهم بالنصر، وهكذا حصل في أول المعركة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [الآية: ١٥٢]، ولما حصل منهم من الفشل والتنازع والعصيان من بعد ما أراهم الله ما يجبون من النصر، وأثر بعضهم الغنيمة، وخالفوا أمر الرسول ﷺ، وانقسموا إلى مرید للدنيا ومرید للآخرة صرفهم الله عن عدوهم؛ لبيتليهم، فصعد بعضهم الجبل، وفر بعضهم، لا يلوون على أحد، والرسول يدعوهم في أصرهم، فأثابهم غمًا بغم لكيلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم، وأنزل النعاس عليهم يغشى طائفة منهم وهم المؤمنون أمانًا لهم، وطائفة قد أهتمهم أنفسهم وهم المنافقون، يظنون بالله غير الحق ويعترضون على أمر الله وقضائه، ويرجعون.

ثم ذم الذين تولوا منهم يوم التقى الجمعان يوم أحد، وبين أنه إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، وذكر عفوه عنهم.

ثم نهى المؤمنين وحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا واعترضوا على قضاء الله وقدره في قتل من قتل من إخوانهم، ووعد من قتل في سبيل الله أو مات بمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، ويبين أنهم إن ماتوا أو قتلوا فيللى الله يحشرون.

٣٤- ذكر ما امتن الله به على نبيه ﷺ بما منحه من حسن الخلق واللين، وذلك رحمة منه - عز وجل - بالأمة، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [الآية: ١٥٩]، وأمره - عز وجل - له بالعتو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمر، فإذا عزم فليتوكل على الله، ويبين أنه - عز وجل - إن ينصرهم فلا غالب لهم، وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من دونه.

وأنه ما ﴿كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ١٦١]،

ويبين فرق ما بين من اتبع رضوان الله، ومن باء بسخط من الله، ومأواه جهنم

وبئس المصير، وبين أنهم ﴿دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٦٣].
 وذكر المؤمنين بمنة الله تعالى عليهم ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
 ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي
 ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ١٦٤].

٣٥- ثم عادت السورة فأكدت للمؤمنين أن ما أصابهم يوم أحد كان سببه من عند
 أنفسهم، وهو مخالفتهم أمر النبي ﷺ، وبيان أن ذلك بإذن الله الكوني القدرى؛
 ليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، الذين يتخاذلون عن القتال بأنفسهم،
 ويشبطون غيرهم.

ثم بينت السورة قبل ختام الكلام عن غزوة أحد فضل الشهداء وما أعد الله لهم
 من الثواب الجزيل، وأنهم ليسوا أمواتاً ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] ﴿فَرِحِينَ بِمَا
 ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
 هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٧٠] ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآيات: ١٦٩-١٧١].

ثم أثنى على المؤمنين الصادقين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم
 القرع، وذكرت ما أعد للذين اتقوا منهم وأحسنوا من الأجر العظيم؛ لحشيتهم الله
 تعالى دون سواه، وقوة إيمانهم، وتوكلهم عليه وحده؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ
 مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية: ١٧٤].
 أعقب ذلك بيان أن ما يحصل من خشية الناس إنما هو من تخويف الشيطان
 لأوليائه، ونهى المؤمنين عن خوفهم وأمرهم بخوفه - عز وجل - وحده.

٣٦- ثم توجه الخطاب في السورة إليه ﷺ تسلياً له وتقوية لقلبه، بنهيه أن يُحزنه الذين
 يسارعون في الكفر، وبيان أنهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي
 الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٦]، وتأکید ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا كَفَرُوا
 بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٧]، فتوعد الذين كفروا

ونبههم أن لا يغتروا بإمهال الله لهم فيظنوا أن ذلك خير لهم بل ﴿لِيَزِدَادُوا إِثْمًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الآية: ١٧٨].

٣٧- ثم جاء ختام الآيات في قصة أحد بالتأكيد على أمرين: الأول: ما سبق التنبيه عليه
في ثنايا القصة، وهو بيان حكمة الله تعالى البالغة فيما أصاب المسلمين في هذه
الغزوة ليميز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا
أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الآية: ١٧٩].

والأمر الثاني: الترغيب في الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل، فقال تعالى:
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَتَوْهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الآية: ١٨٠].

٣٨- ثم عاد الكلام في السورة إلى ذم أهل الكتاب وذكر قبائحهم، وتوعدهم
بالعذاب، وفضح أكاذيبهم، وقطع حججهم، بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ
وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الآيات: ١٨١، ١٨٢]، وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ
نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [الآية: ١٨٣].

وتسلية ﷺ على ما يلاقه منهم بقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ
جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [الآية: ١٨٤].

تلا ذلك بيان حقيقة أنه لا بد لكل نفس من مواجهتها، وأعظم منها ما بعدها
فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الآية: ١٨٥]،
وبيان أنه لا بد من ابتلائهم في أموالمهم وأنفسهم، ولا بد أن يسمعوا
من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً، وفي هذا والذي
قبله من بيان حقيقة الموت أعظم تسلية، ولهذا قال بعده: ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَحَقُّوا
فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ [الآية: ١٨٦].

ثم ذكّر عز وجل بأخذه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ببيانه للناس وعدم

كتمانه، وذمهم بنبذهم له وراء ظهورهم، واشترائهم به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون، وذم المنافقين الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بها لم يفعلوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم.

٣٩- ثم أتبع ذلك بتأكيد سعة ملكه، واختصاصه بملك السموات والأرض، وقدرته على كل شيء، وبيان أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، ثم أثنى عليهم وامتدحهم بذكر صفاتهم الحميدة، من ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم، والتفكر في خلق السموات والأرض، والتماس الحكمة في ذلك، وتعظيم الله تعالى والتوجه إليه في دعوات عظيمة ينبغي أن تكون على لسان كل مؤمن ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٣٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٣٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿الآيات: ١٩١-١٩٤﴾.

واستجابته - عز وجل - لهم وبشارته لهم بقوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿١٩٥﴾﴾، منوها بأعمالهم الصالحة من الهجرة في سبيل الله، وتحمل الإخراج من ديارهم، والأذى في سبيل الله، وقتالهم وقتلهم، ثم وعدهم بقوله: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنَّهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

ثم أشارت الآيات إلى فرق ما بين الفريقين فلا يُغتر بما عليه الكفار من النعم في الدنيا فهي ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ أَهْلَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿الآيات: ١٩٧، ١٩٨﴾.

ثم عادت السورة قبل ختامها احترازًا وإنصافًا؛ لتأكيد أن من أهل الكتاب لمن

يؤمن بالله وما أنزل إلى هذه الأمة، ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
 أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايِنَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الآية: ١٩٩].

٤٠- ثم جاء مسك ختام السورة بأمر المؤمنين بما يُحقق - بإذن الله - فلاحهم، فقال

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ٢٠٠].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾.

تقدم الكلام على البسملة في أول هذا التفسير، وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة وناسب - والله أعلم - افتتاحها بهذه الحروف أن آيات عدة منها نزلت في قضية مجادلة نصارى نجران حين قدموا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانية، وإظهار عظمة القرآن والتحدي به.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، وخبره جملة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، و﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿إِلَهَ﴾ اسمها، وخبرها محذوف تقديره: «حق»، أي: لا إله حق إلا هو.

و﴿اللَّهُ﴾: علم على الرب تبارك وتعالى خاص به، وهو أصل الأعلام، وأعرف المعارف، وأصل أسماء الله - عز وجل - وتأتي أسماء الله كلها تابعة له، ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، أي: لا إله حق إلا هو.

﴿الْحَيُّ﴾: خبر ثانٍ لقوله: ﴿اللَّهُ﴾، أي: الكامل الحياة من جميع الوجوه، فلا ينال حياته نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال أو فناء، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿الْقَيُّومُ﴾: خبر ثالث، أي: الكامل القيومية، القائم بنفسه، الغني عما سواه، القائم على غيره المقيم له: خلقًا وملكًا وتدبيرًا وحفظًا، وغير ذلك، فكل شيء محتاج ومفتقر إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وفي الحي كمال الصفات، وفي القيوم كمال الأفعال، وفيها جميعًا كمال الذات.

قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

[آل عمران: ٣].

قوله: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: الجملة في محل رفع خبر رابع للمبتدأ: (الله)، و«التنزيل» و«الإنزال» يكون من أعلى إلى أسفل، والتنزيل قد يدل على التدرج، أي: نزل عليك الكتاب مفرقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة؛ تعظيماً لهذا الكتاب، ورحمةً بهذه الأمة، وتيسيراً عليها، وتثبيتاً لقلب النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتِّ وَتَزَلَّزَلْتَهُ نَزِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ وهذا مما خص الله - عز وجل - به هذا الكتاب العظيم عند أكثر أهل العلم.

والخطاب في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتعظيم له ﷺ، وفي التعبير بـ(على) دون (إلى) في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾: زيادة في تشريفه ﷺ ورفع شأنه، وإعلاء مقامه. و﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن، و«ال» فيه للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم المعروف، والذي هو أعظم الكتب، وأفضل كتب الله على الإطلاق، وإذا أطلق الكتاب فالمراد به القرآن الكريم.

و﴿الْكِتَابَ﴾: «فعال» بمعنى مفعول أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْتُوبٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، أي: في اللوح المحفوظ على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]. وهو مكتوب بأيدي المؤمنين في المصاحف.

﴿بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة، أي: متلبساً بالحق، و«الحق»: الأمر الثابت، فالقرآن حق وصدق في نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].

وطريق وصوله وإسناده حق وصدق محفوظ عن التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١١٣].

[١٩٤-١٩٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهو مشتمل على الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من الكتاب، أي: حال كونه مصدقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما سبقه من كتب الله - عز وجل - وجعل السابق ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأنه يجيء قبله، فكانه يمشي أمامه.

ومعنى كونه مصدقًا لما سبقه من كتب الله تعالى، أي: مخبرًا بصدقها، وأنها حق من عند الله تعالى، وأيضًا: مصدقًا لها بكونه مصداق ما أخبرت به وبشرت به، فمجيبته تصديق لها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولًا يُأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].
وأيضًا: مصدقًا لها لاشتماله على ما دعت إليه من أصول الشرائع ومحاسن الأخلاق والآداب، والحاكم بصدق ذلك كله وصحته، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾: أي وأنزل عز وجل التوراة على نبيه موسى بن عمران عليه السلام، وهي المذكورة - والله أعلم - بصحف موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

وهي أعظم كتب الله تعالى وأفضلها بعد القرآن الكريم، وأشملها وأعمها وأهداها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَاتْرُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ

﴿صَدَقَاتٍ﴾ [القصص: ٤٩]. كتبها الله تعالى بيده، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث في حجاج آدم وموسى: «وكتب لك التوراة بيده»^(١).

أنزلها الله تعالى جملة واحدة بالوواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي تَشْخِطِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقد حصل فيها تحريف وكتبان لكثير منها، كما قال تعالى: ﴿تَجَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُدْمُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾: أي وأنزل عز وجل الإنجيل على نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام. وهو متمم لشريعة موسى عليه السلام وللتوراة.

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

قوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: أي من قبل وقت تنزيل هذا القرآن، والتصريح بهذا للمبالغة في البيان، وإشارة إلى أن إنزالهما متضمن الإرهاص لبعثته ﷺ، ونزول القرآن الكريم، وأنها لمقدمات لذلك، وقدم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ على ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ لثلاث يتوهم أن هدى التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن.

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾: مفعول لأجله، والعامل فيه «أنزل»، أو حال من التوراة والإنجيل، أي: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل؛ لأجل هداية الناس، أو حال كونها هدى للناس.

ويجوز أن يكون العامل فيه «نزل» و«أنزل» أي: نزل عليك الكتاب.. وأنزل

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (طه) (٤٧٣٦)، ومسلم في القدر (٢٦٥٢)، والترمذي في القدر (٢١٣٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٠)، وأحمد (٢/٢٦٨، ٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التوراة والإنجيل من قبل كل ذلك من أجل هداية الناس، وأن يكون حالاً من الكتب الثلاثة، أي: حال كون الكتاب والتوراة والإنجيل هدىً للناس.

والمراد بالهداية هنا: هداية الدلالة والبيان والعلم، أي: لأجل دلالة الناس، وبيان طريق الحق لهم من طريق الباطل، وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم. و«الناس» هم بنو آدم.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: «الفرقان» ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والخير والشر.

والتفريق بين خير الخيرين وشر الشرين، وبين أهل كل منهما، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنَجُّمِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهو ما أنزله الله تعالى من الوحي الذي فيه بيان الحق من الباطل في القرآن والتوراة والإنجيل وغيرها من كتبه - عز وجل - وفي هذا تعظيم لما جاء في هذه الكتب. ويحتمل أن المراد بـ﴿الْفُرْقَانَ﴾ القرآن الكريم خاصة؛ لأن «الفرقان» من أسماء القرآن، وفي هذا تعظيم للقرآن الكريم، وأنه أفضل كتب الله - عز وجل - وأعظمها هداية وتفريقاً بين الحق والباطل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بعدما امتن - عز وجل - على الناس بتنزيل القرآن وإنزال التوراة والإنجيل، وما في هذه الكتب العظيمة من الهداية، وبيان الفرق بين الحق والباطل، مما لا يبقى معه عذر أو حجة لأحد، أتبع ذلك بالوعيد للذين كفروا بآيات الله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

(الكفر) في اللغة: الستر والتغطية.

ومعنى ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: أي جحدوها وأنكروها وكذبوا بها من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم.

و«آيات»: جمع آية، وهي في اللغة: (العلامة). قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: علامة ملكه، وقال تعالى: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: العلامات والدلائل على أنه الحق. وآيات الله - عز وجل - قسمان:

آيات كونية، منها: الليل والنهار والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ
الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدٌ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وكل ما في الكون من المخلوقات
هو من آيات الله تعالى الكونية، كما قال الشاعر:

فواعجباً كيف يُعصى الإله ه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

وسميت المخلوقات آيات لدلالاتها على وجود الخالق وعظمته وكمال ربوبيته
وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لأن الخلق كلهم لو اجتمعوا لا
يستطيعون إيجاد شيء من هذه المخلوقات، كما قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿إِنَّكَ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

والقسم الثاني من آيات الله: آياته الشرعية، وهو الوحي الذي أنزله على رسله في
الكتب السماوية، وبخاصة آيات القرآن الكريم.

وسمى ما أوحاه الله - عز وجل - إلى رسله آيات لما فيه من الدلالة على صدقهم،
ولما فيه من هداية الناس وإصلاحهم، وصلاح أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، مما يدل
على أنه من عند الله تعالى العظيم المستحق للعبادة وحده دون سواه، العالم بالخلق وما
يصلحهم مما لا يستطيع الخلق كلهم لو اجتمعوا الإتيان عليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ
مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]، وقال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ
غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى عنه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

والفرق بين القسمين:

أن الآيات الكونية محسوسة مشاهدة؛ ولهذا عامة الناس يؤمنون بها ويقرون

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٠٤).

بتوحيد الربوبية حتى المشركون، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذا حال كثير من الناس أرباب حس ومشاهدة كالأنعام بل هم أضل، لا يؤمنون إلا بالمحسوس.

وما ضل من ضل من الخلق وكفر أو ابتدع في الدين إلا بسبب تحكيم الحس دون الشرع والعقل.

وأما الآيات الشرعية فهي معقولة لا يدركها إلا أصحاب العقول السليمة والنظرة المستقيمة، وكثير من الخلق لا يدركونها.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: قدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ لتخصيصهم بذلك وتأكيده، ونكر ﴿عَذَابٌ﴾ للتفخيم، و«العذاب»: العقاب أو العقوبة، و«الشديد»: القوي، أي: ولهم عقاب قوي، فيه أنواع الشدة والقوة من حيث نوعه وكيفه وكمه، عذاب حسي للأبدان، ومعنوي للقلوب، لا يقل عن العذاب الحسي بل هو أشد منه - من التقرير والتوبيخ والتبكيك والتهيب من الخروج من النار، وتحطيم المعنويات.

كما في قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا إِنْتِمْ وَنَذَرْتُمْ عَنْهَا وَإِن يُسْأَلْكُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِ عَلَيْهِمْ وَعْدَنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ لَمُكْثِرُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ حَسَنَّاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

أي: لَيُنْبَذَنَّ في النار التي تحطم كل شيء فيها، وتشرف على القلوب فتحطم المعنويات. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: ذو العزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، فيمتنع أن يناله

سوء أو نقص أو مكروه، وعزة القهر والغلبة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحٰنَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، ومن هذا قوله تعالى في سورة (ص): ﴿وَعَزَّزْنَا فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلبني. وعزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] (١).

﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام ممن كذب بآياته وعصاه وخالف رسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم: ٤٧].

والانتقام من الصفات الفعلية الاختيارية، وليس من صفات الله المطلقة، وليس من أسماؤه - عز وجل - «المنتقم»، وإنما يوصف سبحانه به مقيداً، فيقال: المنتقم من المجرمين، ومن الظالمين، ومن الكافرين، ونحو ذلك.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن الكريم، وتحدي العرب بذلك، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَمَّ﴾ [آل عمران: ١].
- ٢- إثبات ألوهية الله - عز وجل - وأنه وحده المنفرد بالألوهية، فلا معبود بحقٍ سواه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢].
- ٣- إثبات اسم الله - عز وجل - «الحي» وصفة الحياة التامة له، وأنه الكامل الحياة من جميع الوجوه، لا يتطرق لحياته نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال أو فناء.
- ٤- إثبات اسم الله - عز وجل - «القيوم» وصفة القيومية الكاملة له سبحانه وتعالى، وأنه - عز وجل - القائم بنفسه، الغني عما سواه، وكل شيء محتاج ومفتقر إليه؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

- ٥- في وصفه- عز وجل- بـ «الحي، والقيوم» كمال ذاته وصفاته وأفعاله، ففي «الحي» كمال صفاته، وفي «القيوم» كمال أفعاله، وفي اقترانها واجتماعهما كمال ذاته.
- ٦- إثبات علو الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿وَأَنْزَلَ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فهو- عز وجل- عالٍ على خلقه، بائن منهم، له العلو المطلق عليهم: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.
- ٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله وكلامه وصفة من صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.
- ٨- الامتنان على الرسول ﷺ وأمة بتنزيل القرآن عليه منجماً مفرقاً؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ رحمة بهذه الأمة.
- ٩- تشریف الرسول ﷺ وتكريمه بإنزال القرآن عليه، وخطابه- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وفي هذا تضعيف لقول من قال: إن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً بعد ذلك وأن للقرآن تنزلاًين. والصحيح أن جبريل عليه السلام ينزل به من عند الله- عز وجل- إلى النبي ﷺ مباشرة، ونزوله مرة واحدة.
- ١٠- تعظيم القرآن الكريم، وأنه أفضل كتب الله على الإطلاق، فإذا أطلق الكتاب فالمراد به القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾.
- ١١- أن القرآن الكريم نزله الله تعالى بالحق، فهو حق وصدق، وطريق وصوله حق، وأوحاه الله- عز وجل- إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل إلى نبينا محمد ﷺ، وهو مشتمل على الحق فيما جاء به ودعا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾.
- ١٢- تصديق القرآن الكريم للكتب السابقة، فهو مخبر بصدقها وأنها حق، وهو مصداق ما أخبرت به من بعثة محمد ﷺ ورسالته، ومصداق لها باشتماله على ما دعت إليه من أصول الشرائع ومحاسن الأخلاق والآداب، والحاكم بصدق ذلك كله وصحته؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- ١٣- أن التوراة والإنجيل منزلة من عند الله- عز وجل- جملة واحدة، نزلت التوراة، ثم الإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ من قبل.
- ١٤- أن المقصود من إنزال الكتب والنبوات هداية الناس ودلالتهم إلى طريق الحق، رحمة

من الله - عز وجل - بالعباد وعناية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.
١٥- إثبات الحكمة لله تعالى في أفعاله وأحكامه الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى:

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

١٦- امتنان الله على العباد بإنزال الكتب السماوية التي تشتمل على الفرقان، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والإيمان من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، وفي هذا أيضًا تعظيم لكتبه عز وجل وبخاصة القرآن الكريم أفضل كتب الله عز وجل.

١٧- أن «الفرقان» من أسماء القرآن الكريم وهذا على القول بأن المراد بقوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤] القرآن خاصة، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ

عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وفي هذا التخصيص للقرآن تعظيم له، وتأکید على فضله على سائر كتب الله - عز وجل - وتفريقه بين الحق والباطل.

١٨- الوعيد الأكيد للذين كفروا بآيات الله بعد بيانها بإنزال الكتب التي فيها الفرقان

بين الهدى والضلال، والإيمان والكفر بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، ويفهم من هذا أن الذين آمنوا بآيات الله لهم الثواب العظيم.

١٩- إثبات صفة العزة لله - عز وجل - عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛

لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

٢٠- التحذير من انتقام الله - عز وجل - ممن عصاه وخالف أمره؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو

أَنْتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام ممن عصاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٥).

قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴾: ﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد ونصب، واسمها لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾، وخبرها جملة النفي: ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴾، وهي جملة منفية تدل على ثبوت ضدها وهو ظهور كل شيء له سبحانه وتعالى، وكمال علمه وإحاطته؛ لأن الخفاء يقابله ويضاده الظهور.

﴿ شَيْءٌ ﴾: نكرة في سياق النفي، فيعم كل شيء أياً كان، صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً.
﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾: متعلق بـ ﴿ يَخْفَى ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا يخفى عليه شيء في السماء.

والمراد جنس الأرض وجنس السماء، أي: لا يخفى عليه شيء في الكون كله، ومن ذلك إيمان من آمن، وكفر من كفر، وغير ذلك؛ لكمال علم الله - عز وجل - الدال على كمال حياته.

وفي هذا وعد لمن آمن بآيات الله، ووعد لمن كفر بها، وترغيب في الثواب، وترهيب من العقاب.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦).

هذا من الأدلة على كمال ربوبيته وقيوميته - عز وجل - وتقرير علمه.

قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ﴾: ﴿ هُوَ ﴾ يعود إلى «الله» أي: الله الذي

﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يجعلكم على صور معينة في أرحام أمهاتكم.

﴿فِي الْأَرْحَامِ﴾: حال من ضمير الخطاب «الكاف»، أي: يصوركم حال كونكم في الأرحام.

و﴿الْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو موضع تكون الجنين في بطن أمه، وهو القرار المكين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢].

﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾: حال من فاعل ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يصوركم في أرحام أمهاتكم، ويخلقكم على أي كيفية أراد كونًا، نطفًا، ثم علقًا، ثم مُضغًا، ثم تنفخ فيه الروح. هذا شقي وهذا سعيد، هذا ذكر وهذه أنثى، هذا طويل وهذا قصير، هذا أبيض وهذا أسود، هذا جميل وهذا قبيح، هذا مكتمل الخلقة وهذا ناقص الخلقة. هذا يشبه أباه وهذا يشبه أمه، وهذا يشبهها وهذا لا يشبه واحدًا منها، وهذا يشبه جده أو جدته، وهذا يشبه عمه أو خاله، ونحو ذلك، وهذا لا يشبه أحدًا من أقاربه، وهذا يشبه بعض الأبعدين، وهذا لا يشبه أحدًا.

ولا تنافي بين كونه تعالى يُصوِّر الجنين كيف يشاء، وبين كونه يشبه أباه أو أمه أو نحو ذلك؛ لأن الله - عز وجل - قد جعل لكل شيء سببًا، وربط المسببات بأسبابها؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود - كأنه يُعرِّض بزوجه^(١) - قال النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟»، قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر، قال: «فهل فيها من أورك؟» قال: نعم، قال: «أنى لها ذلك؟»، قال: لعله نزعه عرق، فقال ﷺ: «فلذلك ابنك لعله نزعه عرق»^(٢).

(١) أي: بأنها زانية، وأن الولد ليس منه؛ ولهذا قال رؤبة بن العجاج:

بأبه اقتدى عدي في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

أي: ومن يشابه أباه فما ظلم أمه؛ حيث أراحها من السنة المتقولين على المحصنات بالباطل. انظر: «ديوان رؤبة» (ص ١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق - إذا عرض بنفي الولد (٥٣٠٥)، ومسلم في اللعان (١٥٠٠)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٦)، والنسائي في الطلاق (٣٤٧٨)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٨)، وابن ماجه في

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو، وقد كرر هذا؛ لتوكيد تفرده - عز وجل - بالألوهية، والمبالغة في الرد على النصارى الذين ادَّعوا إلهية عيسى عليه السلام، وعلى غيرهم من المشركين. وقد قرن فيما سبق بتقرير ألوهيته وكمال حياته وقيومته وإنزاله الكتب السماوية.

وقرن هنا بذكر تصويره الخلق في الأرحام كيف يشاء وخلقهم، وكمال عزته، وكمال حكمه وحكمته، وهذا وذاك مما يوجب إفراده بالعبادة دون سواه.

﴿الْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله - عز وجل - على وزن «فعليل» يدل على أنه سبحانه ذو العزة التامة.

﴿الْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماء الله - عز وجل - على وزن «فعليل» يدل على أنه الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزئي، وعلى أنه المحكم المتقن ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قال ابن كثير: «وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم وخلقها كما يشاء، فكيف يكون إلهًا - كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ نَّكَاتٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة نعمته على العباد بتصويرهم في الأرحام وخلقهم، ثم أتبع ذلك بما هو أعظم، وهو نعمته عليهم بإنزال الكتاب على محمد ﷺ لهدايتهم.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾،

وتمهيد لقوله: ﴿مِنهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾ الآية.

وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قصر صفة إنزال القرآن على الله تعالى، وإبطال لزعم المشركين أنه إنما يعلمه بشر، أو أساطير الأولين.

﴿مِنهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾: أي من هذا الكتاب آيات، و﴿ءَايَاتٌ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، وفي الشرع: القطعة من كلام الله تعالى ذات بداية ونهاية معلومة.

﴿تُحْكِمُكَ﴾: الإحكام: الإتقان، أي: منه آيات متقنات معلومات واضحات المعنى والدلالة، لا اشتباه فيهن ولا التباس، وجُل القرآن على هذا، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُ أَهْكِمْتُ ءَايَاتِهِ، ثُمَّ قُضِلَتْ مِن لَّدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: الجملة في محل نصب حال من ﴿ءَايَاتٍ﴾، أو في محل رفع صفة لـ ﴿ءَايَاتٍ﴾، والضمير ﴿هُنَّ﴾ يعود إلى قوله: ﴿ءَايَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾.

وأم الشيء أصله ومعظمه ومرجعه، أي: هن أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه. قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء، وهو مرجع وأصل كل الكتب. ومنه سُميت الفاتحة «أم الكتاب»؛ لأنها أصل القرآن الكريم وابتدأؤه، ومشملة على جميع معانيه^(١).

ومنه سُميت خريطة الرأس الجامعة له «أم الرأس» وهي الدماغ، وسُميت الرؤية «الأم»؛ لأن الجيش ينضوي إليها، كما قال ذو الرمة^(٢):

على رأسه أم لنا نقتدي بها
جماع أمور لا نعاصي لها أمراً
قال الطبري^(٣): «يعني بذلك أنهم أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق الحاجة إليه من أمر دينهم، وما كُلفوا من الفرائض والحدود

(١) انظر الكلام على أسماء الفاتحة «أم الكتاب».

(٢) انظر: «ديوانه» (٣/ ١٤٥٥-١٤٤٦).

(٣) في «جامع البيان» (١٨٩/٥).

وسائر ما يحتاجون إليه في عاجلهم وأجلهم».

﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ﴾: أي وآيات أخر متشابهات، و«أخر» ممنوع من الصرف؛ لأنه وصف معدول عن الآخر.

ومعنى ﴿مُتَشَبِهَةٌ﴾ أي: فيهن اشتباه من حيث عدم وضوح المعنى والدلالة، أو لكونهن مما استأثر الله تعالى بعلمه، كحقائق صفات الله وكيفياتها؛ فهذه لا يعلمها إلا الله، وما يتعلق بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقيام الساعة، فهذا مما لا يعلمه إلا الله، وعدَّ بعض أهل العلم من هذا الحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به»^(١).

فأما قوله تعالى في سورة (الزمر): ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِيَ نَقَشِعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فليس المراد بقوله: ﴿مُتَشَبِهًا﴾ التشابه الذي هو هذا الإحكام، وإنما المراد أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والحسن والبلاغة، وما فيه من الهدى والبيان والمواظ والحكم والأحكام والدعوة إلى الخير، والتحذير من الشر والوعد والوعيد... ونحو ذلك.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: الفاء: استثنائية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، أي: فأما الناس الذين في قلوبهم زيغ، و«القلوب» جمع قلب، وهو محل الإدراك وهو العقل، و«الزيغ»: الميل والانحراف عن القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧]، أي: ما مال البصر وما انحراف عن المقصود، ويُقال: «زَاغَتِ الشَّمْسُ» أي: مالت وزالت عن كبد السماء.

والمعنى: فأما الناس الذين في قلوبهم ميل عن الحق وقصد للباطل، كما هو حال

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/١٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/٥٩٢-٥٩٣).

كثير من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم من أهل البدع والأهواء من الرافضة المجوسية والخوارج والقدرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ « ما »: موصولة، أي: فيتبعون الذي تشابه منه، ويأخذون به، ويحملون المحكم على المتشابه، ويضربون الآيات بعضها ببعض.

وقد كنت أكتب في تفسير هذه الآية جوار بيت الله الحرام يوم الثلاثاء ١١/٨/١٤٣٢هـ، فخرجت لصلاة الظهر في الحرم، وبعد صلاة الظهر جلس بجواري أحد الإخوة، فسألته: من أين أنت؟ فقال: أنا إيراني شيعي، وأخذ يُثني على الشيعة، فقلت له: الشيعة فيهم أناس طيبون، وفيهم غلاة يزعمون أن القرآن مُحَرَّفٌ، وأن الأئمة يدبرون الكون مع الله، ويكفِّرون كثيرًا من الصحابة كأبي بكر، وعمر، وعثمان - رضي الله عنهم - فقام وأحضر مصحفًا، وفتح على قول الله تعالى في سورة (الرعد): ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وأشار بأصبعه إلى قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾، وقال: «كل المفسرين من أهل السنة يقولون: المراد بهذا علي بن أبي طالب، قلت: ليس هذا بصحيح، فلا أحد من أهل السنة يقول بهذا، وإنما يقولون: الضمير يعود إلى الله تعالى، أي: قل كفى بالله شهيدًا على رسالتي، وهو الذي عنده علم الكتاب، أي: علم اللوح المحفوظ.

وقال بعض المفسرين: المراد بالضمير في قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾: عبد الله بن سلام، والمراد بالكتاب: التوراة؛ فهو شهيد بصدق النبي ﷺ بشهادة التوراة بذلك، فأخذ يقلب في المصحف فأخرج الآية في سورة التوبة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠]، فقال: «من صاحبه؟» قلت: أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: «كيف يحزن؟!»، كأنه يريد أن ينتقص من أبي بكر - رضي الله عنه - قلت له: الحزن ليس عيبًا، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي تِلْكَ فِي ضَلِيلٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فخرج من الموضوع وقال: «كيف تسلمون في المدينة على أبي بكر وعمر وتمنعوننا أن نسلم على بعض الصحابة في البقيع؟»، فقلت له: لأنكم نجس

تتبولون على قبور بعض الصحابة كما فعل بعضكم عند قبر عثمان- رضي الله عنه- فقام وانصرف منهزمًا، فقلت: يا سبحان الله!، صدق الله العظيم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

قوله: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: مفعول لأجله، أي: لأجل الفتنة ولأجل تأويله، أي: طلب الفتنة وطلب تأويله، فاتبعوا ما تشابه منه لأجل هذين الغرضين الفاسدين.

والضمير في ﴿تَأْوِيلِهِ﴾ يعود إلى المتشابه، والفتنة: الصد عن دين الله والشرك، أي: طلب فتنة الناس وصدهم عن دينهم، وإيقاعهم في الكفر والشرك والشك والإلحاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣، الأنفال: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠].

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: أي وطلب تأويله التأويل المذموم، وتحريفه تبعًا لأهوائهم المنحرفة، وإيهام أتباعهم أنهم يحتجون بالقرآن نظرًا لتشابهه، بخلاف المحكم فلا يتبعونه لأنه دامغ لهم، وحجة عليهم لوضوحه وعدم احتماله للتأويل.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرَهُمْ»^(١).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾: الواو: حالية، و«ما»: نافية، والضمير في ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ يعود إلى ما تشابه من القرآن، والحال أنه لا يعلم تأويل المتشابه من القرآن، ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾: أداة حصر، أي: وما يعلم تأويله إلا الله وحده، أي: لا يعلم حقيقته وما يؤول إليه إلا الله وحده.

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٥٤٧)، ومسلم في «العلم» (٢٦٦٥)، وأبو داود في «السنن» (٤٥٩٨)،

والترمذي في «التفسير» (٢٩٩٤).

والتأويل يأتي بمعنى التفسير، والتعبير، وبيان الشيء، كما قال أحد صاحبي السجن ليوسف عليه السلام: ﴿ نَدِينَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ [يوسف: ٣٦]، أي: بتفسير وتعبير الرؤيا التي رأى كل منهما.
ومنه قوله ﷺ في دعائه لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١) أي: تأويل القرآن وتفسيره.

ويأتي التأويل بمعنى العاقبة والغاية التي يؤول إليها الشيء، والتي لا يعلمها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ سُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فالمراد بـ ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ في الموضعين: عاقبته وما يؤول إليه، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ ﴾ [يونس: ٣٩] عاقبته وما يؤول إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَابِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِ يَوْمَ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٩، النساء: ٥٩] أي: أحسن مآلاً وعاقبة.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ الواو: استتفاية، والوقف عند أكثر السلف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، أي: لا يعلم عاقبته وما يؤول إليه إلا الله.

﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، والراسخون: جمع راسخ، والراسخ بمعنى الثبات والتمكن، فالراسخون في العلم هم الثابتون فيه، المتمكنون منه، العارفون بدقائقه.

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾: الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى قوله: ﴿مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أي: إلى المتشابه، أي: صدقنا به وإن لم نعلم تأويله، ورددنا علم هذا المتشابه إلى المحكم.
ويحتمل عود الضمير إلى ﴿الْكِتَابِ﴾، والأول أظهر؛ لقولهم بعده: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾

(١) أخرجه أحمد (١/٢٦٦)، وإسناده صحيح.

أي: كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فالمحكم صدقنا به وعلمناه والمتشابه صدقنا به ورددناه إلى المحكم ووكنا علمه إلى الله، وكل ذلك حق وصدق، لا تناقض فيه ولا اختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبعض السلف يصلون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، بقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، فتكون الواو عاطفة، وقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، وفي هذا تشریف لهم، كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويله، أي: تفسيره، كما قال ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما -: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، ولهذا رُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «أنا ممن يعلم تأويله»^(١)، وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ على هذا القول في محل نصب على الحال.

ولا تعارض بين القولين، فإن حُجِّلَ معنى «التأويل» في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ على التفسير كان الوصل أولى، وإن حُجِّلَ معنى «التأويل» على عاقبة الشيء وغاياته وما يؤول إليه، ونحو ذلك فالوقف أولى.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «التفسير على أربعة أنحاء؛ فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل»^(٢).

ومراده بالذي (لا يعلمه إلا الله): هو ما يتعلق بالأمور الغيبية وحقائق الأشياء ومآلاتها.

وعلى هذا فتأويل القرآن كله بمعنى تفسيره مما يعلمه الراسخون في العلم؛ لأنهم إذا كانوا يعلمون تفسير المتشابه فعلمهم بتفسير المحكم أولى.

وقد فسر السلف - رضي الله عنهم - من الصحابة والتابعين وتابعيهم القرآن كله

(١) انظر: «روح المعاني» (٢/ ٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٧٠)، وفي إسناده انقطاع، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٨).

وفهموا معانيه.

قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية، وأسأله عن تفسيرها»^(١).

قال ابن تيمية: «وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنى، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها، حتى لا تشبهه بغيرها. وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا، فتكون محتملة للمعنيين، ولم يقل في المتشابه: «لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله» وإنما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضوع، فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو، والوقف هنا على ما دلت عليه أدلة كثيرة، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة. ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره، بل قال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ولم يستثن شيئاً منه نُهي عن تدبره، والله ورسوله إنما ذمّا من اتبع المتشابهة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابهة كما أمر الله، وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله، بل أمر بذلك ومدح عليه»^(٢).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ «الواو»: استئنافية، و«ما»: نافية، و﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصلها «يتذكر» قُلبت التاء ذالاً وأُدغمت في الذال الأخرى، والمعنى: وما يتعظ بالقرآن وما فيه من الهدى والمواعظ والبيان، ويفهم ويعقل ويتدبر ذلك وينتفع به ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩، الزمر: ٩]، و﴿أُولُو﴾ بمعنى أصحاب، و﴿الْأَلْبَابِ﴾: جمع «ألب» وهو العقل؛ لأنه مجمع الخير والشر عند الإنسان، والمعنى: وما يتعظ بالقرآن وينتفع بما فيه من الهدى والبيان إلا أصحاب العقول السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى الحق والخير، وتمنعهم من الباطل

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٧٥).

والشر، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥]، أي: الذي له لب وعقل يهديه عقله إلى الخير ويحجّره ويمنعه من الشر، وليس المراد بالألباب العقول التي بها مجرد الإدراك ضد الجنون، فهذه لا يمتدح بها، بل لا يكلف الإنسان إلا بوجود هذا العقل. وإنما المراد بالألباب العقول التي بها حسن التصرف وفعل الخير وترك الشر، والتي هي مناط المدح أو الذم.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ ﴾^(٨)
 رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ أَلْمِيعَادَ ﴿٩﴾^(٩).
 هذا الدعاء - والله أعلم - من تنمة كلام الراسخين في العلم.

قوله: ﴿ رَبَّنَا ﴾: أي يا ربنا، وحذفت ياء النداء للتخفيف، والتبرك والتمين بالبداة باسم الله عز وجل.

﴿ لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا ﴾: ﴿ لَا ﴾ في الأصل للنهي، وهي هنا للدعاء؛ لأن النهي والطلب إذا جاء من أدنى إلى أعلى كان معناه الدعاء.

وإزاغة القلوب إمالتها عن الهدى والحق، أي: يا ربنا لا تمل قلوبنا عن الهدى والحق، وثبتنا على الصراط المستقيم.

وإنما خصّوا القلوب؛ لأن عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١).

وكان ﷺ كثيرًا ما يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقبلها كيف يشاء»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة أخذ الحلال وترك الحرام

(١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠) وقال: «حديث حسن» وقد رُوِيَ نحوه عن عائشة رضي الله عنها.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قلب ابن آدم على أصبعين من أصابع الجبار - عز وجل - إذا شاء أن يقلبه قلبه»، فكان يُكثر أن يقول: «يا مصرف القلوب»^(١).

وذلك لأنها محل العقل، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالعقل يكون بالقلوب، والقلوب في الصدور - كما ذكر الله - عز وجل - ولا ينافي هذا ارتباط العقل بين القلب والمخ - كما ذكر أهل العلم.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: أي بعد إذ مننت علينا بداللتنا وتوفيقنا إلى الحق، وذلك أعظم منة، وأفضل نعمة، كما في قول المؤمنين: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، فهم يتوسلون إلى الله - عز وجل - بنعمته السابقة، وهي هدايته لهم، كما في قوله ﷺ وأصحابه يوم الخندق:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا^(٢)

﴿وَهَبْنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطنا، والهبة: العطية بلا عوض ولا منة.
﴿مِن لَّدُنْكَ﴾ أي: من عندك؛ لأنك ذو المن والعطاء الجزيل، والفضل العظيم، أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، ولثلا يكون لأحد سواك منة علينا.
ولهذا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً

(١) أخرجه أحمد (١٧٣/٢).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٣)، من حديث البراء رضي الله عنه.

كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

وعلم ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً حتى كان يسقط سوط أحدهم وهو على الدابة فينزل فيأخذه، ولا يسأل أحداً يناوله إياه^(٢).

﴿رَحْمَةً﴾: رحمة الله - عز وجل - تنقسم إلى قسمين: رحمة ذاتية ثابتة له - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ومعنى ﴿وَهَبْنَا لِمَنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطنا من عندك رحمة من رحمتك الواسعة تثبتنا بها على الهداية، وتزيدنا هدى وإيماناً، وتُدخلنا بها الجنة، فكل ذلك من آثار رحمة الله تعالى، ولهذا سُمي الله الجنة رحمة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَتْ وُجُوهُهُمْ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، وقال - عز وجل - في الحديث القدسي: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشياء»^(٣).

كما سُمي عز وجل إنزال الغيث رحمة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

فسألوا الله تعالى زوال المرهوب بالتثبيت على الهداية، والسلامة من الميل عن الحق، وحصول المطلوب بالرحمة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ﴾: الجملة استثنائية للتعليل والتوسل، وقد أُكِّدت هذه الجملة

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٧)، من حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير باب: (وتقول: هل من مزيد) (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بـ«إِنَّ» وبكونها اسمية، وبضمير الفصل ﴿أَنْتَ﴾ الذي يفيد القصر.
 و﴿أَوْهَابٌ﴾ اسم من أسماء الله - عز وجل - على وزن «فَعَالٌ» يدل على سعة
 عطائه - عز وجل - وفضله وإنعامه.
 أي: إنما طلبنا منك هبة الرحمة لأنك أنت وحدك الوهاب ذو العطاء الجزيل،
 والفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤،
 النحل: ١٨].

وفي الحديث: «يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق
 منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغيض ما في يده»^(١).
 قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ
 أَلَمِيعَادٌ﴾ ①.

هذا من تنمة مقالة الراسخين يدل على قوة إيمانهم، وتمام يقينهم بالبعث والجزاء،
 وأنهم أحوج ما يكونوا إلى رحمة الله في هذا، كما قال إبراهيم عليه السلام في دعائه:
 ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].
 قوله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ أي: يا ربنا إنك جامع الناس.
 ﴿لِيَوْمٍ﴾ أي: ليوم القيامة، واللام فيه للتوقيت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ
 وَالْآخِرِينَ ① لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ
 النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿لَا﴾: نافية للجنس، و﴿رَيْبٌ﴾: اسمها منصوب، و﴿فِيهِ﴾:
 جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرها، أي: لا ريب حاصل فيه، أو نحو ذلك.
 والمعنى: لا شك فيه، أي: لا ينبغي أن يرتاب ويشك فيه.
 ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ أَلَمِيعَادٌ﴾ [آل عمران: ٩]: تعليل وتأکید لما قبله، أي: لجمعه -

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣)،
 والترمذي في التفسير (٣٠٤٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عز وجل - الناس ليوم لا ريب فيه، أي: لأن الله لا يخلف الميعاد.
وهذا - والله أعلم - من تنمة كلام الراسخين، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة
لتنبيه المخاطب، ولتعظيم الله؛ لأن مجيء الكلام بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم كأنه
سبحانه يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب تعظيماً وتفخيماً.
ويُحتمل أن يكون هذا مستأنفاً، وهو من كلام الله تعالى؛ لأن الأصل عدم
الالتفات؛ لأنه خروج بالكلام عن المؤلف.

والمعنى: إن الله لا يخلف ما وعد به من مجيء هذا اليوم العظيم، وما وعد به من
حساب الخلائق ومجازاتهم فيه بأعمالهم، وغير ذلك.
وهذا من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو وفاؤه - عز وجل - بوعده،
كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال تعالى:
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا
يُخْلَفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

وذلك لأن إخلاف الميعاد إنما يكون بسبب كذب الواحد أو عجزه عن الوفاء
بوعده، والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد لكمال صدقه، فهو أصدق القائلين، ولكمال
قدرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]،
وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

الفوائد والأحكام:

١ - سعة علم الله - عز وجل - وإطلاعه التام على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى
عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وهذا من الصفات المنفية التي تدل على كمال ضدها وهو سعة علمه - عز وجل -
وإطلاعه على كل شيء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً، وفي هذا دلالة على
كمال حياته عز وجل.

٢ - الوعد لمن آمن بالله، والوعيد لمن كفر به؛ لأنه سبحانه مُطَّلَعٌ على كل شيء، ومن
ذلك أعمال العباد وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

- ٣- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم بأعمال العباد حتى تقع منهم تعالى الله عن ذلك.
- ٤- قدرة الله تعالى التامة حيث يصور بني آدم في الأرحام كيف يشاء، وينقلهم فيها من حال إلى حال؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وفي هذا دلالة على كمال قيوميته - عز وجل - وكمال علمه، وكمال ربوبيته.
- ٥- عناية الله - عز وجل - ببني آدم حيث يصورهم في بطون أمهاتهم منتقلين فيها من حال إلى حال، ورحمته لهم، ومنتته عليهم حيث صورهم وأحسن صورهم، كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].
- ولكونه - عز وجل - خلق الإنسان على أحسن صورة؛ نهى الشرع عن التجميل الذي يكون فيه تغيير خلق الله تعالى فقال ﷺ: «لعن الله الواشحات والمستوشحات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، والمغيرات خلق الله»^(١).
- أما ما كان من إزالة العيب في أصل الخلق فلا بأس به، فقد أذن النبي ﷺ للرجل الذي قُطِعَ أنفه أن يتخذ أنفًا من ورق، فأتتن، فأذن له أن يتخذ أنفًا من ذهب^(٢).
- ٦- في اختلاف صور بني آدم نعمة أخرى في طي نعمة تصويرهم وخلقهم، وهي اختلاف صورهم وأشكالهم وألوانهم ليتعارفوا ويتمايزوا، كما أن في ذلك ابتلاء لهم ليعلم الله من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع.
- ٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء الله تعالى وأراده كونًا لا بد

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٥)، وأبو داود في الترجل (٤١٦٩)، والنسائي في الزينة (٥٠٩٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الخاتم (٤٢٣٢)، والنسائي في الزينة (٥١٦١)، والترمذي في اللباس (١٧٧٠)، من حديث عرفة بن أسعد رضي الله عنه.

كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

٨- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٩- إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- أن كل ما يُعبد من دون الله فهو باطل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا إله حق إلا هو.

١١- إثبات اسم الله «العزیز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة التامة لله تعالى؛ عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام والحكمة البالغة لله - عز وجل - الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

١٣- في اقتران «العزیز» و«الحكيم» واجتماعهما في حقه - عز وجل - زيادة كماله إلى كمال. والله المثل الأعلى، فمع أن المخلوق قد يوصف بالعزة والحكمة المحدودة، لكن قل أن تجتمع في شخص هاتان الصفتان، فإن وُجِدَ عنده عِزَّةٌ صاحبها الطيش والخفة والسفه وعدم الحكمة، فصار ضرر هذه العزة أكبر من نفعها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وإن وُجِدَ عنده حكمة صاحبها الضعف وعدم القدرة، فلم تنفعه حكمته؛ لأن الناس لا يحترمون إلا الأقوياء، ولا مكان للضعفاء عندهم، وكما قال زهير^(١):

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وظلم الناس لا يجوز، لكن لا بد من قوة تردع المعتدي، وتمنع من الاعتداء
والظلم، كما قال الآخر:

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٣٥).

- فلا منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل^(١)
وقد أحسن النابغة الجعدي في قوله^(٢):
- ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكسدا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلِيم إذا ما أورد الأمر أصدرًا
- ١٤- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على رسوله محمد ﷺ، وأنه مُنزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقول الراسخين في العلم: ﴿كُلُّ مَنِّ عِنْدَ رَبِّنَا﴾، وفي هذا الرد على من زعموا أن النبي ﷺ اختلقه وافتراه من عند نفسه، وعلى من زعموا أن القرآن مخلوق.
- ١٥- إثبات علو الله - عز وجل - على خلقه، فله - عز وجل - العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.
- ١٦- تشریف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له، وإنزال الكتاب عليه، وإثبات رسالته ﷺ.
- ١٧- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: الكتاب الذي هو أعظم الكتب وأفضلها، ويكفيه عظمة أنه مُنزل من الله تعالى وكلامه.
- ١٨- أن القرآن الكريم منه ما هو محكم واضح المعنى والدلالة، وهو أصل الكتاب ومرجعه وجله، ومنه ما هو متشابه غير واضح المعنى والدلالة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.
- ١٩- وجوب إرجاع المتشابه من القرآن إلى المحكم منه؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: هي أصله ومرجعه الذي ينبغي أن يُرجع إليه عند الاشتباه، ولهذا قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِ - كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.
- ٢٠- ابتلاء العباد يجعل القرآن الكريم منه محكم ومتشابه؛ لتمييز أهل الزيغ من أهل

(١) البيت لطرماح. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١/٧٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٦٩).

العلم والإيمان، فمن ردَّ ما اشتبه منه إلى ما وضح منه، وحكم بمحكمه على متشابهه اهتدى، ومن عكس ضل.

٢١- اتباع الذين في قلوبهم زيغ ما تشابه من القرآن؛ لفتنة الناس وصددهم عن دينهم وإيقاعهم في الشك والكفر، ولتأويل هذا المتشابه تأويلاً مذمومًا، وتحريفه ليوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

٢٢- أن مدار فساد الأعمال وصلاحها على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾.

ومفهوم هذا: أن من كانت قلوبهم سليمة لا يتبعون ما تشابه منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾، وقول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

٢٣- التحذير من زيغ القلب وميله عن الحق، ووجوب علاجه والعمل على إصلاحه؛ لأن الله ذم أهل الزيغ وفضحهم، وبيّن سوء قصدهم وسوء عملهم.

٢٤- أن حقيقة الفتنة هي الفتنة في الدين بالشرك، والصد عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾.

٢٥- أن تأويل المتشابه بمعنى معرفة عاقبته وما يؤول إليه لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، على قراءة الوقف على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.

٢٦- أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه ومعناه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على قراءة الوصل.

٢٧- فضل الرسوخ في العلم والتأصيل والثبات فيه، والثناء على أهله؛ لأنه سبب لعلم تأويل القرآن وتفسيره والإيمان به، ورد المتشابه منه إلى المحكم، والخوف من زيغ القلوب، وسؤال الله الثبات على الهدى والرحمة، والإقرار بالبعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ

لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١﴾.

٢٨- أن القرآن كله من عند الله - عز وجل - يجب الإيثار به، محكمه ومتشابه؛ فهو حق لا شك فيه، ولا اختلاف.

٢٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣٠- إنه لا يتذكر ولا يتعظ بمواعظ القرآن وغيرها إلا أصحاب العقول، الذين تهديهم عقولهم إلى ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

٣١- فضل العقل الذي ينتفع به صاحبه، وهو عقل الرشد وحسن التصرف؛ لأنه سبب للتذكر، ولهذا أثنى الله على أولي الألباب وحصر التذكر فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وفي هذا تعريض بدم الذين لا يعقلون.

٣٢- امتحان العباد في وجود المتشابه في القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله، هل يتأدبون مع الله ويقفون عند حد ما تدرسه عقولهم، ويعلمون أن فوق كل ذي علم عليم، أو يتجرؤون على القول على الله بغير علم؟

٣٣- أن مدار صلاح الأعمال والهداية على القلوب مما يوجب الخوف من زيغ القلوب، وسؤال الله الثبات والاستقامة على الهدى، وأن لا يغتر المرء بما هو عليه من الهدى والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

وفي الحديث: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقلب قلب عبده قلبه»^(١). ومن الذي يأمن - والحالة هذه - إلا مغرور؟! وقد قيل: «ما أمن النفاق إلا منافق».

٣٤- تصدير الدعاء باسم «الرب» - عز وجل - فذلك أقرب إلى الإجابة؛ لأن الرب هو الذي بيده الخلق والملك والتدبير، فكأن السائل يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير لا تُزِغْ قلبي، وهب لي من لدنك رحمة؛ ولهذا صدر الراسخون في العلم

(١) أخرجه مسلم في القدر تصريف الله القلوب حيث شاء (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

دعاءهم بهذا الاسم، وبه كان دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين.
 ٣٥- التوسل لله - عز وجل - بقبول الدعاء بالاعتراف بنعمه، والشأن عليه بها؛ لقول
 الراسخين في العلم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
 أَلْوَهَابُ ﴾.

٣٦- أن الاعتراف بنعمة صاحب النعمة والشأن بها عليه قبل السؤال من أسباب
 الإجابة؛ ولهذا علّمنا الله - عز وجل - في مطلع سورة (الفاتحة) أن نحمده ونشني
 عليه ونمجده ثم نسأله، بل إن في الشئ على المنعم ما قد يكفي عن التصريح
 بالسؤال، كما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الشئ (١)

٣٧- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
 رَحْمَةً ﴾، فدعوا بزوال المرهوب، ثم حصول المطلوب.

٣٨- حاجة الإنسان إلى ربه - عز وجل - في دفع الضر والشر، وجلب النفع والخير؛
 لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾.

٣٩- أن الهداية والإضلال كونًا بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ
 هَدَيْتَنَا ﴾.

٤٠- ينبغي الاستغناء بالله - عز وجل - وسؤاله الرحمة من عنده دون الخلق وممتهم؛
 لأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة والعطاء الجزيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
 رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ ﴾، فطلبوا الرحمة منه خاصة؛ تعظيماً له - عز وجل - ومعرفة
 منهم بعظيم رحمته وواسع فضله؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ ﴾.

والعطاء على قدر المعطي، وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم (٢)

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص ١٧).

(٢) البيت للمتنبى. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٧٢).

٤١- إثبات اسم الله تعالى ﴿أَلَوْهَابُ﴾، وأنه سبحانه يهب ويعطي الرحمة والفضل لمن شاء من خلقه.

٤٢- إثبات يوم القيامة، وأنه آت لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأن الناس أحوج ما يكونوا إلى رحمة الله تعالى في هذا اليوم العظيم.

٤٣- قدرة الله تعالى التامة على جمع الناس لهذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

٤٤- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن هذا هو المقصود من بعث الناس وجمعهم في ذلك اليوم.

٤٥- أن الله- عز وجل- لا يخلف الميعاد، فوعده حق، ولقاؤه حق، وحسابه حق، وجزاؤه حق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وليس في الآية دليل على وجوب عقاب العاصي كما يقول الوعيدية؛ لأن الوعيد مشروط بعدم التوبة، وعدم العفو عما يدخل تحت العفو، وهو ما دون الشرك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ آلِ وَقْتَانَ فَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرِجُوا كَافِرِيَّ يَرُونَهُمْ مِنْ لِيَتِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الكفر» في اللغة الستر، وهو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته وشرعه أو شيء من ذلك، أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه كالصلاة، وهو أقسام^(١).

وهو ضد الإيمان، أي: التكذيب بما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله - عز وجل - والإيمان بملائكته وكتبه ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، أو الكفر والتكذيب ببعض ذلك.

والمراد بهم في الآية جنس الكفرة من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم. ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تنفعهم، وتمنع أو تدفع عنهم ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا أَخْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ [الحاقة: ٢٨]. و﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ كل ما يتمولونه ويملكونه من أنواع المال من نقد أو عين أو منفعة أو غير ذلك.

﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي: ولن تغني عنهم أولادهم، والأولاد: جمع «ولد» وهو إذا أطلق يشمل الذكور والإناث من أولاد الشخص وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: من عذابه وعقابه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

(١) سبق ذكر أقسام الكفر في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى: لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، فتنجيهم من عذاب الله، بأن تمنع أو تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله قبل وقوعه، أو ترفع عنهم شيئاً من عذاب الله بعد وقوعه، بل كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الدُّنْيَا ۗ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (٨٨) ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال ﷺ: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١) أي: ولا ينفع ذا الغنى والحظ منك غناه وحظه، وخص الأموال والأولاد؛ لأن الاستغناء في الدنيا يكون بهما، فبالمال يكون الفداء ودفع الديات والغرامات، وبالأولاد يكون الانتصار والقتال.

وقدم الأموال على الأولاد- والله أعلم- لأن الاعتماد على نفع الأموال في الدنيا أكثر من الاعتماد على نفع الأولاد؛ لأن الأولاد أحياناً قد ينفعون، وأحياناً كثيرة لا ينفعون، بل قد يضررون. وفي الآية إشارة إلى انشغالهم بأموالهم وأولادهم.

﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ الواو: عاطفة، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

﴿ هُمْ ﴾ ويحتمل أن يكون مبتدأ، أو ضمير فصل. وفي كون الجملة اسمية دلالة وتأکید على تحقق الأمر وتقرره، وأن هذا هو حقيقة حالهم ومآلهم.

﴿ وَقُودُ النَّارِ ﴾ «وقود» بفتح الواو: ما توقد به النار، أي: خطبها الذي توقد وتسجر به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِكُمُ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٣)، وأبوداود في الصلاة (١٥٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٤١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وَالْحِجَارَةُ ﴿التحریم: ٦﴾، فهؤلاء الكفار هم الوقود الذي توقد وتسجر به النار، مع الحجارة.

و﴿النَّارِ﴾ هي الدار التي أعدت لتعذيب: [٢٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾.

قوله: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء الكفار كدأب

﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾، والكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» والدأب: العادة والشأن والصنيع.

﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباعه وقومه .

والمعنى: دأب هؤلاء الكفار وشأنهم وحالهم في الكفر والتكذيب، وفي استحقاقهم

العقاب كدأب وشأن آل فرعون، وفيه تخويف لهم.

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى - عليه الصلاة والسلام، الذي كذَّب

موسى وأنكر رسالته، وادَّعى الربوبية والألوهية فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]،

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال مهدداً موسى عليه

السلام: ﴿لَئِنْ أَخَذْتَنِ الْهَأْ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: والذين من قبل آل فرعون من الأمم، كقوم نوح، وعاد

وتمود، وقوم لوط وغيرهم.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تفسير وبيان لدأبهم، أي: كذبوا بآياتنا الكونية

والشرعية، وما جاء به الرُّسل من المعجزات.

﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، والباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسببية،

و«الذنوب» جمع «ذنب» و«الذنب» في الأصل: التلو والتابع، ثم أطلق على الجريمة؛

لأنها يتلو - أي: يتبع - عقابها فاعلها.

والمعنى: فأهلكهم الله وعاقبهم بسبب ذنوبهم، أي: بسبب كفرهم ومعاصيهم،

التي تلبسوا بها وأصروا عليها من غير توبة، فأهلك فرعون وقومه بالغرق، كما قال

تعالى: ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجَحُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣١﴾

فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ. فَنبَذَتْهُمْ فِي آيَمٍ ﴿ [القصص: ٣٩، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ. فَنبَذَتْهُمْ فِي آيَمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وكان إهلاك فرعون وقومه بالغرق - والله أعلم - لأنه كان يفتخر بالماء والأنهار، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

كما أهلك الله قوم نوح بالغرق، وأهلك عادًا بالريح الصرصر العاتية، وثمود بالصيحة، قال تعالى: ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الجملة مقررمة لمضمون ما قبلها، فيها تحذير وتحذير من التكذيب بآيات الله، أي: والله شديد الأخذ، قوي العقاب لمن كذب بآياته، لا يُقدَّر أحد قدر شدة عقابه وعذابه، لا كمًّا ولا كيفًا ولا نوعًا، ولا غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ﴿١٢﴾. توعدهم وجل في الآيتين السابقتين الذين كفروا بالنار وبأخذهم كما أخذ المكذبين من قبلهم، ثم أكد ذلك وقرره بما فيه تحطيم لمعنوياتهم وتبديد لآمالهم بأمره ﷺ أن يقول لهم بأنكم ستغلبون في الدنيا وتحشرون إلى جهنم في الآخرة.

رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طريق عكرمة وسعيد بن جبیر قال: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر، فقدم المدينة جمع يهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا». فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنت لم تأت مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ﴿١٢﴾ إلى قوله:

﴿لَاؤُلِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣) ﴿١﴾.

هكذا أورده أكثر المفسرين وجعلوه سبباً لنزول هاتين الآيتين، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لو صح هذا.

قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأمر للنبي ﷺ، وفي أمره تعالى له ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة زيادة عناية واهتمام بها، كما في أمره ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ونحو ذلك. وإلا فهو في الأصل مأمور بتبليغ القرآن كله.

﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة: «سيغلبون ويحشرون» وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾.

أي: قل يا محمد للذين كفروا وكذبوك فيما جئت به من الحق من اليهود والنصارى والمشركين، وغيرهم من الكفار: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ السين للتقريب، أي: ستغلبون قريباً، أي: في الدنيا، أي: ستكون للمؤمنين الغلبة والظهور عليكم، والقهر لكم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: في الآخرة، أي: تجمعون وتساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ «جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبعدها وشدتها حرها. والمعنى: وتجمعون وتساقون إلى جهنم وتدخلون فيها.

﴿وَيَبْسُ أَلْمِهَادُ﴾ الواو: استثنائية، و«بئس»: فعل جامد يفيد الذم، ﴿أَلْمِهَادُ﴾

(١) أخرجه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس - أبوداود في الخراج والإمارة والفيء - كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٣٠٠١)، والطبري في «جامع البيان» (٢٣٩/٥)، والبيهقي في «سننه» (١٨٣/٩)، ومحمد بن أبي محمد مولى زيد قال عنه ابن حجر في «التقريب» (٦٢٧٦): «مجهول»، وقال عنه الذهبي في «الميزان» (٢٦/٤): «لا يعرف». وقد أخرجه الطبري (٢٣٩/٥) أيضاً من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: «لما أصاب الله قريشاً يوم بدر - وذكره بنحوه، وكذا أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٠٤/٢). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤٧/٢)، وأخرجه الطبري (٢٤٠/٩) - مختصراً من طريق ابن جريج عن عكرمة موقوفاً عليه. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٣٨٦/٧): «إسناده حسن».

الفراش الذي يفرشونه ويلتحفون به، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وهكذا حصل، فخرسوا الدنيا والآخرة، غلبوا في الدنيا وسيحشرون إلى جهنم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [١٣].

أمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ أن يقول للكافرين خبراً ومتوعداً لهم بأنكم ستغلبون، ثم وجههم لأخذ دليل ذلك ومصداقه من الواقع مما شاهدوه أو عايشوه أو سمعوه، وهو غلبة المسلمين في بدر مع قلة عددهم وضعف عدتهم للكافرين مع كثرتهم وقوة عدتهم. قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ هذا من جملة مقول القول السابق، ويحتمل أن يكون استئنافاً.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للذين كفروا من اليهود والمشركين وغيرهم ﴿آيَةٌ﴾ أي: علامة ودلالة على أنكم ستغلبون وعلى صدق الرسول، وأن ما جاء به حق، وأن النصر والغلبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿فِي فِتْنَتَيْنِ﴾، ﴿فِتْنَتَيْنِ﴾: تنبيه «فتنة»، و«الفتنة»: الطائفة والجماعة من الناس، أي: قد كانت لكم علامة ودلالة على صدق الرسول، وعلى صدق ما جاء به وأنكم ستغلبون، في طائفتين، وهما المسلمون والمشركون يوم بدر ﴿الَّتَقَاتَا﴾، أي: للقتال، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

﴿فِتْنَةٌ﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأن المقام مقام تقسيم وتفصيل، كما في قول الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نُسْر^(١)

قوله: ﴿فَعَثَّةٌ تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: فئة مؤمنة؛ لمقابلتها بقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾، ولقوله تعالى: ﴿تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فاختار وصفها بهذا الوصف على التصريح بأنها مؤمنة؛ لما فيه من الدلالة على ذلك وأكثر، ففيه الدلالة على أنها مؤمنة؛ لأنه لا يقاتل في سبيل الله إلا المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦].

كما أن فيه الدلالة على أنهم في أعلى درجات الإيمان والإخلاص، وفي هذا امتداح لهم وتعظيم لشأنهم وتنويه بسمو هدفهم. و«المقاتلة» المفاعلة بين طائفتين.

ومعنى: ﴿تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: تقاتل لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢). والمراد بهم رسول الله ﷺ وصحابته والمؤمنون.

ومعنى ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: طريقه ودينه، ونصرة شرعه. ولا بد لكون القتال في سبيل الله من شرطين، هما: شرطا صلاح العمل: الأول: الإخلاص لله تعالى، بأن يكون القصد منه إعلاء كلمة الله تعالى كما في الحديث. والثاني: أن يكون موافقاً لشرع الله - عز وجل - بحيث يكون القتال عند وجود أسبابه، وتوافر أدواته، وأن يكون القتال تحت راية ولي أمر المسلمين أو من ينبيهه، لا تحت راية عمياء، وأن تكون مصلحة المسلمين فيه ظاهرة، كالدفاع عن بلاد المسلمين ومقدساتهم وحرماتهم وخيرات بلادهم، أو نشر الدعوة الإسلامية وإزالة العوائق أمام دعاة الإسلام، ونحو ذلك، وأن لا يكون فيه بغي ولا اعتداء ولا نقض للعهود أو قتل لمن لم يقاتل كالنساء والصبيان وغيرهم.

﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ «أخرى» صفة لمقدر، أي: وفئة أخرى كافرة، وهم المشركون،

(١) البيت لنمر بن تولب. انظر: «ديوانه» (ص ٣٤٧).

(٢) سبق تحريجه.

وكانوا قريباً من ألف. أي: وفئة أخرى كافرة مغترة بكثرتها، مفتخرة بقوتها، تقاتل في غير سبيل الله، بل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي الآية إيجاز يدل على بلاغة القرآن الكريم، فقد اكتفى بوصف الفئة الأولى بأنها ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن وصف الثانية بأنها تقاتل في سبيل الطاغوت. كما اكتفى بوصف الفئة الثانية بأنها كافرة عن وصف الأولى بأنها مؤمنة، فدل في كل جملة على ما لم يذكر في الجملة الأخرى.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْفَيْنِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بتاء الخطاب: «ترونها»، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾.

فعلى قراءة ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ الخطاب للفئة التي تقاتل في سبيل الله، وضمير الغيبة الهاء يعود إلى الفئة الكافرة، أي: تشاهدون أيها المؤمنون الكفار ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين، أي: كثرهم في الواقع والحقيقة مرتين.

وعلى قراءة: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ بالغيبة، أي: يشاهد كل فريق منهم الفريق الآخر مثلهم أي: كثرهم مرتين، والضمير في ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ يعود إلى الفريق الرائي، أي: يرى المشركون المسلمين ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين مما كان سبباً في دخول الرعب في قلوبهم وهزيمتهم.

وقد يشكل على هذا أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحرز لهم عدد المسلمين، فأخبرهم أنهم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، فهم لديهم خبر بعدد المسلمين ولو على وجه التقريب.

ويرى المسلمون المشركين ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم.

ويشكل على هذا أن المشهور والذي عليه الجمهور أن المشركين ما بين التسعمائة إلى الألف. ففي حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سأل الرجل الذي جاء به إليه، فقال: «كم ينحرون من الجزور؟» قال: عشرة كل يوم. قال رسول

الله ﷻ: «القوم ألف»^(١).

وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل الرجلين اللذين جيء بهما إليه، فقال: «كم ينحرون؟» قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. قال ﷻ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»^(٢). فهم على هذا التقدير ثلاثة أمثال المسلمين.

وقد وجه هذا ابن جرير وجعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثلها أي: إلى ألفين معها، أي: أنك محتاج إلى ثلاثة آلاف، وعلى هذا يزول الإشكال^(٣).

ويحتمل عود الضمير في ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ إلى الفريق المرئي، أي: يرى كل فريق منهم عدد عدوه مضاعفاً، والأول أقرب.

﴿رَأَى الْعَيْنَ﴾ ﴿رَأَى﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ أي: مشاهدة العين، أي: يرونهم بعيونهم وأبصارهم.

فالرؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤].

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿يُؤَيِّدُ﴾: يقوي، ﴿بِنَصْرِهِ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب نصره.

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿مَنْ﴾: موصولة. أي: الذي يشاء ويريد كوناً نصره من عباده، ممن تقتضي حكمته نصره.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المشار إليه: ما سبق في الآية، من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾ إلى هنا ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً وعظة.

﴿لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لأصحاب الأبصار.

أي: إن في ذلك التقليل والتكثير، وغلبة الفئة القليلة من المسلمين للفئة الكثيرة

(١) أخرجه أحمد (١١٧/١)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٤٧/٥-٢٤٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٦١٦-٦١٧)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٤٨/٥).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٢٥٠/٥)، «تفسير ابن كثير» (١٣/٢).

من الكافرين اعتبارًا وعظة لأصحاب العقول والبصائر، كما أن في ذلك دلالة على صدق الرسول ﷺ، وأنه على الحق، وتحقيق بشارة المؤمنين بالنصر ووعيد الذين كفروا بأنهم المغلوبون، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلِبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢].

وهكذا حصل، فقد تم النصر للمسلمين، وغلب أهل الكفر من اليهود والمشركين وغيرهم، فقتل بنو قريظة، وأجلي بنو النضير، وفتحت خيبر، وأخذت الجزية ممن بقي من اليهود، وتوالت الهزائم على المشركين في معارك الإسلام، وفتحت مكة، وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

الفوائد والأحكام:

١- أن الكفار لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، فلن ترفع ما وقع عليهم من عذاب الله تعالى، ولن تمنع عنهم ما لم يقع، ولا تعوضهم ما فقدوا من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم ينتفعون بأموالهم بالصدقة، وبأولادهم بالدعاء ونحو ذلك وتكون من أسباب رحمة الله تعالى بهم.

٢- إثبات الملكية الخاصة للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ فلا يجوز استباحة أموالهم إلا إذا كانوا محاربين للمسلمين.

٣- أن أولاد الكفار ينسبون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾.

٤- إمداد الله للكفار بالأموال والأولاد كغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّجِدُّ هَهُنَا وَهَهُنَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٥- قدرة الله تعالى التامة وقوته التي لا تقهر، ونفوذ أمره فلا تغني الكفار أموالهم ولا أولادهم منه شيئًا.

٦- الحذر من الانشغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى، ومن الاغترار بها فهي قد تضر ولا تنفع.

٧- أن الكفار هم وقود النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

٨- التحذير من الكفر والوعيد للكافرين بالنار.

٩- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

١٠- سلوك الكفار من هذه الأمة مسلك آل فرعون والذين من قبلهم بتكذيب آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

١١- تكذيب آل فرعون ومن قبلهم بآيات الله وشدة تكذيب آل فرعون وطغيانهم، للتنصيص عليهم دون غيرهم، كيف؟! وقد ادعى فرعون الربوبية والألوهية.

١٢- إقامة الله- عز وجل- الحجة على الخلق بما آتاهم من الآيات الكونية والشرعية الدالة على ربوبيته وألوهيته وكمال صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾.

١٣- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

١٤- أخذه- عز وجل- لفرعون وقومه والمكذبين قبلهم بآيات الله، وإهلاكهم بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وفي هذا رد على من زعم أن فرعون نجا من العذاب مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢].

وليس المراد في هذه الآية أنه نجا من العذاب، وإنما المراد بها أن الله أنجاه ببدنه، أي: بجثته فقط، حيث رمى بها الموج خارج البحر؛ ليتأكد بنو إسرائيل من هلاكه، فيطمئنوا لأنه قد أرعبهم وأرهبهم بجبروته، فلا يكادون يصدقون بأنه هلك حتى يعاينوا جثته، وليكون آية لمن خلفه، أما روحه فهي في العذاب، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

١٥- التهديد والوعيد للمكذبين من هذه الأمة بأخذهم وإهلاكهم بسبب ذنوبهم كالمكذبين من آل فرعون ومن قبلهم.

١٦- تشابه مواقف المكذبين بآيات الله ورسله، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْنَ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُوتٌ﴾ [الذاريات: ٥٣].

١٧- أن ما يصيب الناس من عقوبات إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾

﴿بُدُّوهُمْ﴾، ومفهوم هذا إثبات العدل له - عز وجل - فلا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يظلم أحداً من خلقه.

١٨- إثبات الأفعال الاختيارية للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿بُدُّوهُمْ﴾ فأضاف الذنوب إليهم، وقوله تعالى: ﴿تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأضاف الفعل إليهم، وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون الاختيار للإنسان، ويقولون: إنه كالسعفة في الهواء ونحو ذلك.

١٩- شدة وقوة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٢٠- التحذير من عقاب الله وشدته.

٢١- أن القرآن من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفي هذا رد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افترى القرآن وتقوله من عند نفسه.

٢٢- أهمية هذا الخبر الذي أمر الله نبيه ﷺ، أن يبلغه للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾.

٢٣- تخويف الكافرين وإرهابهم وإرهابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بالغلبة وتقوية لقلوبهم ومعنوياتهم؛ كما قال تعالى:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ووعد الله لا يتخلف إذا صدق المسلمون الله.

٢٤- الوعيد والتهديد للكافرين بجمعهم وحشرهم إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٥- الجمع للكافرين بين عقوبة الدنيا والآخرة؛ عقوبة الدنيا بهزيمتهم وغلبة المؤمنين لهم، وعقوبة الآخرة بجمعهم وحشرهم إلى جهنم.

٢٦- شدة ظلمة النار وجهمتها وحرها، وبعد قعرها؛ لهذا سميت جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٧- ذم جهنم وأنها بثست المهاد والفراش؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسَّرَ لِمَهَادُ﴾.

٢٨- ضرب الأمثال والتوجيه لأخذ العبر والعظات من الأمور والأحداث الواقعة؛

لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ

كَافِرَةٌ﴾ الآية.

٢٩- زيادة التصديق والطمأنينة في ربط الخبر والوعيد بحدث وأمر واقع مشاهد محسوس ليجتمع للمخاطب مع علم اليقين- وهو الخبر الصادق- عين اليقين وهو مشاهدة الحدث الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُّ ثَمُومٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهو عليه الصلاة والسلام مؤمن مصدق بأن الله يحيي الموتى، ولكنه أراد أن يجمع الله له مع علم اليقين عين اليقين، فيرى ذلك بعينه. وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»^(١).

٣٠- أن القتال المشروع ما كان في سبيل الله، أي في سبيل إعلاء كلمة الله، خالصاً لله تعالى، موافقاً للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣١- أن الغلبة والنصرة ليس بكثرة العدد والعدة، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى ونصره للذين صدقوا الله في القتال في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهٗمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ (٤١) ﴿[الحج: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا كانت الغلبة والنصرة للمؤمنين في عهود الإسلام الزاهرة، وفاءً بوعد الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

خَوْفِهِمْ أَمْتًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿[النور: ٥٥].

أيام كان المسلمون أعزة في دينهم والعود صلب المكسر
أيام كان الدين ملء نفوسهم وأنواع على كسرى العظيم وقبصر^(١)
٣٢- أن ما كان من القتال في غير سبيل الله فهو في سبيل الكفر وأهله، سبيل
الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

٣٣- أن الله عز وجل قد يري المقاتلين من كل فئة الفئة الأخرى مثلهم ليكون ذلك من
أسباب نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾.
ولا يعارض هذا قوله تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ
الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾
[الآية: ٤٤]، فهذا في حال وذاك في حال أخرى.

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأوهم مثلهم، ليستعد المسلمون ويتوجهوا
إلى الله في طلب العون والنصر، وليحصل للكفار الخوف والرعب والوهن.
وعندما التحم الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء وهؤلاء في أعين هؤلاء؛
ليقدم كل منهما على الآخر، ويتم ما أَرَادَهُ اللهُ من نصر المسلمين وهزيمة
الكافرين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي قَاتَا
فِئَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾.

قال: هذا يوم بدر. قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم
يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك

(١) البيتان للشاعر محمد صادق عرنوس، من قصيدة نشرها في صحيفة الفتح، العدد ٢٠٧، بتاريخ ١٤ صفر
١٣٤٩ هـ. انظر: «الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث» (ص ١٦٦). والبيتان فيه بلفظ:

أيام كان المسلمون بحالة	مرهوبة والعود صلب المكسر
أيام كان الدين ملء قلوبهم	فأنواع على كسرى العظيم وقبصر

قول الله - عز وجل - : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتَمَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٤] (١).

وقيل: قللوا في أعين بعضهم أولاً ليجترأ كل منهما على الآخر، ثم لما التحم القتال رأى كل فريق الآخر مثلهم.

٣٤- الإشارة إلى أنه ليس الخبر كالعيان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾.

٣٥- تأييد الله تعالى بنصره من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾.

٣٦- إثبات الأفعال لله تعالى، والمشيئة، وأنه تعالى يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].

٣٧- الترغيب في التوجه إلى الله تعالى وسؤاله النصر، والتوكل عليه- مع بذل أسباب النصر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾.

٣٨- أن فيما ذكر من التقاء الفئتين المتقاتلتين، ورؤية إحداهما الأخرى مثلها، وتأييد الله بنصره للفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة عبرة وعظة لأصحاب الأبصار والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿ لَئِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.

٣٩- أنه لا يعتبر بالوقائع والأحداث إلا أصحاب البصائر؛ لقوله تعالى: ﴿ لَئِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.

٤٠- الترغيب في أخذ العبرة والعظة من الوقائع؛ لأن الله أثنى على أهل البصائر وخصهم بالاعتبار، ويفهم من هذا ذم أهل الغفلة وعمي القلوب والبصائر.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٤٦/٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٠٦/٢).

قال الله تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ ﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْرَلْنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابِ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

بين عز وجل في الآيات السابقة أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ثم أتبع ذلك ببيان أن الأموال والأبناء وغير ذلك، مما ذُكر في هذه الآية مما زين للناس حبه من الشهوات في إشارة إلى أن كل هذه الأشياء لا تنفع ولا تغني في الآخرة؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ .

قوله: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ زَيْنَ ﴾: مبني لما لم يسم فاعله، و«المزين» هو الله - عز وجل - أي: زين الله للناس كوناً. والتزيين: التحسين، أي: حُسن للناس ﴿ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل: ٤].

والتزيين: التحسين لما لم يكن حسناً، أو لم يكن خالص الحسن فتغطى نقائصه بالمزيّنات. ﴿ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ أي: حب المشتبهات، أي: زين للناس حب المشتبهات، وهي ما تشتهيه النفوس وتتلذذ به حساً ومعنىً.

﴿ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ ﴿ مِنَ ﴾ لبيان الجنس، فقوله: ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ وما بعده بيان لـ ﴿ الشَّهَوَاتِ ﴾، فهذه الأشياء السبعة هي أصول الشهوات البشرية والتي تجمع مشتبهات كثيرة، والتي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار والأمصاّر.

﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهن لأنهن من أعظم زينة الدنيا وشهواتها، والفتنة بهن أشد، كما قال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(٢).

لكن ينبغي أن يعلم أن الميل إلى النساء من حيث الأصل أمر جبلي لتكثير النسل وبقاء النوع الإنساني، بل هو أمر محمود مندوب إليه إذا كان لإعفاف النفس وتكثير الأمة. ولهذا قال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(٣)، وقال ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»^(٤).

وقال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء: المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(٥).

وقال ﷺ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله»^(٦)، وقال ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب»^(٧).

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: قالوا يا رسول الله، يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢) - وأخرجه مختصرًا الترمذي في الفتن (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٥٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٥)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنها.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٦٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

في الحلال كان له أجر»^(١). وقال ابن عباس لسعيد بن جبير: «تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء»^(٢).

﴿وَالْبَيْنِينَ﴾ هذا وما بعده معطوف على ﴿الْإِسْكَاءِ﴾ أي: زين للناس حب الشهوات من النساء، ومن البنين، ومن القناطير المقنطرة... إلخ. و«البنين» جمع «ابن» يجمع على «بنين» وعلى «أبناء» وهم الذكور من الأولاد، وخص «البنين» لأن بهم كمال الأب وفخره وكرمه وعزه وشرفه، كما قال تعالى: ﴿ذَرِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٣] أي: شهودًا وحضورًا عنده يقومون بخدمته ويتقوى بهم ويشرف ويفتخر.

وهذا بخلاف الإناث «البنات»، فإنهم كانوا يتشاءمون بهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، ويقول قائلهم: «والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة»^(٣).

وهذه بلا شك نظرة جاهلية محاهها الإسلام وفنّدها القرآن، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال ﷺ: «إن النساء شقائق الرجال»^(٤). وكما قيل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهمو من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء^(٥)

وحب البنين تارة يكون بالتفاخر والتعظيم بهم، وربما التسلط على الآخرين فهو

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٩).

(٣) أخرجه ابن الشجري عن الفراء: أن أعرابياً بشر ابنة ولدت، فقيل له: نعم الولد هي. فقال: «والله ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة». «أمالى ابن الشجري» (٢/٤٠٥)، وانظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٥/٣)، «شرح الكافية الشافية» (٢/١١٠٢).

(٤) أخرجه الترمذي في الطهارة (١١٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢/١٠٨).

أمر مذموم وغير محمود، وتارة يكون حبهـم لأجل تكثير الأمة ونفع الإسلام والمسلمين، وتهيئة أجيال صالحين ينفعون أنفسهم ووالديهم وأمتهم، وهذا أمر محمود ومندوب شرعاً، لكنه قليل.

﴿وَالْقَنْطِيرِ﴾ جمع «قنطار» وهو: المال الكثير الجزيل، وقيل: ما يزن مائة رطل من الفضة، أو اثنا عشر ألف دينار من الذهب، أو مائة ألف دينار من الذهب، وقيل غير ذلك. ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ أي: المضاعفة المتكاثرة، كقولهم: «آلاف مؤلفة».

﴿مِرْبَ الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ ﴿مِرْبَ﴾ بيانية، فقوله: ﴿مِرْبَ الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطر المقنطرة، وإنما كان الذهب والفضة محبوبين للناس؛ لأنها ثمن جميع الأشياء، بهما تقدر وتقوم جميع الأموال، فالمالك لها كالمالك لجميع الأشياء. والمال فتنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وكلما ازداد وكثر زاد الافتتان به؛ لقوله: ﴿وَالْقَنْطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ وقد قال ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

وإذا كان جمع المال بقصد التكثر به والفخر والتعظيم على الناس، وكسبه من أي طريق كان حلالاً أو حراماً، وصرفه في غير سبيله الشرعية فالفتنة به أشد والمصيبة به أعظم. وبالمقابل فإذا كان حب المال للتعفف به وجعله مطية للأخرة، وإنفاقه في سبيل الله، في القرابات وصلة الأرحام وفي وجوه البر والطاعة ونفع المسلمين مع اكتسابه من حلال، فهذا أمر محمود بل مأمور به شرعاً، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾: معطوف على ﴿النِّسَاءِ﴾.

وسميت «خيلاً» من «الخيلاء»؛ لأنها تختال في مشيتها، وترفع، كأنه يخيل إليها أن لا شيء يسامها. كما أن ركبها قد يبتلى بالخيلاء، لما لها من شأن في رياضة السباق ونحو ذلك. وقد أقسم الله - عز وجل - بالخيال تعظيماً لشأنها في الجهاد في سبيل الله، فقال

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥)، ومسلم في الزهد والرفائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة والرفائق والورع (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَالْعَدِيدِ صَبَحًا ①﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدَحًا ②﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا ③﴾ فَأَتْرَنَ بِهِ نَقْعًا ④﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ [العاديات: ١-٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي الحديث: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١).
وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال لثلاثة؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر»^(٢).

فمن اقتناها وحبسها للجهاد في سبيل الله فهي له أجر وفعله محمود ممدوح، ومن اقتناها وحبسها للدفاع عن نفسه وحرماته فهي له ستر وفعله مباح، ومن اقتناها وحبسها للفخر والخيلاء فهي له وزر وفعله مذموم.

﴿الْمُسَوِّمَةُ﴾ أي: الراعية، التي تُسَوِّمُ أي: تُسَرِّحُ وترسل للرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، أي: فيه ترعون أنعامكم. ومنه سميت: «السائمة من بهيمة الأنعام». وفي الحديث: «فأطال طيلها في مرج أو روضة»^(٣).

ويحتمل أن المراد بـ﴿الْمُسَوِّمَةُ﴾ المعلمة المطهمة الحسان، بـ«شياتها، وغررها» في وجوهها وتحجيلها في أيديها وأرجلها.

ولا تزال للخيال مكانة ومحبة عند الناس مع التقدم المذهل في أنواع المراكب برًا وبحرًا وجوًّا مما يوحي بأنها ستعود في يوم ما لها مكانتها يوم أن كانت عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠)، ومسلم في الإمارة- فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨).

(٣) هذا جزء من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- السابق.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ جمع «نَعَم» وهي: الإبل والبقر والغنم، زينت للناس لما فيها من المنافع، فمنها ركوبهم وطعامهم وشرابهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِسِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَفْئِكُمْ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].
وأغلاها وأنفسها الإبل؛ ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(١).

واقتناء الأنعام وتربيتها كغيرها من الأموال قد يكون بقصد المفاخرة والتعاضم والمباهاة ونحو ذلك، وربما مع التقصير في حقها وعدم إخراج حق الله فيها فهو مذموم غاية الذم. وقد يكون اقتناؤها للانتفاع بمنافعها المتعددة مع أداء حقها، وإخراج حق الله في رقابها فهذا أمر محمود، وعمل مشكور لنفعه العام والخاص.

﴿وَالْحَرثِ﴾ أي: حرث الأرض وغرسها وزرعها واستخراج الأقوات منها للناس والدواب، وهي كغيرها من الأموال إن قصد بها التكثر والتفاخر، وربما منع حق الله فيها، لا يمدح صاحبها. وإن قصد بذلك التعفف ونفع المسلمين، والبذل منها في سبيل الله، فذلك أمر محمود بل مطلوب شرعاً.

فهذه الأشياء السبعة مما زين للناس حبه، وكذا غيرها لحكم بالغة عظيمة، منها: بناء هذا الكون وعمارته، ومنها ابتلاء وامتحان العباد، ليميز من يشغل منهم بذلك

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، وأبو داود في العلم (٣٦٦١)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

عما خلق له من عبادة الله تعالى وطاعته، ممن يتوازن فيعمل لما خلق له ولا ينس نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؛ ولهذا قال:

﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الإشارة إلى ما ذكر في الآية، أي: ذلك المذكور مما زين للناس من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. وأشار إليها بإشارة البعيد تحقيرًا لها بالنسبة لنعيم الآخرة.

و﴿مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما يتمتع ويتبلغ به في هذه الحياة، ثم يزول. أي: أن هذه الأشياء مما يتمتع به في هذه الحياة الدنيا ثم تزول أو يزول الإنسان عنها، فلا هي تبقى للإنسان، ولا هو يبقى لها.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد^(١)
وقال الآخر:

تعز فلا شيء على الأرض باقياً ولا وزر مما قضى الله واقياً^(٢)

و﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن، فهي الدار الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

وسميت «دنيا» أيضاً؛ لأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى

(١) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» (ص ٣٤٧)، «العمدة في محاسن الشعر» (١/ ٣٤).

(٢) البيت لم ينسب لقائل. انظر: «أوضح المسالك» (١/ ٢٧٥)، «المغني» للسيوطي (٢/ ٦١٢).

كافراً منها شربة ماء»^(١)، وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها»^(٢)، وقال ﷺ: «موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»^(٣).

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ ختم الله - عز وجل - الآية بهذا الختام لبيان أنه لا ينبغي أن يؤثر الإنسان ما زين للناس من متاع الحياة الدنيا على ما أعدّه الله - عز وجل - لأوليائه في الآخرة من المآل الحسن والثواب العظيم.

﴿حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ أي: حسن المرجع والجنة والثواب، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم - كما فسر ذلك رسول الله ﷺ^(٤).

ويكفي في حسن هذا المآل أنه عند الله عز وجل، فهو منه ويجواره، لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، الذين عملوا لهذا المآل، ولم ينشغلوا بما زين من متاع الحياة الدنيا، وهو ما فسر به بقوله تعالى:

﴿قُلْ أُوْنَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥).

أخبر عز وجل في الآية السابقة أن عنده سبحانه حسن المآل، ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل والبيان لهذا المآل الحسن.

قوله: ﴿قُلْ أُوْنَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿أُوْنَيْتُكُمْ﴾، أي: أخبركم، و«النبأ» هو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]؛ ولهذا

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «صحيح غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) سيأتي تحريجه قريباً.

صدر هنا بهمزة الاستفهام الدال على الاهتمام والتنبيه والتشويق، أي: أخبركم.
﴿يَخَيِّرُ مِّنْ ذٰلِكَمَّ﴾ الإشارة للمشار إليه في الآية السابقة، وهو ما زين للناس من
متاع الحياة الدنيا الزائل، والخطاب لجميع الناس.
والمعنى: قل يا محمد: أخبركم ﴿يَخَيِّرُ مِّنْ ذٰلِكَمَّ﴾ المذكور خيرية مطلقة، وأشار
إليه بإشارة البعيد تحقيراً له.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: خبر مقدم، و﴿جَنَّاتٍ﴾: مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر على المبتدأ
لإفادة الحصر، أي: للذين اتقوا خاصة جنات.
أي: للذين اتقوا الله - عز وجل - بفعل أو امره وترك نواهيه، فجعلوا بهذا العمل
بينهم وبين عذاب الله وقاية.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في هذا تعظيم لما أعد لهم من ثلاثة أوجه: الأول: أنه من ربهم عز
وجل العظيم أكرم الأكرمين، والعطاء يكون على قدر المعطي؛ ولهذا لا أحد يقدر قدر
ما أعد عنده سبحانه لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث القدسي يقول عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١).

الوجه الثاني: أنه عند ربهم، بالقرب منه، فنعم القرب، ونعم الجوار، كما قال تعالى:
﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فأضاف العندية إلى «الرب» الذي: معناه
الخالق المالك المتصرف، المربي لعباده بجميع النعم، ذو العناية التامة بهم، ومربيهم بربوبيته
الخاصة؛ ولهذا أضاف اسم «الرب» إلى ضميرهم تشريفاً وتكريماً لهم.

﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع «جنات» جمع «جَنَّة» وأصل الجنة البستان، سمي بذلك لأنه يجن

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في
التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويستر من بداخله بأشجاره وثماره الملتفة.

والمراد بها في الآية البساتين والمنازل التي أعدها الله للمتقين، مما لا تقاس به بساتين الدنيا ومنازلها، أي: لهم جنات كثيرة متعددة ومتنوعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وقال ﷺ: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»^(١).
﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لـ «جنات» لأن الجمل بعد النكرات صفات.

أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ. وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهي تجري بغير أخطود يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا. قال ابن القيم^(٢):

أنهارها في غير أخطود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا هي تفتنى، ولا هم يخرجون منها.

وقال ﷺ: «ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تمروا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تياسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَتُودَعُونَ أَنْتُمْ فِي الْجَنَّةِ أَوْ رُشْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(٣).

﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾: معطوف على ﴿جَنَّتٌ﴾، أي: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾
ولهـم «أزواج مطهرة»، وعطفها على ﴿جَنَّتٌ﴾ لاختلاف أنواع التلذذ، وهو أشبه بعطف

(١) أخرجه البخاري في التفسير - قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٨٠)، من حديث عبدالله بن قيس رضي الله عنه.

(٢) «النونية» (ص ٢٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها - دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧)، والترمذي في التفسير (٣٢٤٦)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

الخاص على العام؛ لأن التمتع بالأزواج من أعظم نعيم الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].
وهذه الأزواج المطهرة من أزواجهم في الدنيا، ومن الحور العين.
ومعنى ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهرة خلقًا وخلقًا، أي: مطهرة من النجاسات الحسية، كالحيض والنفاس والبول والغائط والمنى والمخاط وسائر الأدناس ونحو ذلك.
ومن الأرجاس المعنوية، كالغل والحقد والحسد والغيرة والفحش وسوء الخلق، ونحو ذلك.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ فذكر أولاً الجنات وهي المنازل والمسكن وما فيها من أنواع النعيم الحسي ومن ذلك الأزواج المطهرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما هو أعظم من ذلك كله وهو النعيم المعنوي الروحي وهو: «رضوان الله عليهم».
قرأ أبو بكر عن عاصم بضم الراء: «ورُضوان»، وقرأ الباقر بكسرها: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾.
وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «ورضوان منه» بل قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ لتعظيم ذلك الرضوان، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: ورضوان من الله تعالى عليهم، فلا يسخط عليهم أبدًا، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»^(١).

وأعظم من ذلك كله النظر إلى وجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ^(٢).

وعن صهيب - رضي الله عنه - قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى:

(١) أخرجه البخاري في الرقاق - صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في الجنة صفة نعيمها وأهلها - إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل^(١).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: والله مطلع على العباد، خبير بهم لا يخفى عليه منهم خافية.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة: عبودية الخلق والملك والتدبير، فهو بصير بالعباد كلهم يعلم من أثر الشهوات ومتاع الحياة الدنيا، ومن اختار الآخرة وما فيها من ألوان النعيم، يوفق من شاء بفضله، ويخذل من شاء بعدله، ويجازي كلاً بعمله. وفي هذا وعد لمن اتقى الله ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧).

هاتان الآيتان وصف و نعت للذين اتقوا في قوله: ﴿قُلْ أُو۟ثِقُوا بِخَبْرِيۦمِۦنۦ ذٰلِكُمْۙ لِّلَّذِيۦنَ اتَّقَوْا۟ عِنۡدَ رَبِّهِمۡ﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿إِنَّا أَمْنَا﴾ أي: صدقنا بألستنا وقلوبنا بك يا ربنا وبكتبك ورسلك، وبكل ما يجب الإيمان به، وانقدنا بجوارحنا لشرعك. وقد أكدوا هذا بـ«إن»، ودعوا الله عز وجل وتوسلوا إليه باسم الربوبية الذي مقتضاه العناية والرعاية، والذي كان به جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء: عاطفة سببية، فتوسلوا إلى الله بإيمانهم، أي: بسبب إيمانهم أن يغفر ذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

والمعنى: استر ذنوبنا وتجاوز عنها، والذنوب هي السيئات والمعاصي كبيرها وصغيرها. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة: «أن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧).

فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله تعالى: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك» (١).

ومنه سمي المغفر وهو «البيضة» التي توضع على الرأس في القتال تستره وتقيه السهام وحيث اجتمع سؤال المغفرة والتوبة، فتبدل سيئاتهم حسنات، كما قال تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: اجعل لنا وقاية من عذاب النار، بتوفيقنا للعمل الصالح، والبعد عن العمل الذي يوجب عذاب النار، وبالعفو عما يقع منا من نقص أو تقريط، وإنما خصوا مسألتهم بالمغفرة لذنوبهم ووقايتهم عذاب النار؛ لأن من غفرت ذنوبه، وزحزح عن النار فقد فاز، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وليس ثمة دار غير الجنة والنار فمن وقى عذاب النار فمآله الجنة دار الأبرار.

يا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ الْبَابِ مَا الدَّارُ	الموتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ
يُرْضِي الْإِلَهَ، وَإِنْ فَرَّطْتُ، فَالنَّارُ	الدَّارُ جَنَّةٌ عَدْنٌ إِنْ عَمِلْتَ بِهَا
فاختر لنفسك ماذا أنت تختار (٢)	هما محلان ما للناس غيرهما

قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا- كما سبق- من نعت ووصف «الذين اتقوا».

قوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ الصابرين: جمع «صابر» أي: الصابرين على فعل الطاعات وترك المحرمات وعلى أقدار الله.

والصبر لغة: الحبس، وهو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٤١).

وهو أنواع ثلاثة: أعظمها وأفضلها: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة^(١).

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: معطوف هو وما بعده على ﴿الصَّابِرِينَ﴾.

و«الصادقين» جمع «صادق» والصدقة موافقة الباطن للظاهر، ومطابقة الخبر للواقع، والصدق يكون أولاً مع الله تعالى، كما يكون مع النفس، ويكون مع الخلق. أي: والصادقين مع الله في الإيمان باطناً وظاهراً، والإخلاص لله - عز وجل - والمتابعة لشرعه، وفعل أمره واجتناب نهيه.

والصادقين مع أنفسهم بالاجتهاد بطلب سعادتها ونجاتها وخلاصها، وعدم تعريضها لعذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٢).

قال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكن طالباً في الناس أعلى المراتب^(٣)
وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا^(٤)
والصادقين مع الخلق في تعاملهم معهم قولاً وفعلًا وأداءً لحقوقهم.

والصدق يكون بالأقوال، بأن يصدق الإنسان فيما يقول وفيما يخبر به عن أمر وقع، ومنه الشهادة ونحو ذلك، فيكون قوله في هذا مطابقاً للواقع، فيخبر بالخبر حقاً - كما رأى أو سمع، ويؤدي الشهادة حقاً كما تحملها، وهكذا.

ويكون الصدق بالأقوال أيضاً: بما يتحملة المرء ويلتزم به في المستقبل من عمل أو وعد أو عهد ونحو ذلك، فيتبع القول بالعمل والوعد والعهد بالوفاء، وقد قال الله -

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [الآية: ٤٥].

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص ١٥).

(٤) البيت مجهول النسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٢٠)، «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧).

عز وجل - معاتباً المؤمنين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقال ﷺ في ذم أهل النفاق: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١).

والصدق يكون بالأفعال بأن يكون ما يفعله المرء من أفعال ظاهرة موافقاً لما يقوله، ولما في باطنه، فلا يظهر الإيمان بأفعاله وهو يبطن الكفر، ولا يظهر المسكنة وهو غني، ولا يظهر المودة والمحبة وهو يضمّر العداوة والبغضاء ونحو ذلك.

والصديقية مرتبة عظيمة تلي مرتبة النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

ولهذا قال ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(٢).

ومنه سميت مريم - عليها السلام - «صديقة»، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومنه سمي أبو بكر - رضي الله عنه - «الصديق»؛ لأنه أول من آمن بالنبي ﷺ وصدّقه من الرجال.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ جمع «قانت» والقنوت: دوام الطاعة والخشوع والخضوع لله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾

[الزمر: ٩]، أي: مديم الطاعة خاشعاً خاضعاً. وقال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: خاشعين خاضعين لله، غير

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة - ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة (١٢٠٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة - تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٩)، وأبوداود في الصلاة (٩٤٩)، والنسائي في السهو (١٢١٩)، والترمذي في الصلاة (٤٠٥)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

متكلمين في الصلاة بغير ما شرع فيها.

كما قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: «كنا نتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يكلم أحدنا صاحبه بحاجته، حتى نزلت: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت»^(١).

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ جمع «منفق» والمنفق: من بذل النفقة. والنفقة والإنفاق: بذل المال وإخراجه.

وهو نوعان: محمود يمتدح صاحبه، وهو الإنفاق المشروع، وهو المراد هنا، أي: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ النفقات المشروعة، الواجبة والمستحبة، بإخراج الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد، والصدقات في سبيل الله، وأبواب البر، وطرق الخير، من غير إسراف ولا تقتير، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الاسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٤٧].

والنوع الثاني من الإنفاق مذموم يذم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ «المستغفرين» جمع مستغفر، والاستغفار: طلب مغفرة الذنوب، أي: الذين يصلون في الأسحار ويطلبون من الله مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ الباء هنا ظرفية بمعنى «في»، أي: في الأسحار، و«الأسحار» جمع «سحر» وهو آخر الليل، الذي هو وقت النزول الإلهي، وإجابة الدعاء.

كما قال ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين - الترغيب في الدعاء والذكر من آخر

فامتدحهم بالاستغفار في هذا الوقت وهو وقت السحر، وفي هذا ثناء عليهم من وجهين، الأول: التماسهم لاستغفارهم وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا، ووقت إجابة الدعاء.

والثاني: الإشارة إلى أنهم يتعهدون ويقومون الليل ويحتمون بالاستغفار بعد الفراغ من قيام الليل، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَاسْحَارِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقد شرع الاستغفار بعد الانتهاء من العبادة؛ بعد الصلاة، وبعد الحج ونحو ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تزيين حب الشهوات من النساء للناس كونًا، وكذا حب البنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة، والخييل المسومة والأنعام والحرب؛ لقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

٢- حكمة الله تعالى البالغة في تزيين هذه الأشياء السبعة المذكورة للناس وغيرها لبناء هذا الكون وعمارتها.

٣- ابتلاء الله تعالى للناس في تزيين الأشياء المذكورة وغيرها من متاع الدنيا لهم ليتبين من لا يشغله ذلك عن عبادة الله تعالى، بل يستغل ذلك ويستعين به على طاعة الله تعالى، ممن يشغله ذلك أو يجره إلى معصية الله تعالى.

٤- أن محبة ما ذكر في الآية على وجه لا يشغل عن طاعة الله تعالى أمر مباح، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيْمَاءَ آتَلَكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الفصص: ٧٧]، وقال ﷺ: «حب إلي من دنياكم النساء والطيب»^(١).

٥- الحذر من الافتتان بالشهوات من النساء والبنين والأموال، وغير ذلك مما ذكر في الآية وغيره، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى.

الليل والإجابة فيه (٧٥٨)، وأبوداود في الصلاة (١٣١٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦).

(١) سبق تخريجه.

٦- أن من أعظم ما تحصل به الفتنة، ويشغل عن طاعة الله تعالى النساء والأبناء والأموال، لهذا قدمت في الآية، وقد قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ^١﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ءَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والأولاد يشمل الأبناء والبنات. عن يعلى العامري - رضي الله عنه - قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ فضمهما إليه، وقال: «إن الولد مبخلة مجبنة»^(١). وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»^(٢).

٧- تقديم كثير من الناس محبة الأبناء - غالباً - على محبة البنات، والتفاخر والتعاضم بهم؛ لهذا خص البنين بالذكر دون البنات. والخير فيما يختاره الله، وصدق الله العظيم: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ويكفي البنات فخراً أن جل نسل الأنبياء عليهم السلام بنات، وأنهن حجاب لوالديهن من النار^(٣)، وأنهن سبب لمرافقته النبي في الجنة^(٤).

٨- أن المال كلما كثر ازدادت الفتنة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا لِيَدِ الْمُنْقِطَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾، وفي الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(٥).

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الزكاة» (١٤١٨)، ومسلم في «البر والصلة» (٢٦٢٩)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم في «البر والصلة» (٢٦٣١)، والترمذي (١٩١٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

- ٩- أن مما يزين للناس اقتناء الخيل وركوبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ وهي كما قال ﷺ: «لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر»^(١).
- ١٠- أن مما يزين للناس اقتناء الأنعام، الإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ وذلك إما بقصد الاستفادة من نتاجها أو للاتجار بها وهذا أمر مباح بل مشروع لما فيه من نفع عام ما لم يؤدي إلى الفتنة بالمال. وقد يكون اقتناؤها لأجل المفاخرة والمباهاة بها، كما هو حال أهل مزايين الإبل- كما يقولون- الذين يشترون الفحل أو الناقة بعشرات الملايين، وكما هو حال الذين يشترون «التيس» وهو ذكّر المعز بمئات الآلاف، ممن يحتاجون إلى «درة» عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.
- ١١- أن مما يزين للناس حرث الأرض وزرعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْحَرْثِ﴾. وهذا فيه أيضًا نفع عام ما لم يؤدي بصاحبها إلى الانشغال عن طاعة الله تعالى والافتتان في الدنيا.
- ١٢- أن كل ما ذكر في الآية مما يزين للناس من حب الشهوات من النساء والبنين وغير ذلك هو مجرد متاع في هذه الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
- ١٣- التزهيد في التعلق بما ذكر مما يزين للناس، والترغيب في الانشغال بما ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فهو إما أن يزول عن الإنسان أو يزول عنه الإنسان.
- ١٤- حقارة الحياة الدنيا ودناءتها؛ لهذا سميت «دنيا»؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهي دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة. لكنها أيضًا مزرعة للآخرة لمن وفقه الله تعالى.
- ١٥- أن الله- عز وجل- عنده حسن المآل والمرجع، وهو الجنة، مما هو خير من الدنيا وزينتها ومتاعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ فلا ينبغي الانشغال بالدنيا وما فيها عما عند الله تعالى.
- ١٦- أن القرآن الكريم كلام الله- عز وجل- أمر نبيه محمدًا ﷺ بتبليغه للناس؛ لقوله

(١) سبق تحريجه.

تعالى: ﴿قُلْ﴾.

١٧- بلاغة القرآن الكريم باختيار أسلوب التنبيه والتشويق في الدعوة؛ لقوله تعالى:

﴿أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾.

١٨- أن ما عند الله - عز وجل - للذين اتقوا من جنات تجري من تحتها الأنهار،

وأزواج مطهرة، ورضوان الله عليهم خير من الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل؛

لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

١٩- أن المفاضلة قد ترد بين أمرين بينهما في الفضل بون شاسع وفرق واسع، فقد

فاضل هنا بين زينة الدنيا ومتاعها، وبين ما أعد للذين اتقوا عند ربهم من الجنات

وما فيها من ألوان النعيم. وشتان بين هذا وهذا.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان^(١)

كما أن المفاضلة قد ترد بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله

تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

٢٠- تشريف المتقين وتكريمهم بإضافة اسم «الرب» إلى ضميرهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ

رَبِّهِمْ﴾.

٢١- عظم ما للذين اتقوا عند ربهم، فهم في جوار ربهم الكريم، ولهم جنات تجري من

تحتها الأنهار فيها من ألوان النعيم، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله أكبر،

وأعظم بهذا من نعيم، وبكفي في عظمته أنه من ربهم الكريم ذي الفضل العظيم،

وعنده، وفضل التقوى والترغيب فيها؛ لعظم ما خص به المتقين من الثواب

العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

٢٢- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ والرضا

من الصفات الفعلية المتعلقة بالشيئة.

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص ١١).

٢٣- اطلاع الله - عز وجل - وبصره وعلمه بالعباد وأعمالهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

٢٤- حكمة الله - عز وجل - الكونية في كون العباد منهم المتقي ومنهم خلاف ذلك؛

لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

٢٥- الوعد لمن اتقى الله والوعيد لمن خالف أمر الله وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فمعنى هذا ومقتضاه أنه محيط بهم وبأعمالهم وسيحاسبهم ويمجازيهم عليها.

٢٦- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى التقي منهم وغيره، عبودية عامة؛ لقوله تعالى:

﴿وَالْعِبَادِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

[مريم: ٩٣].

٢٧- ثناء الله - عز وجل - على المتقين وامتداحه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

إِنِّئَاءَ امَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَانِتِينَ

وَالْمُسْتَفْهِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

٢٨- أن من أهم وأعظم صفات المتقين سؤال الله تعالى مغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب

النار؛ اعترافاً منهم بتقصيرهم، وبعداً عن الإدلاء على الله بعملهم؛ لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنِّئَاءَ امَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

٢٩- دعاء المتقين في طلبهم المغفرة من ربهم بوصف الربوبية الذي مقتضاه العناية

بعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّئَاءَ امَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

٣٠- توسل المتقين في سؤالهم المغفرة من ربهم بإيمانهم إقراراً منهم واعترافاً بعبوديتهم

لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنِّئَاءَ امَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

٣١- جواز التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّئَاءَ امَّنَا فَاعْفِرْ

لَنَا﴾ الآية.

وكما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فقال بعضهم: «إنه لا نجاة

لكم مما أنتم فيه إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي

- أبوان شيخان كبيران- الحديث. وفيه «ففرج الله عنهم وخرجوا يمشون»^(١).
- ٣٢- حاجة الإنسان مهما كان عليه من التقى إلى سؤال الله تعالى المغفرة والوقاية من عذاب النار، فالإنسان لا يخلو من تقصير ونقص، وعمله مهما كثر لا يعدل شيئاً من نعمة الله تعالى عليه، ولا أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى وفضله.
- ٣٣- مشروعية البسط في الدعاء تعظيماً لله - عز وجل - وتقرباً إليه وخضوعاً بين يديه، وإظهاراً للافتقار إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فسؤال مغفرة الذنوب متضمن طلب الوقاية من عذاب النار، ولم يكتفوا به، بل قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. لكن ينبغي أيضاً الحرص على جوامع الدعاء مما ورد في الكتاب والسنة وسلف الأمة والبعد عن التكلف والاعتداء في الدعاء.
- ٣٤- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.
- ٣٥- أن من صفات المتقين: الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار بالأسحار؛ لقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.
- ٣٦- الترغيب بالاتصاف بهذه الصفات السبع التي امتدح الله بها المتقين، من سؤال مغفرة الذنوب، والوقاية من عذاب النار، والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار، ومفهوم ذلك ذم من اتصف بضد هذه الصفات.
- ٣٧- فضل الصبر على ما ذكر بعده من الصفات لتقدمه عليها، وذلك لأنه لا قيام لها إلا به.
- ٣٨- فضل الصدق؛ لأن الله امتدح المتصفين به؛ لقوله تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾. وهو يشمل الصدق مع الله تعالى في الإيمان به باطناً وظاهراً، والانقياد لشرعه. والصدق مع النفس بطلب خلاصها، ونجاتها، والصدق مع الخلق في الحديث وأداء حقوقهم.

(١) أخرجه البخاري في المزارعة (٢٣٢٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)، وأبو داود في البيوع (٣٣٨٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وهو من أفضل الأعمال، يهدي إلى البر ويرفع صاحبه إلى منزلة الصديقين، بسببه خلد الله ذكر الثلاثة الذين خلفوا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨، ١١٩].

٣٩- فضل القنوت ودوام الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْقَنُوتِ﴾ وفي الحديث: «إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١).

٤٠- فضل الإنفاق في وجوه البر والخير المشروعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾. وفي الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢).

٤١- فضل أوقات السحر وفضل الاستغفار فيها حيث وقت النزول الإلهي، وإجابة الدعاء، وختام القيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢)، وأبوداود في الصلاة (١٣٦٨)، والنسائي في القبلة (٧٦٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْئًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ .

قوله ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: الشهادة تكون بالقول والإخبار والإعلام، وتكون بالفعل، أي: شهد الله بقوله وإخباره وإعلامه لخلقه بها أنزل في كتبه وعلى ألسنة رسله أنه لا معبود بحق إلا هو، المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، وكلهم عبده.

وبذلك قضى وحكم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهَبُونَ ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وشهد- عز وجل- بفعله أنه لا معبود بحق إلا هو بما نصَّبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل والفطرة، من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والإنسان والحيوان والنبات.. وغير ذلك؛ فهو سبحانه وتعالى بخلقه لها ونصَّبه دلائل على وحدانيته قد شهد وأبان بها أنه لا إله إلا هو.

كما قال تعالى: ﴿ سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ [نصفت: ٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله تارة. فالقول هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، وأوحاه إلى عباده، كما قال: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].»

وأما شهادته بفعله فهو: ما نصَّبه من الأدلة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل، وإن لم يكن هناك خبر عن الله، وهذا يُستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويُظهره، فهو بمنزلة المخبر به، الشاهد به. كما قيل: سل الأرض من فجر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تُجِبْكَ حِوَارًا، أجابتك اعتبارًا. وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه، فإن دلالتها إنها هي بخلقه لها، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو سبحانه الذي جعلها دالة عليه، فإن دلالتها إنها هي بخلقه، ويبيِّن ذلك؛ فهو الشاهد المبيِّن أنه لا إله إلا هو، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة. قال ابن كيسان: «شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو»^(١).

وقد ذكر ابن القيم أن للشهادة أربع مراتب، قال: «فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوتها، وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به - وإن لم يُعلم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها، وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به ويخبره به ويبيِّن له، ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به»، ثم قال: «فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به»^(٢).

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/٢٨٨ - ٢٨٩).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/٤٥٣).

﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أنه لا معبود حق إلا هو، فكل ما عُبد من دون الله فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿١١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: معطوف هو و﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ على لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، أي: وشهد الملائكة أنه لا إله إلا هو. قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ أي: وشهد أولوا العلم، أي: أصحاب العلم بالله - عز وجل - وشرعه، وما يجب له - عز وجل -: أنه لا إله إلا هو، بإقرارهم بذلك، وبيانهم وإعلامهم بذلك غيرهم.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: حال، أي: شهد الله أنه لا إله إلا هو حال كونه قائمًا بالقسط - كما شهد الملائكة أولوا العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائمًا بالقسط، أي: قائمًا بالعدل، قولًا وفعلاً وإخبارًا وحكمًا به وأمرًا.

فشهد سبحانه أنه لا إله إلا هو ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: متكلمًا بالعدل، مخبرًا به، حاكمًا به، أمرًا به، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى في مثل ضربه لنفسه ولما يُشرك به من الأوثان: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فخلقه - عز وجل - السموات والأرض بالعدل، وعبادته وحده دون غيره حقيقة العدل، وجزاؤه المؤمنين بالجنة، والكافرين بالنار عدل.

قال ابن القيم^(١): «تضمنت هذه الآية أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود».

فهو سبحانه خير الشاهدين، وأصدق القائلين، وشهادته على وحدانيته وعلى قيامه بالقسط أكبر وأعظم شهادة، وتوحيده أعدل العدل، والشرك به أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: شهد عز وجل أولاً لنفسه أنه (لا إله إلا هو)، كما شهدت بذلك الملائكة وأولوا العلم، وحكم ثانياً أنه (لا إله إلا هو) فشهد بذلك أولاً، وحكم به ثانياً، وأكدته وأمر به.

ففي الأولى شهادته - عز وجل - وإخباره أن (لا إله إلا هو)، وفي الثانية حكمه وتأكيد أنه (لا إله إلا هو)، وفي ذلك كله تعليم عباده، وأمرهم بالشهادة بذلك واعتقاده وعبادته وحده دون سواه.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾: من أسماء الله - عز وجل - يدل على أنه ذو العزة التامة، و«الحكيم»: اسم من أسمائه - عز وجل - يدل على أنه سبحانه ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة^(٢).

قال ابن القيم^(٣): «تضمنت هذه الآية وهذه الشهادة وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِتَايَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٩﴾.

قوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: قرأ الكسائي بفتح الهمزة «أن»، وقرأ

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٤٥٢).

(٢) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/٤٦٣).

الباقون بكسرهما ﴿ إِنَّ ﴾ .

فعلى قراءة فتح الهمزة تكون الجملة عطف بيان؛ لقوله تعالى: ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ،
يعنى: شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام، وعلى قراءة كسر الهمزة
تكون الجملة مستأنفة.

و ﴿ الَّذِينَ ﴾ : الملة والشرعة، قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]،
وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ
وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾
[يوسف: ٧٦].

﴿ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ : أي إن الدين المقبول، المرضي عند الله هو الإسلام، كما قال
تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].
وفي قوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ صيغة حصر، أي: الدين الذي لا دين
عند الله سواه.

﴿ الْإِسْلَامُ ﴾ : هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من
الشرك، وهو الدين الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى
آخرهم؛ ولهذا قال أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا
سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال
إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً
مُّسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال يعقوب لبنيه عند
الموت: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقال موسى عليه الصلاة والسلام
لقومه: ﴿ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال تعالى عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿قُلْ أَيْكُمْ إِتْرَاهِيمُ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ولما ختمت الأديان بشريعة محمد ﷺ صار الإسلام علماً بالغلبة على ما جاء به محمد ﷺ، فلا يقبل بعد بعثته من أحد سواه؛ لنسخه لجميع الأديان السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والإسلام إذا أطلق وأفرد يشمل جميع شرائع الدين الظاهرة، وجميع عقائده الباطنة، فيشمل أركان الإسلام الخمسة.

وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ الْبَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»^(١).

وكذا أركان الإيمان الستة، كما في حديث: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٢).

وكذا كل ما أمر الله به من التوكل على الله، وخوفه، ورجائه، وبر الوالدين، وصلته

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في سننه (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، من حديث عبدالله بن عمر عن أبيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما.

الأرحام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. وغير ذلك، سواء كان ذلك الأمر واجباً أو مندوباً.

كما يشمل ذلك ترك كل ما نهى الله عنه من الكفر والشرك، والقتل العمد، والربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، والكذب والفجور وقول الزور، والغيبة والنميمة، وغير ذلك.

قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾:

في هذا تقرير وتأكيد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾، وأن هذا هو الذي كان عليه الناس، وعليه أجمعت الأمة، ثم طرأ الاختلاف بما حصل من أهل الكتاب من اختلاف من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

قوله ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿الَّذِينَ

أوتُوا الْكِتَابَ﴾ هم: اليهود والنصارى.

سُمُوا أهل الكتاب؛ لأن لهم كتباً بقيت إلى بعثة النبي ﷺ - وإن كانت محرقة.

أي: وما وقع الاختلاف بين أهل الكتاب في أديانهم وفي دين الإسلام، فاختلف اليهود مع النصارى، واختلف أهل كل ملة منهم فيما بينهم، واجتمعوا على مخالفة الإسلام، وحذف متعلق الاختلاف ليشمل هذا كله.

﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، أي: إلا من

بعد مجيء العلم إليهم، أي: إلا من بعد مجيء الوحي من الله تعالى إليهم في كتبه، وعلى السنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

أي: إلا من بعد ما عرفوا الحق، وقامت عليهم الحججة، فاختلّفوا حيث لا يسوغ

لهم الاختلاف.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ «بغياً»: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي بينهم والحسد، أي: بغياً

من بعضهم على بعض، وحسدًا، وطلبًا للرياسة.

ولم يكن اختلافهم لشبهة عندهم، فأصبح بعضهم يضلّل بعضًا، ويكفّر بعضهم

بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ

الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴿ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا
اٰخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرُوا
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرُوا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الواو: استثنائية، و«من»: شرطية، أي: ومن يكذب
بآيات الله الشرعية والكونية ويحدها ويستكبر عن الانقياد لما جاء فيها من الحق.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: جملة جواب الشرط، و«الفاء»: رابطة لجواب الشرط؛
لأنه جملة اسمية، وفيها تخويف وتهديد، أي: فإن الله سريع الحساب، وسيحاسبه ويجازيه
ويعاقبه على كفره عن قريب، وأكد عز وجل هذا بـ«إِنَّ» وكون الجملة اسمية.
والله - عز وجل - سريع الحساب فحسابه آتٍ، وكل آتٍ قريب. قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»^(١).

وهو عز وجل سريع الحساب؛ لأن عمر الإنسان في هذه الدنيا قليل، والدنيا كلها
قليل بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح
وتركها»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال:
«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».
وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر
المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(٣).

(١) ذكره الترمذي في «صفة القيامة»، و«الرفائق»، و«الورع» (٢٤٥٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الرفاق» (٦٤١٦)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٣٣)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١١٤).

وهو- عز وجل- سريع الحساب؛ لأن الانسان يجد في هذه الحياة الدنيا شيئاً من عاقبة عمله سعادة وتيسيراً لأمره إن كان مطيعاً، وشقاوة وتعسيراً لأمره إن كان عاصياً. وهو- عز وجل- سريع الحساب، لا يحتاج إلى وقت طويل لمحاسبة الخلائق؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من الخلق وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله- عز وجل- يحاسب الخلائق في نصف يوم أخذاً من قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. قالوا: فهو يحاسب الخلق في النصف الأول من النهار، والنصف الثاني يكون أهل الجنة فيها، أي: يقلون فيها.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلِمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

ذكر الله- عز وجل- اختلاف أهل الكتاب بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في إشارة واضحة إلى أن اختلافهم فيما بينهم مفضٍ إلى محاجة الرسول ﷺ فيما جاء به.

قوله ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ الفاء: عاطفة، وضمير الواو في «حاجوك» يعود إلى أهل الكتاب والمشركين، بدليل قوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾، والخطاب للنبي ﷺ. و«المحاجة»: المخاصمة، وأكثر ما تكون في المخاصمة بالباطل، أي: فإن خصموك في الدين خصام مكابرة وعناد.

﴿فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ﴾: جواب الشرط «إن». قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الياء: ﴿وَجْهِي﴾، وقرأ الباقون بتسكينها «وجهي».

أي: توجهت إلى الله بوجهي وقلبي وبدني، وأخلصت له في عبادتي، واتبعت شرعه؛ امتثالاً لأمره، واجتناباً لنهيه، ورضاً بحكمه، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسِعَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [الأنعام: ٧٩].

وفي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾: قطع الطريق على المحاجين وإسكاتهم، سواء قلنا: هذا من باب الإعراض عنهم، أو المحاجة لهم.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول معطوف على الضمير في «أسلمت»، أي: والذي اتبعني أسلم وجهه لله، أو ينبغي أن يُسَلِّمَ وجهه لله، أي: أسلمت وجهي لله أنا وأتباعي على ديني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى.

﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: العرب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾

[الجمعة: ٢].

﴿وَالَّذِينَ﴾ جمع «أُمِّيٌّ»، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، نسبةً إلى أمه، أي: إلى الحالة التي وُلِدَ عليها.

﴿أَسْلَمْتُمْ﴾: الاستفهام للتحضيض والأمر، وفيه معنى الاستبطاء، أي: أسلموا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، أي: أسلموا، وكما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا.

والمعنى: أنه قد أتاكم من البيئات ما يوجب أن تُسَلِّمُوا، فأَسَلِمُوا.

﴿فَإِنْ أَسَلِمُوا﴾ أي: فإن استسلموا لله ظاهراً وباطناً، بتوحيدهم إياه بالعبادة، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنْ أَسَلِمُوا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقرانه بـ «قد»، أي: فقد رشدوا ووقفوا للهدى وسلكوا طريقه،.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام باطنًا بقلوبهم، وظاهرًا بأبدانهم فلا يضرك

ذلك.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾، وقُرِنَ بالفاء لأنه جملة اسمية.

و﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما عليك نحوهم إلا البلاغ، وقد بَلَّغْتَ البلاغ المبين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

وأما هداية القلوب وحساب الخلق فيلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقد بَلَّغَ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين، وأدَّى الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: والله مطلع على العباد كلهم، خير بهم وبأعمالهم وأحوالهم، ومن كان منهم أهلاً للهداية، ومن لم يكن أهلاً لذلك.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة الله - عز وجل - لنفسه بتفرده بالألوهية، وأنه لا إله إلا هو، بقوله وفعله وعجيب صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وفي هذا تنبيه لعباده على غناه عن توحيدهم له، وأنه سبحانه هو الموحد نفسه بنفسه.

٢- شهادة الملائكة وأولوا العلم بما شهد الله به لنفسه من الوحدانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾، والمراد: أولوا العلم بالله وشرعه وأتباعهم.

٣- فضيلة الملائكة؛ حيث جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى في الشهادة بالتوحيد بعده سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

٤- أخذ طائفة من أهل العلم من قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنه لا يشترط للشاهد عند الحاكم وغيره في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة.

فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكُنَّبُ شُهَدَائِهِمْ وَيُسْتَأْذَنُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، فسمى إقرار المرء على نفسه شهادة.

وفي حديث ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ»^(١). فَسُمِّيَ إِقْرَارُهُ شَهَادَةً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «شهد عندي رجال مرضيون - وأرضاهم عندي عمر - أن رسول الله ﷺ نهي عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»^(٢). ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة.

والعشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة لم يتلفظ بشهادته لهم بلفظ الشهادة، وإنما قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة...»^(٣). وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» دخل في الإسلام وشهد الشهادتين، وإن لم يقل: «أشهد» ونحو ذلك. وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا بد للشاهد عند الحاكم ونحوه من التلفظ بلفظ الشهادة.

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٢)، ومسلم في «الحدود» (١٦٩١)، وأبو داود في «الحدود» (٤٤٣٠)، والنسائي في «الجنائز» (١٩٥٦)، والترمذي في «الحدود» (١٤٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «مواقيت الصلاة» (٥٨١)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٨٢٦)، وأبو داود في الصلاة (١٢٧٦)، والنسائي في «المواقيت» (٥٦٢)، والترمذي في الصلاة (١٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي في «المناقب» (٣٧٤٧)، من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

٥- فضل العلم بالله وشرعه، وفضل أهل هذا العلم والثناء عليهم؛ حيث جعلهم الله شهوداً بعد الملائكة على وحدانيته، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، واستشهد بهم على أجل مشهود به، وجعلهم حُجَّة على من أنكر هذه الشهادة، فزكَّاهم بهذا وعدَّهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾، وهذه منقبة عظيمة للعلماء في هذا المقام.

وهذا لمن قدَّر منهم للعلم قدره، فعظَّم ربه، وصان علمه، وعمل به وعلمه، فوفَّى بها أخذه الله من الميثاق على أهل العلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيَتْنَهُ، لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهؤلاء من أهل العلم قليل؛ ولهذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿فَبَدَّوْهُ وَرَأَى ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِمْ مُمَّنَّاقِلِيلاً فَيُنَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن من أول من يُقضى يوم القيامة عليه رجل تعلَّم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأُتي به فعرفه نعمه فعرَّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فسُجِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار»^(١).

وقد أحسن القائل:

وعالم بعلمه لم يعلم من معذب في قبره من قبل عباد الوثن^(٢)

وقال الآخر:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطباع حتى تجهما^(٣)

٦- الترغيب في العلم بالله وشرعه؛ لأن به تحصل الشهادة على وحدانية الله - عز

(١) أخرجه مسلم في «الإمامة» (١٩٠٥)، والنسائي في «الجهاد» (٣١٣٧)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٨٢).

(٢) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان» (ص ٤).

(٣) البيتان للقساضي الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات لشعراء» (ص ١٤).

- وجل - بل هي من مقتضياته، فمن لم يشهد من أهل العلم لله بالواحدانية فهو من أجهل الجهال، وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره.
- ٧- حكم الله - عز وجل - أنه لا إله حق إلا هو، بعد شهادته وإخباره بذلك، وأمره - عز وجل - عباده بتوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فمن عبد مع الله غيره فهو مشرك.
- ٨- تأكيد تفرده - عز وجل - بالألوهية، فشهد عز وجل بذلك لنفسه، وأخبر به، وحكم به وأمر، كما شهد بذلك الملائكة وأولوا العلم.
- ٩- إثبات قيام الله تعالى واتصافه بالعدل قولاً وفعلاً وحكماً وإخباراً، وحكماً به وأمرًا، وشهادته - عز وجل - لنفسه بذلك وشهادة الملائكة وأولوا العلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.
- ١٠- اجتماع صفات الكمال لله عز وجل؛ لأن التوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال، فالتوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحدٍ سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة؛ ففي الأول كمال ذاته، وفي الثاني كمال أفعاله.
- ١١- إثبات اسم الله «العزیز» وصفة العزة التامة له - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.
- ١٢- إثبات اسم الله «الحكيم» وأن له - عز وجل - الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية والجهمية الذين ينفون حكمة الله تعالى.
- ١٣- في اقتران العزة والحكمة في حقه - عز وجل - زيادة كماله - تعالى - إلى كمال.
- ١٤- أن الدين الذي يُعتد به ويُقبل عند الله هو الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل، وهو توحيد الله تعالى، والانقياد لشرعه، وهو بعد بعثة محمد ﷺ، ما جاء به من الشرع، فهو الإسلام الذي لا يُقبل من أحدٍ سواه؛ لنسخه لجميع الأديان قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

إِلْسَلِمَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ٨٥].
وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة،
يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلت به إلا كان من أصحاب
النار»^(١).

١٥- أن حقيقة الدين والتدين لله تعالى الاستسلام له بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة،
والبراءة من الشرك؛ لأن الله سمي «الدين» الإسلام.

١٦- أن أهل الكتاب اليهود والنصارى لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: أن
اختلافهم كان عن علم، فلا يعذرون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

١٧- أن اختلاف أهل الكتاب كان بسبب بغي بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى:
﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

١٨- التحذير من الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، وقال تعالى محذراً هذه الأمة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال ﷺ محذراً أمته من ذلك: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت
النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة»^(٢).

١٩- خطر البغي، ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب للاختلاف ورد الحق؛ لقوله تعالى:
﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

٢٠- ينبغي في مسائل الخلاف الانتصار للحق، والبحث عنه، والبعد عن التطاول،
والانتصار للنفس.

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ إلى جميع الناس (١٥٣)، من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٥٩٦)، والترمذي في «الإيمان» (٢٦٤٠)، وابن ماجه في «الفتن»
(٣٩٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢١- التحذير من الكفر بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ فمن كفر بآيات الله فسيحاسبه الله سريعاً، ويجازيه على كفره قريباً، وفي هذا وعيد لمن كفر بآيات الله، وحض على الإيمان.

٢٢- سرعة حساب الله تعالى للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

٢٣- إثبات حساب الخلق على أعمالهم، لكن حساب المؤمنين تقرير وعرض، أما حساب الكفار فمناقشة وتوبيخ وتقريع.

كما في حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «من حوسب عُدْب»، قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟، قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك»^(١).

٢٤- عناية الله - عز وجل - بنبيه ﷺ، وتهيبته لما سيواجه ممن يدعوهم، وتعليمه ما يقوله للمحاجين له، ولمن يدعوهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] الآية. وفي هذا إعداد من الله له، وتقوية لقلبه ولحجته ودعوته.

٢٥- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] توجيه له ﷺ لما هو أحصر، وبما فيه قطع الطريق على المحاجين وإسكاتهم، أي: هذا طريقي وطريق أتباعي دون محاجة أو جدال، وهذا من أساليب الرد على المحاج إذا كان لا جدوى للمحاجة، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٢٦- أن المنهج الحق في الإسلام أن يتوجه المسلم إلى الله تعالى بكليته، وبوجهه، وقلبه، وبدنه ممتثلاً لأمر الله، محتنباً لنهيه، فهذا هو منهج الرسول ﷺ وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

٢٧- شرف الوجه من بين الأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فخصه من بين

(١) أخرجه البخاري في «العلم» (١٠٣)، ومسلم في «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» (٢٨٧٦)، والترمذي في «صفة القيامة» (٢٤٢٦).

الأعضاء لشرفه، ولأن توجهه علامة ظاهرة على توجه بقية الأعضاء.

٢٨- أن من لم يُسلم وجهه لله تعالى فليس متبعًا للرسول ﷺ؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعْنَ﴾.

٢٩- وجوب الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ﴾.

٣٠- عموم رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ للعرب وغيرهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ﴾، وفي هذا رد على من زعم من أهل الكتاب أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب فقط.

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «وكان النبي ﷺ يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»^(١).

وفي رواية: «وبُعثت إلى كل أحمر وأسود»^(٢).

ولما زار ﷺ الغلام اليهودي في مرض موته، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، قل: لا إله إلا الله»، فنظر إلى أبيه، فأعاد النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»^(٣).

٣١- في تقديم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ﴾ إشارة إلى أن قيام الحجة عليهم أعظم؛ لما عندهم من العلم

عن الإسلام وعن النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا

مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٤١].

٣٢- أن العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾.

٣٣- أن من أسلم فقد اهتدى للطريق المستقيم، ووفق إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَاسَلَّمُوا

(١) أخرجه البخاري في «التيمم» (٣٣٥)، ومسلم في «الغسل والتيمم» (٤٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥٢١).

(٣) أخرجه البخاري في «الجنائز» (١٣٥٦)، وأبو داود في «الجنائز» (٣٠٩٥)، من حديث أنس رضى الله عنه.

- فَقَدْ أَهْتَكَدُوا ﴿﴾، وفي هذا حض على الإسلام، وترغيب فيه.
- ٣٤- أن من لم يُسَلِّمْ فقد تولى وأعرض عن الحق، وليس على الرسول ﷺ هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾.
- ٣٥- أن مهمة الرسول ﷺ، والواجب عليه بالنسبة للناس هي إبلاغهم الرسالة ودعوتهم، وأما هدايتهم فهي إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾.
- ٣٦- اطلاع الله - عز وجل - وبصره بالعباد وأعمالهم وأحوالهم، ومن هو أهل للهداية، ومن ليس أهلاً لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، وفي هذا وعد لمن أسلم واهتدى، ووعد لمن تولى وأعرض.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَرُفِيتَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

أمر الله - عز وجل - في الآية السابقة النبي ﷺ بدعوة الذين أوتوا الكتاب إلى الإسلام، وحذّرهم من التولي، ثم ذمّهم في هذه الآية بذكر ما هم عليه من الكفر، وقتل النبيين والأميرين بالقسط، وتوعدهم بعذاب أليم.

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إن الذين يكذبون بآيات الله الشرعية والكونية ويحذونها، من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: معطوف على ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

قرأ حمزة: «ويقاتلون»، وقرأ الباقون: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾، وقرأ نافع «النبئين» جمع «نبيء» وقرأ الباقون: ﴿النَّبِيِّنَ﴾ بلا همز، جمع (نبي)، مأخوذ من «النبأ»، وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ١-٢].

وسمّي النبيون بهذا الاسم؛ لأن النبي مُنبأ من عند الله، أي: مُخْبِر من عند الله، (مُنْبِئ): مُخْبِر لقومه بما أوحاه الله إليه، ومأخوذ أيضاً من «النبوة» وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية مرتفعة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: جار مجرور حال مؤكدة من فاعل «يقتلون».

والمراد بهذا الوصف: بيان الواقع، أي أن قتلهم عدواناً وظلماً كما فعل اليهود؛ حيث قتلوا كثيراً من أنبياء الله - عز وجل - منهم: زكريا وابنه يحيى، كما هُؤوا بقتل عيسى، بل زعموا أنهم قتلوه؛ ولهذا ذمّهم الله تعالى بهذين الوصفين في آيات كثيرة، كما قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

ولا يراد بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقِّ﴾ إخراج ما خالفه؛ إذ لا يمكن أن يكون قتل النبيين بحق بحال من الأحوال.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾: معطوف على قوله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الأنبياء في مقدمة الذين يأمرون بالقسط من الناس.

و«القسط»: العدل في الحكم والأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أي: ويقتلون الذين يأمرون بالعدل من الناس عنادًا منهم ومعارضة للعدل والحق وبطرًا وكبرًا. وفي الحديث: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١).

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: خبر المبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء؛ لتضمن الموصول معنى الشرط، أي: بشرهم يا محمد، ويا أي مبشر.

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٩١)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، واستعملت هنا في الإخبار بما يسوء من باب التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

وفي هذا من العذاب المعنوي ما قد يفوق العذاب الحسي. والمعنى هنا: فأخبرهم بعذاب أليم، أي: مؤلم موجه حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب. و(العذاب): العقاب.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢].

﴿أُولَئِكَ﴾: الإشارة للذين يكذبون بآيات الله، ويقتلون النبيين والأميرين بالقسط، وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تحقيرًا لهم.

﴿الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: الذين بطلت وذهبت واضمحلت أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: فلم يستفيدوا منها في الدنيا بل كانت سببًا لشقائهم فيها، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: ولم يثابوا عليها في الآخرة بل عوقبوا بسببها.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ «مِنْ»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما لهم أي ناصرين، أي: وما لهم أي أحد ينصرهم من بأس الله تعالى وعذابه، وجمع «ناصر» لمقابلة الجمع قبله مع مراعاة المناسبة لفواصل الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُنْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٢٣].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتعجب، والرؤية هنا علمية، ويحتمل كونها بصرية، والأول أولى؛ لأنه أشمل، ولأنه يتعلق بالحال، والحال تعلم ولا تبصر.

أي: ألم تعلم إلى حال ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾، والمراد ب﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ هنا: اليهود، و﴿نَصِيبًا﴾ حظًا، والتنوين فيه للتكثير والتعظيم،

و﴿مَنْ﴾ للتبويض أو للبيان.

و(ال) في ﴿الْكِتَابِ﴾ للعهد، والمراد به «التوراة»، أي: ألم تعلم وتنظر إلى حال اليهود الذين أعطوا نصيباً من الكتاب، أي: أعطوا حظاً كثيراً عظيماً من الكتاب؛ لأن التوراة هي أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

وقيل: المعنى: الذين أعطوا نصيباً قليلاً من الكتاب، أي: من العلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. والأول أصح وأنسب للسياق.

﴿يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾: حال من الموصول، أي: حال كونهم يدعون إلى كتاب الله، أو مستأنفة مبيّنة لمحل التعجب.

والدعاء: النداء؛ كقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

و«كتاب»: بمعنى مكتوب، أي: إلى مكتوب الله؛ لأن كتب الله تعالى كلها مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ.

والمراد بـ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ هنا: «القرآن الكريم»، والداعي إليه هو رسول الله ﷺ ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة.

وقيل المراد بـ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾: «التوراة أو الإنجيل»؛ لما فيها من تصديق لبعثته ﷺ ورسالته، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: (اللام): للتعليل، أي: لأجل أن يحكم بينهم، والضمير في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى «اللَّهِ»، أي: يدعون إلى كتاب الله؛ ليحكم الله بينهم بكتابه. ويُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى «الْكِتَابِ»، أي: ليحكم كتاب الله بينهم. وأسند الحكم إلى الكتاب؛ لأن الحكم بينهم بما فيه هو حكم الله، أي: ليفصل

بينهم بيان الحق من الباطل فيما بينهم أنفسهم، وفيما بينهم وبين الداعي لهم وهو الرسول ﷺ في شأن الإسلام، أو في حكم الرجم، أو غير ذلك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: التولي يكون بالأبدان، أي: ثم يتولى فريق وجماعة منهم بأبدانهم.

﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: الجملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز كونها حالية. والإعراض يكون بالقلوب، أي: وهم صادون بقلوبهم عن كتاب الله، والمعرض بقلبه لا فائدة فيه، ولا مطمع في رجوعه، بخلاف المتولي ببذنه فإنه قد يراجع نفسه، ويعود إلى رشده.

وقد جمع هؤلاء بين التولي في الظاهر بأبدانهم، والإعراض في الباطن بقلوبهم، والتولي عن الداعي، والإعراض عن المدعو إليه، فلا مطمع فيهم. و«التولي» و«الإعراض» من الكلمات المترادفة التي إذا انفردت اجتمعت، وإذا اجتمعت انفردت. فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على المعنيين، وهما التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب.

أما إذا اجتمعا فيحمل «التولي» على الإعراض بالأبدان، ويحمل الإعراض على التولي بالقلوب، كما في الآية هنا.

ويفهم من قوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: أن فريقاً منهم لا يتولى ولا يعرض، بل يقبل ويؤمن. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَّعَرِّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٤).

ذكر عز وجل في الآية السابقة تولي وإعراض فريق من أهل الكتاب عن كتاب الله تعالى، ثم ذكر في هذه الآية سبب توليهم وإعراضهم.

قوله ﴿ذَلِكَ﴾: الإشارة إلى تولي فريق منهم وإعراضهم عن كتاب الله، أي: ذلك التولي والإعراض.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء للسببية، أي: بسبب أنهم. ﴿قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: أي بسبب أنهم خدعوا أنفسهم بهذه

المقالة الباطلة، والاعتقاد الخاطيء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فهونوا بهذا الخطوب ولم يبالوا معه بارتكاب الذنوب.

﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾: لن تصيبنا النار ونعذب فيها.

﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أيامًا قليلات، أو قلائل؛ لأن كل معدود فهو قليل؛ لأنه ينتهي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَوَخَّرُوهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].
وجمع هنا جمع القلة ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾؛ لأنه أليق بمقام التعجيب والتشنيع.
قيل: إنهم قالوا: لن نعذب إلا سبعة أيام، وقيل: أربعين يومًا، وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل^(١).

﴿وَعَرَّضْهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ أي: أطمعهم في غير مطمع، وخدعهم في دينهم الباطل.

﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: وخدعهم في دينهم افتراؤهم أو الذي كانوا يفترون ويختلقون من الكذب والدعاوى والأمانى الباطلة، ومن ذلك قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَنْبَتُوا اللَّهَ وَأَجَبْتُوهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١].

فذكر لتوليهم وإعراضهم سببين، الأول: أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.
والثاني: تزيين الشيطان لهم سوء عملهم، فاغتروا بذلك وتراءى لهم أنه الحق؛ عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَّارِيبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآية السابقة زعم أهل الكتاب الباطل أنهم لن تمسهم

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله - تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

النار إلا أيامًا معدودات، وخداعهم لأنفسهم بالافتراء والأمانى الباطلة، ثم أتبع ذلك باستعظام وتهويل سوء حالهم ومآلهم يوم القيامة مهددًا ومتوعدًا.

قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ﴾: ﴿فَكَيْفَ﴾: استفهام لتعظيم وتهويل سوء حالهم، أي: كيف تكون حالهم، أو كيف يصنعون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية. فلا تسأل عما هم فيه من الهم والكرب وشدة العذاب والحسرة والندم على ما فاتهم من الأجر والثواب.

﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: (اللام) بمعنى «في»، وتسمى لام التوقيت، أي: في يوم لا ريب فيه، وهو يوم القيامة، ونكر «يوم» للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيُحْجَبُونَ عَنِ الْعَاجِلَةِ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّيْمَنٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٩-١٠].

قال ابن كثير^(١): «أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به».

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي لا ريب ولا شك في وقوعه؛ وهذا خبر من الله تعالى، فهذا اليوم آتٍ وواقع لا محالة، وعلى ذلك دلَّ الكتاب والسنة والعقل.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا ترتابوا فيه^(٢).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ معطوف على قوله: ﴿جَمَعْتَهُمْ﴾، وجاء العطف بالواو دون «ثم» التي للتراخي؛ للدلالة على سرعة حسابه عز وجل للخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحٰسِبِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحٰسِبِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، والنور: ٣٩].

و«ما»: موصولة أو مصدرية؛ أي: أُعطيَتْ كل نفس مكلفة من الإنس أو الجن كسبها

(١) في «تفسيره» (٢٢/٢).

(٢) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي كُتِبَ لَآرَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

أو الذي كسبته من خير أو شر وافيًا، أي: أُعطيَتْ جزاء عملها وافيًا ثوابًا كان أو عقابًا، وجُعِلت التوفية للكسب، وجُعِل المَكسوب مكان الجزاء؛ إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُؤْتُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون، أي: وهم لا يُنقصون شيئًا من أعمالهم وثوابها، ولا يتعدى عليهم بالزيادة في عقابهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله - عز وجل - : يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا» (١).

الفوائد والأحكام:

١- ذم أهل الكتاب، والتشنيع عليهم، وتوعدهم بعذاب أليم؛ لكفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين والأمين بالعدل تكبرًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وهذا وعيد لهم ولمن سلك مسلكهم.

٢- وجوب الإبان بآيات الله، والحذر من الكفر بها.

٣- عظم حرمة قتل وقتال النبيين، وأنه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٤- أن قتل الأنبياء وقتالهم لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٥- شدة حرمة قتل وقتال الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ حيث قُرِنَ بالكفر وقتل

(١) أخرجه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٧).

- النبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.
- ٦- فضل الأمر بالعدل والأمين به؛ لأن الله جعلهم بعد النبيين.
- ٧- جواز التهكم بالكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسمى إخبارهم بالعذاب بشارة تهكمًا وسخرية بهم.
- ٨- شدة عذاب الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين والأمين بالقسط؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: موجه حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.
- ٩- تحقير الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين والأمين بالقسط، وحبوط أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، وبين بطلان أعمالهم وجزائها في الدنيا والآخرة.
- ١٠- أن الكفر مُحِيطٌ للأعمال، وأن من أعظم وأشنع أعمال الكفار قتل الأنبياء والأمين بالقسط من الناس.
- ١١- أن الكفار ليس له ناصر يدفع عنهم عذاب الله ونقمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾.
- ١٢- التعجب من حال الذين أتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى القرآن ليحكم بينهم، ثم يتولى فريقٌ منهم ويُعرض مع ما عندهم مما يصدقه في كتبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.
- ١٣- أن العلم إذا لم يصاحبه توفيق من الله تعالى فإنه لا ينفع صاحبه، بل يكون وبالاً عليه، فهو لاء مع ما هم عليه من العلم لم يهتدوا للعمل.
- ١٤- أن اللوم والذم والمواخذة لمن تولى وأعرض إنما تكون بعد إقامة الحججة عليه بدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.
- ١٥- أن التحاكم بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن يجب أن يكون إلى حكم الله - عز وجل - في القرآن الكريم في كل شيء من العبادات والمعاملات وغير ذلك؛ لنسخه لجميع الكتب قبله.

- ١٦- تعظيم القرآن وتشريفه بإضافته إلى الله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿إِن كِتَابَ اللَّهِ﴾.
- ١٧- أن من أهل الكتاب من أجاب الدعوة إلى كتاب الله، فأسلموا وحسُن إسلامهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾. ومفهوم هذا أن فريقاً منهم لم يتولَّ ولم يُعْرِضْ، بل أسلم.
- ١٨- أن أشد ما يكون في المخالفة والرد والعناد، وفي الذم أن يجتمع التولي عن الحق بالأبدان والإعراض عنه بالقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.
- ١٩- أن سبب تولي وإعراض فريق من أهل الكتاب زعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.
- ٢٠- جرأة أهل الكتاب على الكذب على الله وغرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.
- ٢١- تصديق أهل الكتاب بوجود النار، وبالبعث بعد الموت، لكن هذا لا ينفعهم مع توليهم وإعراضهم عن الانقياد والعمل بكتاب الله تعالى.
- ٢٢- التحذير من الاغترار بالأمانى الباطلة والانخداع بها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.
- ٢٣- لا ينبغي أن يغتر الإنسان ويعجب بما هو عليه من تدين، ويُبدل على الله بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِم﴾، وليسأل الله التوفيق للإخلاص والثبات على الحق وحسن الختام.
- ٢٤- تهويل وتعظيم سوء حال ومآل هؤلاء المتولين المعرضين؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية.
- ٢٥- إثبات القيامة والمعاد وجمع العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.
- ٢٦- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿جُمِعْتَهُمْ﴾ بضمير العظمة وهو العظيم سبحانه.
- ٢٧- تعظيم يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ بالتنكير.

٢٨- إعطاء كل نفس عملها وجزاءها وافيًا يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، وأن الجزاء من جنس العمل.

٢٩- انتفاء الظلم في ذلك اليوم، فلا أحد يُظلم بأن يُنتقص من حقه، أو يُزاد في عقابه؛

لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لكن المؤمنين يُعاملون بالفضل، فيُضاعف الله لهم ويزيدهم من فضله، ويعفو عن سيئات من شاء منهم.

وأما الكفار فيُعاملون بالعدل، ويجازون بأعمالهم من غير زيادة أو نقصان.

٣٠- كمال عدل الله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فهذا من

الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها وهو العدل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُ

رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]،

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

[طه: ١١٢]، وغير ذلك.



قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾ ۞ .

قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ ۞ .

في هذه الآية بيان عظمة الله - عز وجل - وكمال ملكه، وتمام قدرته، كما أن فيها تعريضاً بأهل الكتاب، وأن إعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوة منهم وانقراض ملكهم، وإبطالاً لزعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة.

قوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ ۞ : الخطاب والأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد مُعْظِماً لربك ومتوكلاً عليه وشاكراً له ومفوضاً إليه، وهو خطاب له ولن تبعه.

﴿اللَّهُمَّ﴾: أصلها «يا الله» مُنادى حُذِفَ منه ياء النداء.

قال ابن القيم^(١): «لا خلاف أن لفظ «اللهم» معناها: (يا الله)؛ ولهذا لا تُستعمل إلا في الطلب، فلا يُقال: (اللهم الغفور الرحيم)، بل يقول: (الله اغفر لي وارحمني)». واختلَفوا في الميم المشددة من آخر الاسم (اللهم) فقيل: زيدت عوضاً عن حرف النداء؛ ولهذا لا يُجمع بينهما في الشعر، كما قال ابن مالك^(٢):

وشذ يا اللهم في قريض

ومن هذا قول الشاعر:

إني إذا ما حدث أَلَمًا أقول يا اللهم يا اللهم^(٣)

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم كزيادتها في (زرقم) لشديد الزرقة، وفي (ابنم) في (ابن).

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٤٨٣).

(٢) انظر: «ألفيته» (٥٠).

(٣) البيت لأبي خراش الهدلي، ويقال: لأمية بن أبي الصلت. انظر: «المقتضب» (٤/٢٤٢).

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذا^(١): «وهذا القول صحيح لكن يحتاج إلى تنمة، وقائله لحظ معنى صحيحاً لا بد من بيانه، وهو أن الميم تدل على الجمع وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مُطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، كما هو مذهب أساطين العربية».

إلى أن قال: «وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم قد ألحقوها في آخر هذا الاسم (اللهم) الذي يسأل العبد به ربه سبحانه في كل حاجة وكل حال، إيداناً بجمع أسمائه تعالى وصفاته، فإذا قال السائل: (اللهم إني أسألك) كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيداناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ...» وذكر الحديث بطوله.

إلى أن قال: «وهذا القول الذي اخترناه قد جاء عن غير واحد من السلف، قال الحسن البصري: «اللهم»: مجمع الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قوله «اللهم» فيها تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله تعالى، وقال النضر- بن شميل: من قال «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه».

﴿مَلِكِ الْمَلِكِ﴾: بدل من قوله «اللهم»، أو منادى ثانٍ، أي: يا مالك الملك.
ومعنى ﴿مَلِكِ الْمَلِكِ﴾ أي: لك الملك، أي: أنت المالك لكل شيء، المتصرف فيه،
وال (ال) في الملك هنا وفي الموضع بعده للجنس، أي: لك الملك كله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].
﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾: جملة استثنائية فيها مع ما عطف عليها، ومع قوله:

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٤٨٧/١).

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ الآية بيان تمام ملكه، وكمال تصرفه.

و﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول ثانٍ لـ ﴿تُوَقَّى﴾، أي: تُعطي الملك الذي تشاء، أي: الذي تريد كونًا إعطاءه إيَّاه لحكمة تعلمها. وهو مُلك نسبي كَمَا؛ لأن من أعطاه الله الملك لا يملك إلا مملكته التي أعطاه الله إيَّاه دون غيرها.

وهو مُلك نسبي كيفًا؛ لأن من أتاه الله الملك إنما يجوز له التصرف في ملكه وفق ما شرع الله، وليس له التصرف المطلق.

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾: نزع الملك أخذه ومنعه، وفي التعبير بـ«تنزع» إشارة إلى تشبث الملوك بملكهم.

و«ما»: موصولة، أي: وتأخذ الملك من الذي تريد أخذ الملك منه بعد تمليكه، وتمنع الملك ممن تريد فلا يحصل على الملك أصلاً، كل ذلك لحكمة تعلمها.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ أي: وتقوي وتنصر وتؤيد الذي تريد نصره، فتكون له العزة والنصر والغلبة.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ أي: وتذل الذي تريد إذلاله، فيكون ضعيفًا ذليلًا.

والإعزاز قد يكون كونيًا فقط لحكمة وأسباب مادية، بأن يجعل الله تعالى القوة والغلبة لطائفة ولو كانت كافرة على طائفة أخرى، فيعز هذه الطائفة ويذل الأخرى وهذا في الدنيا.

وقد يكون الإعزاز كونيًا شرعيًا؛ بأن يوفق الله الإنسان لأسباب العزة الحقيقية وهي الإيمان بالله تعالى وطاعته والتقرب إليه؛ فهذه هي العزة حقًا في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وبها تحصل الغلبة والنصر مع توافر أسبابه المادية، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ

لِأَعْلَبِ بْنِ أَنَا وَرُسُلِي إِبْرَاهِيمَ قَوْلِي عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

كما أن الإذلال قد يكون كونيًا فقط لحكمة وأسباب مادية، وقد يكون كونيًا شرعيًا، بأن يُجذل الإنسان ويبتلى بأسباب الذل وهي الكفر والمعاصي؛ وهذا هو الذل

حَقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

فالعز كل العز بالإيمان بالله تعالى وطاعته، والذل كل الذل بالكفر بالله ومعصيته،

ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فمعتق نفسه أو موبقها»^(١).

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾: قدّم الخبر للتخصيص، أي: بيدك وحدك الخير كله. خير الدين،

وخير الدنيا، وخير الآخرة، أي: كل ما فيه نفع ومصلحة، دينية أو دنيوية أو أخروية

من التوفيق للإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وأسباب العزة الحقيقية، والنصر-

على الأعداء، والأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والرزق الحلال، وغير ذلك؛

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا

نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النمل: ٥٣].

وفي الحديث: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا

حول ولا قوة إلا بك»^(٢)، وقال ﷺ: «يده ملأى سحاء الليل والنهار»^(٣).

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، أي: لأنك على كل شيء قدير.

«إن»: حرف توكيد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ«قدير»، وقُدِّم عليه لتأكيد عموم قدرته

على كل شيء أياً كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً.

و«القدرة»: فعل الشيء بدون عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ

فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

فالقدرة ضدها العجز، كما أن القوة ضدها الضعف، والقدرة يوصف بها فقط ذوو

الإدراك، أما القوة فيوصف بها ذوو الإدراك وغيرهم، فيُقال: فلان قوي، كما يُقال:

الحديد قوي.

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه أبو داود في «الطب» (٣٩١٩)، من حديث عروة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) سبق تخرجه.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مِنْ شَاءَ بِعَبْرٍ حِسَابٍ﴾ (١٧).

دَلَّلَ عز وجل في الآية السابقة على عظمة ملكه، وتمام قدرته بكونه يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عن من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ثم دَلَّلَ لذلك في هذه الآية بمداولته الليالي والأيام والتصرف بالزمان.

قوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾: أي وتُدخِلُ الليل في النهار، فيطول الليل ويزيد على النهار.

﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: أي وتُدخِلُ النهار في الليل، فيطول النهار ويزيد على الليل. قال ابن كثير^(١): «أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً».

فإذا طال الليل - وذلك في الشتاء - مال الجو إلى البرودة حتى تصل البرودة ذروتها لقلّة زمن وجود الشمس على سطح الأرض وكون شعاعها غير عمودي، وإذا طال النهار - وذلك في الصيف - مال الجو إلى الحرارة حتى تصل الحرارة ذروتها، وذلك لطول زمن وجود الشمس على سطح الأرض وكون شعاعها عمودياً.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته كون هذا التداخل بين الليل والنهار تدريجياً؛ حتى لا يؤثر ذلك على الكائنات والنبات ونظام الحياة؛ ولهذا كانت فصول السنة أربعة فصول: فصل الشتاء، وفصل الصيف، وفصلان انتقالان بينهما وهما: فصل الربيع، وفصل الخريف.

وفي هذا كله من المنافع والمصالح للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك ما لا يُحصى، فيحصل كل نوع من الكائنات الحية والنباتات على ما يناسبه، فبعض الكائنات والنباتات تحتاج إلى البرودة، وبعضها يحتاج إلى الحرارة، وبعضها يحتاج إلى الأمرين، وبعضها يحتاج إلى الاعتدال.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو، وابن

(١) في «تفسيره» (٢/٢٣).

عامر «الميت» بالتخفيف، وقرأ الباقون ﴿الْمَيِّتِ﴾ بالتشديد.
و«الميت» بالتخفيف: الذي قد مات دون الذي لم يمُت، و«الميت» بالتشديد الذي
قد مات والذي لم يمُت وسموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣].
قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميِّتُ ميِّتُ الأحياءِ (١)
أي: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ حياة حسية ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ موتاً حسياً، ومن ذلك أن الله - عز
وجل - خلق آدم وأوجده وأحياه من التراب والطين الذي هو جماد لا حياة فيه، وخلق كل
واحد من ذريته من نطفة وهي ميتة إلى نفخ الروح فيه بعد تمام مراحل تكوينه، كما قال
تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ومن ذلك إخراج الدجاجة من البيضة، وإخراج الزرع من الحبة، والنخلة من
النواة، كما قال تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].
ومن ذلك أن تموت الأم ويخرج ما في بطنها حياً.
وأيضاً ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ أي: الولد المؤمن الحي حياة معنوية قلبية ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾
أي: من الوالد الكافر الميت موتاً معنوياً قلبياً، أي: يخرج الولد المؤمن من الوالد الكافر،
وهذا أعظم وأهم، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: أي: وتخرج المولود الميت موتاً حسياً إنساناً كان أو
حيواناً ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ من الوالد الحي حياة حسية إنساناً كان أو حيواناً، فتلد الأنثى من
الإنسان أو الحيوان وتُسقط مولوداً ميتاً، ومن ذلك إخراج البيضة من الدجاجة.

(١) البيت لعدي بن الرعلاء الغساني، والرعلاء أمه. انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١٥٧/٢)،
و«اللسان العرب» مادة: (موت).

وأيضاً ﴿وَتُخْرِجُ﴾ الولد الكافر الميت موتاً معنوياً قلبياً ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: من الوالد المؤمن الحي حياة معنوية قلبية، أي: وتُخْرِجُ الولد الكافر من الوالد المؤمن. فهو سبحانه الذي يُخْرِجُ المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر، كما قال الشاعر:

من ظاهر النعم الكبرى وباطنها هذا السحاب به ماءً به نار
لا ينكر الله إلا جاهل نَزِقٌ غرُّ بليد سفيه الرأي ختار^(١)

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: (الرزق): العطاء، ويشمل رزق الدنيا والآخرة. ورزق الدنيا نوعان: رزق به قوام الأبدان من المأكل والمشرب والمسكن والمراكب.. ونحو ذلك؛ وهذا يُعْطِيهِ اللهُ لجميع الخلق المؤمن والكافر، والبر والفاجر حتى البهائم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ورزق به قوام القلوب والأرواح من الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وهذا خاص بمن وفقهم الله لذلك - نسأل الله من فضله. أما رزق الآخرة فهو ما أعدّه اللهُ لأهل الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿[غافر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

والمعنى: وتعطي الذي تريد من الخلق حسب ما اقتضته حكمتك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وحذف مفعول «ترزق»، ليعم كل رزق من رزق الدين والدنيا والآخرة. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير أن تُحْصِيَ عليهم ما أعطيتهم وتحده بحد، بل تُعْطِي العطاء الجزيل بلا حد.

وليس معنى هذا أن الأرزاق غير مقدرّة، بل كل شيء مقدر عند الله - عز وجل - كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

(١) البيتان للشاعر وليد الأعظمي. انظر: «المجموعة الكاملة» (ص ١٣٥).

كما أنه سبحانه يُعطي العطاء الجزيل، ولا يخاف أن ينفد ما عنده، ويعطي تفضلاً منه وكرماً بغير عوض.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ ما ينطق عن الهوى وإنما هو مُبلِّغ عن الله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الآية، وفي هذا رد على من يزعمون أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه.

٢- أمر الله - عز وجل - لنبية ﷺ بالثناء عليه وتعظيمه وتفويض الأمر إليه، والتوسل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ الآيتين، وهذا أمر له ﷺ ولأتباعه.

٣- أن الله - عز وجل - مالك الملك كله، فهو المنفرد بالملك، والمنفرد بالتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ الآية.

٤- تمام ملك الله - عز وجل - وكمال تصرفه؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ الآية، وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الآية.

٥- منح الله - عز وجل - الملك من يشاء، ونزعه ومنعه ممن يشاء، وأنه سبحانه هو المعطي المانع؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية المبنية على الحكمة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَتُعْزِمُ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

٧- أن الله - عز وجل - يُعز من يشاء، ويُذل من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُعْزِمُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

٨- أن الله تعالى بيده الخير كله؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾.

٩- ينبغي طلب العزة والخير من الله وحده؛ لأن كل ذلك بيده سبحانه وتعالى، مع بذل الأسباب المادية.

١٠- أن أفعال الله تعالى كلها خير، وأن الشر لا يُضاف إليه، وإن كان سبحانه هو الذي خلق كل شيء؛ ولهذا قال ﷺ: «الخير كله بيدك والشر ليس إليك»^(١).

قال ابن القيم^(٢): «فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما يُنسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله».

وقال السعدي^(٣): «وأما الشر- فإنه لا يُضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلًا ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضاائه، فالخير والشر- كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يُضاف إلى الله».

١١- الإرشاد والتنبيه إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى هذة الأمة بما خصها به من بعثة رسولها محمد ﷺ أفضل الرسل إلى جميع الثقلين، وجعل كتابه مهيمنا على جميع الكتب السماوية، وبلغ ملك أمته مشارق الأرض ومغاربها، وأظهر دينه على الأديان كلها. وفي هذا رد على المعترضين بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نَزَّلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَهْرَيْقِسْمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

١٢- عموم قدرة الله تعالى لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٣- الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأن الثناء مما يتوسل به إلى الله تعالى، فهذا الثناء والتعظيم متضمن طلب العزة والخير من الله وحده؛ لأنه أهل ذلك والقادر عليه. وكما قيل:

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)،

والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه -.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/٤٩٥).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/٣٧٠).

- إذا أُنسَى عليك المرء يوماً كَفَسَاهُ من تعرضه الثناء^(١)
- ١٤ - حكمة الله تعالى البالغة، وقدرته التامة، ورحمته وعنايته بخلقه في إيلاج الليل في النهار، وجعل ذلك بتدرج، وما يترتب على ذلك من اختلاف فصول السنة من حر إلى برد إلى اعتدال، وما في ذلك من المنافع والمصالح العظيمة للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.
- ١٥ - قدرة الله تعالى العظيمة، وحكمته البالغة في إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، حسيًّا كان ذلك أو معنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.
- ١٦ - إخراج الحي من الميت أعظم في القدرة، وأظهر في الحكمة، وأجل في النعمة؛ لهذا قُدِّم - والله أعلم - على إخراج الميت من الحي.
- ١٧ - ينبغي طلب الهداية من الله تعالى وحده، لأنه وحده القادر على التوفيق للهداية والحياة المعنوية بالإيمان.
- ١٨ - بلاغة القرآن وبديع نظمه، ففي قوله تعالى: ﴿مَلِكِ الْمَلِكِ﴾ جناس، وفي قوله: ﴿تُوْفِّي الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ طباق، وكذا في قوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.
- ١٩ - أن الله تعالى يَرزُقُ ويُعطي من يشاء، والأرزاق والخزائن كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾.
- ٢٠ - أن الله - عز وجل - لا حدَّ لرزقه وعطائه، بل يرزق من يشاء بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.
- ٢١ - ينبغي طلب الرزق من الله تعالى وحده؛ لأن الأرزاق بيده، مع بذل الأسباب المادية.

* * *

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص ١٧).

قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُتْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾.

بين الله - عز وجل - في الآيات السابقة في السورة قبل هذه الآيات عداوة المشركين للإسلام وأهله، وحسد اليهود لهم وتوليهم عن الإسلام، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين عن موالاتهم كنتيجة لذلك.

قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «لا» ناهية، و«يتخذ» مجزوم بها، وكسر لالتقاء الساكنين، و﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ فاعل، و﴿الْكَافِرِينَ﴾ مفعول أول ل﴿يَتَّخِذِ﴾ و﴿أَوْلِيَاءَ﴾ مفعول ثان.

والمعنى: لا يجعل المؤمنون الكافرين أولياء لهم، يوالونهم ويناصرونهم ويوادونهم. ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من سوى المؤمنين، أي: لا يوالون الكافرين، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يوالون الكافرين مع المؤمنين، بل يجب عليهم موالاته المؤمنين، وترك موالاته الكافرين.

وأيضاً: لا يجعلون للكافرين ولاية عليهم، ويتصرفون بهم، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُ لُوكُمُ خَبَالًا وَذُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

والنهي للتحريم، فلا يجوز للمؤمنين موالاته الكافرين، ولا مناصرتهم، ولا الانتصار بهم، بل يجب عليهم معاداتهم، والبراءة منهم، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْبِدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهَ عَدِيْبَكُمْ

سُلْطَنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ [الآية: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ [المائدة: ٥١]،
وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [المائدة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال
تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتَهُم بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ
مِنَ الْحَقِّ ﴿١﴾ [المتحنة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَابُوا بِمِ
سِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فخذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ [النساء: ٨٩].

وقال هنا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بأسلوب الغيبة، والإظهار مقام الإضمار، ولم يقل: «لا تتخذوا» كما في آية آل عمران، ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [الآية: ١١٨].
وكما في آية النساء، وآيتي المائدة، وآية التوبة وآية الممتحنة؛ لأنه سبق نداء المؤمنين
في هذه الآيات الخمس بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم جاء خطابهم بالنهي بقوله: ﴿لَا
تَتَّخِذُوا﴾.

كما سبق خطاب المؤمنين بقوله في سورة النساء: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ
سَوَاءً﴾، ثم خاطبهم بقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا﴾.

أما قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلم يسبقه نداء للمؤمنين، ولا خطاب لهم، ولهذا جاء
بأسلوب الغيبة، وجاء بالإظهار للدلالة على أن إيمان المؤمنين يمنعهم من موالاته الكافرين.

وقوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الموالاته إنما تكون بين المؤمنين، كما قال
تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿ وَمَنْ يَعْكَلْ ذَلِكَ ﴾ الإشارة لمصدر الفعل «يتخذ» أي: للمفهوم من النهي السابق، وهو اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي: ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي: فقد برئ من الله، والله بريء منه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة: ٥١).

وقال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿ إِلَّا أَنْ تَكْفُوا مِنْهُمْ تَقِيَّةً ﴾ قرأ يعقوب «تَقِيَّةً» بفتح التاء، وكسر القاف، وتشديد الياء مفتوحة بعدها، وقرأ الباقون بضم التاء، وألف بعد القاف ﴿تَقِيَّةً﴾. والاستثناء منقطع؛ لأن التقية منهم ليست بموالاتة لهم. وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب.

أي: لكن أن تتقوا منهم تقاة بمداراتهم عند الضرورة في الظاهر واللسان، لاتقاء شرهم - دون الباطن والجنان، وهذا أشبه بحال المكره، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن القيم^(١): «معلوم أن التقاة ليست بموالاتة، ولكن لما نهاهم عن موالاتة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم، فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاتة لهم».

وقال ابن كثير^(٢): «إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره، لا بباطنه ونيتته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إنا لنكشر

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٤٩٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/٢٤).

في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»^(١).

﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«يحذر» ينصب مفعولين؛ الأول: ضمير الخطاب الكاف، والثاني: قوله: «نفسه».

والمعنى: ويخوفكم الله نفسه وعقابه، إذا ارتكبتم نبيه فواليتهم الكافرين. وفي ربط التحذير بنفسه - عز وجل - تعظيم للتهديد؛ لأنه العظيم، القادر على كل شيء، الذي لا يقدر أحد على منع عذابه أو رفعه.

﴿وَالِإِلَهِ الْمَصِيرُ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، وقدم الخبر، وهو قوله: ﴿وَالِإِلَهِ﴾ لأجل الحصر، أي: وإلى الله - عز وجل وحده، لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾. وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «وإليه المصير»؛ لتربية المهابة في النفوس، أي: وإلى الله - عز وجل وحده المرجع والمآب، وعليه الحساب

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَالِإِلَهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٤١، فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرِصَادٍ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾﴾.

نهى الله - عز وجل - المؤمنين في الآية السابقة عن موالاته الكافرين، وحذرهم عذابه ونقمته، ثم أكد ذلك بالتنبيه على علمه - عز وجل - بما يخفونه في صدورهم أو يبدونه من موالاته الكافرين وغير ذلك، وعلمه ما في السموات والأرض وقدرته التامة على كل شيء.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ الخطاب والأمر في الآية للرسول ﷺ.

وكثيراً ما يأتي الخطاب له ﷺ مصدرًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهو أمر بالتبليغ

(١) نكشر: أي نضحك في وجوههم ونباسطهم من الكشر، وهو ظهور الأسنان للضحك.

الخاص لهذا القول، يدل على مزيد العناية والاهتمام به والتوكيد له، وإلا فهو ﷺ مأمور بأن يقول القرآن كله ويبلغه للناس.

﴿إِنْ تُخْفُوا﴾ أي: إن تسروا وتكتموا، وهو خطاب للمؤمنين وغيرهم.

﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يعم أي شيء أخفوه من عداوة أو موالاة أو خير أو شر، أو غير ذلك. أي: الذي في قلوبكم أيًا كان، ويعبر بـ«الصدور»؛ لأن القلوب فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ولهذا يقال للقلوب: «ذات الصدور».

﴿أَوْ يُتْدُوهُ﴾ أي: أو تظهروه وتعلنوه، والضمير «الهاء» يعود إلى «ما» الموصولة.

﴿يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿إِنْ تُخْفُوا﴾.

والضمير في قوله: ﴿يَعْلَمَهُ﴾ يعود إلى المفهوم من الفعلين في قوله: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُتْدُوهُ﴾ أي: يعلم ما أخفيتموه وما أبديتموه؛ لأنه - عز وجل - يعلم السر وأخفى، والسر والعلانية عنده سواء، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَهَرُوا بِالْقَوْلِ فإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: في الموضعين اسم موصول يفيد العموم، وكررت لتأكيد عموم علمه عز وجل.

والمعنى: وهو يعلم أزلاً وأبداً جميع الذي في السموات، وجميع الذي في الأرض من المخلوقات والكائنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾ قدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلق به وهو ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم وكمال وتمام قدرته - عز وجل - أي: أن قدرته - عز وجل - نافذة في كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِهِ لِعِجْزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٤].
وقال - عز وجل - في الحديث القدسي: «إني على ما أشاء قادر»^(١).

الفوائد والأحكام:

١- تحريم اتخاذ الكافرين أولياء ومناصرتهم، والانتصار بهم، ووجوب معاداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١].

فلا تجوز موالاته الكافرين ومناصرتهم على أحد من المؤمنين بحال من الأحوال، ولا تجوز مناصرتهم على أحد من الكافرين، إلا إذا كان في مناصرتهم على الكافرين مثلهم مصلحة ظاهرة للمسلمين، كأن يناصر المسلمون الكفار على كفار يخشى المسلمون منهم، فتكون مناصرتهم، لا لمصلحة الكفار، ولكن لمصلحة المسلمين أنفسهم، ولهذا فرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس؛ لشدة عداوة الفرس للمسلمين وتربصهم بهم، وتمزيق ملكهم كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه إليه، بخلاف ملك الروم^(٢).

قال تعالى: ﴿الْعَرَبُ ۙ غَلَبَتِ الرُّومَ﴾ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ [الروم: ١-٥].
كما لا يجوز الانتصار بالكافرين والاستعانة بهم على غيرهم من الكافرين، وهذا ما

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - آخر أهل النار خروجاً (١٨٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرج قصة تمزيق كسرى لكتابه ﷺ، أحمد (٣/٤٤١-٤٤٢)، من حديث التنوخي رسول هرقل.

وأخرج قصة ملك الروم «هرقل» وإكرامه لمن وفد عليه من الصحابة - أخرجه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما - البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣).

يدل عليه ظاهر الآية، وقد روي أنه ﷺ قال لكافر تبعه يوم أحد: «ارجع فلن استعين بمشرك»^(١).

لكن إن احتاج المسلمون إلى الانتصار بهم، وكان في ذلك مصلحة ظاهرة للمسلمين فقد أجاز ذلك بعض أهل العلم بشرط أن يكون ذلك عند الضرورة، ويقدر الحاجة، ودفع الضرر عن المسلمين، من غير مداهنة للكافرين على حساب الدين والأخلاق، ولا مذلة على المؤمنين.

وقد استدلوا على هذا بأن النبي ﷺ استعار يوم خيبر أدرعاً من صفوان بن أمية، وكان يومئذ مشركاً. فقال: «أغصباً يا محمد؟» فقال: «بل عارية مضمونة»^(٢).
وقد شهد صفوان حينئذ مع النبي ﷺ وهو لم يسلم بعد^(٣).
وحالف ﷺ خزاعة^(٤).

- ٢- أن الإيمان الحقيقي يمنع من اتخاذ الكافرين أولياء، ويوجب عداوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، فعلق الحكم بالمؤمنين، وبوصف الإيمان، فمن وإلى الكافرين فإيماؤه ناقص، ويخشى عليه ما هو أعظم من ذلك.
- ٣- وجوب الموالاة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].
- ٤- براءة الله - عز وجل - ممن اتخذ الكافرين أولياء، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٨١٧)، وأبوداود في الجهاد (٢٧٣٢)، والترمذي في السير (١٥٥٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في البيوع - تضمين العارية (٣٥٦٢)، وأحمد (٤٠١/٣)، من حديث صفوان بن أمية رضي الله عنه.

(٣) انظر: «فتح الباري» (١٧٩/٦).

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٤٠/١٣) حديث (٥٩٩٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، (٢٧٣٢). وانظر: «السيرة النبوية» (٣/٣٢١-٣٢٦)، «فتح الباري» (٥/٣٣٧-٣٣٨).

- فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴿٦٧﴾ ومن برئ الله منه تولاه الشيطان.
- ٥- أن اتخذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب؛ لأن الله رتب عليه براءته من فاعله، وما رتب عليه براءة الله، أو براءة رسوله من فاعله فهو من الكبائر.
- ٦- لا يجوز أن يكون لأحد من الكفار ولاية على أحد من المسلمين، كما قال تعالى:
- ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿٦٨﴾ [النساء: ١٤١].
- ٧- في براءة الله - عز وجل - من يوالي الكافرين من دون المؤمنين إثبات ولايته عز وجل للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى:
- ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [آل عمران: ٦٨].
- ٨- تقدير الدين الإسلامي لكل حال ولكل ظرف قدره، ورفع الحرج عن الأمة في اتخاذ التقاة من الكفار ومداراتهم عند الضرورة؛ لاتقاء شرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ تَقْنَةً﴾.
- ٩- تحريم الركون إلى الكفار ومداهنتهم على حساب ديننا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ تَقْنَةً﴾ أي: لاتقاء شرهم، دون الرضا بما هم عليه؛ ولهذا قال بعده:
- ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.
- ١٠- التحذير من نقمة الله وعقابه، وأليم عذابه، لمن اتخذ الكافرين أولياء؛ لقوله تعالى:
- ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وفي هذا من الوعيد ما لا يخفى.
- ١١- جواز إضافة لفظ «نفس» إليه - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.
- ١٢- أن مصير جميع الأمور والأحكام والخلائق إلى الله - عز وجل - وحده، لا إلى غيره في الدنيا والآخرة، وسيحاسب العباد على أعمالهم، ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالِ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وفي هذا وعيد لمن خالف أمر الله، ووعد لمن أطاع الله.
- ١٣- أن القرآن الكريم كلام الله - عز وجل - أنزله على رسوله ﷺ، ولم يتقوله ﷺ من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وفي هذا رد على من زعموا أنه اختلقه وافتراه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقْلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]،

١٤- الأمر بإبلاغ الناس بعلم الله - عز وجل - بما يخفون في صدورهم، وبما يبدون؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ﴾ وذلك؛ ليحاسب المرء نفسه على ما يخفي وما يعلن، قبل محاسبته على ذلك.

١٥- إحاطة علم الله - عز وجل - بما يخفي الناس في صدورهم وبما يبدونه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ﴾ ومقتضى علمه - عز وجل - محاسبتهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

١٦- التحذير من أن يخفي الإنسان في نفسه ما لا يرضي الله - عز وجل - من موالاة الكافرين، أو غير ذلك.

١٧- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٨- كما أن في الآية وعيدًا وتحذيرًا ظاهرًا لمن أخفى الشر أو أبداه، ففيها في المقابل وعد لمن عمل الخير أو نواه.

١٩- سعة علم الله - عز وجل - وإحاطته بما في السموات وما في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

٢٠- عموم قدرة الله - عز وجل - وتامها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ .

قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا﴾ «يوم»: مفعول به لمقدر محذوف تقديره: «اذكر» أي: اذكر للناس هذا اليوم العظيم، وذكرهم به، ويحتمل كون «يوم» منصوبًا بـ«تود» في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ .

﴿تَجِدُ﴾ علمية تنصب مفعولين، الأول: «ما» فهي اسم موصول بمعنى «الذي» مبني في محل نصب، والثاني قوله: ﴿مُحَضَّرًا﴾ .

ويجوز أن تكون «تجد» بمعنى «تصيب» فتعدى إلى مفعول واحد هو «ما» الموصولة، و«محضراً» حال.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: كل نفس من أنفس المكلفين بعبادة الله - عز وجل - وهم الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. أما ما عدا الإنس والجن فهم غير مكلفين، وغير محاسبين كالملائكة؛ لأنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحریم: ٦]، وكذلك البهائم، وإنما يقتصر لبعضها من بعض في ذلك اليوم، ثم يقال لها: «كوني تراباً» (١).

﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ «ما» اسم موصول يفيد العموم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ «من» لبيان الجنس.

أي: يوم تجد كل نفس جميع الذي عملته من الخير قليلاً كان أو كثيراً ﴿مُحَضَّرًا﴾

(١) كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠).

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِتَائِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والمراد بالخير هنا ما يشمل الأعمال الصالحة كلها، قولاً، وفعلًا، وبذلاً، وغير ذلك، سواء كانت مما يتعدى نفعه إلى الآخرين، كالدعوة إلى الله، والإنفاق في وجوه البر ومساعدة المحتاجين ونحو ذلك. أو مما يقتصر نفعه على فاعله كالصلاة والصيام ونحو ذلك.

﴿مُحَضَّرًا﴾ أي: حاضرًا معدًا جاهزًا - بأمر الله - عز وجل - لتراه وتستبشر به، وتجازى عليه - كما قال تعالى: ﴿عَمِلْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَانًا لِّبُرِّ مَا وَعَمِلْتُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]. فإذا رأى الإنسان ما عمله من خير فرح بذلك واستبشر وسره ذلك.

﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ﴾ الواو: استثنائية، و«ما» اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره جملة ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: والذي عملته من سوء ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

ويحتمل كون «الواو» عاطفة، فتكون «ما» معطوفة على «ما» في قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا﴾ وفي الكلام حذف تقديره: وتجد ما عملت من سوء محضراً. والأول وهو كون الجملة استثنائية - أولى من حيث الإعراب، لعدم الحاجة فيه إلى التقدير، وهو الأصل.

كما أنه أصح من حيث المعنى، فإنه على القول بأن الجملة معطوفة يكون التقدير: وتجد ما عملت من سوء محضراً.

وهذا إنما يكون بالنسبة لأعمال الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وأما بالنسبة لأعمال المؤمنين، فما كان منها من خير أحضر لهم - كما في أول الآية، وما كان منها من سوء فإنه لا يحضر لهم، وإنما يقررون به، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي، ربي. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك. قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار، والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]» (١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله - عز وجل -: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَيْرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، قال: ذاك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك» (٢).

ومعنى قوله: ﴿مِنْ سَوْءٍ﴾ أي: من عمل سيئ، يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره؛ لأن الأعمال السيئة، وإن لم تتعد مباشرة إلى الآخرين فلها آثارها السيئة على البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿تَوَدُّ﴾ خبر «ما» كما تقدم، أي: تحب محبة شديدة، والود والمودة: خالص المحبة. ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ﴾ «لو»: إذا وقعت بعد «ودّ» فهي مصدرية، غير عاملة، وهي داخله على فعل محذوف، تقديره: لو ثبت أو حصل أن بينها وبينه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، التقدير: أن يردوكم. وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، أي: أن يعمر.

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٦)، وأبوداود في الجنائز (٣٠٩٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٩) [القلم: ٩]، أي: أن تدهن.
وقيل: إن «لو»: شرطية، وقيل: إنها زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.
والضمير في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمَا﴾ يعود إلى النفس، والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾
يعود إلى «ما» أي: إلى الذي عملته من سوء.

﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: زمناً طويلاً متأخراً، ومكاناً بعيداً.
أي: تود أنها لم تعمله، ولم يُحضر لها، أو لم تُذكر به، وأنها بعيدة عنه، وبعيد عنها،
كل البعد، بُعد ما بين المشرق والمغرب، كما يتمنى قرين السوء البعد عن قرينه الشيطان،
قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَلَا تَنْتَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنْ
السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ
الْقَرِينُ﴾ (٣٨) [الزخرف: ٣٦-٣٨].

فتأمل أخي الكريم هذا الموقف، عندما تُحضر للإنسان صحائف أعماله، فأخذ كتابه
بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، من وراء ظهره، وتأمل كم هو الغبن، بين هذا وذاك، كما قال تعالى:
﴿يَوْمَ نَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافِينِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٦) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنظَرُ الْمُزْمَأُ قَدَمَتَ يَدَاهُ﴾ [النبا: ٤٠].
وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه
فلم يتأخر من أراد تقدماً
فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
ولم يتقدم من أراد تأخراً^(١)

﴿وَيُحَذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: ويحذركم الله نفسه، وعقابه، وأليم عذابه، وكرر
التحذير هنا وقد سبق في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية؛
لأن المقام يقتضيه، فالتحذير الأول من موالات الكافرين، والتحذير الثاني من أن يجدوا

(١) البيتان لابن هانئ. انظر: «ديوانه» ص (١٤٠).

يوم القيامة ما عملوا من سوء محضراً.

وقد يكون التحذير الثاني لزيادة التأكيد.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ «رؤوف» على وزن «فعول» صفة مشبهة يدل على أنه -

عز وجل - ذو الرأفة الواسعة العظيمة، والرأفة: أشد الرحمة، وأخصها وأرقها.

﴿بِالْعِبَادِ﴾ المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الخضوع والانقياد، لقدر

الله الكوني، كما في قوله - عز وجل - : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ

عَبْدًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

والمعنى: أن الله - عز وجل - رؤوف بالخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهمهم،

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ

يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ بعد قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ توجيه

للعباد للجمع بين خوف الله - عز وجل - ورجائه، وبيان أن تحذيره - عز وجل - لهم

نفسه - هو من رأفة الله بهم لينجوا من عذابه. كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ

وَمِنْ خَشْيَتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، لِيُعْبَادُوا فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

زعم أناس محبة الله فأمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ - أن يقول لهم ولغيرهم ممن

يزعم هذا الزعم: إن كنتم صادقين فيما تقولون، فاتبعوني، فذلك علامة صدق محبة الله،

وهو الميزان الذي يعرف به من أحب الله حقيقة، ممن ادعى ذلك مجرد دعوى، بلا دليل،

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿قُلْ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ. وتصدير الخطاب له ﷺ بـ ﴿قُلْ﴾ للعناية

والاهتمام والتوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وكما في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، والخطاب لكل من ادعى أنه يحب الله.

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فيما جئتمكم به، وفيما أنا عليه من الشرع؛ عقيدة وقولاً وفعلاً وتركاً، ظاهراً وباطناً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَنكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى في امتداح المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢).

فجعل عز وجل من شرط صدق محبة الله - عز وجل - اتباعه ﷺ، وهذا هو الميزان العدل في محبة الله - عز وجل - وهو اتباعه ﷺ.

أما من ادعى محبة الله - عز وجل - أو محبة الرسول ﷺ، وهو غير متبع له ﷺ، فدعواه كاذبة باطلة لا حقيقة لها، كما قيل:

وكل يدعي وصلاً بليلي
وقال الآخر:

والدعوى إن لم يقيموا عليها
وقد أحسن القائل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا محال في القياس بديع

(١) أخرجه مسلم في الأفضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) نظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية. (٧١ / ٤).

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع^(١)

قوله: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ رتب على اتباعه ﷺ فائدتين عظيمتين ومنفعتين كبيرتين، هما: محبة الله لهم، ومغفرته.

وقوله: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ أي: يحبكم الله؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحب الله، وصدق ذلك باتباعه للرسول ﷺ أحبه الله. قال ابن القيم: «فجعل محبة العبد لربه موجباً مقتضياً لمحبة الرب عبده».

والشأن كل الشأن في محبة الله - عز وجل - للعبد، فهي أعظم وأسمى، وأجل وأعلى من محبة العبد لله.

قال ابن القيم: «وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله»^(٢).

وقال ابن كثير^(٣): «أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول».

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، «ذنوبكم، ذنوب»: جمع مضاف إلى معرفة فيعم جميع الذنوب، أي: ويغفر لكم جميع ذنوبكم، بسترها، والتجاوز عنها، بسبب اتباعكم للنبي ﷺ، ومحبة الله لكم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٤).

وبتيسير أسباب المغفرة لكم بتوفيقكم للتوبة، ونحو ذلك.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «غفور» على وزن «فعلول» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه - عز وجل - ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ

(١) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الكامل في اللغة» (٤/٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٤٩٧/١).

(٣) في «تفسيره» (٢٥/٢).

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح».

﴿الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾ [فصلت: ٤٣].

فهو عز وجل يستر الذنب ويتجاوز عنه، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - فيقول الله - عز وجل - : أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» (١). ومنه سمي «المغفر» وهو «البيضة» التي توضع على الرأس تستره، وتقيه السهام.

﴿رَحِيمٌ﴾: على وزن «فعليل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه - عز وجل - ذو الرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُم مَّا أَقْرَبُ وَيَشَأْ يُعَذِّبَكُم﴾ [الإسراء: ٥٤].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وباجتماع المغفرة والرحمة يزول المرهوب، ويحصل المطلوب. وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن المغفرة وقاية وتحلية، والرحمة عناية وتحلية، والوقاية والتخلية قبل العناية والتحلية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾. بين في الآية السابقة أن علامة صدق محبة الله اتباعه ﷺ، وأمر بذلك، ثم بين في هذه الآية حقيقة اتباعه ﷺ وصفتها.

(١) سبق تخريجه قريباً.

قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، وصدر بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد. و«الطاعة»: الامتثال والانقياد والموافقة، بفعل المأمور، وترك المحذور، أي: قل يا محمد للناس ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما يأمركم الله به، وترك ما ينهاكم عنه.

﴿وَأَرْسُولًا﴾ «ال» للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمداً ﷺ، أي: وأطيعوا الرسول محمداً ﷺ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه. و«الرسول» في الشرع: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وعطف «الرسول» على اسمه عز وجل «الله» بالواو التي تفيد التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذا بخلاف باب القدر والمشية، فلا يجوز عطف اسمه ﷺ ولا غيره بالواو على اسمه - عز وجل - ولهذا لما قال رجل: يا رسول الله، ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: «أجعلتني لله عدلاً، قل: ما شاء الله وحده»^(١).

وفي رواية: «إذا حلف أحدكم، فلا يقل: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت»^(٢).

وذلك لأن مشيئة الرسول ﷺ وجميع الخلق إنما هي تبع لمشيئة الله - عز وجل - وليست من مشيئة الله.

وفي قوله: ﴿وَأَرْسُولًا﴾ دون إعادة الفعل «أطيعوا» دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ تجب تبعاً لطاعة الله تعالى وأنها طاعة لله.

كما أنها أيضاً تجب استقلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢،

(١) أخرجه أحمد (١/٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٨)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦)، وابن

السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جاء هذا في رواية ابن ماجه.

التغابن: [١٢]، بدليل إعادة الفعل «أطيعوا».

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن تولوا وأعرضوا عن طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ بقلوبهم وأبدانهم وجوارحهم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ أي: فهم كافرون، بتوليهم عن طاعة الله ورسوله، والله لا يحب الكافرين منهم ومن غيرهم، بسبب كفرهم.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «لا يحبهم» للتسجيل والحكم عليهم بالكفر، بسبب توليهم، ولتعميم حكم الكفر على كل متول عن طاعة الله ورسوله، ونفي محبته - عز وجل - عن كل كافر منهم ومن غيرهم، ولبيان العلة في نفي محبته عنهم، وهي كفرهم، إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات السابقة واللاحقة.

ومفهوم الآية أنه - عز وجل - يحب المؤمنين المتقين كما قال - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤، ٧].

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية.
- ٢- التحذير من يوم القيامة، والتذكير بها فيه من إحضار الأعمال، وعظيم الأهوال، والحث على تذكره، وأن يكون منا على بال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية.
- ٣- أن كل نفس ستجازى بما عملت، من خير أو سوء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.
- ٤- أن كل نفس عملت خيراً قليلاً كان أو كثيراً ستجده حاضرًا يوم القيامة، فتفرح وتستبشر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.
- ٥- أن عمل الشر يسوء صاحبه في الحال والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾

- فسماه سوء؛ لأنه يسوء صاحبه، وقد يسوء غيره.
- ٦- أن كل نفس عملت سوءً ستود في ذلك اليوم التخلص منه، والبعد عنه، وأنها لم تعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وهيئات ذلك.
- ٧- إحصاء جميع أعمال العباد؛ لأن إحصارها لهم ومجازاتهم عليها يستلزم إحصاءها قبل ذلك، وفي ذلك كله دلالة على كمال رقابة الله - عز وجل - وعظيم قدرته.
- ٨- الترغيب في عمل الخير قليلاً كان أو كثيراً، والترهيب من عمل الشر قليلاً كان أو كثيراً.
- ٩- تحذير الله - عز وجل - العباد نفسه، ونقمتهم وعقابه، وأليم عذابه، إن هم خالفوه وعصوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وذلك من رأفته - عز وجل - بهم، ولهذا أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.
- ١٠- إثبات صفة الرأفة لله - عز وجل - وهي أخص من الرحمة، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. فهو - عز وجل - ذو الرأفة العظيمة، واسمه «الرؤوف» سبحانه.
- ١١- أن رأفة الله - عز وجل - عامة لجميع العباد، مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فهو رؤوف بعباده جميعاً يسعهم حلمه ورحمته وفضله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].
- ١٢- عبودية الخلق كلهم لله، بالمعنى العام للعبودية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فجميع الخلق عبيد لله - عز وجل - خاضعون لحكمه وقدره الكوني.
- ١٣- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ.
- ١٤- أمر الله - عز وجل - لرسوله ﷺ بتحدي من يدعون محبة الله - عز وجل - بتحقيق ما يصدق دعواهم، وهو اتباعه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.
- ١٥- أن من لازم أي دعوى إقامة الدليل عليها، وفي الحديث: «البينة على المدعي،

واليمين على من أنكر»^(١).

١٦- أن الميزان العدل في صدق محبة العبد لله - عز وجل - هو اتباع الرسول ﷺ، فمن اتبع الرسول ﷺ فهو محب لله تعالى، وبحسب قوة اتباعه للرسول ﷺ تكون قوة محبته لله عز وجل.

١٧- جواز ادعاء محبة الله شريطة أن يكون على ذلك بينة، وهي اتباع الرسول ﷺ؛ لأن التحدي في الآية والإنكار لمن ادعى ذلك بلا بينة.

١٨- أن محبة الله - عز وجل - من أعظم المطالب، حتى إنه ليتشوف إليها ويدعيها من ليس أهلاً لها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

١٩- أن من أعظم أساليب إفحام مدعي الكذب إلزامه بفعل ما يُصدق دعواه، فهؤلاء ادعوا محبة الله فالزموا باتباع الرسول ﷺ لتصدق دعواهم.

٢٠- أن اتباع الرسول ﷺ سبب لمحبة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

٢١- أن الشأن كل الشأن في محبة الله - عز وجل - للعبد، لا في محبة العبد لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ولم يقل «تحبوا الله» مع أنهم إنما ادعوا أنهم يحبون الله، فأمرهم بما يكون برهاناً وسبباً لمحبة الله لهم وهو اتباعه ﷺ، وهو بلا شك دليل على محبتهم لله عز وجل.

٢٢- إثبات محبة العبد لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ وهي

واجبة ولا يصح الإيثار إلا بها، ويجب تقديمها على كل محبوب. قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتجب محبته - عز وجل - لذاته، ولما أنعم به علينا من النعم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

بِكُمْ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّكُمْ فَحِينِ اللَّهُ﴾ [النحل: ٥٣].

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٤١) - بلفظ: «البيئة على المدعي واليمين على المدعى عليه» - من

حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: «في إسناده مقال».

كما تجب محبة الرسول ﷺ، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين»^(١).

٢٣- إثبات المحبة لله - عز وجل - كما يليق بجلاله وعظمته، وأنه - عز وجل - يحب

من اتبع الرسول ﷺ محبة حقيقية؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحب الله، وصدق ذلك باتباعه للرسول ﷺ

أحبه الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ لكن شتان بين

المحبتين، فمحبة الله للعبد أعظم وأسمى، وأجل وأعلى.

٢٥- أن اتباع الرسول ﷺ سبب لمغفرة الله - عز وجل - للذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

٢٦- عظم فضل الله وجوده وإحسانه، حيث رتب على اتباع الرسول ﷺ هاتين

الفائدتين العظيمتين، وهما محبته - عز وجل - للعبد، ومغفرته لذنوبه.

٢٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: يستر

الذنب، ويتجاوز عنه.

٢٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله - عز وجل - رحمة ذاتية ثابتة له - عز وجل - ورحمة

فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة

بالمؤمنين؛ لقوله ﴿رَحِيمٌ﴾.

٢٩- في اقتران مغفرته - عز وجل - برحمته يزداد كما لا إلى كمال، حيث يجمع لعباده بين

المغفرة، التي بها يزول المرهوب، والرحمة التي بها يحصل المطلوب - نسأل الله

تعالى من فضله.

٣٠- الرد على من يزعمون أنهم أولياء الله، ويدعون الناس إلى تعظيمهم مع مخالفتهم

للرسول ﷺ، وصدق الله العظيم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

(١) أخرجه البخاري في الإبان (١٥)، ومسلم في الإبان (٤٤)، والنسائي في الإبان وشرائعه (٥٠١٣)،

وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

- ٣١- وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ و صدر الخطاب بقوله: «قل» للعناية والاهتمام والتوكيد.
- ٣٢- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ أي: الرسول المعهود في الذهن، وهو محمد بن عبد الله ﷺ.
- ٣٣- أن طاعة الرسول ﷺ تجب تبعاً لطاعة الله تعالى وهي طاعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾.
- كما تجب طاعته استقلالاً، فيما أمر به، مما لم يأت الأمر به في القرآن الكريم؛ لأن الله - عز وجل - أمر بطاعته مطلقاً، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة: ٩٢، التغابن: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩، النور: ٥٤، محمد: ٣٣]، بتكرار الفعل «أطيعوا».
- ٣٤- الرد على الذين ينادون بالأخذ بالقرآن، دون السنة، كما قال ﷺ: «رب رجل شعبان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه» قال ﷺ: «ألا إنما حرم رسول الله، مثل ما حرم الله»^(١).
- وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].
- ٣٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله - عز وجل - في باب الطاعة، بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.
- ٣٦- أن من تولى عن طاعة الله ورسوله ﷺ، فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾.
- ٣٧- نفي محبة الله - عز وجل - عن جميع الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾.

(١) أخرجه أبو داود في السنة - لزوم السنة (٤٦٠٤، ٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣، ٢٦٦٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة (١٢، ١٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ١٣٤)، من حديث المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه.

٣٨- أن سبب عدم محبته - عز وجل - للكافرين هو كفرهم.

٣٩- إثبات محبة الله - عز وجل - للمؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

فمفهوم الآية محبته - عز وجل - للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

٤٠- التحذير من التولي والإعراض عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأن الله رتب على

ذلك الكفر وعدم محبته - عز وجل - وذلك مؤذن بغضبه وعذابه، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا مَنِ اللَّهُ إِنِّي نَرَىٰ مِنَ يَشَاءُ يَغَيِّرُ حِسَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾: «إِنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿اصْطَفَى﴾:

الاصطفاء الاختيار والاجتباء، وصفوة الشيء خياره وأفضله، واصطفى الشيء أخذ صفوته.

أي: إن الله اجتبى آدم عليه السلام واختاره نبياً وفضله، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها ليعود إليها أفضل مما كان عليه قبل ذلك، وأوحى إليه بشرع تعبد الله تعالى به، وبقي الناس عليه مدة لم يحصل بينهم اختلاف، فلما اختلفوا بعث الله النبيين.

كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩].

﴿وَنُوحًا﴾ أي: واصطفى نوحاً عليه السلام، واختاره نبياً رسولاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١].

وجعله أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشرك الناس وعبدوا مع الله غيره.

كما جاء في حديث الشفاعة: أن آدم عندما يعتذر عن الشفاعة يقول: «ائتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»^(١).

ونجّاه ومن اتبعه في السفينة، وأغرق من عصاه، وجعل النبيين بعده من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وذكر الله - عز وجل - نوحًا بعد آدم؛ لأنه النبي الثاني، والأب الثاني للبشرية بعد آدم؛ لأن البشر كلهم بعده يرجعون إلى أبنائه الثلاثة: (سام، وحام، ويافث)، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَلْبَابِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

﴿وَأَلَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: واصطفى (آل إبراهيم) واختارهم واجتباهم وفضلهم، (وآل إبراهيم) هم: ذريته وعشيرته وقرابته، فاختار إبراهيم نبيًا رسولًا، واتخذه خليلاً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وجعل النبوة بعده في عقبه وذريته، ونصّ على آله - والله أعلم - مع أنه يدخل فيهم من باب الأولى لكثرة الرسل فيهم، ولأن فيهم أفضل الرسل وسيدهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٨٤) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٨٥) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَانَ أَكْبَرًا فَضَلَّلْنَا عَلَى الْغُلَامِ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦].

﴿وَأَلَّ عِمْرَانَ﴾ أي: واصطفى (آل عمران) واختارهم، و(عمران): هو والد مريم أم عيسى عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ [التحريم: ١٢].

ويدل على هذا قوله بعده: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

(١) أخرجه البخاري في «الأنبياء» - قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] (٣٣٤٠)، ومسلم في «الإيمان» أول أهل الجنة منزلة فيها (١٩)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٣١٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

و(آل عمران): هم أهل بيته امرأته التي أثنى الله تعالى عليها بقوله: ﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

و«مريم» ابنتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وعيسى ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهم مصطفى من مصطفى، من مصطفى من مصطفى.
فاصطفى الله آدم، واصطفى من ذريته نوحًا، واصطفى من ذرية نوح آل إبراهيم، واصطفى من آل إبراهيم آل عمران.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: «العالمين» جمع «عالم» بفتح اللام، وهو كل من سوى الله تعالى. والمعنى: اصطفينا هؤلاء المذكورين، واخترناهم، وفضلنا كلاً منهم على عالم زمانه، ومنهم من اصطفينا وفُضِّلَ على جميع الخلق، فالرسل والأنبياء أفضل الخلق كلهم، وأفضلهم أولوا العزم من الرسل، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى - على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل. ويدخل في اصطفاء وتفضيل المذكورين من تبعهم من المؤمنين والصالحين.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - «قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: «هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد. يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨] وهم المؤمنون» (١).

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤].
قوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾: منصوب بدلاً من ﴿آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ أو حال من آل إبراهيم وآل عمران.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣٢٨/٥)، وابن حبان في «تفسيره» (٦٣٥/٢).

﴿ذُرِّيَّةً﴾: مأخوذ من (ذراً) بمعنى: خلق، كما قال تعالى: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١]، أي: يخلقكم فيه. والمعنى على هذا: أن هؤلاء الأصناف الأربعة (ذرية) أي نسلًا.

﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾: فكلهم أولاد آدم، ومتوالد بعضهم من بعض، وبعضهم من بعض في جنس الخلقة، وفي الدين، والأخلاق والآداب، وفي التسلسل في الاصطفاء، وعلى هذا تكون الذرية شاملة للأصول والفروع.

ويُحتمل أن ﴿ذُرِّيَّةً﴾ مأخوذ من (وذر) بمعنى: ترك، كما في قوله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرًا من أن تذرهم عالة يتكفون الناس»^(١).
وعلى هذا يكون المراد بالذرية: الفروع، أي: الأولاد الذين خلفهم وتركهم الإنسان بعده.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ذو سمعٍ واسعٍ يسع جميع الأصوات والأقوال ويحيب الدعوات.
﴿وَعَلِيمٌ﴾ أي: ذو علمٍ واسعٍ يسع كل شيء، يصطفي ويفضل من هو أهل لذلك بعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠-٩١].

فاصطفاه لمن اصطفاه من عباده عن سمعٍ منه - عز وجل - لأقوالهم، وعلمٍ منه بضمايرهم وأفعالهم، وأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾﴾.

تقرير لاصطفاء الله - عز وجل - آل عمران، وبيان له.

(١) أخرجه البخاري في الجنايز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وقد فصل عز وجل في هذه الآية وما بعدها قصة أم عمران وزكريا ومريم وعيسى؛ لأن أول هذه السورة نزل في وفد نجران، وهم من النصارى الذين جاؤوا لمحاجة النبي ﷺ؛ ليعلموا أنه ﷺ أعلم منهم بما جرى لأسلافهم. قوله ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ «إذ»: طرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.

﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرًا تُعِزُّ عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَجِئْنَا بِهَا صَاحِبَاتٍ لَّهَا فِي هَذِهِ حُرْمٌ﴾: أي: حين قالت امرأة عمران - وقد مات زوجها عمران وهي حبلى. وهي أم مريم، أي: جدة عيسى ابن مريم عليهما السلام. ﴿رَبِّ﴾ أي: (يا رب) حذفت منه ياء النداء اختصاراً؛ لكثرة الاستعمال، وحذفت منه ضمير المتكلم الياء؛ تخفيفاً، وأصله: (يا ربي).

﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾ (النذر): أن يلزم المرء نفسه بشيء لله لم يكن واجباً عليه في الأصل. ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي في بطني من الحمل، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو أكثر.

﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: مخلصاً لعبادتك، وخدمة بيتك المقدس. والمعنى: إني التزمت أن يكون الذي في بطني محرراً من خدمتي، مخلصاً لعبادتك، وخدمة بيتك المقدس، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك تعظيماً لبيت المقدس. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾: (التقبل): أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: فتقبل مني هذا النذر وهذا العمل بجعله خالصاً لوجهك وفق شرعك، وأثبني عليه. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: هذه الجملة استثنائية للتعليل، أي: لأنك أنت السميع العليم.

و﴿السَّمِيعُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أنه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات والأقوال، يسمع الدعاء سمع إدراك، وسمع إجابة، كما في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

﴿الْعَلِيمُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أنه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]. والمعنى: لأنك أنت السميع للدعاء، المستجيب له، العليم بنيتي وبالحال

وبالأصلح وبكل شيء. وقد أكدت هذا بـ «إِنَّ» وبضمير الفصل «أنت».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي: فلما ولدتها، وأنت الضمير مراعاة لمعنى «ما» في قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛ لأنها وضعت أنثى.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: يارب.

﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ «أنثى» حال، أي: إني ولدتها حال كونها أنثى، وقيل: بدل من «ها» بدل كل من كل، أي: إني وضعت أنثى.

وكأنها بهذا تعتذر أو تتحسر؛ لأنها كانت ترجو أن يكون ما في بطنها ذكرًا، وإنما قالت هذا؛ لأنها جهلت قدر هذه المولودة، وما سيكون لها من شأن عظيم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾: الجملة اعتراضية بين قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾.

قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «وضعت» بإسكان العين وضم التاء فيكون هذا من كلام امرأة عمران، احتراसा منها، أي: ولست أخبر الله بما وضعت، فهو أعلم بذلك.

وقرأ الباقون: ﴿وَضَعْتَ﴾ بفتح العين وإسكان الياء، فيكون هذا من كلام الله تعالى. وفي هذا الاعتراض مع بيان علمه - عز وجل - بما وضعت فائدتان:

الأولى: دفع ما قد يتوهم من أنها قصدت إعلام الله تعالى بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وهي لم تقصد ذلك قطعًا؛ لعلمها أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثانية: الإشارة إلى أنه سيكون لها شأن عظيم، مما لم تعلمه أمها ولا غيرها.

وقوله ﴿أَعْلَمُ﴾: اسم تفضيل، أي: أنه - عز وجل - أعلم منها ومن كل أحد بما وضعت.

﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ «ما»: موصولة، والعائد ضمير في محل نصب مفعول به، أي: بالذي وضعته في كونه أنثى، وفيما سيكون لهذه الأنثى من شأنٍ عظيم، خير من مطلق الذكر.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾: هذا وما بعده من تنمة كلام امرأة عمران.

وقيل: يُحتمل أن قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ من كلام الله - قصد به التماس العذر لها في التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى؛ ولهذا جُبلت النفوس على الرغبة فيه.

والظاهر أن قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ كالذي بعده من كلام امرأة عمران على القرائتين - معاً - وهو أظهر على قراءة من قرأ: (والله أعلم بما وضعت) بضم التاء، ويدل عليه قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

كما يدل عليه السياق السابق.

والمعنى: فإن امرأة عمران كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكراً فتجعله مخلصاً لعبادة الله تعالى وخدمة بيت المقدس، فلما كان أنثى قالت هذه المقالة: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ اعتذاراً منها وتحسراً وانكساراً، أي: وليس الذكر في الخدمة لبيت المقدس والعبادة فيه كالأنثى، بل هو أقوى وأقدر، وخدمته أتم وأكمل وأدوم، بخلاف الأنثى؛ فهي أضعف، وخدمتها أقل لخروجها من المسجد اضطراراً حال الحيض والنفاس.

وحقاً، فالذكر ليس كالأنثى، والأنثى ليست كالذكر، فلا مساواة بينهما، فلكل منهما ميزاته وخصائصه وقدراته العقلية والبدنية وغير ذلك، فالذكر من حيث العموم أكمل عقلاً، وأقوى بدناً، وأقدر على تحمل المشاق، كما أن الرجل من حيث العموم أفضل من المرأة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهذا لا يمنع أن يكون من النساء من هي خير من كثير من الرجال في كمال عقلها، وقوة بدنها، وتحملها، ويكفي النساء فخراً أن منهن فاطمة سيدة نساء العالمين، ومنهن أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - خديجة، وعائشة، وحفصة، وبقية أمهات المؤمنين، ومنهن مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.. وغيرهن كثير.

وقدم «الذكر» في قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾؛ لأنه هو المأمول، فهو أسبق إلى لفظ

المتكلم، ولم يقل: (وليس الأنثى كالذكر)؛ لدفع ما يشعر بنقص الأنثى مع أن المؤدى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] دون أن يقول: «للأنثى نصف ميراث الرجل»؛ لثلا يشعر ذلك بنقص ميراث الأنثى مع أن المؤدى واحد؛ وفي هذا ما لا يخفى من مراعاة الشعور وحسن التعبير.

(وال) في الذكر والأنثى للجنس، وقيل: للعهد، أي: ليس الذكر الذي طلبت، كالأنثى التي وهبت لها.

قال السعدي^(١) في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾: «كأن في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس؛ حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبل نذرها وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر».

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: هذا وما بعده من تنمة كلام امرأة عمران، أي: وإني اخترت لها اسم (مريم)، والاسم مأخوذ من السمو، وهو العلو؛ لأن صاحبه يسمو ويرتفع به، ومن السمة، وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة على صاحبه يتميز بها.

﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: وإني أجيرها بك يا رب.

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: وأجير ذريتها بك، ولم يكن لمريم ذرية إلا ابنها عيسى عليه السلام.

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من إبليس وذريته وجنوده وأعوانه من شياطين الجن والإنس.. وغيرهم.

﴿الشَّيْطَانِ﴾ مشتق من «شطن» بمعنى «بعد»؛ لأنه بُعد عن رحمة الله تعالى، وعن الجنة، وعن كل خير.

(١) في «تيسير الرحمن الكريم» (١/٣٧٦).

وهو في الشرع: كل متمرّد، عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى من الإنس والجن والحيوان، كما قال تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وفي الحديث: «الكلب الأسود شيطان»^(١).

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران فأعاد مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليهما سبيلاً؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلُحْيَتِي وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢).

﴿الرَّجِيمِ﴾ أي: المرجوم فهو «فعليل» بمعنى: «مفعول» أي: مرجوم حساً، ومعنى يهابطه من الجنة، ورميه بالشُّهب، وطرده عن رحمة الله وعن كل خير.

قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لَلْكَلْبِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قوله ﴿فَنَقَّبَلَهَا رَبُّهَا﴾: الفاء: للتعقيب والتفريع؛ وهذا مؤذن بسرعة إجابة دعائها، وضمير «الهاء» يعود إلى مريم، أي: تقبل تحريرها لخدمة بيت المقدس وعبادة الله - عز وجل - فيه.

قال ابن كثير^(٣): «تقبلها من أمها نذيرة».

و(تقبَّل) أبلغ من (قبل)؛ لأن زيادة المبنى تدل غالباً على زيادة المعنى.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرها تكريم وتشريف لها بربوبية الله - عز وجل - لها ربوبية خاصة.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٦).

(٣) في «تفسيره» (٢٨/٢).

﴿بِقَبُولِ حَسَنٍ﴾ الباء: للتأكيد، و(قبول): اسم مصدر، أي: قبولاً حسناً. فقبل من أمها نذرهما إياها وأجرها فيها، ويسرها لليسرى، وسهّل أمرها.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: أنشأها إنشاءً صالحاً، جسدياً وعقلياً وروحياً فنمى جسمها، وأتم عقلها، وأكمل خلقها وأخلاقها ديناً وعباداً وقنوتاً وطاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَذِكْرُ الْيَاقُوتِ الْكَافُورِ﴾ [التحریم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي الحديث: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١).

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بتشديد الفاء، فيكون «زكريا» على هذا مفعولاً ثانياً لـ«كفل» ومفعولها الأول (الهاء)، أي: كفل الله مريم زكريا، أي: جعل الله زكريا كافلاً لها.

وقرأ الباقون «فكفلها» بالتخفيف، فيكون «زكريا» على هذا فاعل، أي: صار زكريا كافلاً لها، أي: تولى كفالتها.

وزكريا زوج خالتها، ويُقال: زوج أختها.

كما قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿زَكْرِيَّا﴾ بالقصر. من غير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالمد والهمز «زكرياء» وهما لغتان.

كفلها زكريا بعد أن تنازع في كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل، واقترعوا في ذلك أيهم يكفلها، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فصارت من نصيب زكريا زوج خالتها فكفلها، وكان كل واحد منهم حريصاً على كفالتها لمكانة أبيها عمران.

(١) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤١١)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٣١)، والترمذي في الأظعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأظعمة (٣٢٨٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿كَلَّمَادَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾: «كلما» تفيد التكرار، وهي مركبة من «كل» التي تفيد العموم، و«ما» الظرفية، والتقدير: كل وقت يدخل عليها زكريا المحراب يجد عندها رزقا، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّمَارِزُقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رِزُقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿الْمِحْرَابَ﴾: مكان العبادة والصلاة، وفي هذا دلالة على ملازمتها الصلاة والعبادة.

وفي قصة داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوًا الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، أي: مكان تعبده.

وقيل: سُمِّيَ مكان العبادة بـ«المحراب»؛ لأن المتعبد كأنه يحارب الشيطان فيه. ويحتمل أن المراد بـ(المحراب) هنا محراب بيت المقدس بعد أن دخلت فيه لنذر أمها، أو محراب خاص بها في منزلها.

﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾: عطاء من الله تعالى لها بلا كد ولا تعب، تأكل منه، ويقوم به بدنها ويحفظ حياتها.

قال جمع من المفسرين: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف^(١)، كرامة من الله تعالى أكرمها بها، كما أكرمها بقوله: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُنْعِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا﴾ [مريم: ٢٥].

ومثل هذا ما وجد عند خبيب بن عدي الأنصاري - رضي الله عنه - الذي استشهد بمكة على أيدي المشركين حيث وجد عنده قطف عنب^(٢).

﴿قَالَ يَمْرُومُ أَنِّي لَكِ هَذَا﴾ أي: من أين لك هذا الرزق؟.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: أن الله هو الذي رزقها إياه، وساقه إليها، وأعطاه إياه. وهذا يذكرني بقصة عمي عبد الرحمن العبد الله مع محمد المطوع - رحمهما الله -

(١) انظر: «جامع البيان» (٣٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد هل يستأسر الرجل (٣٠٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان محمد رجلاً كفيفاً مقعداً بسبب المرض، فكان عمي - رحمه الله - يأتي إلى منزل هذا الرجل ويملاً الثلجة بالفواكه والخضروات، وكان هذا الرجل لا يعلم من الذي يفعل ذلك، وتمر الأيام ويموت عمي - رحمه الله - وتبدو الثلجة فارغة لا شيء فيها، فيتفطن ذلك الرجل المقعد ويقول: والله ما علمت أن الذي يفعل ذلك هو عبد الرحمن العبدالله حتى فرغت الثلجة بعد وفاته، فعلمت أنه الذي كان يفعل ذلك. رحم الله الرجلين معاً، وأسكنهما فسيح جناته، ولا أزكي على الله أحداً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: الجملة استثنائية تعليلية، و«من»: موصولة، أي: لأن الله يعطي الذي يشاء من خلقه عطاءً دنيوياً؛ وهذا لا يختص بطائفة دون أخرى، وعطاءً دنيوياً وأخروياً؛ وهذا للمؤمنين خاصة.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بلا حصر ولا حد لما يعطيه، وبغير استحقاق، بل تفضلاً منه.

الفوائد والأحكام:

١- اصطفاء الله تعالى واختياره وتفضيله لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

٢- أن الله تعالى يصطفي ويختار من عباده من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

٣- إثبات نبوة آدم ونوح وإبراهيم، وإثبات النبوة في آل إبراهيم وآل عمران؛ فإنها أعظم شيء فضّلوا به، وإثبات فضلهم على العالمين.

٤- إثبات التفاضل بين الناس كوناً وشرعاً.

٥- فضل الأنبياء والرسل على جميع الخلق، بما فيهم الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وقد أخذ بعض أهل العلم أيضاً من الآية أن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة.

وقد اختلف أهل العلم في هذا على قولين: جمع بينهما شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله: «بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية»^(١).

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/٣٤٣).

أي: أن الملائكة خُلِقُوا من نور وهو أفضل من الطين الذي خُلِقَ منه آدم، فهم في البداية أفضل.

وأما النهاية فإن الجنة تكون للصالحين من بني آدم ومن الجن، فهم في النهاية أفضل.

٦- أن البشر جنس واحد بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، فلا يجوز أن يفخر بعضهم على بعض، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

وفي هذا تعريض باليهود في اتهامهم عيسى وأمه وتكذيبهم له، وتعريض بهم وبالنصارى في تكذيبهم محمد ﷺ فإن كون هؤلاء المصطفين ذرية بعضها من بعض مما يوجب المحبة والمودة والاتباع والتصديق، لا العداوة والتكذيب.

٧- إثبات صفة السمع لله تعالى، فهو يسمع جميع الأقوال والأصوات والحركات؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٩- التذكير بنذر أم عمران وقصتها تنويهاً بشأنها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ الآية.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾، وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾، وقول زكريا: ﴿رَبِّ﴾.

١١- جواز النذر؛ لقول مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وهو في الإسلام مكروه؛ فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: «إنه لا يرد شيئاً وإنما يُستخرج به من البخيل»^(١).

١٢- جواز نذر الشيء المجهول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٨)، ومسلم في النذر (١٦٣٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠١)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٢).

١٣- أن المهم في العمل القبول، لهذا قالت ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾، فلا ينبغي أن يدل الإنسان على الله بعمله، بل يسأل الله القبول ويخاف من الرد.

١٤- التوسل الى الله تعالى بأسمائه الحسنی، وصفاته العلیا؛ لقول أم عمران ﴿رَبِّ﴾ أي: يارب، وقولها: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: لأنك أنت السميع للدعاء وغيره، العليم بالحال وغيرها.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما: ﴿السَّمِيعُ﴾ و﴿الْعَلِيمُ﴾، ويؤخذ منها صفتي السمع والعلم.

١٦- في اجتماع صفة السمع الواسع لله- عز وجل- لجميع الأصوات، والعلم الواسع لكل شيء كمال إحاطته وعلمه.

١٧- الإشارة إلى معاناة الأم حال الحمل والوضع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، فأعظم بها من معاناة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

١٨- في قول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ ما يشبه الاعتذار، إما لأن الأنثى لا تخدم في المساجد، وإما لأن خدمتها دون خدمة الذكر.

كما أنه فيه ما يشعر بألم قلبها؛ حيث كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكرًا، ونذرت له مخلصًا لخدمة بيت المقدس.

١٩- أن الله- عز وجل- أعلم من كل أحد بما وضعت أم عمران؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾.

٢٠- الاحتراز عما يوهم الخطأ؛ لقول أم عمران: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾.

٢١- أن الذكر ليس كالأنثى، والأنثى ليست كالذكر، فلكل منهما ميزاته وخصائصه وقدراته البدنية والعقلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾. ومن هنا.. فإن الذكر أقدر وأقوى على خدمة بيت المقدس والعبادة فيه وأدوم.

٢٢- مشروعية تسمية المولود يوم ولادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وفي حديث أنس - رضي الله عنه - أنه ﷺ لما وُلِدَ ابنه إبراهيم قال: «وُلِدَ لي الليلة غلام وسميته باسم أبي إبراهيم»^(١).

فإن فات ففي اليوم السابع؛ لقوله ﷺ في حديث سمرة بن جندب - رضي الله عنه - عن الرسول ﷺ قال: «كل غلام رهين بعقيقته تُذبح عنه يوم سابعه، ويُحلق رأسه ويُسمى»^(٢).

٢٣- مشروعية إعازة الأولاد بالله من الشيطان الرجيم؛ لشدة عداوته لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِكِّ وَذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وكان ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٣).

٢٤- جواز الدعاء للمعدوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٢٥- لا ينبغي الاستعاذة إلا بالله وحده، فيه المعاذ، وإليه الملجأ، وهو المجير لمن التجأ إليه، والقدير على ذلك وحده.

٢٦- أن الله - عز وجل - سميع قريب مجيب، سمع سبحانه وتعالى دعاء امرأة عمران وأجابها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي الحديث القدسي يقول - عز وجل - : «من يدعوني فأستجيب له»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الفضائل (٢٣١٥)، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في الضحايا (٢٨٣٨)، والنسائي في العقيقة (٤٢٢٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٢)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، وأبو داود في السنة (٤٧٣٧)، والترمذي في الطب (٢٠٦٠)، وابن ماجه في الطب (٣٥٢٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥)، والترمذي في الصلاة (٤٤٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٧- مِنة الله تعالى وفضله العظيم على مريم عليها السلام؛ حيث جمع الله لها بين حُسْن الخَلْقِ وحُسْن الخُلُقِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

٢٨- أن من نعمة الله تعالى على مريم عليها السلام أن جعل زكريا كفيلاً لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ لتقتبس منه علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، وتتعلم منه الخير والعلم والدين.

٢٩- إثبات الحضانة للطفل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وكان زكريا زوج خالتها، أو زوج أختها، كما قال ﷺ في حديث الإسراء حين صُعدَ به إلى السماء الثانية قال: «فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»^(١). فكانت في حضانة خالتها، وكفالة زوجها زكريا.

وفي الحديث أنه ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة أبي جعفر بن أبي طالب وقال: «الخالة بمنزلة الأم»^(٢).

٣٠- ملازمة مريم عليها السلام الصلاة والعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانُ﴾ [التحریم: ١٢].

٣١- عناية الله - عز وجل - بمريم عليها السلام وتيسير رزقها؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

٣٢- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب، وغيرهم من الخلق من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿يَنْمُرُ أُنَى لَكَ هَذَا﴾.

٣٣- تكفل الله - عز وجل - بإرزاق الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمُرُ أُنَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، كما قال

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٨٧)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

٣٤- أن الله يرزق ويُعطي من يشاء بلا حساب ولا حصر- ولا حد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ لذا يجب طلب الرزق منه وحده دون سواه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ الْأَى تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَآذَكَرُّ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

لما رأى زكريا عليه السلام هذه الحال، والبر واللطف من الله تعالى بمريم عليها السلام، ذكره ذلك أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

لِمَا رَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ رِزْقِ مَرْيَمَ مَعَ أَنَّهَا مُتَفَرِّغَةٌ لِلْعِبَادَةِ، بَلْ فِي رِزْقِهَا فَاكِهَةٌ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةٌ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ طَمَعٌ حِينْتِذِي فِي الْوَلَدِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا، وَامْرَأَتُهُ كَبِيرَةٌ عَاقِرٌ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً.

قوله ﴿هُنَالِكَ﴾: «هنا» اسم إشارة إلى المكان، واللام للبعد، والكاف للخطاب، أي: في ذلك المكان وهو محراب مريم.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ لِلزَّمَانِ، أَي: فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ أَتَبِلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ١١].

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَهَا مَعًا، أَي: فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ عِنْدَ رُؤْيَةِ زَكَرِيَّا مَا رَأَى عِنْدَ مَرْيَمَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ﴾ أي: نادى زكريا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

﴿رَبِّ هَبْ﴾ أي: يا رب أعطني، و(الهبه) العطية بلا عوض.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك لا من عند غيرك؛ لأنك أنت الكريم وعطاءك أجزل وأعظم، وكما جاء في الدعاء: «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمي»^(١).

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: طيبة في خلقها وخلقها، في أبدانها وأخلاقها وأقوالها وأفعالها، والذرية هم الأولاد وأولاد الأبناء وإن نزلوا بمحض الذكور، ولا يدخل معهم أولاد البنات، كما قال الشاعر:

بنونا بنو أبائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد^(٢)

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: جملة استثنائية تعليلية، أي: لأنك سميع الدعاء، أي: تسمع دعاء الداعي وتجيبه، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

قوله ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الفاء: للتفريع والتعقيب، أي: فنادته الملائكة استجابة من الله تعالى لدعائه.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «فناداه» بألف بعد الدال، وقرأ الباقون ﴿فَنَادَتْهُ﴾ بتاء ساكنة بعد الدال، أي: فكلمته وخاطبته الملائكة شفاهةً.

و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾: الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يصلي في المحراب، والصلاة تُطلق ويُراد بها الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في الأذان، الدعاء قبل السلام (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء، استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) البيت للفرزدق. انظر: «ديوانه» (ص ٢١٧).

صَلَوَاتِكَ سَكَنَ لَهُمْ ﴿التوبة: ١٠٣﴾.

وتُطلق ويُراد بها الصلاة ذات القيام والركوع والسجود، وهي المرادة هنا، بدليل قوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾ و﴿الْمِحْرَابِ﴾: مكان العبادة والصلاة والمناجاة والخلوة، ومقتضى قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ والتفريع عليه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ أن المحراب محراب مريم. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِيَحْيَى﴾: قرأ حمزة وابن عامر بكسر الهمزة: «إِنَّ»، فالجملعة في محل نصب مقول القول؛ لأن النداء قول، ومقول القول إذا صدر بـ«إِنَّ» وجب فيه كسر الهمزة. كما قال ابن مالك (١):

واكسر في الابتدا وفي بدء صلة وحيث «إن» ليمين مكملنة
أو حكيث بالقول أو حلت محل حال كزرته وإني ذو أمل

وقرأ الباقون ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة على تقدير حرف جر، أي: بأن الله يبشرك. ﴿يَبْشُرُكَ﴾: قرأ حمزة والكسائي: (يَبْشُرُكَ) بفتح الياء، وسكون الباء، وتخفيف الشين وضمها، وقرأ الباقون: ﴿يَبْشُرُكَ﴾ بضم الياء، وفتح الباء، وتشديد الشين وكسرها. والبخارة: الإخبار بأمر سار، مأخوذة من البشرية؛ لأن الإنسان إذا أُخبرَ بما يَسُرُّه استنار وجهه، واتسعت بشرته، وفي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر» (٢).

﴿يَحْيَى﴾: أي بولد لك من صلبك اسمه يحيى، وسماه الله يحيى إشارة إلى أنه سيحيا حياة بدنية، أي: يبقى، وحياة قلبية بالنبوة والإيمان، وهو أول من سُمِّيَ بهذا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَبِّئُكَ بِفُلَانٍ آسَمُهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، وهو ابن خالة عيسى، وهو أكبر من عيسى، وأول من صدَّق به (٣)؛ ولهذا قال:

(١) في «ألفيته» (ص ٢١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من

حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٣٧٢/٥).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من (يحيى)، أي: حال كونه ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: مصدقاً بعيسى ابن مريم عليه السلام، وعلى سنته ومنهاجه، وأنه كلمة من الله، وكلمته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَيْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسُمِّيَ عيسى عليه السلام (كلمة من الله)، و(كلمته)؛ لأنه خُلِقَ بكلمة من الله تعالى، أي بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ ولم يكن من أب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وذلك من باب إطلاق السبب على المسبب.

﴿مِنَ اللَّهِ﴾: «من»: للابتداء، أي: مبدؤها ومنشؤها من الله، تكلم بها، وهي قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾.

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: منصوب على الحال عطفًا على ﴿مُصَدِّقًا﴾. ﴿وَسَيِّدًا﴾: السيد «فيعل» من ساد يسود إذا فاق قومه في محامد الخصال. والسؤدد عند العرب يعتمد كفاية مهمات القبيلة، والبذل لها، وإتباع النفس لراحة الناس.

قال الهذلي^(١):

وإن سيادة الأقسام فاعلم لها صعداء مطلبها طویل
أترجو أن تسود ولن تُعنى وكيف يسود ذو الدعة البخیل
وملاك السؤدد عندهم بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال العظام، وأصالة
الرأي، وفصاحة اللسان.

(١) انظر: «البيان والتبيين» (١ / ٢٧٥).

والسيد في الشرع أعم من ذلك، فهو من يفوق غيره في محامد الخصال، والسعي في إصلاح الناس في دنياهم وأخراهم، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»^(١).
وقال ﷺ في الحسن: «إن ابني هذا سيد وسيُصلح الله به بين طائفتين من المسلمين»^(٢).

والمعنى: أن يجيى عليه السلام قد فاق قومه ديناً وتقىً وورعاً وحكمةً وعلماً وأدباً وخُلُقاً وشرفاً وكرماً.. وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَجِيئُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ۝١٣ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۝١٤ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥].

﴿وَحَصُورًا﴾ أي: «فعل» بمعنى «فاعل»، أي: حاصرًا نفسه، والحصر- بمعنى المنع، أي: حصينًا مانعًا نفسه من الشهوات والمعاصي ومساوئ الأخلاق، فجمع الله له بين كونه «سيدًا» موصوفًا بأكمل الصفات، وبين كونه «حصورًا» سالمًا مبرأ من سبب الصفات. وقيل معنى (حصورًا) أي: لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، وقيل: ممنوعًا من إتيان النساء، أي: لا يستطيع إتيان النساء؛ وهذا لا يناسب المقام؛ لأن المقام مقام مدح وثناء، وهذا الآخر يُعد نقصًا وعبثًا.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: وصف الله - عز وجل - يجيى عليه السلام أولاً بكونه مصدقاً بعيسى ابن مريم، ثم بكونه «سيدًا»، ثم بكونه «حصورًا»، ثم وصفه بما هو أفضل وأعظم من ذلك وهو كونه (نبيًا من الصالحين)، فنفى الله عنه عليه السلام صفات النقص، وأثبت له صفات الكمال، وأعظمها النبوة والصديقية لعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من جملة الصالحين، بل من الذين بلغوا في الصلاح دورته؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه، فصلحت سرائرهم وعلانيتهم باطنهم

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤)، وأبو داود في السنة (٢٦٦٢)، والنسائي في الجمعة (١٤١٠)، من

حديث أبي بكر رضي الله عنه.

وظاهرهم، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.
 قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ
 كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤٠).

لما تحقق لزكريا عليه السلام هذه البشارة؛ أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد
 الكبر وامرأته عاقرة، ليتثبت ويتأكد من ذلك.

قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أي: قال زكريا: (يا رب).

﴿أُنِّي﴾: استفهام تعجب، أي: كيف أو من أين يكون لي غلام وقد بلغني الكبر
 وامرأتي عاقرة؟، أي: والحال أنه قد بلغني الكبر وامرأتي عاقرة، كما قال تعالى عنه في
 سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
 الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨].

وهذان سببان لعدم وجود الولد- وهذا منه من باب التثبت والتأكد، وليس من
 باب الاستبعاد والاستنكار أو الشك؛ لأنه قد آمن بما بشره الله به، كما قال إبراهيم:
 ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنه قد بلغني الكبر، أي: قد
 وصلني الكبر وأصابني وتمكن مني كما وصلت إليه وبلغته ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ
 عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

فمن بلغه الكبر، فقد بلغ هو الكبر، ومن بلغ الكبر فقد بلغه الكبر، على نحو قول
 الشاعر:

فَهَنَ الْمُنَايَا أَي وَاذٍ سَلَكَتَهُ عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَى طَرِيقِهَا^(١)

والمعنى: كيف يوجد لي غلام وقد أصابني الكبر بينما لم يولد لي لما كنت شاباً؟!
 والعادة أن الإنجاب والإخصاب إنما يكون غالباً في سن الشباب بالنسبة للرجال

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١٥/١٥)، و«بدائع الفوائد» (١١/١)، و«مدارج
 السالكين» (١٥/١).

والنساء.

﴿وَأَمْرًآتِي عَاقِرٌ﴾ أي: وزوجتي ﴿عَاقِرٌ﴾، أي: عقيم لا تحمل. يُقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، لمن لا يولد له.

فكل من زكريا وامرأته في الغالب والعادة لا يولد لمثله؛ فهو كبير السن قد بلغ الغاية في الكبر، وهي عاقر لا يولد لها، ولكن الله جلَّت قدرته إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. وفي هذا التعجب من زكريا عليه السلام كناية عن الشكر لله عز وجل.

﴿قَالَ﴾ أي: قال الملك، أو قال الله.

﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾: الكاف: للتشبيه، وهي في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك الفعل العجيب - وهو حصول الولد بين رجل كبير وامرأة عاقر، وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك. والمعنى: أنه سيكون لك غلام ولو بلغك الكبر وامرأتك عاقر؛ لأن الله يفعل ما يشاء، فكما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة غالباً، فإنه قد يحرق ذلك؛ لأنه الفعال لما يشاء ويريد، الذي تنقاد جميع الأشياء لقدرته فلا يتعاصى على قدرته شيء منها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ۗ وَآذُكَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: قال زكريا لما تيقن بأن الله سيهب له الولد.

﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: يا رب صيِّر لي علامة أعرف بها وقت حصول هذا الحمل. قال هذا زكريا عليه السلام لزيادة الطمأنينة فيما بشره الله به، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أُولَٰئِمُّ تَوَكَّلْ عَلَيَّ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أي: قال الله له: ﴿آيَتُكَ﴾، أي: الآية والعلامة التي أجعلها لك،

وأضافها إلى زكريا؛ لأن الله تعالى جعلها علامة له.

﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾: «ألا»: مكونة من «أن» التي هي حرف مصدرى ونصب، و«لا»: النافية.

أي: ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليها؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿يَأْتِيكَ إِلَّا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ لأن الرمز ليس من الكلام، أي: لكن ترمز إليهم رمزا، أي: إشارة وإيماء باليد أو بالرأس أو بالشفقين، أو الحاجبين أو العينين.. ونحو ذلك.

ويجوز كون الاستثناء متصلاً باعتبار المعنى؛ لأن «الرمز» تعبير عما في النفس كالكلام.

والمعنى واحد، أي: وآيتك أن لا تستطيع تكليم الناس نطقاً بلسانك ثلاثة أيام بلياليهن إلا إشارة مع أنك سويٌّ صحيح، فمتى تمت الثلاثة أيام كان ذلك علامة على ابتداء الحمل.

﴿وَأَذْكُرُّنَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾: أعظم بهذا من آية يعجز عن تكليم الناس بلسانه، بينما لسانه طلق بذكر الله تعالى، وفي هذا بشارة لزكريا وامتنان عليه، وأمر له بذكر الله وتسيحه، وفي سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿وَأَذْكُرُّنَّكَ كَثِيرًا﴾، أي: واذكر ربك بقلبك ولسانك وجوارحك ذكراً كثيراً، شكراً لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وزماناً كثيراً، أي: في جميع الأوقات، وقد كان ﷺ يذكر الله على جميع أحيانه^(١).

(١) أخرجه مسلم في الحيز (٣٧٣)، وأبو داود في الطهارة (١٨)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٤)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: (التسبيح) تنزيه الله عن النقائص والعيوب، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وعن مماثلة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

ويطلق على ما هو أعم من ذلك، وهو التعبُّد لله تعالى بأنواع العبادة كلها؛ من الصلاة، والتهليل، والتكبير، والتحميد، وقراءة القرآن.. وغير ذلك.

والتعبُّد لله تعالى هو تسبيح الله تعالى وإن لم يكن بكلمة «سبحان»؛ لأنَّ التعبُّد له يستلزم تعظيمه والإقرار له بالكمال ونفي النقص عنه.

وحيث قرُنَ التسبيح بالذكر قد يُحمل الذكر على التعبُّد لله بأنواع العبادة، ويُحمل التسبيح على التنزيه جمعاً بين الإثبات والنفي.

وقد يُحمل التسبيح على ما يُعم ذلك كله، فيكون الأمر به بعد الأمر بالذكر أشبه بعطف العام على الخاص، فيشمل التنزيه لله تعالى والتعبُّد له بأنواع العبادة.

﴿بِالْعَشِيِّ﴾ «العشي»: آخر النهار، ما بعد الزوال، وهو: الأصيل والرواح. وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي»^(١)، يعني: صلاة الظهر أو العصر، ويُقال: (العشي) ما بعد صلاة العصر.

﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ «الإبكار»: أول النهار إلى الزوال، وهو: الغدو والإشراق. وقد عظم الله تعالى هذين الوقتين، وأمر بالتسبيح والذكر والصلاة فيهما، وشرع

(١) أخرجه البخاري في الصلاة تشبيك الأصابع في المسجد (٤٨٢)، ومسلم في المساجد، في الصلاة والسجود له (٥٧٣)، وأبو داود في الصلاة (١٠٠٨)، والنسائي في السهو (١٢٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيها أعظم الصلوات صلاة الفجر وصلاة العصر، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

بل إن الأمر بالتسبيح والذكر في الصلاة فيها قد يشمل جميع الصلوات الخمس، ويشمل التسبيح والذكر في جميع الأوقات، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، أي: في جميع الأوقات؛ لأن رزق أهل الجنة لا ينقطع، بل هو على الدوام.

الفوائد والأحكام:

١- دعاء زكريا ربه بأن يهبه من لدنه ذرية طيبة، وتوسله إليه بربوبيته له؛ لقوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً.﴾

كما قال تعالى عنه في سورة (الأنبياء) أنه قال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ. رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وقال عنه في سورة (مريم): ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥٠﴾ يَرْتَضِي لِي مِنْ أَلِيٍّ يَتَّقُونَ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

٢- في إضافة الهبة إلى الله في قوله: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ إشارة إلى كرم الله - عز وجل - وعظيم هباته، وإلى الاستغناء به - عز وجل - عن خلقه.

٣- حاجة الخلق كلهم وافتقارهم إلى الله تعالى حتى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ.﴾ الآية.

٤- أن من أعظم ما ينبغي أن يسأل المسلم ربه من أمور الدنيا الذرية الصالحة -

والصالحه فقط، وما عدا الذرية الصالحة فلا غبطة فيهم، بل هم عبء وثقل وشر على والديهم وعلى الأمة، فعلى من طلب الذرية مراعاة هذا المعنى.

٥- الدعاء بصلاح الأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، كما جاء في سورة «الأحقاف»: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥].

٦- إثبات السمع لله - عز وجل - وكرمه وقدرته، وأنه سميع قريب مجيب الدعاء، والثناء على الله - عز وجل - بذلك، والتوسل به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ فهو - عز وجل - سميع مجيب الدعاء. فإما إن يُعَجَّلَ للسائل ويُعطيه سؤاله في الدنيا، وإما أن يدخره له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من الشر بسبب سؤاله. ما لم يكن هناك مانع من الإجابة، كالدعاء مع سهو القلب وغفلته وهواه، وأكل الحرام.. ونحو ذلك.

٧- أن على من حُرِمَ الذرية أن يلجأ إلى الله - عز وجل - وحده ويسأله، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] مع الأخذ بالأسباب المادية. وقد دعا زكريا عليه السلام بهذه الدعوات فأجاب الله دعاءه، ورزقه يحيى عليها السلام.

وقد ذُكِرَ عن بعضهم أنه لازم في سجوده الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فرزقه الله الذرية، كما ذكر بعضهم أنه دعا بهذه الدعوات في المنتزم بين الحجر وباب الكعبة، فاستجاب الله دعاءه.

٨- إثبات وجود الملائكة، والإيمان بذلك؛ وهو ركن من أركان الإيمان الستة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٩- أن الملائكة تتكلم بصوت مسموع وتحاطب البشر، لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.
١٠- جواز تكليم المصلي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾،

- وخصوصاً فيما تدعو الحاجة إليه، كالسلام.. ونحو ذلك، فقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يُسلمون على النبي ﷺ وهو يصلي ويرد عليهم بالإشارة^(١).
- ١١- لزوم زكريا العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.
- ١٢- جواز اتخاذ أماكن خاصة بالصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.
- ١٣- بشارة الله تعالى لزكريا بيحيى استجابةً منه- عز وجل- لدعائه أن يهبه من لدنه ذرية طيبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾.
- ١٤- استحباب البشارة بما يسر، فهي منهج شرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾، كما قال تعالى في إبراهيم: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْقَمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] هذا في البشارة بإسماعيل، وقال تعالى في البشارة بإسحاق ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال تعالى في بشارة زوجه: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَيَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٠٣، التوبة: ١١٢، يونس: ٨٧، الصف: ١٣].
- وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما: «وبشرا ولا تنفرا»^(٢).
- ١٥- مشروعية تسمية المولود، وجواز تهيئة الاسم قبل ولادته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا﴾.
- ١٦- أن عيسى ابن مريم «كلمة من الله»؛ لقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ خلقه الله تعالى بكلمته، أي: بقوله: ﴿كُنْ﴾. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].
- ١٧- الثناء على يحيى عليه السلام وامتداحه بهذه الصفات العظيمة، وهي تصديقه

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٩٢٥)، والنسائي في السهو (١١٨٦)، والترمذي في الصلاة (٣٦٧)، من حديث ضُهب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

- بعيسى ابن مريم، وكونه سيداً وحضوراً، وإثبات نبوته، وأنه من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.
- ١٨- الجمع ليحيى عليه السلام بين صفات الكمال، وأعظم ذلك صفة النبوة، وبين كونه مانعاً نفسه من الشهوات وسيء الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾.
- ١٩- أن الصلاح وصف عظيم عام لكل من أخلص لله تعالى، واتبع شرعه من الأنبياء والرسل ومن دونهم؛ ولهذا وصف الله به أنبياءه ورسله كما وصف الله به غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
- ٢٠- في تعجب زكريا بقوله: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ طلب التثبُّت والتأكد مما بشره الله به من الولد، وخاصة أنه على خلاف ما جرت به العادة؛ فهو كبير وامرأته عاقرة.
- ٢١- أن زكريا عليه السلام قد بلغه الكبر دون أن يولد له ولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾، وقوله في سورة (مريم): ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].
- ٢٢- أن من أسباب عدم الإنجاب الكبر والعقر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.
- ٢٣- جواز الوصف بالعقر لمن كان كذلك للبيان، لا على سبيل التنقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.
- ٢٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ لأنه تعالى يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.
- ٢٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية المتعلقة بالحكمة.
- ٢٦- طلب زكريا عليه السلام من ربه علامة على حصول هذه البشارة لزيادة الاطمئنان، واستعجالاً منه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.
- ٢٧- قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، ولو كان على خلاف العادة، كحصول الولد للكبير والعاقرة، وجعل الإنسان لا يستطيع أن يكلم الناس مع كون لسانه طلقاً

بذكر الله وتسيبته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿قَالَ
ءَايَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَرِ﴾، كما قال تعالى في سورة (مريم): ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى
هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

٢٨- أن الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن النطق بالكلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا
تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾.

٢٩- الحث على ذكر الله كثيرًا، وتسيبته في العشي والإبكار وفي جميع الأوقات؛ لقوله
تعالى: ﴿وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ جمعًا بين ذكر الله تعالى
والثناء عليه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

٣٠- فضل هذين الوقتين (العشي والإبكار)، والتسبيح فيهما، بتخصيصهما بالذكر من
بين الأوقات.

٣١- فضل زكريا عليه السلام ومكانته عند الله؛ حيث استجاب الله دعاءه، وبشره
بيحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وخاطبه،
وجعل له آية على حصول هذا الولد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هذه الآية وما بعدها تفصيل لما أُجِمل من اصطفاء الله تعالى لآل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]؛ لأن مريم من آل عمران، فهو انتقال من ذكر أم مريم إلى ذكر مريم.

قوله ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ الواو: استثنائية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين» متعلق بمحذوف، أي: واذكر حين قالت الملائكة، والمراد جنس الملائكة وليس كلهم، والمراد بذلك - والله أعلم - جبريل.

﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ نادوها بهذا شفاهاً، وباسمها مريم الذي هو علم عليها تكريماً لها.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾: «اصطفى» أصلها (اصطفى)، فقبلت التاء «طاء» لعله تصريفية، والمعنى: أن الله اصطفاك اصطفاً ذاتياً عاماً، واختارك واجتباك لطاعته وجعلك من صفوة خلقه، فهي من بيت آل عمران الذين اصطفاهم الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

ونذرتها أمها لله وخدمة بيت المقدس، وتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا، ورزقها من عنده بغير حساب، ووقفها للتصديق بكلماته وكتبه ودوام الطاعة له.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: وطهرك باطناً وظاهراً من الكفر والمعاصي والفواحش بالإيمان، والطاعة، والعفاف، والأخلاق الفاضلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَتْ فَرْجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾

[التحریم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوْحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي هذا رد على اليهود أخزاهم الله وقبَّحهم في اتهامهم مريم بأنها بغي، وأن ابنها عيسى ولد زنا، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [٢٧] يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٨].

﴿وَأَصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: هذا معطوف على ما قبله، أي: واصطفاك اصطفاءً خاصاً ففضلك ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: على نساء عالم زمانها، أو على نساء العالمين كلهم باعتبار أنها من كمل من النساء.

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم، وآسية، وامرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»^(١).

قوله تعالى: ﴿يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٤٣].

أخبرت الملائكة مريم باصطفاء الله تعالى لها، ثم أمرتها بالقنوت لربها، والسجود والركوع له شكراً لله تعالى على ذلك، ولتتهياً لما أراد الله لها من الابتلاء بسبب هذا، حيث خلق الله بقدرته العظيمة منها ولداً من غير أب، وقال فيها الأفاكون ما قالوه - رفعة من الله تعالى لها في الدارين.

قوله ﴿يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾: «القنوت»: دوام الطاعة والخضوع والخشوع له، قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتِءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿لِرَبِّكِ﴾: «اللام»: للاختصاص، أي: قنوتاً خالصاً لربك، تعظيماً له، وفي إضافة اسم الرب إلى ضمير «مريم» تشریف وتكريم لها، وبيان ربوبية الله تعالى لها ربوبية خاصة.

﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: هذا معطوف على قوله: ﴿أَقْنِي﴾ من عطف الخاص على العام، فهو أمر بالسجود والركوع مع الراكعين، أي: أمر بالصلاة بعد

(١) سبق تحريجه.

الأمر بالقنوت والطاعة.

والمراد بالسجود: السجود المعروف على الأعضاء السبعة، كما في الحديث: «وأمرنا أن نسجد على سبعة أعظم»^(١).

﴿وَأَرْكَبِي﴾ «الواو»: عاطفة، وعطف بها الركوع على السجود مع أن «السجود» قبل «الركوع»؛ لأن الواو لمجرد الجمع والتشريك، ولا تقتضي الترتيب. و«الركوع»: الانحناء للتعظيم، والمراد: صلي مع المصلين، أي: كوني من جملة أهل الصلاة، وليس المراد الصلاة مع الجماعة؛ لأنه ليس على النساء صلاة جماعة. وعَظُمُ الأمر بالسجود والركوع على الأمر بالقنوت دليل على فضل الصلاة، وعَظُمُ مكانتها بين الطاعات والعبادات؛ فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام الذي يدور عليها راحه.

كما أن تخصيص السجود والركوع بالذكر دليل على عَظُمِ السجود والركوع، وأنها من أعظم أركان الصلاة وأعمالها. وقُدِّمَ السجود؛ لأن هيئته - والله أعلم - أفضل وأبلغ في الخضوع، ولأنه أدخل في الشكر، والمقام مقام شكر.

ولا يدل ذلك على أنه أفضل من الركوع مطلقاً؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، إنما هي في الأصل لمطلق الجمع والتشريك، ما لم يدل دليل أن المراد بها الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقد قال ﷺ: «أبدأ بما بدأ الله به»^(٢)، فدل هذا على البداءة بالصفاء، كما بدأ الله به في الآية.

قال ابن القيم^(٣): «الذي يظهر في الآية - والله أعلم - بمراده من كلامه - أنها

(١) أخرجه البخاري في الأذان، السجود على سبعة أعظم (٨٠٩-٨١٠)، ومسلم في الصلاة أعضاء السجود (٤٩٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٩٣)، والترمذي في الصلاة (٢٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: بدائع التفسير (١/٤٩٨-٤٩٩).

اشتملت على مطلق العبادة، وتفضيلها، فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً - وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت.

ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يُسن الإتيان به منفرداً؛ فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب: النزول من الأعم، إلى الأخص، إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام: النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو: الترقى من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم، ونظيرها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

﴿مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾ أي: في جملة أهل الركوع وأهل الصلاة من الرجال والنساء، وغلب هنا الذكور على الإناث.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَكْفُلٌ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٤.

قوله ﴿ذَلِكَ﴾: الإشارة إلى ما أخبر الله تعالى به من القصص من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ الآية عن امرأة عمران، وابنتها مريم، وزكريا، وابنه يحيى.

﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: «أنباء» جمع «نبا» وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ بَسَّاءُ لُونٍ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ١-٢]، أي: ذلك من أخبار الغيب العظيمة.

﴿الْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الحواس فلا تدركه، والمراد: أن ما ذكره الله تعالى في هذه القصص مما غاب عن النبي ﷺ فلم يدركه ولم يعلمه لا هو، ولا قومه؛ لأنهم كانوا أميين لا يعلمون شيئاً عن الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿تُوجِيهِ إِلَيْكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: نقصه عليك، ونخبرك به.
والوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع، وهو في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ «الواو»: عاطفة، وضمير الخطاب للنبي ﷺ، وضمير الغائب لذكريا وقومه، أي: وما كنت يا محمد عند ذكريا وقومه في ذلك الوقت فتخبر عنهم بما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضرًا وشاهدًا.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين يُلقون أقلامهم، وهي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، كانوا يقترعون بها عند الحاجة إلى القرعة، فيكتبون عليها أسماء المقترعين، أو أسماء الأشياء المقترع عليها، أي: حين يضعون أقلامهم، التي يكتبون بها للاقتراع.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: أيهم الذي يكون كافلًا لمريم تنافسًا منهم لمكانة أبيها عمران، فهو سيدهم وإمامهم لهذا تشاح عليها بنو إسرائيل وتنافسوا في كفالتها.
قيل: إنهم دخلوا نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم، وأيهم ثبت قلمه في مجرى الماء فهو كافلها، فوضعوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم ذكريا فإنه ثبت، وكان كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم، فكفلها.

وقيل المراد بأقلامهم: سهامهم التي تكون في النصل يرمون بها، سُميت أقلامًا لشبهها بالأقلام في الاستطالة ودقة الرأس، فخرجت القرعة لذكريا، فضمها إليه وكفلها، كما قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الآية، منةً من الله تعالى، ورحمة به وبها.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ «الواو»: عاطفة، أي: وما كنت يا محمد عندهم أيضًا حين اختصامهم وتنازعهم أيهم يكفل مريم، كل منهم يريد أن يحظى ويشرف بكفالتها، ويرى أنه أحق بها وأولى بكفالتها؛ حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن يقترعوا.

الفوائد والأحكام:

١ - التذكير بقصة مريم عليها السلام تعظيمًا لشأنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيئِمُ﴾ الآية.

- ٢- مخاطبة الملائكة عليهم السلام لمريم عليها السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وإذ قالتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ الآية، مما يدل على فضلها وشرفها وكرامتها.
- وليس في هذا دلالة على نبوتها، فالنبوة خاصة في الرجال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، و«إلا» تفيد الحصر، أي: إلا رجلاً فقط.
- ٣- اصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام اصطفاءً ذاتياً عاماً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكِ مِنْ صَفْوَةٍ خَلَقَهُ وَخِيَارِهِمْ﴾.
- ٤- تطهير الله - عز وجل - لمريم بالتصديق والإيمان، وحفظه لها من الفواحش والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَّارِكِ﴾.
- ٥- الرد على اليهود في اتهامهم مريم أنها بغية، وأن ابنها عيسى ولد زنا- أخزاهم الله وقبّحهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَّارِكِ﴾.
- ٦- تفضيل الله تعالى لمريم عليها السلام، واصطفاءه لها اصطفاءً خاصاً على نساء العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، فهي أفضل نساء عالم زمانها، وهي من أفضل وخير نساء العالمين.
- قال عليه السلام: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»^(١)، أي: خير نساء الجنة.
- وقال عليه السلام: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»^(٢).
- وسبق في حديث أبي موسى - رضي الله عنه - أنها ممن كمل من النساء، بل قيل: إنها أفضل نساء العالمين مطلقاً، ويرد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٢)، ومسلم في الفضائل (٢٤٣٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٧٨)، من حديث أنس - رضي الله عنه - وصححه.

عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على بعل في ذات يده، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت بعيرًا ما فضلت عليها أحدًا»^(١).

٧- تأكيد فضيلة مريم عليها السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ لتكرار قوله: ﴿اصْطَفَاكِ﴾.

٨- أمر الله - عز وجل - مريم عليها السلام بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين، شكرًا لله تعالى، وتبنيها لما يريد الله بها من أمر قدره وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهره الله تعالى فيها من قدرته العظيمة؛ حيث خلق منها ولدًا من غير أب.

٩- وجوب شكر نعمة الله تعالى، وأنه كلما كانت النعمة والمنة أعظم كان الشكر لله أوجب وأعظم؛ لقوله تعالى لمريم بعد أن بين فضلها واصطفاه لها: ﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ الآية.

١٠- الترغيب بالقنوت لله تعالى، ودوام الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾.

١١- فضل الصلاة، وأنها من أعظم العبادات في جميع الشرائع السماوية، وأنها في كل الشرائع ذات ركوع وسجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

١٢- أن من أعظم أركان الصلاة وأعمالها: الركوع والسجود، وقدّم السجود في الآية مع أن الركوع قبله في الترتيب؛ لأن السجود - والله أعلم - أفضل من حيث الهيئة، وأبلغ في الخضوع، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «فأما الركوع فعظّموا فيه الرب - عز وجل - وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»^(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧).

- ١٣- وجوب الإخلاص لله تعالى وحده في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾.
- ١٤- ربوبية الله- عز وجل- لمريم ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾.
- ١٥- تعظيم ما حصل في القصص المذكور؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾؛ فأشار إليها بإشارة البعيد وسماها «أنباء» تعظيماً لها.
- ١٦- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.
- ١٧- إثبات رسالة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أوحى إليه الرد على المكذبين لرسالته من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الآية.
- ١٨- تنافس الملأ من بني إسرائيل واقتراعهم بأقلامهم أيهم يكفل مريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.
- ١٩- تخاصم بني إسرائيل في كفالة مريم، فكل منهم يريد أن يكفلها وفاءً لحق عمران والدها، وكان من أكبر أحبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ حتى صارت القرعة من نصيب زكريا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْنَا ذَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].
- ٢٠- تأكيد أن ما ذكر الله في هذه القصص مما غاب عنه ﷺ، ومما أوحاه الله إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.
- وفي هذا تأكيد إثبات رسالته ﷺ، وتعريض بأهل الكتاب. كيف يكذبونه مع ما جاءهم من هذه الأخبار التي يعلمون صدقها مما لم يشهده ﷺ، ولا علمه من ذي قبل، وإنما أوحاه الله تعالى إليه، فصار إخبارهم بهذا من طريق ما أوحاه الله إليه، كأنه شاهد معهم.
- ٢١- مشروعية القرعة عند الحاجة لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾، أي: للاقتراع، وكما قال تعالى: في قصة يونس: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].
- ٢٢- المنافسة في عمل الخير، فإن بني إسرائيل تنافسوا أيهم يكفل مريم عليها السلام،

وكلهم يقول: أنا أولى بكفالتها؛ طلبًا للأجر والثواب؛ لأنها بنت إمامهم
وسيدهم عمران عليه السلام.

٢٣- عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، وحفظهم، بسبب صلاحهم، وصلاح

آبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ۗ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ ۗ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۗ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ۗ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنثِيَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ۗ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۗ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۗ ﴿٥١﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝

قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝ أي: اذكر حين قالت الملائكة: «يا مريم».

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝: «البشارة»: الإخبار بما يسر.

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝ أي: بولد يكون وجوده بكلمة منه - عز وجل - أي: بقوله تعالى:

﴿ كُنْ ۗ ﴿٤٦﴾ ۝ فيكون من غير أب، و«من» في قوله: ﴿ مِّنْهُ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝ ابتدائية أو بيانية، أي: خلقه - عز

وجل - بكلمة صادرة منه سبحانه وتعالى، وهي قوله تعالى: ﴿ كُنْ ۗ ﴿٤٦﴾ ۝.

﴿ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝: «اسم»: مبتدأ، وضمير «الهاء» مضاف إليه راجع

إلى «كلمة»، ودُكر مراعاة للمعنى؛ لأن المراد منها مذكّر، و﴿ الْمَسِيْحُ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝: خبر أول،

و﴿ عِيسَى ۗ ﴿٤٥﴾ ۝: بدل منه أو عطف بيان أو خبر ثانٍ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عيسى،

﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝: صفة له.

أي: اسمه الذي يميز به لقباً «المسيح»، وعلماً «عيسى»، وكنية «ابن مريم».

﴿ الْمَسِيْحُ ۗ ﴿٤٥﴾ ۝: «فعليل» بمعنى (فاعل)، وُسْمِيَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلُقِّبَ

بـ«المسيح»؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَتُبْرِئُ

﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وقيل: لمسحه الأرض، أي: كثرة سياحته فيها.

وقيل: هو «فعليل» بمعنى (مفعول)؛ لأنه مسح بالبركة واليمن، أو لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص لهما، والأقرب القول الأول.

﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: نسبة إلى أمه مريم؛ لأنه لا أب له.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ «وجيهاً»: حال، أي: حال كونه وجيهاً في الدنيا والآخرة،

أي: ذا وجهة وجه عظيم عند الله في الدنيا والآخرة، كغيره من أولي العزم من الرسل، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

و«الوجيه»: ذو الجاه، أي: ذو الشرف والقدر والمكانة، مأخوذ من الوجه الذي هو أفضل الأعضاء.

﴿فِي الدُّنْيَا﴾: بالنبوة، وإنزال الكتاب عليه، وإيتائه الآيات الشرعية والآيات الكونية

الخارقة، وقبول دعائه، وجعله من أفضل الرسل وهم أولوا العزم.

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا

مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا

عَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿وَالْآخِرَةَ﴾ أي: ووحيتها في الآخرة بقبول شفاعته، وعلو مقامه عند الله بأعلى

درجات الجنة مع أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: معطوف على ﴿وَجِيهًا﴾ في محل نصب على الحال عطفاً على

«وجيهاً»، أي: وحال كونه من المقربين عند الله تعالى، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله

تعالى في الدنيا والآخرة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ

الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]؛ وهذه أعظم البشارات.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ «الواو»: عاطفة، فالجملة في محل نصب عطفاً على الحال السابقة، أي: ويكلم الناس حال كونه في المهد.
و«المهد»: الفراش الذي يوطأ للصبي؛ لينام فيه، والمعنى: أنه عليه السلام يكلم الناس وهو صبي في الفراش.

وهذه آية عظيمة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وعلى صدق عيسى، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، ورحمةً بها وبالخلق.

﴿وَكَهَلًا﴾ «الواو»: عاطفة، و- كهلاً- حال معطوفة على ما قبلها، و«الكهل» من بلغ سن الكهولة وهي من إحدى وثلاثين، أو ثلاث وثلاثين فما بعدها إلى أربعين، وقيل: إلى الستين، أي: ويكلم الناس حال كهولته تكليم النبوة والدعوة إلى الله بعد بعثته، وكان عيسى عليه السلام بُعث وهو ابن نيفٍ وثلاثين سنة.
وخصَّ حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً؛ لأن الكلام في الحال الأولى آية على صدقه، وإرهاصاً لنبوته، وفي الحال الثانية بعثته ودعوته إلى الله تعال.

وفي عطف «كهلاً» على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ مع أن (الكهل) ليس مستغرباً أن يتكلم؛ دلالة على أن كلامه في المهد فصاحة وبلاغة وبياناً مثل كلامه كهلاً بعد مبعثه، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَنْمِرُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧)
يَتَأَخْتِ هَنْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿[مريم: ٢٧-٣٣].

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: معطوف على الأحوال السابقة، أي: والحال أنه من الصالحين، أي: من جملة الصالحين الذين بلغوا الغاية في الصلاح باطنًا وظاهرًا، إخلاصاً لله تعالى في قلوبهم، ومتابعة لشرعه في أقوالهم وأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧)، كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي

عُلِّمْتُ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئًا وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً
لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿[الآيتان: ٢٠-٢١].

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: قالت مريم: «يا رب».

﴿أَنْتِ﴾: الاستفهام للتعجب، أي: من أين، أو كيف يكون لي ولد؟!، كقول
زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْتِ يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] ليس
للاستبعاد أو الاستنكار أو الشك، وإنما هو للتثبيت وزيادة الطمأنينة، كما قال إبراهيم
عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

والإمام مريم عليها السلام مصدقة ببشارة الله تعالى لها بالولد.

﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا﴾ «الواو»: حالية، أي: والحال أنه لم يمسنني بشر، أي: لم
يجامعني بشر، أي: لم أكن ذات زوج، و«المس» يُطلق في القرآن الكريم على الجماع
ويكنى به عنه، كما قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]،
أي: ما لم تجامعهوهن، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ
الْعَاطِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، أي: أو جامعتم النساء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «(المس): الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»^(١).

و﴿بَشَرًا﴾: يُطلق على الواحد والجمع، والتنكير للعموم، و«البشر» هم بنو آدم.

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل

عمران: ٤٠]، أي: مثل ذلك الخلق العجيب.

وهو حصول الولد لك دون أن يمسسك بشر - يخلق الله ما يشاء، ف«الكاف» على

هذا في محل نصب صفة لمصدر محذوف أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

والمعنى: أنه سيكون لك ولد ولو لم يمسسك بشر.

﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: قدّم اسم الجلالة على الفعل في قوله: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ﴾ لتقوية

الحكم، وتحقيق الخبر.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/٦٥)، والبيهقي في «سننه» (١/١٢٥).

وعبر هنا في قصة مريم وعيسى بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، وفي قصة زكريا ويحيى عبر بقوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، والحكمة- والله أعلم- أن عيسى عليه السلام خُلِقَ من غير ما جرت به العادة، فناسب التعبير بقوله: «يخلق» الدال على الإبداع، وهذه حكمة كونية، وأيضاً في قوله: «يخلق» إبطال لقول النصارى: إن عيسى هو الله، وأن الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وهذه حكمة شرعية.

ومعنى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يُوجد الذي يريد من المخلوقات على أي كيفية ونوعية وكمية شاء، سواء كان ذلك وفق الأسباب المعتادة المعلومة، أو على خلاف ذلك.

فخلق عز وجل عيسى عليه السلام من أم بلا أب على خلاف العادة، كما خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

كما خلق عز وجل حواء زوج آدم منه، أي: من أب بلا أم، كما خلق سائر الخلق من أب وأم.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ «إذا»: ظرفية شرطية، ﴿قَضَىٰ﴾ أي: قضى- كونا، ﴿أَمْرًا﴾ مفرد، جمعه «أمور» لا (أوامر)، أي: إذا قضى شيئاً من الشؤون، وشيئاً من الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، والقضاء له معنيان: كوني، وشرعي.

والقضاء الكوني- كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلَمَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ

أَجَلًا ﴿[الأنعام: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤].
والقضاء الشرعي كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والفرق بين القضاء الكوني والقضاء الشرعي: أن القضاء الكوني لا بد من وقوعه، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى، مثل: الإرادة الكونية، والأمر الكوني، والحكم الكوني.. ونحو ذلك.

وأما القضاء الشرعي - فإنه لا يلزم وقوعه لكن لا بد أن يكون محبوبًا لله تعالى، مثل: الإرادة الشرعية، والأمر الشرعي، والحكم الشرعي.. ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ «الفاء» في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾: رابطة لجواب الشرط، و«إنما»: أداة حصر، ﴿فَيَكُونُ﴾، «الفاء» عاطفة سببية، أي: فبمجرد أن يقول له: ﴿كُنْ﴾ يكون كما أمر الله تعالى وأراد، دون تأخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].
وقال تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُٓ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مریم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

فكل شيء منقاد لأمره الكوني ولا يستعصي - عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُٓ سَلَّمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «ونعلمه» بالنون.

والجملة معطوفة على قوله: ﴿يَبَشِّرُكَ﴾ أو على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَدِ﴾،
والضمير في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ يعود على عيسى عليه السلام، أي: ويعلمه الله - عز
وجل - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

و﴿الْكِتَابَ﴾: بمعنى المكتوب، أي: يعلمه الكتابة وحسن الخط، ويعلمه الكتب
السابقة، وعلى هذا فتكون (ال) في ﴿الْكِتَابَ﴾ للجنس.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ معطوفة على ﴿الْكِتَابَ﴾، و(ال) في «الحكمة» للعهد الذهني،
أي: الحكمة التي آتاها الله عيسى، وهي الشريعة التي شرعها الله تعالى له، وسميت
الشريعة بالحكمة؛ لأن كل ما شرعه الله تعالى متضمن للحكمة.

والحكمة أيضًا علم أسرار التشريع. وهذا كما قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١٣].

﴿وَالتَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾: معطوف على ما قبله، وخص بالذكر التوراة والإنجيل
لفضلها، ولأن عيسى عليه السلام مُرسل بالحكم والعمل بهما.
و«التوراة»: الكتاب الذي أنزل الله تعالى على موسى، كتبها الله تعالى بيده، وأنزلها
بالوحي، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ
شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال ﷺ: «قال آدم لموسى: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة
بيده» (١).

وهي أصل الكتب التي أنزلت على بني إسرائيل وأعظمها، وبها حكم أنبياءهم،
وهي أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» تفسير سورة طه (٤٧٣٦)، ومسلم في «القدر» (٢٦٥٢)، وأبو داود في
«السنة» (٤٧٠)، والترمذي في «القدر» (٢١٣٤)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٠)، وأحمد (٢/٢٦٨)
(٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾: هو الكتاب الذي أنزل الله تعالى على عيسى، وهو متمم ومكمل للتوراة، قال تعالى: ﴿وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ «الواو»: عاطفة، و«رسولاً»: مفعول به لفعل محذوف تقديره: يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل. و«الرسول»: من أُوحيَ إليه بشرع وأمرَ بتبليغه. فعيسى عليه السلام رسول إلى بني إسرائيل، ورسالته مكملة لرسالة موسى عليه السلام.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قائلًا لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أرسلت إليكم آية، أي: بعلامة من ربكم دالة على صدقي.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، والباء في قوله: ﴿بِآيَةٍ﴾ للملابسة، أي: مقارنة للآية الدالة على صدقي في هذه الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الزخرف: ٦٣].

﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بكسر الهمزة: «إني» على أن الكلام استئناف لبيان «آية»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنِّي﴾ على أنه بدل من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾. وهذا وما بعده بيان للآية التي جاء بها عيسى عليه السلام بقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: قرأ أبو جعفر بالإنفراد «كهية الطائر»، وقرأ

الباقون: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، والطيْر: اسم يقع غالبًا على الجمع، وقد يقع على الواحد، والكاف بمعنى: مثل، وهي صفة لموصوف محذوف، أي: أخلق لكم شيئًا كهيئة الطير، أي: كصورة الطير.

﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالإفراد «فيكون طائرًا»، أي: فيكون طائرًا تشاهدونه يطير، وقرأ الباكون: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، أي: طيرًا حيًّا بعد أن كان صورة على هيئة الطير.

والمعنى: فيكون هذا الذي خلقت لكم من الطين على هيئة الطير، ونفخت فيه الروح طيرًا حيًّا يطير بجناحيه؛ لأن القراءتين بمثابة آيتين يكمل بعضهما بعضا.

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره الكوني الشرعي، فلولا أن الله تعالى قدر ذلك كونًا، وأقدر عيسى عليه ما حصل ذلك، ولولا أن الله تعالى أذن لعيسى أن يُصوِّر على هيئة الطير ما فعل ذلك؛ لأن تصوير ذوات الأرواح لا يجوز؛ لما فيه من مضاهاة خلق الله تعالى، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»^(١).

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إظهار كمال عبوديته لله تعالى، واحتراس من أن يظن أنه يخلق استقلالًا.

﴿وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾: معطوف على ﴿أَخْلُقُ﴾، و«أبرئ» من (البرء) وهو الشفاء، أي: وأشفي، قيل: يبرؤهما بالدعاء.

و﴿الْأَكْمَةَ﴾: الذي وُلِدَ أعمى، وقيل: الأعمى مطلقًا.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾: من به برص، وهي بقع بيضاء شديدة البياض تظهر على الجلد، وقد تنتشر حتى تَعْمُ الجلد كله، وهو مرض مستقذر.

كما في قصة الثلاثة: الأبرص والأقرع والأعمى: «فجاء الملك للأبرص، فقال له: أي شيء أحب إليك؟ قال: «لون حسن وجلد حسن، قد قدرني الناس»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «اللباس» (٥٩٥٣)، ومسلم في «اللباس والزينة» (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤٦٤)، ومسلم في «الزهد والرقائق» (٢٩٦٤)، من حديث

وخصَّ إبراء الأكمه والأبرص؛ لأنها أمران مُعضلان أعجزا الأطباء مع كثرتهم في زمنه وحذقهم؛ ولهذا أراهم الله تعالى المعجزة من جنس الطب، وقرن ذلك بالخلق وإحياء الموتى.

﴿وَأَخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: معطوف على ﴿وَأُزَيِّرُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾، أي: وأحيي الذين ماتوا بإذن الله الكوني، و(ال) في «الموتى» للجنس، أي: جنس «الموتى» بأن يقف على أي ميت فيأمره فيحیی، وليس المراد بذلك ميتاً بعينه كما قيل إنه أحيى سام بن نوح أو غيره من أناس بأعيانهم؛ فهذا لا دليل عليه.

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم.

﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية في الموضعين، أي: بالذي تأكلونه اليوم، أو بأكلكم في يومكم.

﴿وَمَا تَدْخُرُونَ﴾ أي: والذي تدخرونه، أو ادخاركم ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾: لغد، أو لما بعده، مما لم أطلع عليه.

وهذا من جملة الآيات التي أعطاها لعيسى؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ارتضى من رسله، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وكما أن في هذا آية من آيات الله التي منحها الله تعالى لعيسى؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ ففي ذلك حض لهم على الأكل والادخار مما أباح الله تعالى لهم، وتحذير مما حرمه الله عليهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾: الإشارة لما سبق من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزَيِّرُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

أي: إن في ذلك المذكور لآية لكم، أي: لعلامة على صدقي فيما جئتكم به من الرسالة تدعو إلى الإيمان بذلك

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين بآيات الله، منقادين لشرعه؛ ففي ذلك آية لكم؛ لأنه لا يتنفع بالآيات إلا المؤمنون بخلاف أهل العناد والمكابرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾.

قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ «مصدقًا»: حال، أي: وحال كوني «مصدقًا لما بين يدي من التوراة»، والمصدق: المخبر بصدق غيره، واللام في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ﴾: للتقوية، أي: تصديقًا مثبتًا محققًا.

والمعنى: ومصدقًا لما تقدم قبلي وسبقني من التوراة، ببيان أنها حق من عند الله، وبكوني مصداق ما أخبرت به، فأخبرت ببعثته عليه السلام قبل مبعثه، فكان مبعثه مصداق ما أخبرت به، وأيضًا مصداقًا لها بكون ما جاء به - غالبًا - موافقًا لما جاء فيها من أخبار وأحكام.

﴿وَلِأَحْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ «الواو»: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، و«اللام»: للتعليل.

أي: ولأجل أن أحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم في التوراة تخفيفًا عنكم، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأَيِّن لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

والمحرم عليهم ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

فبسبب بغيتهم وظلمهم حرّم الله تعالى عليهم هذه الطيبات، ثم أحل الله تعالى لهم بعضها على لسان عيسى، كما قال عليه السلام: ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾. و﴿جِئْتُمْ بِثَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِثَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وليبني عليه قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

﴿وَأَطِيعُوا﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم «وأطيعوني»، وقرأ الباقون بحذفها، و﴿وَأَطِيعُوا﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأطيعوني بفعل ما أمركم به، وترك ما أنهاكم عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. أمر عيسى قومه بتقوى الله تعالى وطاعته، ثم بيّن علة أمره لهم بذلك، وهو أن الله - عز وجل - ربه وربهم، يجب عليهم جميعاً تقواه وطاعته وعبادته وحده.

قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: هذه الجملة تعليل للأمر بالتقوى والطاعة، أي: لأن الله ربي وربكم، فلكونه ربهم فهو حقيق بأن يتقوه جل وعلا، ولكونه رب عيسى وأرسله يقتضي تقواه وطاعة رسوله.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ «الفاء»: للسببية، أي: فاعبدوه وحده، وفي هذا دلالة على أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

وفيه أيضاً تنبيه وإشارة إلى أن عيسى مع ما أعطيه من الآيات السابقة؛ فهو كغيره من الخلق مربوب لله تعالى، خاضع، منقاد له؛ ولهذا بدأ عليه السلام بنفسه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي﴾.

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع لله تعالى، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة؛ كالصلاة، والزكاة، وبر الوالدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإخلاص لله تعالى، والمحبة في الله تعالى والبغض في الله.. وغير ذلك.

كما تُطلق العبادة على فعل التعبد.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: الإشارة إلى ما سبق في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ٥٠
 إِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، أي: تقوى الله تعالى، وطاعة عيسى عليه السلام،
 وعبادة الله تعالى هي الصراط المستقيم.

ويُحتمل عود الإشارة إلى أقرب مذكور وهو قوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾.

﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾ أي: هذا طريق واسع.

﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: عدل، لا اعوجاج فيه، يؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى
 الله - عز وجل - وجنته بأقصر مسافة، وأقل وقت.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم، وتكليمهم لمريم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾.

٢- بشارة الله تعالى بعيسى عليه السلام؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

٣- أن عيسى عليه السلام «كلمة» من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾، وهو

«كلمة الله»، كما قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]؛ لأن الله

تعالى خلقه بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ من غير أب، آية من آيات الله العظيمة، ودلائل

قدرته التامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ

ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٤- تسمية عيسى عليه السلام وتلقيبه بـ ﴿الْمَسِيحُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وفي هذا ثناء من الله تعالى عليه؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة من عمى أو برص أو غير

ذلك إلا برأ باذن الله تعالى.

٥- تكنية عيسى عليه السلام بـ ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾، ونسبته إلى أمه؛ لأن الله خلقه من أم بلا

أب؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ ولهذا يُذكر في القرآن منسوباً إلى أمه كثيراً، بينما لا يُنسب غيره من الأنبياء حتى ولا لأبائهم؛ لأن في ذكر عيسى عليه السلام منسوباً إلى أمه تذكيراً بعظيم قدرة الله تعالى بخلقه من أم بلا أب، فاجتمع في قوله تعالى: ﴿الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أنواع العَلَم الثلاثة: اللقب - وهو قوله: ﴿الْمَسِيحِ﴾، والاسم - وهو قوله: ﴿عِيسَى﴾، والكنية - وهو قوله: ﴿ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

٦ - مكانة عيسى عليه السلام، ووجاهته عند الله، وشرفه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

٧ - إثبات البعث والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾.

٨ - قُرب عيسى عليه السلام من الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

٩ - تكليم عيسى عليه السلام الناس وهو صبي في المهد آية من آيات الله تعالى العظيمة، ومنة منَّها الله تعالى على عيسى وأمه مريم عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾.

١٠ - أن تكليم عيسى عليه السلام وهو في المهد كتكليمه وهو كهل من حيث فصاحته وبيانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَهَلًا﴾، وفي هذا إعلام بأنه يعيش حتى يصير كهلاً.

١١ - أن عيسى عليه السلام من جملة الصالحين، بل ممن بلغوا الغاية في الصلاح؛ فهو أحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

١٢ - أن الصلاح يوصف به الأنبياء والرسل كما يوصف به غيرهم؛ لأن به وبكماله يبلغ العبد غاية الإيمان، إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة لشرعه.

١٣ - ربوبية الله تعالى الخاصة لمريم؛ لقولها: ﴿رَبِّ﴾.

١٤ - تعجب مريم عليها السلام أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر؛ للتثبت وزيادة الاطمئنان، وليس من باب الاستبعاد أو الإنكار أو الشك؛ لأنها مصدقة بما بشرها الله به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾.

١٥ - خطاب الله تعالى لمريم عليها السلام، وفيه تشریف وتكريم لها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾.

كَذَلِكَ ﴿١٦﴾

١٦- قدرة الله تعالى التامة على خلق ما يشاء، سواء كان على وفق الأسباب المعتادة المعلومة، أو على خلاف ذلك، كما خلق تعالى عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وجعله يكلم الناس في المهدي؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

١٧- إثبات صفة الخلق لله تعالى وصفة المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

١٨- نفوذ قضاء الله تعالى وأمره الكوني وحدوثه بمجرد قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ دون تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لكمال قدرته وقوته.

١٩- منة الله تعالى على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتب السابقة، والشريعة وأسرار التشريع، والتوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢٠﴾

٢٠- إثبات إرسال عيسى لبني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وفي هذا رد على اليهود الذين كذبوا رسالة عيسى عليه السلام.

٢١- عموم رسالة عيسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

٢٢- تأييد الله - عز وجل - عيسى بالآيات الكونية؛ حيث يخلق من الطين كمثل الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا حيًّا يطير بإذن الله تعالى، ويُسْفِي الأعمى والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويُنَجِّس بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ بَنِيَّ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنشِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ

أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ نَخَلْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُرىُّ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴿
[المائدة: ١١٠].

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لبني إسرائيل وغيرهم من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

٢٤- استعطاف عيسى عليه السلام لقلوب بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: من المنعم عليكم بنعمة الربوبية مما يوجب عليكم أن تُطيعوه، وتصدقوا رسله، ولا تعصوه.

٢٥- في تأييد الله- عز وجل- لعيسى بهذه الآيات الكونية العظيمة التي ليست بمقدور أحد من الخلق إلا بإذن الله- عز وجل- دلالة عظيمة على كمال قدرة الله تعالى.

٢٦- أن الله- عز وجل- قد يبيح لحكمة فعل أمر كان في الأصل حراماً لمن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي أَنْخُلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾.

فصنع تمثال على هيئة الطير حرام في الأصل، لكن لما كان بأمر الله تعالى كان مباحاً، ومثل هذا أمر الله- عز وجل- الملائكة بالسجود لآدم؛ مع أن السجود في الأصل لا يجوز لغير الله، ومثل أمره تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام مع تحريم قتل النفس بغير حق.

٢٧- جواز إطلاق وصف الخلق على المخلوق؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَنْخُلُقُ لَكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي الحديث أنه يُقال للمصورين: «أحيوا ما خلقتكم»^(١). والخلق إذا أُضيف إلى المخلوق فمعناه: تحويل الشيء الموجود من حال إلى حال، كتحويل الخشب والحديد إلى باب.. ونحو ذلك، أما الخلق بمعنى الإيجاد من العدم فذلك خاص بالله تعالى.

٢٨- قدرة عيسى عليه السلام بإقدار الله تعالى، وإذنه له على أن يخلق من الطين كهيئة

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٠٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الطير، وينفخ فيه الروح فيكون طيرًا، وعلى إبراء الأعمى والأبرص وإحياء الموتى، وإخبار قومه بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم مما هو غيب لا يعلمه إلا الله أو من ارتضى من رسله.

٢٩- إثبات الإذن الكوني والشرعي لله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾.

٣٠- أن عيسى عليه السلام عبد مريبوب لله تعالى، لا يملك من الربوبية شيئاً كغيره من الرسل وسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَاذِنُ مَنْ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ مرتين، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي﴾.

وفي هذا رد على النصارى الذين يزعمون فيه المشاركة لله تعالى في الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وقال تعالى عنه - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: ٥١].

٣١- في إطلاع الله - عز وجل - عيسى عليه السلام - على ما يأكله بنو إسرائيل وما يدخرونه في بيوتهم ما يُوجب عليهم الحذر أن يأكلوا ما لا يجوز أكله، أو يدخروا ما لا يجوز ادخاره.

٣٢- تأكيد أن ما جاء به عيسى آية عظيمة، وبخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٣٣- أن من شرط الإيمان التصديق بآيات الله تعالى الكونية والشرعية، وذلك أيضاً سبب للإيمان.

٣٤- فضل الإيمان وأهله؛ لأنهم المتفعلون بالآيات دون غيرهم؛ لهذا خصّهم بالذكر، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٣٥- تصديق عيسى عليه السلام لما سبقه من التوراة؛ فهو شاهد بصدقها، وأنها حق ومصداق ما أخبرت به من بعثته، وما جاء به موافق لما جاء فيها؛ لقوله تعالى:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾.

٣٦- تحليل عيسى عليه السلام بما جاء به من الشرع بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل

تخفيفاً عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٧- جواز النسخ في الشرائع السماوية، ونسخ بعضها لبعض، فأجل في شريعة عيسى

بعض ما كان محرماً في شريعة موسى، وهذا من قبيل النسخ، كما نسخ بشرريعة

محمد ﷺ جميع الشرائع السابقة.

٣٨- تأكيد عيسى عليه السلام قيام الحجّة على قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِئْتَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن

رَبِّكُمْ﴾.

٣٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾.

٤٠- تأكيد عيسى استعطاف قلوب بني إسرائيل بربوبية الله تعالى لهم؛ لقوله:

﴿جِئْتَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ ليتقوا الله ويطيعوه.

٤١- وجوب تقوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٤٢- وجوب طاعة الرسل عليهم السلام، وأنها من تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا﴾.

٤٣- وجوب عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾.

٤٤- أن توحيد الربوبية، والإقرار به يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

٤٥- أن عبادة الله تعالى وحده دون سواه هي الصراط المستقيم المؤدي إلى السعادة في

الدنيا والآخرة، وإلى الفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي مَكْبِئًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ
وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

لما ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة بشارة الملائكة لريم بعيسى عليه السلام،
وما له من المنزلة العظيمة، والقرب من الله تعالى، وما أعطاه الله - عز وجل - من الآيات
الشرعية والكونية، وإرساله إلى بني إسرائيل، وتبليغهم آيات الله تعالى، وأمرهم بتقوى
الله وطاعته وعبادته وحده، وأن هذا هو الصراط المستقيم، أتبع ذلك بيان إطباقهم على
الكفر، ولجوء عيسى عليه السلام إلى اختيار الصفوة منهم إعداراً منه إلى الله تعالى.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ الفاء: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى
«حين» متضمن معنى الشرط، أي: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ بعد أن جاءهم
بالآيات وبلغهم بالرسالة وأمرهم بتقوى الله وطاعته وعبادته - عز وجل - وحده.

ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾ أي: استشعر وأدرك وسمع وعلم وتيقن.

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل الذين أرسل إليهم.

﴿الْكُفْرَ﴾ أي: التصميم على الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، والاستمرار
على الضلال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ
جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال عيسى لعموم بني إسرائيل.

﴿مَنْ﴾ للاستفهام، أي: (من أنصاري منكم)، وأنصار: جمع «نصير»، والأنصار:
«الأعوان».

﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعوتي إلى الله وطريقي إلى الله تعالى.

والمعنى: أنه عليه السلام لما تيقن منهم الكفر وعدم الإيمان لجأ إلى الاختيار، وانتخاب الأَكْفَاء؛ تأكيداً للبلاغ وإعذاراً إلى الله تعالى، فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من أنصاري منكم في دعوتي وطريقي إلى الله؟. كما كان نبينا محمد ﷺ يقول في مواسم الحج: «ألا رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(١).

حتى قيض الله تعالى له الأنصار فأووه وأزروه ونصروه.

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن النصرة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى.

﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ﴾: «الحواريون» جمع «حواريّ» بتشديد الياء، وهو الناصر والصفويّ، أي: قال أنصار عيسى وأصفياءه وخاصته، قيل: «كانوا اثني عشر رجلاً». وقد ثبت أن النبي ﷺ انتدب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندهم فانتدب الزبير فقال ﷺ: «إن لكل نبي حواريّاً، وإن حواريّ الزبير بن العوام»^(٢).

وقد غلب اسم الحواريين على أنصار عيسى عليه السلام.

﴿فَمَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾: الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، معرّفة الطرفين تفيد الحصر، أي: نحن لا غيرنا.

﴿أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه، كما قال تعالى في سورة الصف: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: صدّقنا بالله، وأقررنا به، وانقدنا لشرعه.

﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: كُنْ شَهِيدًا لَنَا عَلَى أَنَّا مُسْلِمُونَ، ولم يطلبوا

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢، ٣٣٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٥)، والترمذي في

المناقب (٣٧٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الشهادة على إيمانهم بالله لأنه أمر باطن، وإنما استشهدوه على الإسلام؛ لأنه أمر ظاهر، وذلك من باب التوكيد وإعلان الإسلام تقوية لعيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٧﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ أي: يا ربنا صدقنا باطنًا بالذي أنزلت؛ أي: بالإنجيل الذي أنزلت على عيسى - عليه السلام - وبالتوراة التي أنزلت على موسى - عليه السلام - وبجميع الكتب التي أنزلتها على أنبيائك، وبهذا أشهدوا ربهم على إيمانهم الباطن بما أنزل على جميع رسله.

﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾، و«ال» في ﴿الرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود عندنا، أي: رسولنا عيسى - عليه السلام.

ويحتمل كون «ال» للعهد الذكري؛ لقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَرَسُولًا﴾.

ويحتمل كونها للجنس، أي: جنس الرسل؛ أي: وأقررنا بجميع الرسل، واتبعناهم بما جاؤوا به من الدعوة إلى الله، وبهذا أشهدوا ربهم على إيمانهم الظاهر باتباعهم الرسول وانقيادهم له، فجمعوا بين التصديق باطنًا بما أنزل الله، وبين الاتباع ظاهراً للرسول، وهو ثمرة الإيمان الباطني.

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر، و﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، أي: فاكْتُبْنَا مع الشاهدين الذين شهدوا لك بالوحدانية وكتبتك ورسلك بالصدق والحق، كما قال تعالى عنهم في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ رَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الآية: ٨٣]؛ أي: فاكْتُبْنَا مع الشاهدين الذين شهدوا لك بالوحدانية وكتبتك ورسلك بالحق والصدق كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقيل: المراد بـ﴿الشَّاهِدِينَ﴾: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين لهم الشهادة المطلقة على جميع الرسل بالبلاغ، وعلى أممهم بمواقفهم من رسلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا ﴿البقرة: ١٤٣﴾.

والمعنى على هذا: فإكتبنا مع أمة محمد ﷺ الذي بشرنا به عيسى - عليه السلام - كما قال تعالى عنه: ﴿يَبَيِّنْ إِسْرَاءَ بِلِإِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِبِينَ﴾ (٥٤).

قوله: ﴿وَمَكْرُؤًا﴾: الضمير «الواو» يعود إلى الذين كفروا من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾، و«المكر»: هو الكيد والتدبير الخفي لإلحاق الضرر بالغير خفية.

أي: «ومكر بنو إسرائيل وبخاصة اليهود»، أي: كادوا ودبروا بخفية لإنكار رسالة عيسى عليه السلام، وتكذيب دعوته، والكفر بها، ولقتله، فوشوا به إلى ملكهم، وتمالؤوا على قتله، ولكن الله أنجاه منهم، فعاد وبال كيدهم عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

ولهذا قال: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، والمكر لا يُضَافُ ولا يُنَسَبُ إلى الله تعالى إلا على سبيل المجازاة للماكرين، كالكيد للكائدين، والاستهزاء بالمستهزئين، والسخرية بالساحرين.. ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

أي: ومكر الله بهم، وكاد لهم معاقبة لهم ومجازاة على مكرهم، فنصر عيسى عليه السلام ومن معه من الحواريين عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ومكر عز وجل بهم فنجى عيسى عليه السلام منهم حينما تمالؤوا على قتله ودخلوا

عليه يريدون قتله وهو لم يشعر بذلك، فألقى الله - عز وجل - شبه عيسى على رجل منهم، بل قيل على زعيمهم، أو على رجل من أصحاب عيسى عليه السلام، فظنوه عيسى فقتلوه وصلبوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ أي: أقواهم وأشدهم وأعظمهم مكرًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

ومن أشد مكره - عز وجل - بهؤلاء الذين هموا بقتل عيسى عليه السلام أن يُلقى سبحانه على رجل منهم أو على زعيمهم شبه عيسى عليه السلام، فيظنوه عيسى فيقتلوه ويصلبوه، فعاملهم عز وجل بنقيض قصدهم، وقد قيل «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»^(١).

الفوائد والأحكام:

١ - شدة عتو بني إسرائيل، فمع ما جاءهم به عيسى عليه السلام من الآيات الشرعية والكونية لم ينجع فيهم ذلك ولم يؤمنوا، بل كفر أكثرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾.

٢ - ينبغي للداعية إلى الله تعالى اختيار ذوي الإخلاص والصدق ليكونوا عونًا له في دعوته إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٣ - التغيير في أسلوب الدعوة أمر مطلوب؛ لأن عيسى عليه السلام لما استعصى عليه إيمان كثير من بني إسرائيل وجّه النداء للمخلصين منهم خاصة.

٤ - لا ينبغي أن يتطرق اليأس إلى نفس الداعي إلى الله - تعالى -، فعيسى عليه السلام لما كفر به بنو إسرائيل، وكان يطمع في إيمانهم لم ييأس، ولم يُثنه ذلك، بل نادى بهم

(١) قيل: كان هذا مكتوبًا في التوراة، روي هذا عن عمرو بن العاص، وعن كعب الأحمري، رواه عنه ابن عباس.

انظر: «حلية الأولياء» (٢٨٨/١)، و«تفسير الثعلبي» (١١٦/٨)، و«تفسير ابن جزى» (١٧٧/٢).

تأكيدًا للبلاغ وإعدادًا إلى الله تعالى قائلًا: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، فأجابه الحواريون:
﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ الآية.

٥- أن الخير لا يُعدم في الناس، فمع كفر أكثر بني إسرائيل آمن فريق منهم وهم الحواريون، وناصروا عيسى عليه السلام.

٦- عدم الاغترار بما عليه الكثرة، فالأكثرون ضد الحق والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

٧- ترغيب المدعوين في نصره الحق؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي: في طريقى إلى الله ونصرة دينه.

٨- أن دعوة الرسل عليهم السلام إلى الله وإلى إخلاص العبادة له وحده، والانتصار لدينه، لا لأنفسهم؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي: في طريقى إلى الله ودعوتى إليه.

٩- حاجة الرسل إلى النصرة في دعوتهم إلى الله؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَفَنِي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرَ﴾ [القمر: ١٠].

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُدْخِلُ فِي يَدَيْكَ بِبَصَرِهِ وَيَا لِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

١٠- أن نصرة الرسل في دعوتهم نصره لله تعالى؛ لقول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

١١- فضل الحواريين لمسارعتهم لنصرة دين الله لما دعاهم عيسى لذلك؛ لقوله تعالى:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢)

ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الآية.

١٢- ينبغي نصره الحق والداعين إليه من الرسل وغيرهم؛ لأن الله امتدح الحواريين بذلك.

١٣- إطلاق اسم المسلمين على أتباع عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ﴾.

وهكذا أتباع جميع الرسل يُسمون بذلك، وبعد بعثة محمد ﷺ صار الإسلام علمًا على الدين الذي جاء به، والذي لا يقبل الله من أحد سواه بعد مبعثه ﷺ.

١٤- أن الخلق إنما يشهدون على الظاهر، أما الباطن فأمره إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى:

﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، ولم يقولوا: بأننا مؤمنون.

١٥- أنه ليس من الرياء أو السمعة أن يقول الإنسان: أنا من أنصار الله، أو أنا مؤمن،

أو مسلم، أو متبع للرسول إذا كان ذلك على سبيل إعلان الحق والجهر به ونصرته ونصرة الداعي إليه وتقوية جانبه وعزيمته ورفع معنويته؛ لقول

الحواريين: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمْنَا

بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

١٦- التوسل إلى الله - عز وجل - بربوبيته، وبالإيمان بما أنزل، وأتباع الرسول؛ لقول

الحواريين: ﴿رَبَّنَا ءَأَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى ﴿رَبَّنَا﴾.

١٨- أن الإيمان بالله مُقَدَّم على غيره من أركان الإيمان والإسلام؛ لقول الحواريين:

﴿ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

١٩- أن الواجب الإيمان بكل ما أنزل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾.

٢٠- التلازم بين الإيمان بالله تعالى وبما أنزل وبين الإسلام وأتباع الرسول بالعمل

الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمْنَا بِمَا

أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

٢١- عِظَم منزلة الشاهدين الذين يشهدون بوحدانية الله تعالى وبالحق والصدق لكتبه

ورسله؛ لقول الحواريين: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

٢٢- مكر بني إسرائيل وكيدهم لعيسى عليه السلام ولدعوته، وتمالؤهم على قتله من حيث لا يشعر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا﴾.

٢٣- مكر الله - عز وجل - بالذين مكروا بعيسى عليه السلام وأنكروا رسالته وردوا دعوته وهموا بقتله مُعاقبةً ومجازاةً لهم، وذلك بنصرة عيسى عليه السلام وأتباعه، وإنجائه منهم واستدراجهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾.

٢٤- مكر الله - عز وجل - بالماكرين مجازاةً ومُعاقبةً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

٢٥- أن الله - عز وجل - خير الماكرين وأقواهم وأشدهم مكرًا بالماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾.

٢٦- أن الله - عز وجل - لا يوصف بالمكر مطلقًا؛ لأن المكر بالإطلاق صفة نقص، وإنما يوصف به على سبيل المجازاة والمُعاقبة للماكرين، وهو بهذا المعنى صفة مدح ولا يقدح في هذا ما جاء ظاهره الإطلاق، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فهو محمول على الوصف المذكور.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ۞

قوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ۞ ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بقوله: ﴿ وَمَكَّرَ اللَّهُ ۞ ﴾ أو بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يا محمد منوهاً بفضل عيسى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ۞ ﴾.

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ۞ ﴾: المراد بـ«الوفاة» هنا: الوفاة الصغرى بالنوم، لا الوفاة الكبرى بالموت، أي: إني متوفيك بالنوم، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ۞ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۞ ﴾ [الزمر: ٤٢]، أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين تمام تشبيهاً للنائمين بالموتى.

وفي الحديث أنه ﷺ إذا قام من النوم، قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(١).

وهذا لا ينافي قول من قال معنى ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ۞ ﴾ أي: قابضك من

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤١٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٠)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الأرض ورافعك إليّ.

وأما قول من قال: معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: متوفيك وفاة موت، أي: إني مُميتك. فهذا يضعفه ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من نزول عيسى في آخر الزمان. كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»^(١).
وعنه أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً، أو ليشننها»^(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ليس بيني وبينه نبي - يعني: عيسى - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربع إلى الحمرة والبياض، بين مُمَصَّرَين، كأن رأسه يقطر وإن لم يُصَبْه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون»^(٣).

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الرفع يكون من أسفل إلى أعلى، أي: ورافعك إليّ في السماء، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾^(١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿ [الملك: ١٦-١٧].
وقال ﷺ للجارية: أين الله؟ فقالت: في السماء، فقال ﷺ لسيدها: «أعتقها، فإنها مؤمنة»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٢)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٣)، وابن ماجه (٤٠٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٢٤).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٥٣٧)، وأبو داود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

والحكمة - والله أعلم - من توفيه بالنوم قبل رفعه: تيسير وتخفيف الانتقال عليه من الأرض إلى السماء.

﴿وَمُطَهَّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء، وتبرئتك بها رماك به الذين كفروا من الباطل - وهم اليهود - حيث رموه بالكذب فيما جاءهم به، وأنكروا رسالته، واتهموه بأنه ابن زنا، وأن أمه زانية.. وغير ذلك أخزاهم الله.

كما قال تعالى: ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَتِ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٨].

وفي هذا تعريض بأنه ولد زنا، وأن أمه زانية - عياذاً بالله -، كما قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، فأنطقه الله - عز وجل - وهو في المهد بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

وفي هذا أعظم التطهير له عليه السلام ولأمه رضي الله عنهما.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَجَاعِلُ﴾ أي: وجاعل كونًا وشرعًا ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

و«جاعل» هنا بمعنى «مُصَيِّرٌ» تنصب مفعولين: الأول - قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾، و«فوق»: ظرف مكان متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لـ «جاعل» تقديره: كاتنين فوق الذين كفروا.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أي: الذين اتبعوك فيما جئت به من الشرع، وهم الحواريون ومن اتبعه بعد ذلك حتى نسخت شريعته بشريعة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فوق الذين كفروا فوقية معنوية بجعل النصرة والرفعة

لهم والظهور كونًا وشرعًا على الذين كفروا بك وجحدوا رسالتك وكذبوا شريعتك.
﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: إلى يوم البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.
وأتباع عيسى عليه السلام حقًا بعد بعثة محمد ﷺ هم أتباع محمد ﷺ؛ لأن عيسى
عليه السلام بَشَّرَ بمحمد ﷺ، وأوجب تصديقه واتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأن الدين الباقي إلى يوم القيامة هو
دين الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ والذي نسخ جميع الشرائع السابقة وكما يدل عليه
قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].
وقد قال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»، قالوا: كيف يا
رسول الله؟، قال: «الأنبياء إخوة من علات، وأمها تهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا
نبي»^(١).

قال ابن القيم^(٢): «فلما كان للنصارى نصيب ما، من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى
يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم
القيامة».

ولهذا فإن عيسى عليه السلام حينما ينزل في آخر الزمان يحكم بالإسلام الذي جاء
به محمد ﷺ ويقا تل الناس عليه ولا يقبل منهم إلا الإسلام.
وعلى هذا؛ فليس لمن كذب محمدًا ﷺ وأنكر رسالته من النصارى وغيرهم متمسك
في هذه الآية؛ لأنهم ليسوا من أتباع عيسى حقًا، وليسوا من الذين وُعدوا بالفوقية على
الذين كفروا إلى يوم القيامة، بل هم من الذين كفروا لعبادتهم المسيح، وقولهم هو ابن
الله، أو ثالث ثلاثة، وإنكارهم رسالة محمد ﷺ وكفرهم بالقرآن الكريم.

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: [عيسى بن مريم] (٢٣٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٥٠٠/١).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾: الخطاب لعيسى عليه السلام والذين اتبعوه والذين كفروا به، ويجوز كونه خطاباً للنبي ﷺ وأمه أو للجميع، أي: ثم إليّ مصيركم ومآلكم ومآبكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].
ومرجع الخلائق ومصيرهم ومردّهم كلهم إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الْأَلَىٰ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: المراد بالحكم هنا الحكم الجزائي؛ لأن حكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: كوني وشرعي وجزائي، أي: فأحكم بينكم بالمجازاة لكل منكم، وإنصافه من الآخر.

﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي كنتم فيه تختلفون، فيحكم عز وجل بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وبين الرسل وأقوامهم، ويُقيم الرسل البينة على أقوامهم أنهم بلغوا رسالات ربهم، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

هاتان الآيتان معطوفتان على ما سبق، وفيها بيان وتفصيل لما أجمل في قوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الفاء»: عاطفة للتفريع، و«أما» في الموضعين: شرطية تفصيلية.

﴿فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ «الفاء»: تفريعية، و«العذاب» هو العقاب والنكال، وهو إيقاع المشقة والأذى بالمعذب.

فالمعنى: فأعاقبهم عقاباً شديداً، أي: قوياً عظيماً، كما وكيفا ونوعاً.

وفي قوله: ﴿فَاعْزِبْهُمْ﴾ بضمير المتكلم تعظيم لنفسه - عز وجل - وترهيب وتخويف من عذابه.

﴿فِي الدُّنْيَا﴾: وهو ما يحصل لهم من القتل والجرح والأسر، وزوال الملك، وضرب الذلة والمسكنة عليهم، وأخذ الجزية.. ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿قَتَلْتَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

وكذلك ما يحصل لهم من المصائب والكوارث، قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وما يحصل لهم من العذاب المعنوي في قلوبهم من القلق، وضيق الصدور، وقلق النفوس بسبب كفرهم وعدم إيمانهم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿وَالْآخِرَةَ﴾: معطوف على ﴿الدُّنْيَا﴾، أي: وأعذبهم في الآخرة. وعذاب الآخرة أشد، وهو ما يلقونه فيها من الأهوال التي أعظمها الخلود في النار، وبئس القرار.

﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ «الواو»: عاطفة، و«ما»: نافية، و«مِن» في قوله: ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ لتنصيص وتأکید عموم النفي، أي: وما لهم أيُّ أحد من الناصرين، و﴿نَّاصِرِينَ﴾: جمع «ناصر» وهو الذي يدفع الضَّرَّ، أي: وما لهم من ناصرين يدفعون ويمنعون عنهم عذاب الله قبل وقوعه أو يرفعونه بعد وقوعه.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي

الْأَرْضِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿التوبة: ٧٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

والولي الذي يجلب النفع، والنصير الذي يدفع الضرر.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

توعد عز وجل في الآية السابقة الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، وقدّم ذكر وعيدهم لأن السياق فيهم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعدّه للذين آمنوا من الأجور الوافية كما هي طريقة القرآن الكريم في ذكر أهل الكفر وأهل الإيمان، وما أعدّ لكل منهم جمعاً بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: وأما الذين صدقوا بقلوبهم بكل ما يجب الإيمان والتصديق به.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات، فانقادوا بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، وبين العلم النافع والعمل الصالح.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهو «الأعمال»؛ لأن شرط العمل أن يكون صالحاً، أي: خالصاً لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: «... فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

وأن يكون موافقاً للشرع؛ قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي لفظ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١).

ويجمع الشرطين مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص العمل لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: متبع شرع الله. ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمور ستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والمكان، والزمان.

فالموافقة في السبب مثلاً: أن يصلي للكسوف عند وجود سببه، فمن صلى صلاة الكسوف دون حصول الكسوف لم تصح منه.

والموافقة في الجنس مثلاً: أن يضحي من بهيمة الأنعام (الإبل والبقر والغنم)، فمن ضحى بغيرها لم يقبل منه.

والموافقة في القدر مثلاً: أن يصلي صلاة الظهر أربع ركعات، فمن زاد فيها أو نقص فصلاته باطلة.

والموافقة بالكيفية مثلاً: أن يقدم الركوع على السجود في الصلاة، فمن عكس لم تصح صلاته.

والموافقة في المكان مثلاً: أن يقف الحاج بعرفة يوم التاسع، فمن وقف خارجها لم يصح حجه.

والموافقة في الزمان مثلاً: أن يصلي الصلاة بعد دخول وقتها، فمن صلاها قبل وقتها لم تصح منه^(٢).

﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ «الفاء»: رابطة لجواب الشرط.

قرأ حفص عن عاصم، ورؤي عن يعقوب: ﴿فَيُؤْتِيهِمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون، أي: بنون العظمة، «نوفيهم» وفيها تنبيه على عظم الموفى لهم من الأجور. والمعنى: فيعطيههم جزاء أعمالهم وافيًا من غير نقصان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا

(١) أخرجه مسلم في الأفضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين في تفسيره على قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩] «تفسير سورة المائدة» (١/١٥٣-١٥٤).

لَمَوْفُوهُم نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿ [هود: ١٠٩].

أي: فيوفيههم أجورهم في الدنيا والآخرة بدليل مقابله في ضده؛ لقوله: ﴿فَاعْزِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: فيوفيههم أجورهم في الدنيا بالنصر والظفر والحياة الطيبة وحسن الذكر، وفي الآخرة بجنات النعيم والعيش الكريم.

وفي قوله في ذكر العذاب: ﴿فَاعْزِبْهُمْ﴾ بينما قال هنا: ﴿فَيُوقِفُهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة للتنبية - وهذه فائدة لفظية كما أن فيه فائدة معنوية، وهي إظهار السلطة والعظمة والعزة في باب ذكر العذاب، وإظهار الفضل والإحسان للعاملين في باب ذكر الثواب.

وسمى الله - عز وجل - جزاء وثواب عملهم أجرًا؛ لأنه - عز وجل - تكفل به وأوجهه على نفسه، كما أوجب أجره الأجير على المستأجر، مع أن الله - عز وجل - لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه تفضلاً منه وكرمًا، كما قال عز وجل: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الجملة تعليلية، فيها تعليل لما توعد به الذين كفروا من العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، فتوعدهم عز وجل بهذا العذاب الشديد بسبب ظلمهم، وهو سبحانه لا يحب الظالمين بل يبغضهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وفيها أيضًا تعليل لحكم الله تعالى بين الخلائق، ومجازاة الذين كفروا بالعذاب، ومجازاة الذين آمنوا بتوفيتهم أجورهم، فحكم بينهم بهذا الجزاء بالعدل؛ لأنه سبحانه لا يحب الظلم وأهله.

أي: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك بالله وعبادة غيره، وظلموا عيسى عليه السلام وأمه باتهامه أنه ولد زنا وأن أمه زانية.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من ذكر عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿آل عمران: ٤٥﴾ الآية.

أو إليه وإلى ما سبق من ذكر آل عمران، أي: من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

أو إلى كل ما أنزله الله تعالى في القرآن الكريم، فكل هذا مما تلاه الله تعالى وأوحاه إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

وفي الإشارة إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ تعظيم له، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١٠٨، البقرة: ٢٥٢، الجاثية: ٦].

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: نقرؤه عليك متتاليًا يتلو بعضه بعضًا، والخطاب للنبي ﷺ، أي: نقرؤه عليك بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [١٩٣] عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقُوا لِغَدَاةٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بِبَيَانِهِ﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ «من»: بيانية، أي: من الآيات الكونية الدالة على صدقك في دعوى الرسالة، كما قال تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣].

﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾: معطوف على الآيات، أي: «ذلك نتلوه عليك من الآيات الكونية، ومن الذكر الحكيم، وهو القرآن الكريم، أي: الآيات الشرعية. والقرآن الكريم ذكراً بالمعاني الثلاثة للذكر وهي:

أولاً: «الذكر» الذي يتقرب به إلى الله تعالى بتلاوته، وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

ثانياً: «الذكر» بمعنى التذكُّر والاتعاظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

ثالثاً: «الذكر» بمعنى الشرف والرفعة، للرسول ﷺ ولقومه ولكل من تمسك به،

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: إنه لشرف عظيم لك ولقومك، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أي: أعلينا قدرك وشأنك ومنزلتك.

والقرآن الكريم ذكر يُتذكر به ويُتقرب إلى الله تعالى بتلاوته وتدبره، وتذكرة وعظة يتذكر ويتعظ بها المؤمنون، وشرف ورفعة للرسول ﷺ ولقومه وأمته، وبه نالت الأمة العزة والرفعة والشرف والظهور حين كانت متمسكة به محكمة له.

وما ضعفت الأمة وذلت وهان أمرها إلا بعد أن تخلت عن كتاب ربها، ولن يصلح حال آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وهو التمسك بكتاب الله تعالى وتحكيمه.

﴿الْحَكِيمِ﴾: صفة لـ«الذكر»، أي: الذكر ذو الحكم والحكمة، وهو «فعل» بمعنى (فاعل)، أي: «حاكم»، وهو «فعل» بمعنى (مفعول)، أي: «مُحكَم».

ومعنى «حاكم» أي: حاكم يحكم بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بعيسى عليه السلام، وما مَنَّ اللهُ تعالى به عليه من تَوْفِيهِ، ورفعته إليه، وتطهيره من الذين كفروا، ونصر أتباعه وإظهارهم على الذين كفروا، تذكيراً بنعم الله تعالى على رسله وأوليائه، وانتقامه من أعدائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الآية.

٢- إثبات القول لله سبحانه، وأنه - عز وجل - يتكلم بحروف وأصوات مسموعة، ويخاطب رسله ومن شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ الآية.

٣- إثبات رسالة عيسى عليه السلام وتشريفه وتكريمه بخطاب الله - عز وجل - له، وتقريبه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الآية.

٤- إثبات رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بجسمه حياً؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٦- عناية الله - عز وجل - بعيسى عليه السلام عند رفعه إليه حيث توفاه، أي: أنامه قبل ذلك تخفيفاً عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .

٧- منقبة عظيمة لرسول الله ﷺ تدل على قوة وثبات قلبه؛ حيث أُسْرِيَ به إلى السماوات السبع وهو يقظان، بينما رُفِعَ عيسى عليه السلام وهو نائم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .

٨- إبطال دعوى اليهود أنهم قتلوا عيسى وصلبوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد إلى عيسى عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

٩- تطهير الله - عز وجل - لعيسى وتبرئته مما رماه به الذين كفروا من الكذب والباطل واتهامه بأنه ولد زنا، وأن أمه زانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

١٠- أن من رمى عيسى عليه السلام بهذا السوء فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

وفي هذا دلالة على كفر هؤلاء، وأن كل من رماه بما رموه به فهو كافر، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

١١- وعد الله تعالى لعيسى عليه السلام بنصرة أتباعه، وإظهارهم على الكفار إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأتباعه حقاً هم أتباع محمد ﷺ؛ لأنه عليه السلام بَشَّرَ بمحمد ﷺ، وأخبر بوجود أتباعه وتصديقه.

١٢- وعد الله تعالى بالنصرة والرفعة والظهور للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

- ١٣- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.
- ١٤- أن مرجع جميع الخلائق إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾.
- ١٥- إثبات حكم الله - عز وجل - الجزائي بين الخلائق يوم القيامة؛ بين الرسل وأممهم، وبين الأمم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فهو - عز وجل - الحكم، وإليه الحكم، كما قال ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»^(١).
- ١٦- وقوع الاختلاف يوم القيامة والخصومة بين المؤمنين والكافرين، وبين الرسل وأممهم لقوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣٠) ثم إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿ [الزمر: ٣٠-٣١].
- ١٧- الوعيد للذين كفروا بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.
- عذاب شديد في الدنيا حسي بالقتل والجراح وأخذ الجزية وأنواع العقوبات والمصائب والكوارث.
- وعذاب معنوي بالقلق والاضطراب النفسي بسبب الكفر وعدم الإيمان.
- وهذا عام لجميع الكفار، فمن سلم من الأول لم يسلم من الثاني.
- وعذاب شديد في الآخرة حسي بالنار، وعذاب معنوي بالتوبيخ وتحطيم المعنويات.. ونحو ذلك.
- ١٨- حقارة الدنيا؛ لأن الله سماها دنيا لحقارتها.
- ١٩- أن عذاب الكفار في الدنيا لا يُخفف أو يُسقط عنهم عذاب الآخرة، بل يجمع لهم بين العذاب الشديد في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.
- ٢٠- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةَ﴾.
- ٢١- أن الكفار لا ناصر لهم يدفع أو يمنع عنهم عذاب الله تعالى قبل نزوله، أو

(١) أخرجه النسائي في آداب القضاة (٥٣٨٧)، من حديث شريح بن هانئ عن أبيه هانئ رضي الله عنه.

- يرفعه بعد نزوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن تَنْصِرِينَ﴾.
- ٢٢- وعد الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإعطائهم أجور أعمالهم وافية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.
- ٢٣- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فذكر عذاب الكافرين، وأتبعه بذكر ثواب المؤمنين.
- ٢٤- أن الوعيد قد يقدم على الوعد، كأن يكون الكلام والسياق مع الكفار ونحو ذلك؛ لأن الله - عز وجل - قدّم في هذه الآيات وعيد الكافرين على وعد المؤمنين، وهذا لا ينافي أن رحمة الله - عز وجل - تسبق غضبه.
- ٢٥- لا بد في الإيمان من الجمع بين تصديق الباطن وعمل الجوارح في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
- ٢٦- أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صالحاً، خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولهذا حذف الموصوف - وهو الأعمال - وبقيت الصفة؛ لأن المهم في العمل وشرطه أن يكون صالحاً.
- ٢٧- تكفل الله - عز وجل - وضمانه لثواب الصالحين، لهذا سماه «أجراً»؛ لأنه سبحانه وتعالى أوجبه على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أُجُورَهُمْ﴾.
- ٢٨- التحذير من الكفر، والترغيب في الإيمان؛ لأن الله - عز وجل - توعد الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، ووعد المؤمنين بتوفيقهم أجورهم.
- ٢٩- نفي محبة الله تعالى للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ فهو - عز وجل - لا يحب الظالمين بل يبغضهم، ومفهوم هذا أنه - تعالى - يجب أهل الإيمان والحق.
- ٣٠- التحذير من الظلم ومن الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأن الله تعالى لا يحب الظلم وأهله، بل يبغضهم ويعذبهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].
- ٣١- أن الله - عز وجل - حكم عدل، لا يظلم أحداً من خلقه.

٣٢- تلاوة ما وقع من أخبار وأحوال آل عمران وعيسى عليه السلام وغير ذلك على النبي ﷺ، وقراءتها عليه بواسطة جبريل، وهكذا جميع القرآن الكريم تكلم الله - عز وجل - وتلاه جبريل على النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

٣٣- أن في القرآن الكريم أعظم الآيات والدلائل الشرعية والكونية الدالة على عظمة الله - عز وجل - واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ﴾.

٣٤- أن القرآن الكريم «ذِكْرٌ» يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِتَلَاوَتِهِ، وَتَدْبِيرِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَحْكَامِهِ. وَ«ذِكْرٌ» يُتَذَكَّرُ بِهِ، وَيَتَعَطَّ بِهَ الْمُؤْمِنُونَ، وَهُوَ ذِكْرٌ وَشَرَفٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِقَوْمِهِ وَلِكُلِّ مَنْ تَمَكَّسَ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالذِّكْرُ﴾.

٣٥- أن القرآن الكريم «حَكْمٌ» و«حَاكِمٌ» يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، وَ«مُحْكَمٌ» مُتَقَنَّ لَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اِخْتِلَافٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَكِيمِ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٣٦- تعظيم آيات القرآن الكريم بالإشارة إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾، وتسميته بـ «الذِّكْر» ووصفه بـ ﴿الْحَكِيمِ﴾.

٣٧- إثبات رسالة النبي ﷺ، ونزول الآيات عليه، وتشريفه بذلك وبخطاب الله - عز وجل - له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلِئِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

يَبْنِي اللَّهُ - عز وجل - في الآيات السابقة خلقه لعيسى عليه السلام من أم بلا أب، ثم شرع في هذه الآيات في إبطال عقيدة النصارى في تأليه عيسى - عليه السلام - وزعمهم أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ «إِنَّ»: للتوكيد، و«مثل» بمعنى شبه، أي: إن شبه عيسى في خلق الله تعالى له من أم بلا أب.

﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في تقدير الله تعالى وحكمه وفي الواقع ونفس الأمر.

﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾: الكاف: للتشبيه، أي: كسبه آدم.

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾: بيان وتفسير لقوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي: كمثل آدم في خلق

الله تعالى له ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ بلا أم ولا أب، ووجه الشبه بين آدم وعيسى أن كلا منهما في خلقه خرقٌ للعادة، فأدم خلق من غير أبوين، وعيسى خلق من غير أب.

والضمير في ﴿خَلَقَهُ﴾ يعود إلى آدم.

﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: ابتداء خلقه من تراب، وصوّر جسده من تراب.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾: أي: كُن بشراً حياً سوياً كامل الخلق روحاً وجسداً.

﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فيكون بشراً بمجرد قوله - عز وجل -: «كن» من غير تخلف ولا

تأخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال ابن القيم^(١): «فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يُقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم، فأدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به».

وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ دون أن يقول: «فكان» لاستحضار صورة تَكُونِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩].

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ «الحق»: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك أو هذا الحق من ربك. ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾: في محل نصب على الحال، أي: حال كونه من ربك. و﴿الْحَقُّ﴾: الشيء الثابت خبراً كان أو حكماً، فإن وصف به «الخبر» كان معناه: «الصدق» وإن وصف به «الحكم» كان معناه: «العدل»، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، أي: ثبتت كلمة ربك. ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: هذا الذي قص عليك في أمر عيسى وخلقه هو الحق من ربك الذي لا حق غيره، ولا صحيح سواه.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا»: ناهية، و«تكن»: مجزوم بها وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهو الواو؛ لأن أصله «تكون».

و﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: جمع «ممتري» والامتراء: الشك والريب، أي: فلا تكن من الشاكين المرتابين فيما جاءك من الحق من ربك، وهو نهي له ﷺ ونهي لأُمَّته من باب أولى وأحرى، كما أن فيه تعريضاً بأهل الامتراء والشك من النصارى وغيرهم.

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٠).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.
ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة شأن عيسى عليه السلام وأمر خلقه، وأن
مثله في خلقه عند الله كمثل آدم.

ثم أمر النبي ﷺ أن يباهل من حازه في أمر عيسى عليه السلام وخلقه، بعد بيان
الحق له من النصارى وغيرهم.

قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ «الفاء»: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿حَاجَّكَ﴾: فعل
الشرط، أي: فمن جادلك وخاصمك، وسمي ذلك محاجة لأن كل واحد من المتجادلين
يدلي بحجته ليغلب الآخر ويخصمه. ومنه الحديث: «حاج موسى آدم» (١).

﴿فيه﴾ الضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي: فمن حاجك في شأن عيسى
وخلقه وفيما جاءك فيه من الحق من ربك بالحجج الباطلة، وأنكر أن يكون الله خلقه من
أم بلا أب، وادعى أنه ابن الله تعالى، كما قالت النصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ
اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ
قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يُّؤْفَكُوا﴾ [التوبة: ٣٠].

قالوا: لأنه خلق من غير أب وتكلم في المهد، وقالوا: أنه الله؛ لأنه يحيي الموتى
ويبرئ المرضى ويخلق من الطين كهيئة الطير ويخبر بالمغيبات.

كما قالوا: إنه ثالث ثلاثة لأن الله تعالى يقول: خلقنا وقضينا وقدرنا وأنجيننا، قالوا:
لو كان واحداً لقال: خلقت وقدرت وأنجيت... إلخ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ تدل على المهلة بين مجيء
العلم والأمر بالمباهلة؛ لإقامة الحجة أولاً بالعلم والبيان والإعذار منهم.

و«ما»: موصولة، أي: من بعد الذي جاءك من العلم من الله تعالى بالوحي ببيان

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٣٨)، ومسلم في القدر - حجاج آدم وموسى عليها السلام (٢٦٥٢)،

وأبو داود في السنة (٤٧٠١)، والترمذي في القدر (٢١٣٤)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)، من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

شأن عيسى - عليه السلام - وبيان ذلك لهم فكابروا وعاندوا.

﴿فَقُلْ﴾: جواب شرط «مَنْ»، والفاء: رابطة لجواب الشرط لأنه جملة طلبية.

﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا واثتوا، وجاء بضمير الجمع باعتبار معنى «مَنْ» في

قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ لأن معناها الجمع.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ أي: نُحْضِرُ نَحْنُ أَبْنَاءَنَا وَنُحْضِرُونَ أَنْتُمْ

أبناءكم، ونحضر نساءنا وتحضرون أنتم نساءكم، أي: يحضر كل منا الأبناء والزوجات لشهود الملاعة.

﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي: وَنَحْضِرُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ.

وهؤلاء هم أعز ما يكون عند الإنسان في الدنيا، نفسه، وأبناؤه، وزوجاته.

﴿ثُمَّ نَبْتَهَلْ﴾ «ثم»: للتراخي الرتبي، و«الابتهال» افتعال من البهل.

وهو: الدعاء باللعن، أي: ثم نلتعن.

ويُطلق الابتهال على الاجتهاد في الدعاء، ولهذا سُمِّيَ اللعن ابتهالاً لأنه اجتهاد في

الدعاء.

﴿فَنَجْعَلْ﴾ «الفاء»: عاطفة، أي: فَضَيَّرْ ﴿لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾،

﴿لَعْنَتَ﴾: مفعول به أول ل«نجعل»، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ مضاف إليه.

﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ جار وجرور متعلق بمحذوف مفعول به ثان ل«نجعل»

أي: فتجعل لعنة واقعة على الكاذبين، أي: فندعوا بإيقاع لعنة الله على الكاذبين.

و﴿لَعْنَتَ اللَّهِ﴾ أي: طرده وإبعاده عن رحمته وجنته.

﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي: على الكاذبين منا أو منكم.

وفي دعوتهم إلى المباهلة إلقاء لهم أن يعترفوا بالحق أو يكفوا، ودعوة إنصاف لا

يدعو لها إلا من كان واثقاً أنه على الحق.

قال ابن كثير^(١): «وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا

(١) في «تفسيره» (٢/٤٠).

في وفد نجران أن النصارى حين قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم».

وقد أشفق هؤلاء الوفد من النصارى من الملاعنة، فلم يقدموا عليها وخافوا الهلكة والاستئصال إن هم لا عنوا فعدلوا إلى المصالحة ودفع الجزية، وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل معهم رجلاً أميناً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها في أموالمهم، فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه.

فعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله إن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين»، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين باهلو رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾: الإشارة لما ذُكِرَ في شأن عيسى عليه السلام، فهو تأكيد لما قصه الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام، ولهذا أكدت هذه الجملة بثلاثة مؤكدات: «إن» واللام، وضمير الفصل «هو» في قوله: ﴿لَهُوَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨٠)، وأخرجه مختصراً مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٠)، والترمذي

في المناقب (٣٧٩٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨/١).

كما أن في ضمير الفصل «هو» حصراً للحق في هذا القصص دون سواه.
 ﴿الْقَصَصُ﴾: مصدر قَصَّ يقص قصاً وقصصاً، ويُحتمل أن يكون هذا مصدرًا
 بمعنى «الفاعل»، وأن يكون مصدرًا بمعنى «اسم المفعول» أي: إن هذا هو المقصود
 الحق، والقصص تتبع الوقائع والإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها ومنه: «قص
 الأثر» وهو اتباعه.

﴿الْحَقُّ﴾: صفة للقصص، أي: القصص الثابت الصحيح الصدق، كما قال
 تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار
 والقصص، وعدلاً في الأحكام.
 أي: أن هذا الذي ذكره الله في شأن عيسى عليه السلام هو القصص الحق، لا ما
 تقصه كتب النصارى وعقائدهم.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾: لما أكد عز وجل أن ما قصه بشأن عيسى حق نفى أن يكون
 إله غير الله رداً على النصارى في تأليههم لعيسى - عليه السلام.

قوله: ﴿وَمَا مِنْ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَمَا﴾: نافية، و﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث
 الإعراب ومؤكدة للنفي من حيث المعنى، للتنصيص والاستغراق في النفي.
 ﴿إِلَهُ﴾ أي: معبود بحق.

﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما من معبود بحق إلا الله تعالى وحده، لا إله
 غيره، ولا رب سواه، فهو - عز وجل - وحده المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيماً.
 ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: الجملة كسابقته مؤكدة بـ«إِنَّ» واللام وضمير
 الفصل «هو».

﴿الْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه - عز وجل - ذو العزة التامة
 بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿الْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماء الله - عز وجل - يدل على أنه الحاكم ذو الحكم التام
 بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، ويدل على أنه
 سبحانه «المحكم» المتقن لكل ما قدر وشرع ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة

الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [٦٣].

قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: التولي: الإعراض بالقلوب والأبدان، أي: فإن تولوا وأعرضوا ونكصوا عن المباهلة وعن اتباع الحق.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: فإن الله ذو علم واسع بالمفسدين، أي: فإنما هم مفسدون؛ لأنهم إنما قصدوا المعاندة والمكابرة ولم يتطلبوا الحق، والله عليم بالمفسدين، وأظهر في موضع الإضمار فلم يقل: «عليم بهم»؛ لوصفهم بالمفسدين وتسجيل ذلك عليهم، وليعم هذا الوصف بالإفساد كل من تولى عن اتباع الحق، ولإظهار عموم علمه - عز وجل - بجميع المفسدين من هؤلاء وغيرهم، وفي ذلك تحذير ووعيد وتهديد لمن تولى عن الحق.

الفوائد والأحكام:

١ - إبطال قول النصارى: المسيح ابن الله، بدعوى أن الله خلقه بكلمة منه من غير أب؛

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْتَصَكْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وإبطال قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدعوى أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، ويبرئ الكمه والأبرص، ويحيي الموتى، ويخبر بالمغيبات؛

كما قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا

مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وإبطال قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، بدعوى أن الله - عز وجل - يتكلم كثيرا بضمير

الجمع نحو: خلقنا - رزقنا - فعلنا، ونحو ذلك؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ تَالِكٌ ثَلَاثَةٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾، ردُّ على النصارى وإبطال لزاعمهم ومقالاتهم في تأليههم المسيح وزعمهم

أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وذلك بطريق الإلزام من وجوه عدة:

أولاً: من حيث قدرة الله تعالى العجيبة في خلق كل من عيسى و آدم على خلاف العادة، لكن إذا كان عيسى خلق من أم بلا أب، فآدم خلق من غير أم ولا أب، وهذا أدل على عظمة قدرة الله تعالى، فالذي خلق آدم من غير أبوين قادر على خلق عيسى من غير أب من باب أولى وأحرى.

ثانياً: إذا كان الله خلق آدم من غير أب ولا أم، ولم يقل أحد من الخلق إنه ابن الله، لا النصرى ولا غيرهم، فمن باب أولى لا يجوز أن يقال: إن عيسى ابن الله؛ لكونه خلق من غير أب، كما تقول النصرى؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢١) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ [مریم: ٣٤، ٣٥].

ثالثاً: أن عيسى مخلوق كآدم - عليها السلام - وكل منهما خلق بأمر الله الكوني، أي بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾، ولم يقل أحد من الخلق بأن آدم إله، فدعوى إلهية عيسى باطلة، بل هي من أبطل الدعاوى، وفي غاية البطلان، كما قال عيسى - عليه السلام - وهو في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مریم: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مریم: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَنْبِئُ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ؕ﴾ [المائدة: ١١٦] إلى أن قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

٢- نقض حجة الخصم وإبطالها بما هو مثلها، فالنصرى يقولون: عيسى ابن الله؛ لأنه خلق من أم بلا أب، ويتنقض عليهم هذا بأن آدم خلقه الله من غير أب ولا أم، وهم لا يقولون ولا غيرهم بأن آدم ابن الله.

٣- قدرة الله تعالى التامة حيث خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق عيسى من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، كما خلق عز وجل حواء من

- آدم بلا أم، وخلق سائر البشر من أب وأم.
- ٤- إثبات حجية القياس، فإن الله مثل حال عيسى عليه السلام بحال آدم في الاحتجاج على النصارى.
- ٥- إثبات صفة الخلق لله تعالى، وهي من الصفات الفعلية؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾.
- ٦- إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾.
- ٧- نفوذ أمر الله - عز وجل - الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
- ٨- أن ما قصه الله تعالى من أمر عيسى وشأنه ومثله هو الحق من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٩- أن الله - عز وجل - لا يصدر منه إلا الحق، ويطلب منه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ١٠- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم «الرب» - عز وجل - وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة.
- ١١- نهى النبي ﷺ أن يكون من الممترين فيما جاءه من عند الله من الحق في أمر عيسى وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.
- وليس في هذا دلالة على شكه ﷺ، وهو نهى لأئمة بطريق الأولى والأحرى، كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].
- ١٢- النهي والتحذير من الشك فيما أمر الله به وقصه على رسله؛ لأن النهي للنبي ﷺ نهى للأمة من باب الأولى والأحرى.
- ١٣- التعريض بدم الممترين الشاكين فيما جاء عن الله تعالى وسوء حالهم ومآلهم.
- ١٤- عناية الله - عز وجل - بنيه ﷺ، والدفاع عنه وتعليمه كيف يرد على خصومه، وتبئته لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ الآية.
- ١٥- الاستعداد والإعداد للرد على حجة الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ﴾.

- ١٦- أن ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه حق؛ لأن الله - عز وجل - أمره ﷺ أن يتهل مع المحاجين له بجعل لعنة الله على الكاذب من الفريقين.
- ١٧- أن من شرط المباهلة العلم اليقيني؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، أما مع الشك فلا تجوز المباهلة.
- ١٨- جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم خصوصًا في الأمور الشرعية الهامة بعد البيان والنصح والإعذار والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾.
- ١٩- أن من تمام المباهلة وقوتها إحضار الأبناء والنساء؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾.
- ٢٠- جواز الدعاء بجعل لعنة الله على الكاذبين، أو على من كان كاذبًا من الفريقين أو الخصمين ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.
- أما الدعاء على شخص معين فهذا لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ لما دعا على أناس من المشركين بقوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» أنزل الله تعالى عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١)، وفي هذا تعريض بالنهي عن ذلك.
- ٢١- تأكيد أن ما أخبر الله تعالى به من القصص في أمر عيسى عليه السلام وغيره هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.
- ٢٢- أن القصص منه ما هو حق، ومنه ما هو باطل؛ لمنطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.
- ٢٣- أنه لا إله بحق إلا الله - تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ٢٤- إبطال دعوى النصارى إلهية عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾. وذلك من وجهين:

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٠٧٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٥)،

من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الأول: أن ما قصه الله تعالى في شأن عيسى أنه كمثل آدم، فهما نظيران في خلقهما على خلاف المعتاد، ولم يقل أحدٌ: إن آدم ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة، ومن باب أولى يجب أن لا يقال ذلك في عيسى.
الثاني: أن الله - عز وجل - نفى وجود إله غيره.

٢٥- إثبات اسم الله - عز وجل - ﴿الْعَزِيزُ﴾ وأنه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهٌ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله تعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾ وأنه سبحانه ذو الحكم التام والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

٢٧- في اقتران العزة التامة والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه - عز وجل - زيادة كماله - سبحانه - إلى كمال.

٢٨- تهديد من تولى وأعرض عن الحق من النصارى وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، ومقتضى علمه بهم أن يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

٢٩- علم الله - عز وجل - بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، وإنما خص العلم بالمفسدين؛ لأن السياق في وعيد المتولين المفسدين.

٣٠- أن التولي عن اتباع الحق وعدم تصديقه فساد وإفساد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ۟مَآءَلَا نُنَبِّدُ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَٰجُّونَ فِىٓ إِزْهَٰمِكُمْ وَمَا أُنزِلَتْ ٱلتَّوْرَةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰتَأْتُمْ هَٰتُوْلَآءَ حَبْجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَٰجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِزْهَٰمُ يَهُودِيَا وَلَا نَصْرَانِيَا وَلَكِن كَانَتْ خَيْفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِزْهَٰمِهِمَ لِلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَرِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ۟مَآءَلَا نُنَبِّدُ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ .

قوله: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و«أهل الكتاب» اليهود والنصارى، وسموا أهل الكتاب؛ لأن الله تعالى أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود «التوراة»، وأنزل على النصارى «الإنجيل»، وبقيت كتبهم إلى أن بعث النبي ﷺ. وفي تسميتهم أهل الكتاب إشارة إلى أن كونهم أهل كتاب يوجب عليهم قبول الحق وإرشاد الناس إليه لا رده، كما أن في ذلك تعريضاً بقيام الحجة عليهم، وذمهم لما هم عليه من الكفر والشرك وتكذيب رسل الله.

﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ ﴿تَعَالَوْا۟﴾ أي: هلموا وأقبلوا واثتوا.

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ هذه الكلمة هي ما بينه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَا نُنَبِّدُ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

فالمراد بقوله هنا: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي: إلى كلام مفيد، لا إلى كلمة مفردة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كَلِمًا۟ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يعني بها قوله قبل هذا: ﴿حَقَّ إِذْ جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

كما يقال: «كلمة التوحيد»، و«كلمة الشهادة» ويراد بذلك: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي الحديث قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(١)

﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ ﴿سَوَاءٌ﴾: صفة لـ ﴿كَلِمَةٍ﴾، أي: كلمة عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها.

﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذه الجملة وما عطف عليها بدل من ﴿كَلِمَةٍ﴾ بدل كل من كل، فهي بيان وتفسير لـ ﴿كَلِمَةٍ﴾ أي: تعالوا إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراف به، وعدم اتخاذ أرباب من دونه.

و﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾: أداة حصر، أي: ألا نعبد نحن وأنتم إلا الله وحده. والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع لله تعالى، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة قبلها، وهي قوله: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ ففي الجملة الأولى إفراد العبادة لله تعالى وحده، ومفهومها نفيها عما عداه، وهو ما صرح به في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾.

و﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، أي: لا نشرك به شيئاً من الشرك، لا شركاً أصغر ولا شركاً أكبر، ولا شركاً خفياً ولا شركاً جلياً. والشرك الأكبر الجلي: عبادة غير الله، وطلب الحاجات من الأولياء وأصحاب القبور ونحو ذلك.

والشرك الأصغر والخفي كالرياء، كما قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. فسئل عنه فقال: الرياء»^(٢).

وهو أخفى من ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. وأيضاً: ولا نشرك به شيئاً من الأشياء أيّاً كان، لا وثناً، ولا صنماً، ولا صليباً، ولا

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧)، من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٩/٥)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

نارًا، ولا مَلَكًا، ولا وليًّا، ولا شيئًا غير ذلك.

والمعنى: تعلوا؛ لنفرد العبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: نافية، ﴿يَتَّخِذُ﴾:

منصوب عطفاً على ﴿نَعْبُدُ﴾، ﴿بَعْضُنَا﴾: «بعض» فاعل و«نا» مضاف إليه. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول أول لـ ﴿يَتَّخِذُ﴾، و﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول ثانٍ له.

أي: ولا يجعل بعضنا البعض الآخر ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، وفي التعبير بالبعض إشارة إلى أنهم من جنس واحد، فكيف يكون بعضهم أرباباً لبعض؟!!

و﴿أَرْبَابًا﴾ جمع «رب» أي: أسياداً نطيعهم بالتحليل والتحرير من دون الله، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ولهذا لما قال عدي بن حاتم: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «أليس يجرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما أحل الله فتحلونونه؟» قال نعم. قال: «فتلك عبادتهم»^(١).

ففي قوله: ﴿الَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ نفي عبادة غير الله والإشراك به في العبادة.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ نفي الإشراك معه في الطاعة والتحليل والتحرير.

وعلى هذا اتفقت جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهذه الآية أحياناً في الركعة الثانية الفجر: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/٤١٧-٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»

(٦/١٧٨٤)، والبيهقي في «سننه» (١٠/١١٦). وانظر: «تيسير العزيز الحميد» ص (٥٥١).

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴿١﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن تولى أهل الكتاب وأعرضوا عن هذه الكلمة السواء والدعوة النصف.

﴿فَقُولُوا﴾ أيها المسلمون لهم: ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي: أشهدوهم على استمراركم على الإسلام واعتزازكم به، من غير اكتراث بمن تولى عنه.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ فَارِغًا ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

وقد كان ﷺ يكتب بهذه الآية إلى ملوك أهل الكتاب، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في حديثه عن أبي سفيان - رضي الله عنه - أن في كتابه ﷺ لهرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿يَتَّأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» (٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَّأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٥﴾.

قوله: ﴿يَتَّأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده؛ فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا، وقالت

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٢٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٤٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣).

النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله - عز وجل - فيهم: ﴿يَتَأَهَّلَ
الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^١،
قالت النصارى: كان نصرانياً، وقالت اليهود: كان يهودياً. فأخبرهم الله أن التوراة
والإنجيل إنما أنزلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية^(١).

قوله: ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر، و«ما»: اسم استفهام حذف ألفها لدخول حرف
الجر عليها، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا: ١].

والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ للإنكار والتوبيخ، أي: لم تجادلون
وتنازعون ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: في دين إبراهيم، فاليهود يقولون: إن إبراهيم كان يهودياً،
والنصارى يقولون: إن إبراهيم كان نصرانياً.

ويدعي كل منهما أنه على دين إبراهيم، تشبهاً من كل منهما بذلك، وترويحاً ودعوة
لدينه، وانتقاصاً من كل منهما لما عليه الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ
النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣].
وأيضاً ليخلص كل منهما - أي: اليهود والنصارى - إلى نفي أن يكون ما جاء به
محمد ﷺ هو دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، «إلا»: أداة
حصر، والضمير في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: والحال أنه ما أنزلت
التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم، فكيف تحاجون أيها
اليهود وتقولون: إن إبراهيم كان يهودياً، وكيف تحاجون أيها النصارى، وتقولون: إنه
كان نصرانياً - علماً أن التوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعده؟!

وقد قيل: إن بين إبراهيم وموسى نحو ستمائة إلى ألف سنة، كما أن بين موسى
وعيسى على ما قيل نحو ألفي سنة، وقيل غير ذلك.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤٨١/٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٨٤/٥)، وانظر: «سيرة
ابن هشام» (٥٥٣/١).

وكيف تحاجون وتقولون: إنكم على دين إبراهيم علماً أن اليهود منكم شريعتهم التوراة، والنصارى شريعتهم الإنجيل، وإبراهيم سابق لنزولهما، فدينه غيرهما، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وكيف تحاجون وتتكرون أن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو دين إبراهيم عليه السلام؟!!

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ، والفاء: عاطفة، والجملة معطوفة على مقدر، أي: أغفلتم فلا تعقلون. أي: أفلا يكون لكم عقول تعقلون بها ما تحاجون به، وفي هذا تسفيه لهم، ووصف لهم بالحمق والجهل؛ لأن المنفي هنا عقل الرشد الذي هو مناط المدح والذي يحمل صاحبه على حسن التصرف والتدبير في الأعمال والأقوال والأموال، وجميع الأحوال، وليس المراد به عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف، فهذا موجود عندهم، ولولاه ما كلفوا، كما قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق»^(١).

قوله تعالى: ﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءَ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءَ﴾ «ها» في الموضعين للتنبيه، و«أنتم» ضمير فصل في محل رفع مبتدأ، و«أولاء» اسم إشارة للقريب، في محل نصب على النداء، والتقدير: ها أنتم يا هؤلاء، أي: هب أنكم يا هؤلاء.

﴿حَبَجْتُمْ﴾ الجملة: في محل رفع خبر المبتدأ، أي: جادلتهم وخاصمتهم ونازعتهم، ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي لكم به علم، وهو الذي أنتم عليه من الدين والذي في كتبكم وعليه أنبياءكم.

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ الفاء: عاطفة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: فلم تجادلون

(١) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتحاجون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة - كسابقها - أي: في الذي ليس لكم به علم، وهو أمر إبراهيم وما كان عليه من الدين مما لم يذكر في كتبكم.

والمعنى: كان الأجدد بكم أن تحاجوا في الذي تعلمون، وهو ما أنتم عليه من الدين وما في كتبكم وما عليه أنبياءكم، دون الذي لا تعلمون من دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الواو: استثنائية، أي: والله ذو علم مستمر دائم، يعلم كل شيء على الدوام، مما كان عليه إبراهيم من الدين وغير ذلك، وقد أخبر عز وجل أن إبراهيم كان على ملة الإسلام، وهي الحنيفية السمحة التي جاء بها محمد ﷺ، كما قال تعالى في الآية بعد هذه الآية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأنتم جهلة لا تعلمون شيئاً؛ ولهذا تحاجون بلا علم.

فوصفهم أولاً بالسفه والحمق وعدم العقل، ووصفهم ثانياً بالجهل وعدم العلم وواحد من هذين الوصفين كافٍ في الذم فكيف إذا اجتماعاً، فلا حكمة ولا علم، فهذا غاية الذم.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧).

أنكر عز وجل في الآيتين السابقتين على اليهود والنصارى محاجتهم في إبراهيم - وذلك بزعم كل منهما أن إبراهيم كان على دينهم - علماً أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده، مبيناً سفههم وعدم رشدهم، ومجادلتهم بما لا علم لهم به، ثم بيّن في هذه الآية براءة إبراهيم من اليهود والنصارى، وأنه كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا﴾ «ما»: نافية، أي: ما كان إبراهيم يهودياً على دين اليهود، كما يزعمون.

﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي: ولا كان نصرانياً على دين النصارى - كما يزعمون - وكرر

النفي بـ«لا» للتأكيد.

﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَنِيفًا﴾ «لكن»: استدراك؛ لبيان ما كان عليه - عليه السلام.

﴿خَنِيفًا﴾ «الحنف» في اللغة: الميل، فمعنى ﴿خَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الشرك ثابتًا

على التوحيد. ﴿مُسْلِمًا﴾: مستسلمًا منقادًا لأمر الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، أي: وما كان من المشركين الذين

يعبدون الأصنام. وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿خَنِيفًا﴾ ونفي لقول المشركين: إنهم على ملة

إبراهيم، وتعريض بأن أهل الكتاب مشركون؛ لقولهم: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٣٥]، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٢٠]، وقوله تعالى عن إبراهيم

أنه قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

هذا رد على محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وزعمهم أنهم على دين إبراهيم

وإنكارهم أن يكون ما جاء به محمد ﷺ على ملة إبراهيم. فبيّن عز وجل أن أولى الناس

به عليه السلام هم الذين اتبعوه ومحمد ﷺ والمؤمنون معه.

قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ «أولى»: اسم تفضيل، أي: أشد الناس ولاية

بإبراهيم أي: أحق الناس بإبراهيم وأخصهم به وأقربهم منه، سواء كان هؤلاء الناس

من أهل الكتاب أو من المشركين أو من المسلمين، حيث أن كلاً من هؤلاء الأصناف

يقول: إنه على دين إبراهيم. أي: إن أحق الناس بإبراهيم الذين هم على دينه وملته.

﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾: خبر «إن»، واللام تفيد التوكيد، فالجملة مؤكدة بـ«إن» واللام أي:

للذين اتبعوه على ما كان عليه من الدين في حياته.

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من عطف الخاص على العام، والإشارة لخاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معطوف على ما قبله، أي: والذين آمنوا من أصحابه ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومن بعدهم من المؤمنين.

وإنما كان النبي ﷺ والمؤمنون أولى الناس بإبراهيم؛ لأنهم على ملته الخفيفة ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله ولي المؤمنين كلهم: إبراهيم والذين اتبعوه ومحمد والذين آمنوا، أي: والله ولي المؤمنين كلهم ولاية خاصة، يحفظهم وينصرهم ويرزقهم ويوفقهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم في الدنيا وإلى جنات النعيم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكٰفِرِينَ﴾ الآية؛ ولهذا كان ﷺ يكتب إلى الملوك بهذه الآية.

٢- شدة عناد أهل الكتاب، ومعالجة القرآن لهم بشتى الأساليب والوسائل، ولم ينجع ذلك فيهم.

٣- وسطية القرآن في دعوته أهل الكتاب فلم يكلفهم شططاً، بل دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ونبد الشرك والأرباب من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

٤- تنزل القرآن في دعوته أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ بضمير الجمع، وكذا قوله: ﴿وَلَا نُشْرِكُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يقل:

- «ألا تعبدوا إلا الله» «ولا تشركوا» «ولا تتخذوا أرباباً من دون الله».
- ووجه ذلك أن ضمير الجمع مشعر بكون الفريقين كل منهما يعبد غير الله ويشرك به ويتخذ أرباباً من دون الله، والحقيقة أن الذي يفعل ذلك هم المدعوون أهل الكتاب.
- ٥- قيام القرآن والإسلام على التوحيد والوسطية والعدل.
- ٦- يجب العدل في المناظرة حتى مع العدو، ويجسن التنازل للخصم لإلزامه الحق، وإقامة الحجة عليه.
- ٧- اتفاق الرسل والرسالات على الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.
- ٨- أنه كما يجب إفراد الله تعالى بالتوحيد والعبادة يجب إفراده بالطاعة والحكم والتحليل والتحريم، وعدم اتخاذ أرباب من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.
- ٩- التعريض بدم أهل الكتاب وغيرهم من المشركين؛ لما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله واتخاذ الأرباب من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَفِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ١٠- التلازم بين إفراد الله تعالى بالعبادة دون شريك وبين تحكيم شرعه وطاعته وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر، فمن لازم توحيد الله تعالى في العبادة طاعته واتباع شرعه، ومن لازم طاعته واتباع شرعه توحيد الله في العبادة.
- ١١- وجوب إظهار الحق والتمسك به وإشهاره، وعدم الاكتراث بمن تولى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.
- ١٢- وجوب اعتزاز المسلم بدينه إعلاءً للحق وإظهاراً له، وإغاظة لأعداء الدين وخصومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.
- ١٣- يجب أن لا يتأثر ولا يكثرث من كان على الحق بمن يتولون عنه مهما كثروا، وعليه أن يتمسك بالحق، فالحق أحق أن يتبع.

- ١٤- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ﴾.
- ١٥- الإنكار على أهل الكتاب وتوبيخهم في حاجتهم في إبراهيم وما هو عليه من الدين، وزعم كل من اليهود والنصارى أنه على دينهم أو أنهم على دينه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.
- ١٦- فضل إبراهيم عليه السلام، وعلو شأنه ومنزلته بين الأمم، فكل من المسلمين واليهود والنصارى بل والمشركون يقول: إنه على دينهم أو إنهم على دينه.
- ١٧- إثبات علو الله على خلقه، وإنزاله التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾.
- ١٨- إبطال زعم كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينهم أو أنهم كانوا على دينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَتَأَنْتُمْ هَتَوَلَاءَ حَنَجِبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.
- ١٩- أن إبراهيم عليه السلام كان قبل نزول التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية.
- ٢٠- سفه أهل الكتاب وعدم رشدهم، لم حاجتهم بما لا يقبله العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية: ٤٤]، وكما قال تعالى في وصف أهل جهنم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].
- ٢١- لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال؛ لأن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح.
- ٢٢- التنزل مع الخصم لإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿هَتَأَنْتُمْ هَتَوَلَاءَ حَنَجِبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.
- أي: لو فرض أن حاجتكم كانت فيما لكم به علم وقبلت منكم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، مما لا يمكن قبوله - وهذا على سبيل الفرض، وإلا فإن من يحتاج لإبطال الحق ورده لا يمكن أن تكون حاجته عن علم، بل العلم حقاً مع

خصمه صاحب الحق.

٢٣- جواز المحاجة بعلم إذا كانت لإظهار الحق، وبالتالي هي أحسن، فإن كانت لإظهار الباطل لم تجز.

٢٤- الإنكار على أهل الكتاب وذمهم لمحاجتهم فيما ليس لهم به علم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَعَاوَنُوا فِي مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

٢٥- عدم جواز المحاجة بغير علم وأنها مذمومة حتى لو كانت لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فإن كانت لإبطال الحق وإظهار الباطل فهي أشد حرمة وذمًا، كما في دعوى أهل الكتاب أنهم هم الذين على دين إبراهيم، وإنكارهم أن يكون محمد ﷺ على ملة إبراهيم.

٢٦- إثبات العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي: أنه - عز وجل - ذو علم واسع، مستمر دائم، ولا يخفى عليه شيء.

٢٧- نفي العلم عن أهل الكتاب المحاجين في إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٨- جمع أهل الكتاب بين الاعتراض على النقل وتكذيبه، وإغفال العقل وإهماله، والجهل وعدم العلم.

٢٩- يجب رد العلم إلى الله تعالى وطلبه منه، فهو ذو العلم سبحانه، يؤتي العلم والحكمة من يشاء.

٣٠- الإشارة إلى أن ما جاء به محمد ﷺ من الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام، وهو ما صرح به بعد ذلك.

٣١- تبرئة إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى، وما هم عليه من الدين، وتكذيبهم في دعواهم، هم والمشركون أنه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٢- إثبات أن دين إبراهيم عليه السلام هو الحنيفية السمحة؛ ملة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٣- ثناء الله - عز وجل - على إبراهيم عليه السلام؛ لجمعه بين توحيد الله تعالى، والاستسلام والانقياد له ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ

كَانَ خَيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٤﴾ .

٣٤- أنه لا بد في التوحيد من إثبات العبادة لله وحده ونفيها عما سواه، والاستسلام لله

ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ خَيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

٣٥- أن أحق الناس بالولاية لإبراهيم والانتساب لملته هم الذين اتبعوه من بني إسرائيل

ونبينا محمد ﷺ والمؤمنون من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ

اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، ومفهوم هذا التعريض بعدم إيمان أهل الكتاب.

٣٦- إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ .

٣٧- تشریف نبينا محمد ﷺ وقربه من ربه؛ لأن الله تعالى أشار إليه بإشارة القريب

بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ .

٣٨- فضل نبينا محمد ﷺ وأمه حيث كانوا أولى بإبراهيم عليه السلام من بين سائر

الأمم.

٣٩- إبطال قول كل من اليهود والنصارى أنهم أولى بإبراهيم، بعد تبرئته منهم ومن

دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

٤٠- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

٤١- الترغيب في الإيمان والازدياد منه؛ لأنه سبب لولاية الله تعالى، وكلما كان إيمان

العبد أقوى كانت ولاية الله له أعظم.

* * *

إلا أنفسهم. و«إلا»: أداة حصر، أي: وما يضلون بمودتهم إضلالكم إلا أنفسهم، ولن يضركم ذلك أيها المؤمنون، فمودتهم إضلالكم إنما هي إضلال لأنفسهم وإهلاك لها في الحال والمآل.

أما في الحال فإن مودتهم إضلالكم هي ضلال أوقعوا فيه أنفسهم وأشغلوها به عن طلب هدايتها. وأما في المآل فإن وبال ذلك وعقوبته عليهم لا على غيرهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على الحال السابقة، والشعور هو إدراك الشيء بإحدى الحواس الخمس، ونفي الشعور معناه عدمه، وإذا انتفى الشعور والإدراك بالحواس انتفى العلم من باب أولى.

فالمعنى: وما يعلمون أنهم بهذا العمل إنما يضلون أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَّاهِلَ الْكَافِرُ لِمَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠) يَتَّاهِلُ الْكَافِرُ لِمَ تَلْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴿﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة محاجة أهل الكتاب في إبراهيم معرّضاً بما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله واتخاذ الأنداد والسفه وعدم العلم ومودتهم إضلال المؤمنين، وهم في الحقيقة لا يضلون إلا أنفسهم، ثم أنكر عليهم ووبخهم في هاتين الآيتين على كفرهم بآيات الله مع شهادتهم، ولبسهم الحق بالباطل مع علمهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَّاهِلَ الْكَافِرُ لِمَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التفات إلى خطاب أهل الكتاب، والاستفهام للإنكار، وإعادة ندائهم بقوله: ﴿يَتَّاهِلَ الْكَافِرُ﴾ ثانية لتوبيخهم وتسجيل باطلهم عليهم.

أي: لم تكفرون وتكذبون بآيات الله الشرعية في القرآن الكريم، وفي كتبكم الدالة على نبوة محمد ﷺ.

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم تشهدون، أي: تعلمون صحتها وصدقها بشهادة كتبكم بذلك، وعبر عن العلم بالشهادة ولم يقل: «وأنتم تعلمون»؛ لأن الشهادة أقوى لأنها تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسه، والمشاهدة

بالحس أقوى من العلم، وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»^(١).
قال ابن القيم^(٢): «يعني: تكفرون بالقرآن، وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته
وبأنه الحق، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وجفاء».
قوله تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتَ الْحَقَّ يَا بَاطِلُ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.
قوله: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتَ الْحَقَّ يَا بَاطِلُ﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار والتوبيخ،
و«اللبس» بمعنى: الخلط والستر، أي: لم تخلطون وتسترون الحق بالباطل.
و«الحق»: الأمر الثابت، وهو ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الآيات الشرعية
والكونية.

و«الباطل»: الشيء الزائل المضمحل الزاهق، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].
قال لبيد^(٣):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
فأنكر عز وجل عليهم أولاً كفرهم بآيات الله، ثم أنكر عليهم مخادعتهم في هذا
الكفر بخلطهم الحق وستره بالباطل.
ومن ذلك: تحريف ما جاء من الحق في كتبهم، وتكذيب ما أنزل على نبينا محمد
ﷺ، وإظهار الإسلام وإبطان الكفر.
فيضمون للباطل شيئاً من الحق ويتكلمون بعبارات تحتل الحق والباطل تمويهاً
على الناس ومخادعة لهم؛ لأنهم لو تكلموا بالباطل صراحاً لافتضحوا وما قبل منهم.
وما مثلهم في لبسهم الحق بالباطل إلا كما ذكر أن رجلاً مرَّ بشخصين كفيين
مستندين في ظل جدار يقول أحدهما للآخر: يا فلان، الصدق ما يصلح دائماً، والكذب
ما يصلح دائماً. فقال له الآخر: لماذا؟ فقال: لأنك إن صدقت دائماً نفذ ما عندك، وإن
كذبت دائماً لم تُصدَّق.

(١) أخرجه أحمد (١/٢١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٠).

(٣) انظر: «ديوانه» ص (٢٥٦).

﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾: معطوف على ﴿تَلْسُوتُ الْحَقَّ﴾ أي: وتخفون الحق، وهو نبوة محمد ﷺ وما أنزل عليه وما جاء في كتبكم من نعته ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فجمعوا بين خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق، وبهذا أظهروا الباطل.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: والحال أنكم تعلمون، أي: تعلمون الحق وتعرفونه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢).

ذكر الله تعالى في الآيتين السابقتين، ومحاولتهم الإضلال وكفرهم مجاهرة، ثم ذكر في هذه الآية محاولتهم الإضلال وكفرهم مخادعة.

قوله: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: جماعة منهم ﴿ءَامَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وأصحابه، أي: صدقوا بذلك ظاهراً واعملوا به، نفاقاً منهم؛ لأنهم لا يؤمنون بذلك حقيقة.

﴿وَجَهِ النَّهَارِ﴾ أي: أول النهار، لمقابلته بقوله: ﴿وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ﴾ أي: واكفروا آخر النهار. أي: واكفروا بالذي أنزل عليهم آخر النهار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يعود إلى الذين آمنوا، أي: رجاء أن يرجعوا عن دينهم، أو لأجل أن يرجعوا عن دينهم - وهذه مكيدة منهم؛ ليقال عنهم حينما يؤمنون به أول النهار ويكفرون آخره أنهم كفروا عن بصيرة وتجربة، فلولا أنه مخالف للكتب السابقة ما كفروا به بعد الإيذان.

قال ابن كثير^(١): «هذه مكيدة أرادوها؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم،

(١) في «تفسيره» (٢/٤٨-٤٩).

وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وأني لهم أن يرجع المؤمنون عن دينهم بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، فحال المؤمن حقاً كما قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يقذف في النار»^(١).

وكما في حديث هرقل حين سأل أبا سفيان: «هل يرجع أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من قول الطائفة من أهل الكتاب، فهو معطوف على قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أي: ولا تصدقوا إلا للذي تبع دينكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: ويصدق للمؤمنين.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من باب الاحتراس بعد قولهم مخادعة: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾ أي: ولا تؤمنوا إيماناً حقاً، ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم نبياً كان أو غيره.

أو: ولا تظهروا الإيمان بالذي أنزل عليهم وجه النهار والكفر آخره إلا لمن تبع دينكم، أي: لأجل الحفاظ على أتباعكم وبقائهم على دينهم.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤١)، ومسلم في الجهاد والسير - كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنها.

أو: ولا تطمئنوا وتظهروا سرکم وما أردتم من المكر والخديعة بالإيمان أول النهار والكفر آخره من إرجاع المسلمين عن دينهم إلا لمن تبع دينكم.

أو ولا تظهروا ما بأيديكم من العلم للمسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم.
﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴿١﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْرُضَةٌ بَيْنَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وَقَوْلِهِمْ: ﴿أَنْ يُؤْفَقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ الْغَرَضُ مِنْهَا الْمُبَادَرَةُ بِمَا يَفِيدُ ضَلَالَهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمُ التَّوْفِيقَ.

أي: قل لهم: إن التوفيق إلى الهدى بيد الله، والهدى هداه - عز وجل - كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ اللَّهُ هُدَىٰ هُوَ أَلْهَدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والغرض منها تبييض أهل الكتاب، أي: مهبا عملتم من المكر لصد المؤمنين وإرجاعهم عن دين الله وإضلالهم فلن تستطيعوا، فالله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادي، وهده هو الهدى حقاً، وهو الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ، لا ما أنتم عليه وما تدعون إليه.

﴿أَنْ يُؤْفَقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ الطَّائِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ «أَنَّ» بِزِيَادَةِ هَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ.

وهذه الجملة ﴿أَنْ يُؤْفَقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَعْلِيلًا لِقَوْلِهِمْ قَبْلَهُ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ بِقَصْدِ تَثْبِيتِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ. فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: لثَلَا يُؤْتِي أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أَي: لثَلَا تَضِلُّوا.

ويحتمل أن يكون هذا إنكاراً منهم أن يؤتى أحد النبوة كما أوتيتها أنبياء بني إسرائيل، فيكون الكلام استفهاماً إنكارياً حذفت منه همزة الاستفهام لدلالة السياق، ويؤيده قراءة ابن كثير: «أَنَّ يُؤْتَى».

فالمعنى: لا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من النبوة والفضائل، أَي: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من ذلك.

﴿أَوْ يُعَاجِزُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ «أَوْ»: لِلتَّقْسِيمِ، وَهِيَ عَاطِفَةٌ، فَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْ يُؤْفَقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ وَهِيَ عَلَى التَّقْدِيرِ السَّابِقِينَ تَحْتَمِلُ التَّعْلِيلَ.

أي: ولثلا يحاجوكم عند ربكم، أو الاستفهام الإنكاري والنفي، أي: كيف يحاجوكم عند ربكم، أي: لا حجة لهم عليكم عند ربكم، أي: ولا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم؛ لأنكم أكرم على الله منهم بما فضلكم عليهم. والذي حملهم على هذا كله هو الحسد أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادة أن يتبعوا على دينهم.

قال السعدي^(١): «يعني أن الذي حملهم على هذه الأفعال المنكرة الحسد والبغي وخشية الاحتجاج عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا مع قوله بعده: ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هَدَى اللَّهُ﴾ ففي هذا بيان أن الهدى هو هدى الله، وبيده سبحانه، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ الآية. بيان أن الفضل بيده يخص به من يشاء، وفي هذا وذاك رد على أهل الكتاب، وتأسيس لهم أن يمنعوا هدى الله وفضله عن المؤمنين.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: الخير كله بيد الله - عز وجل - كما قال ﷺ: «والخير كله في يديك»^(٢)، فبيده - عز وجل - الفضل والخير كله، وبيده ومنه التفضل والزيادة والإحسان بالنعم الدينية والدينية والأخرية.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يعطيه من يشاء من عباده، وفي هذا إبطال وتكذيب لأهل الكتاب في قولهم لبعضهم: ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ﴾ أي: والله ذو سعة في جميع صفاته، فهو - عز وجل - واسع الملك واسع الكرسي، واسع العلم، واسع الحكمة، واسع المغفرة، واسع الرحمة، واسع الحلم، واسع العفو، واسع القدرة، واسع الفضل والغنى والإحسان والجود والعطاء، واسع

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/٣٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإحاطة، واسع جميع الصفات.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع بكل شيء. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

علمه - عز وجل - محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى - عليه السلام - لما سئل عن القرون الأولى قال:

﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾.

قوله: ﴿يَخْتَصُّ﴾ أي: يخصص.

﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ أي: برحمته الفعلية الخاصة بأوليائه، ومن ذلك ما خص الله تعالى هذه الأمة من بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ودين الإسلام، وما يخص به أوليائه من توفيقهم وهدايتهم في الدنيا إلى الإيمان، وفي الآخرة إلى الجنان.

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب مفعول به، أي: يخصص الذي يشاء، أي: الذي يريد كوناً ممن هو أهل لرحمته الخاصة - بعلمه - عز وجل - وحكمته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ويجوز كون «من» الموصولة في محل رفع فاعل، ويكون المعنى: والله يتفرد برحمته من يشاؤه - والمعنيان متلازمان، فمن اختصه الله برحمته انفرد بها.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ أي: صاحب الفضل، أي: التفضل والزيادة والإحسان، بلا استحقاق من المتفضل عليه ﴿الْعَظِيمِ﴾ الواسع الكثير، الذي لا أعظم ولا أوسع ولا أكثر من فضله، ولا يقدر عظمة فضله إلا هو سبحانه.

الفوائد والأحكام:

١ - منة الله تعالى على هذه الأمة بفضح أعدائها من أهل الكتاب وبيان مكرهم؛ لقوله

تعالى: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾ الآيتين.

٢- شدة عداوة أهل الكتاب للمسلمين ومودتهم لإضلالهم بغياً منهم وحسدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٣- علم الله - سبحانه وتعالى - بما تنطوي عليه القلوب وما تكنه الضمائر؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ وَالْمُودَةُ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ﴾.

٤- وجوب الحذر من أهل الكتاب وخداعهم ومكرهم؛ لأنهم يودون إضلال المسلمين وصددهم عن دينهم، وأن يتبعوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٥- أن ما عليه أهل الكتاب، وما يودونه من إضلال المؤمنين هو إضلال لأنفسهم، ووبال ذلك وعقوبته عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ وفي هذا تثبيت لقلوب المؤمنين وطمأنة لهم.

٦- أنجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾.

٧- عدم شعور أهل الضلال والإضلال بأنهم إنما يضلون أنفسهم بسبب انطماس بصائرهم وعمى قلوبهم، فيرون الضلال هدى، والباطل حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

٨- الإنكار الشديد على أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وهم يشهدون؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

٩- أن كفر أهل الكتاب وبخاصة اليهود لم يكن عن جهل بل عن علم وشهادة؛ ولهذا شدد النكير عليهم.

١٠- كفر أهل الكتاب بآيات الله كلها حتى لو ادَّعوا الإيمان بما جاء في كتبهم؛ لأن كفرهم بالقرآن كفر بما جاء في كتبهم؛ لأنها مبشرة بالقرآن.

- ١١- مخادعة أهل الكتاب ولبسهم الحق بالباطل تمويهاً على الناس، وإنكار الله عليهم وتوبيخه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.
- فيخلطون مع الباطل بعض الحق، ويلبسون الباطل ثوب الحق، ويتكلمون بما ظاهره الحق وهم يبطنون الباطل.
- ١٢- أن الناس بفطرهم السليمة يقبلون الحق، ويرفضون الباطل، ولهذا يلبس عليهم هؤلاء بالباس الباطل ثوب الحق.
- ١٣- الإنكار على أهل الكتاب في كتابهم الحق وهم يعلمونه، ومن ذلك كتابهم ما في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
- ١٤- أن كتابان الحق مع العلم به أشد وأشنع.
- ١٥- ينبغي الحذر من خداع أهل الكتاب ومكرهم وتمويههم، ومن مسالكهم من لبس الحق بالباطل وكتابان الحق مع العلم به.
- ١٦- كيد أهل الكتاب للمسلمين لصددهم عن دينهم وإخراجهم منه بشتى الحيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- ١٧- إقرار أهل الكتاب بأن الله أنزل آيات على الذين آمنوا؛ لقولهم: ﴿بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ١٨- أن في أهل الكتاب منافقين؛ لقولهم: ﴿ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ﴾ أي: آمنوا ظاهراً ونفاقاً، وليس مقصودهم الإيـمان، إذ لو كان مقصدهم الإيـمان الحق ما أمرهم بالكفر آخر النهار.
- ١٩- تعصب أهل الكتاب لدينهم مع ضلالهم وبطلان ما هم عليه؛ لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.
- ٢٠- أن التوفيق إلى الهدى بيد الله، وأن الهدى هداه- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾.
- فمهما حاول أهل الكتاب وغيرهم إرجاع المؤمنين عن دينهم وصد الناس عن

الإسلام فلن يستطيعوا ذلك.

٢١- حسد أهل الكتاب لغيرهم وإعجابهم بأنفسهم وتكبرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُ آلَ إِزْرَاهِمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

٢٢- إيمان أهل الكتاب بربوبية الله تعالى، وبالبعث والحساب والتخاصم عند الله؛ لقولهم: ﴿أَوْ يُجَاهِدُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

٢٣- أن الفضل بيد الله والعطاء منه - سبحانه - يعطي من يشاء من عباده، لا راد لفضله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفُ ضَلَّ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٢٤- إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الله - عز وجل - يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١).

٢٥- إثبات الأفعال الاختيارية لله - عز وجل - المتعلقة بالمشيئة، كالإيتاء والعطاء والمنع، والبسط والقبض، والرضا والغضب، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.

٢٧- إثبات صفة الواسع لله - عز وجل - فهو - عز وجل - واسع الصفات كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾.

٢٨- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٩- أن الله - عز وجل - يختص برحمته الخاصة من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ومن ذلك ما خصَّ الله تعالى به محمدًا ﷺ وأُمَّته من بعثته منهم، وإنزال القرآن الكريم عليه، ودين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩).

- ٣٠- أن الله - عز وجل - يعطي مَنْ يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.
٣١- أن الله - عز وجل - ذو الفضل العظيم، لا يقدر عظم فضله إلا هو، وهو العظيم

سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِعَهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَذِبِ لِتَحْسَبُوهُم مِّنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِكَةَ وَالنَّبِيَّاتِ زَوَاجًا أَيَّامُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِعُهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّعُهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ذكر عز وجل في الآيات السابقة مودة طائفة من أهل الكتاب إضلال المؤمنين، وخيانتهم في الأمور الدينية من لبسهم الحق بالباطل، وكتابتهم الحق وكفرهم، ثم أتبع ذلك في ذكر خيانتهم في تعاملهم في الأمور الدنيوية استمرارًا بفضحهم، وبيان دخائلهم.

قوله: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الواو: استثنائية، ﴿وَمِنْ﴾: تبعيضية.

﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ «مَنْ»: موصولة، أي: الذي إن تأمنه، و﴿إِنْ﴾: شرطية، و﴿تَأْمَنَهُ﴾: فعل الشرط، والخطاب في قوله: ﴿تَأْمَنَهُ﴾ لكل من يصلح خطابه، ﴿بِقِنطَارٍ﴾: أي: على قنطار، فالباء بمعنى: «على»، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِنَا عَلَى يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، و(القنطار): المال الكثير.

﴿يُؤَدِّعُهُ إِلَيْكَ﴾: قرأ أبو عمرو وحمة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر: «يؤدّه» بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بكسرهما: ﴿يُؤَدِّعُهُ﴾.

و﴿يُؤَدِّهِ﴾: جواب شرط مجزوم بحذف حرف العلة الياء؛ لأن أصله «يؤديه». أي: يرده إليك من غير خيانة، كما في الحديث: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» (١).

والمعنى: ومن أهل الكتاب من هو أمين إن أمته على مالٍ كثير مهها كثر يؤده إليك كاملاً من غير نقص ولا مماطلة، أي: هذه حال فريق منهم، وإذا كان لا ينقص من المال الكثير شيء مع أنه لو أخذ منه الشيء القليل لا يتبين، فأمانته على المال القليل أولى وأحرى. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: ومن أهل الكتاب من هو خائن، وهو الذي إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك، أي: الذي إن أمته على مالٍ قليل مهها قلّ ولو كان ديناراً واحداً لا يؤده إليك، أي: هذه حال فريق منهم. و(الدینار): هو الوحدة من النقد الذهبي، وهو المسمى بـ «الجنيه»، وأصله «دیناً» ووزنه أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط ثلاث حبات شعير معتدلة، فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة.

﴿لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: لا يرده إليك.

﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء هنا مفرع من أعم الأوقات أو الأحوال، أي: لا يؤده إليك في وقتٍ من الأوقات، أو في حالٍ من الأحوال إلا في وقت دوام قيامك عليه، أو في حال قيامك عليه بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقل.

وإذا كان هذا صنيعه في القليل كالدينار ونحوه، ففي الكثير من باب أولى وأحرى. وقدّم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على متعلقه ﴿قَائِمًا﴾ للتأكيد، أي: إذا لم يكن قيامك عليه لم يرجع لك أمانتك. وذكر القنطار والدينار من باب التمثيل فقط، فمثّل للمال الكثير بالقنطار، ومثّل للمال القليل بالدينار.

(١) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقد قيل: «المأمون على الكثير هم النصارى؛ لأن الخيانة فيهم قليلة، والخائن في القليل هم اليهود؛ لأن الغالب عليهم الخيانة».

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ «ذلك»: إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله: ﴿لَا يُؤَدُّوهُ إِلَيْكَ﴾.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم.

وضمير الجمع في «أنهم» يعود إلى معنى «من» في قوله: ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أي: أن ترك هذا الفريق للأداء وخيانتهم الأمانة بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ أي: بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾.

ويعنون بالأُميين «العرب»؛ لأنهم لا يقرؤون ولا يكتبون، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، يعني في العرب.

وكما وصف الرسول ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(١).

والأُمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

﴿سَبِيلٌ﴾: حرج أو مؤاخذه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة: ٩٣].

والمعنى: ليس علينا في ديننا في معاملة العرب، ومن ليس من أهل الكتاب حرج ولا مؤاخذه في أكل أموالهم وأخذ حقوقهم وظلمهم، فيرون إعجاباً منهم

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٠٨٠)، وأبو داود في الصوم (٢٣١٩)، والنسائي في الصيام (٢١٤٠)، من حديث عمر رضي الله عنه.

بأنفسهم، واحتقارًا لغيرهم أن من سواهم لا حُرمة لهم، وقد أكذبهم الله تعالى في هذا المقال.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، الجملة: مستأنفة، أي: ويفترون على الله الكذب بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِنَ سَبِيلٌ﴾؛ لأنهم ينسبون ذلك إلى الله تعالى وإلى دينه، أي: ليس علينا في ديننا، وفيما جاء في كتبنا وعلى السنة رسلنا.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم يكذبون فيتعمدون الكذب على الله تعالى، وفي الحديث: «إن يهود قوم بهت»^(١).

فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار غيرهم، وبين الكذب على الله تعالى وهم يعلمون ذلك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٦٦).

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ «بلى»: حرف جواب مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال ما نفوه بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِنَ سَبِيلٌ﴾ وإثبات ضده، أي: بلى عليهم سبيل في الأميين فلا يجوز لهم أكل أموالهم وظلمهم وأخذ حقوقهم.

و﴿مَنْ﴾: شرطية، ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، و﴿أَوْفَىٰ﴾ فيها ثلاث لغات: «أوفى» بإثبات الهمزة، و«وفى» بحذف الهمزة مع تخفيف الفاء وتشديدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

وجملة: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾: استثنائية مقررة للجملة التي دلت عليها ﴿بَلَىٰ﴾ حيث أفادت بمفهومها المخالف ذم من لم يف بالعهود مطلقًا.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿بِعَهْدِهِ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فِي ﴿بِعَهْدِهِ﴾ إِلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ قَبْلَهُ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أَي: بَلَى مِنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى ﴿مَنْ﴾ أَي: بَلَى مِنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ الَّذِي عَاهَدَ عَلَيْهِ.

أَي: أْتَمَّ عَهْدَ اللَّهِ الَّذِي عَاهَدَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتِبَ وَرَسَلَهُ وَخَاتَمَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَامْتَثَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأْتَمَّ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ مِنْ عَهْدٍ وَعَقُودٍ، وَهِيَ أَيْضًا مِمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ الْوَفَاءَ بِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿وَاتَّقَى﴾ أَي: وَاتَّقَى اللَّهَ فِي الْبَعْدِ عَمَّا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَالْإِيمَانِ، وَنَكْثِهَا، وَالْخِيَانَةَ.. وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ «مَنْ»، وَرَبَطَ الْفَاءَ لِأَنَّهُ جُمْلَةٌ إِسْمِيَّةٌ، أَي: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْهُ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَعَدَمِ نَقْضِهِ.

وَأَظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْهَارِ، وَلَمْ يَقُلْ: «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ» بَلْ قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ لِيَبَانَ عِلَّةُ الْحُكْمِ، أَي: يُحِبُّهُمْ لِتَقْوَاهُمْ، وَلِيَعَمَّ هَذَا الْحُكْمُ كُلَّ مَنْ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ، إِضَافَةً إِلَى مَا فِي الْإِظْهَارِ مَقَامَ الْإِضْهَارِ مِنْ تَنْبِيهِ الْمَخَاطَبِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ قِيمًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧).

سبب النزول:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» فَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي فَقَدِمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْكَ بَيْنَةٌ؟» قُلْتُ: لَا، فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «احْلَفْ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذْنٌ يَحْلِفُ فِيذِهِ مَالِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنْ

الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿الآية﴾ (١).

وعن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - أن رجلاً أقام سلعة في السوق، فحلف بالله، لقد أعطي بها ما لم يعط؛ ليقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿الآية﴾ (٢).

امتدح الله سبحانه وتعالى من أوفى بعهده واتفق الله، وبين محبته للمتقين، ثم أتبع ذلك بدم ووعيد الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً في إشارة إلى أهل الكتاب. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَّا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ وهكذا كل من سلك طريقهم.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: إن الذين يعترضون ويستبدلون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، والعهد: الميثاق والعقد. و«عهد الله»: ما أخذه عليهم من الميثاق من الإيوان به، واتباع محمد ﷺ وتصديقه، وبيان ما عندهم من العلم في كتبهم في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ، فَبَدَّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

وأيضاً ما بينهم وبين الخلق من عهود وعقود؛ فهي من عهد الله؛ لأن الله تعالى أوجب الوفاء بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾: معطوف على «عهد الله»، أي: ويشترون بأيمانهم، و«الأيمان» جمع

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٧)، ومسلم في الإيوان (١٣٨)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي في أبواب البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٢)، والواحدي في أسباب النزول ص (٧٢-٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٨)، وفي التفسير (٤٢٧٦)، والواحدي في أسباب النزول ص (٧٣).

(يمين) وهو الحلف، أي: ويأخذون بحلفهم وأيمانهم الكاذبة الفاجرة ثمنًا قليلًا.
والمعنى: إن الذين يعتاضون بعهد الله وأيمانهم عوضًا زهيدًا من المال وحطام الدنيا ومتاعها الزائل، فينقضون عهد الله، وينكثون في أيمانهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة من أجل ذلك، فيدعون ما ليس لهم ويحلفون على ذلك، وينكرون ما يجب عليهم ويحلفون على ذلك.

﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ «أولئك»: خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾، والإشارة فيها إلى الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا.

و«الخلق»: الحظ والنصيب، كما قال تعالى ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٢٠١﴾ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴿البقرة: ٢٠١-٢٠٢﴾.

فقابل عز وجل بين قوله: ﴿مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ فدل على أن (الخلق) هو النصيب.

والمعنى: أولئك الذين يشترون بعهدهم وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا حظ ولا نصيب لهم في ثواب الدار الآخرة ونعيمها، وهذا يدل على كفرهم بسبب هذا العمل؛ لأنه لا يُنْفَى نصيب الآخرة إلا عمن كان كافرًا.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

ونفي تكليم الله تعالى لهم في الآخرة ونظره إليهم، وتزكيته لهم هو من أعظم نصيب الآخرة الذي حرموه، ونصّ عليه - والله أعلم؛ لبيان عظم ما حرموه.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: لا يكلمهم الله تعالى تكليم لطف بهم ورضا عنهم، وبما يسرهم، كما في تكليم الله - عز وجل - للمؤمنين، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - يُدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ

كَنْفَهُ»^(١)، فيقرره بذنوبه، ويقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول عز وجل: «إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(٢).

وعن صهيب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟...» الحديث^(٣).

أما تكليم الله - عز وجل - لهؤلاء المذكورين وغيرهم من الكفار تكليم سخط وإهانة وتقريع وتوبيخ لهم وبما يسوءهم، فهو ثابت كما في قوله تعالى مخاطباً أهل النار: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وغير ذلك.

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قرأ حمزة بضم الهاء «إِلَيْهِمْ»، وقرأ الباقون بكسرها، أي: ولا ينظر إليهم نظر رحمة ورافة.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يوم البعث والمعاد والحساب والجزاء، وسُمِّي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم لرب العالمين، كما قال الله تعالى في سورة المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾^(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ^(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[المطففين: ٤ - ٦]، ولقيام الحساب فيه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ولقيام الأشهاد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام العدل والقسط فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والله تعالى لا ينظر إليهم نظر رحمة ورافة لا في الدنيا ولا يوم القيامة، لكن حرمانهم من ذلك يوم القيامة أعظم عليهم؛ لشدة أهوال ذلك اليوم وكرباته وعذابه.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ولا يطهرهم مما تلبسوا به من رجس الكفر وذنس

(١) أي: ستره ورحمته.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٢٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١).

المعاصي والذنوب، ولا يغفر لهم يوم القيامة، كما أنه لا يطهرهم في الدنيا بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنَقَلَبْ أَعْدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: وهو عذاب النار. والعذاب: النكال والعقوبة.

﴿ أَلِيمٌ ﴾: على وزن «فعليل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجب حسياً ومعنوياً، فرتب الله تعالى على هذا الفعل - وهو الشراء بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً - خمس عقوبات. وهي: حرمانهم من أي نصيب في الآخرة، ومن تكليم الله لهم تكليم رضا، ومن نظر الله لهم نظر رحمة ورأفة وعطف، ومن تزكية الله لهم، مع توعدهم بالعذاب الأليم. فهو لاء وإن نالوا باستبدالهم بعهد الله وأيمانهم قليلاً من حطام الدنيا ومتاعها الحقيقير الفاني، فقد حرّموا نصيب الآخرة التي هي دار الحياة الحقة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ أَدَارَ الْآخِرَةِ لَهِيَ الْخَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فخسروا الآخرة وما فيها من ألوان النعيم الحسي والمعنوي، وحرّموا تكليم الله لهم بما يسرهم ونظره إليهم بعين العطف والرحمة يوم القيامة وتزكيتهم مع ما أعد لهم من العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٨).

قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ ﴾ أي: وإن من أهل الكتاب (لفريقاً) محرّفون لكتاب الله.

﴿ يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾: قرأ أبو جعفر: «يلوون» بالتشديد مع ضم الياء؛ لقوله تعالى: ﴿ لَوَوَاتُهُمْ ﴾ [المنافقون: ٥]، وقرأ الباقر بالتخفيف مع فتح الياء «يلوون».

و«اللي»: الفتل، ومنه يُقال: لويت يد فلان، أي: فتلتها، ولويت الغريم، إذا مطلته.

وفي الحديث: «مطل الغني ظلم»^(١).

والمعنى: يُحَرِّفُونَ بِالْأَسْتِثْمِ الْكِتَابَ تَحْرِيفًا لَفْظِيًّا وَتَحْرِيفًا مَعْنَوِيًّا، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣ - النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥].

تحريفًا لفظيًا بزيادة أو نقصان في حروفه وكلماته، والإتيان بكلام من عندهم ونسبته إلى كتاب الله تعالى، كما فعل ابن صوريا حيث زعم أن حكم الزاني في التوراة أن يحمم وجهه، ونفى أن يكون فيها الرجم^(٢) إلى غير ذلك من أنواع التبديل والتغيير.

أو بتحريف الكلم بلفظه بالتحريف في الحركات كما حرف المبتدعة قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة ليكون التكليم من موسى - عليه السلام - ومن التحريف اللفظي قولهم: «السام عليكم»^(٣) بدل «السلام» يعنون: الموت لكم.

وتحريفًا معنويًا بتأويل الكتاب على غير تأويله كما في تأويلهم في كلامهم «راعنا» بجعلها من الرعونة؛ ليسبوا بذلك النبي ﷺ؛ ولهذا نهى الله تعالى المؤمنين عن قولها، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نُنْظَرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

ومن ذلك تحريف أهل البدع ﴿أَسْتَوَى﴾ بمعنى «استولى» ونحو ذلك. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكُتُبِ﴾: اللام للتعليل، والخطاب في ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ للمسلمين،

(١) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤)، وأبو داود في البيوع (٣٣٤٥)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٨)، والترمذي في البيوع (١٣٠٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٦)، ومسلم في الحدود (١٦٩٩)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٦)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والضمير (الهاء) يعود إلى ما حصل به اللي من الكتاب.

أي: يلوون أَلَسْتَهُمْ بالكتاب بقصد منهم، لتظنوه أيها المسلمون من الكتاب الذي أنزله الله، أي: من «التوراة» أو «الإنجيل»؛ بقصد التلبس على المسلمين، وتشكيكهم في القرآن الكريم.

وقيل: يحتمل كون اللام للعاقبة، أي: لتكون العاقبة والنهية أن تظنوه من الكتاب، والأول أولى.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، أي: والحال أنه ليس من الكتاب، أي: ليس هذا الذي لووا به أَلَسْتَهُمْ من الكتاب، لا من التوراة ولا من الإنجيل، بل هو من لِيَّهِمْ وتحريفهم ألفاظ الكتاب ومعانيه بأَلَسْتَهُمْ.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ويقول هؤلاء الذين يلوون أَلَسْتَهُمْ بالكتاب، ﴿هُوَ﴾ أي: ما لووا به أَلَسْتَهُمْ، ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: مُنَزَّلٌ من عند الله، فلا يكتفون بِلِيَّ أَلَسْتَهُمْ به؛ ليظن أنه من الكتاب، بل يقولون صراحةً هو من عند الله، وفي هذا تشنيع عليهم.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: والحال أنه ليس من عند الله، أي: ليس هو نازلًا من عند الله تعالى.

وأظهر في مقام الإضمار في الموضعين، فلم يقل في الموضع الأول: «وما هو منه» ولم يقل هنا: «وما هو من عنده»؛ لتأكيد نفي أن يكون ما لووا به أَلَسْتَهُمْ من الكتاب هو من عند الله، والتشنيع عليهم، ولتهويل ما أقدموا عليه، والعناية والاهتمام كما قيل:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء قهر الموت ذا الغنى والفقير (١)
وقال الآخر:

ولما رأيت الشيب لآخ بياضه بمفرق رأسي قلت للشيب مرحباً (٢)

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَلْوُونَ﴾.

(١) البيت لعدي بن زيد. انظر: «ديوانه» (ص ٦٥).

(٢) البيت ليحيى بن زياد. انظر: «ديوان الحماسة» (ص ٧٨٤).

أي: في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى تعريضاً وتصريحاً، وجاء التعبير بالمضارع في ﴿يَلُونُ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾ للدلالة على التجدد وأن هذا دأبهم، أي: ويفترون على الله الكذب في ليّ ألسنتهم بالكتاب، ونسبتهم ذلك إلى الله تعالى، كما في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].
وكما في قولهم: «استراح يوم السبت».

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم يعلمون، أي: يعلمون أنهم كاذبون على الله، فهم يكذبون ويفترون على الله عن عمد، وهذا أشد ممن قال الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧١).

يَبِّنُ عز وجل في الآية السابقة كذب أهل الكتاب وافتراءهم على الله تعالى ونفى ذلك وأبطله، ثم أتبع ذلك بذكر افتراءهم على رسله ونفى ذلك وأبطله ومن ذلك زعم النصارى أن عيسى - عليه السلام - أمرهم بعبادته من دون الله.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس: أوذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعوننا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني» أو كما قال، فأنزل الله - عز وجل - في ذلك من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

(١) أخرجه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٤)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٩٣).

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٧٦).

« ما »: نافية، أي: ما كان جائزاً شرعاً وقدرًا لبشر أن يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس هذه المقالة الشركية، أي: أن هذا ممتنع ومستحيل كل الاستحالة.

﴿ لِبَشَرٍ ﴾ أي: ما كان لواحد من البشر، و«البشر» هم بنو آدم، وسُمِّيَ الإنسان بشرًا لأن بشرته ظاهرة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف، وقيل: لظهور أثر البشارة عليه إذا أخبر بما يسره، وقيل: لهذا ولهذا.

﴿ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ﴾ أي: أن يعطيه الله الكتاب شرعاً وقدرًا، و(ال) في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتاب، أي: أن ينزل عليه الكتاب.

﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ أي: والحكم الشرعي بين الناس بما أنزل من الكتاب والوحي، كما قال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿ وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أي: الإنباء والإخبار بالوحي، وهي مأخوذة من «النبأ» وهو الخبر، ومن «النبوة» وهي المكان المرتفع، فالأنبياء مُخْبَرُونَ من الله ومُخْبِرُونَ لأقوامهم، وهم ذوو مكانة رفيعة ومنزلة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وهذا يدل على أن المراد بقوله: ﴿ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ﴾ أي أن يعطيه الله الكتاب، وينبأ ويرسل به إلى الناس.

وليس المراد به المرسل إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ ﴾: معطوف على «يؤتیه».

﴿ ثُمَّ ﴾: عاطفة، أي: ثم بعد ما يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة يقول للناس.

﴿ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ هذا هو المستحيل والممتنع شرعاً وقدرًا، والذي

ينصب عليه النفي، في قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾.

ومعنى: ﴿ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: اعبدوني من دون الله، أي: مع الله أو

اعبدوني ولا تعبدوا الله.

وكل مَنْ عَبدَ غيرَ الله فهو مُشْرِك، سواء أفرَدَ هذا المعبود بالعبادة ولم يعبد الله، أو عبدَ هذا المعبود مع الله؛ لأنَّ مَنْ عبدَ معَ الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لأنَّ عبادته لله مع غيره كلا عبادة، وسواء أشرك مع الله غيره في العبادة، أو في الطاعة، أو فيهما معاً، كما جاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(١).

وعبادة الأنبياء وإشراكهم مع الله إنما ابتدعتها أهل الكفر والشرك من أهمهم، كما قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ ﴾ [التوبة: ٣١].
﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَينَ ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن يقول: ﴿ كُونُوا رَبَّيْنَينَ ﴾: أي: كونوا شرعاً.

﴿ رَبَّيْنَينَ ﴾: جمع «رباني» نسبةً إلى «الرب» - عز وجل - وطاعته، والتربي بشرعه، امتثالاً لأمره، واجتناباً لنهيه، وتربية الناس على ذلك، وتعليمهم الخير مما يصلح دينهم ودنياهم وأخراهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيْنَينَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ [المائدة: ٤٤].

أي: ويحكم بها الربانيون الذين، أطاعوا الله - عز وجل - وتربوا على عبادته وطاعته، وعملوا على تربية الناس على ذلك.

فالمعنى: ﴿ كُونُوا رَبَّيْنَينَ ﴾ أي: متعبدين للرب - عز وجل - مخلصين له مترين بشرعه ومربين الناس عليه.

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق - من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾: قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وعاصم ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مع تشديدها، أي: تُعَلِّمُونَ الناس الكتاب، أي: تُفَهِّمُونَهُمْ معناه، وقرأ الباقون «تَعَلِّمُونَ» بفتح التاء وإسكان العين وفتح اللام مع التخفيف، أي: تُعَلِّمُونَ بأنفسكم الكتاب، أي: تفهمون معناه.

والباء في قوله: ﴿يَمَا﴾: للسببية، و«ما» مصدرية.

والمراد بـ«الكتاب»: التوراة والإنجيل، أي: بسبب كونكم تعلمون الكتاب وتفهمون معانيه وتُعَلِّمُونَهُ للناس؛ لأن الذي يُعَلِّمُ وَيُفَهِّمُ الناس ينبغي أن يكون ربانياً يقرن في تعليمه للناس بين التعليم، والتربية على العمل بالعلم، كما كان هدي النبي ﷺ في سيرته مع أصحابه، وهدي الخلفاء الراشدين من بعده.

عن عمرو بن سلمة - رضي الله عنه - قال: «كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصفحة، فأمسك بيدي، وقال: «يا غلام، سَمَّ الله، وكُلَّ بيمينك، وكُلَّ مما يليك». فما زالت تلك طعمتي بعد»^(١).

وعن كلدة بن حنبل - رضي الله عنه - قال: «دخلت على النبي ﷺ ولم أُسَلِّم، ولم أستأذن، فقال «ارجع، فقل: السلام عليكم. أأدخل؟!» فرجعت، فقلت: السلام عليكم. أأدخل؟، فأذن لي»^(٢).

والجمع بين التعليم والتربية على العمل بالعلم وممارسته وتطبيقه هو المنهج الصحيح في التعليم؛ لأن ثمرة العلم هي العمل به، وما فائدة علم يجمع في الأذهان ولا تظهر ثمرته وأثره على الجوارح والأبدان؟!

ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن تعلم القرآن والعلم ولم يعمل به، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في أول من تسعر بهم النار، قال ﷺ: «ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليُقال: عالم، وقرأت القرآن

(١) أخرجه البخاري في الأظعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، وأبو داود في الأظعمة (٣٧٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧١٠)، وأخرجه أبو داود مختصراً في الأدب (٥١٧٦).

لِيُقَالَ: هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به، فَسُحِبَ على وجهه حتى ألقى في النار»^(١).
وعالم بعلمه لم يعلمه — معذب من قبل عباد الوثن^(٢)
وكثير ممن يتولون التعليم في مراحل المختلفة لا تظهر عليهم آثار التربي بالعلم،
ولا يربون الناس عليه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وكيف لمن لم يُرب نفسه بالعلم - إن
كان عنده علم - أن يربي الناس عليه؟! وكما قال أحمد شوقي:
وإذا المُعَلِّمُ ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حولاً^(٣)
ومع أن المؤسسات التعليمية في كثير من البلاد العربية والإسلامية وغيرها
تتقصد مُسَمَّى التربية والتعليم إلا أن الملاحظ وجود الانفصام بين التعليم والتربية،
فالوجود في كثير من هذه المؤسسات هو التعليم النظري مع ضعف فيه دون التربية -
وهذا بلاشك ناقوس الخطر.

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: معطوفة على الجملة قبلها، والباء: سببية، و«ما»: مصدرية،
أي: وبسبب كونكم تدرسون الكتاب، أي: تقرأونه وتتلونه، كما في الحديث: «وما
اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم
السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»^(٤).
والمعنى: كونوا ربانيين بسبب كونكم تعلمون وتفهمون معانيه، وتعلمونه للناس
وبسبب كونكم تدرسون الكتاب وتكررون قراءته وتدرسونه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيكَ وَالنَّبِيَّاتَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾^(٥).

نفى في الآية السابقة أن يكون لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة فيدعو
الناس لعبادته من دون الله، ثم أتبع ذلك بنفي أن يدعوهم إلى اتخاذ الملائكة والنبين

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧).

(٢) البيت لابن رسلان. انظر: «غاية البيان» (ص ٤).

(٣) انظر: «الشوقيات» (٧٦/٢).

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٦٩٩)، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٥)، والترمذي في القراءات

(٥) (٢٩٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أربابًا؛ لأن هذا وذاك أمر بالكفر.

قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾: قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وخلف ويعقوب بنصب الراء ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ عطفًا على ﴿يَقُولَ﴾، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة لمعنى النفي في قوله: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ﴾ وفاعل ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: ضمير يعود إلى «بشر»، أي: ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادًا له، ويأمرهم أن تتخذوا الملائكة والنبیین أربابًا.

وقرأ الباقر: «ولا يأمركم» بضم الراء على الاستئناف، وقرأها أبو عمرو على أصله من جواز تسكين الراء والاختلاس: «ولا يأمركم». وضمير الفاعل في «يأمركم» على هاتين القراءتين يجوز أن يعود إلى الله تعالى، ويجوز أن يعود إلى «بشر» في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ﴾.

والمعنى: ما كان له أن يقول: اعبدوني من دون الله، وما كان له أن يأمرهم أن تتخذوا الملائكة والنبیین أربابًا، أي: أن هذا وهذا مستحيل أن يقوله أو يأمر به من أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾: أي: أن تجعلوا وتصيروا الملائكة والنبیین أربابًا و«تتخذوا» ينصب مفعولين: الأول هنا: «الملائكة والنبیین»، والثاني: «أربابًا».

﴿أَرْبَابًا﴾: جمع رب، أي: معبودين وألهة تُعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾: قرأ أبو عمرو: «أيأمركم» بتسكين الراء واختلاسها، وقرأ الباقر بضمها ﴿أَيَأْمُرُكُمْ﴾.

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا يمكن أن يأمرهم بالكفر بعبادته من دون الله، أو اتخاذا الملائكة والنبیین أربابًا.

﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: أي: بعد أن تقرر وثبت أنكم مسلمون، أي: بعد أن تقرر وثبت إسلامكم، فالله - عز وجل - لا يأمر بذلك وكذا أنبيأؤه عليهم السلام، كما قال

تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

الفوائد والأحكام:

- ١- أن من أهل الكتاب من هو أمين، لو أئتمن على مال مهما كثر أذاه كاملاً من غير نقص، وأن منهم من هو خائن لو أئتمن على أقل القليل من المال لم يؤدّه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾.
 - ٢- إنصاف القرآن لأهل الكتاب، وبيانه أن منهم من هو أمين لو أئتمن على مالٍ مهما كثر أذاه كاملاً ولم يُنقص منه شيئاً، وذمّه لفريق منهم وهم الخونة.
 - ٣- أن من كان أميناً على المال الكثير لا يُنقص منه شيئاً مع كثرته التي قد لا يظهر معها النقص القليل، فهو من باب أولى أمين على المال القليل الذي يظهر فيه أدنى نقص منه .
 - ٤- أن من لم يكن أميناً على المال القليل الذي يظهر أدنى نقص منه فهو من باب أولى لا يؤمن على المال الكثير الذي قد لا يظهر النقص القليل منه .
 - ٥- جواز التعامل مع أهل الكتاب. وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير^(١).
 - ٦- ينبغي الحذر في التعامل مع أهل الكتاب؛ لأن منهم من طُبع على الخيانة وعدم الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾.
- وهكذا كل من يخشى خيانتته ينبغي مراقبته، والقيام عليه حفظاً للأموال والحقوق. كما يجب الحذر منهم أشد فيما يتعلق بمسؤوليات المسلمين ومصالحهم العامة، فلا يجوز الاعتماد عليهم في شيءٍ منها، ولا الثقة بهم؛ لأنهم حرب للإسلام وأعداء

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

للمسلمين منذ عهد الرسالة، مهما أظهروا خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنَّا بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١].

ولهذا رُوِيَ أن أبا موسى الأشعري - رضي الله عنه - وكان والياً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إلى عمر في تولية كاتب نصراني في بيت المال، فكتب له عمر - رضي الله عنه - بعزله، وقال له: كيف تأمن من خونه الله؟!، فكتب له أبو موسى في شأنه مرة ثانية، وأثنى بمعرفته الكتابة والحساب وأنه لا يوجد مثله، ونحو ذلك، فكتب عمر - رضي الله عنه - بطاقة لم يزد فيها على قوله: «مات النصراني.. والسلام»^(١).

أي: افترض أن النصراني مات. هل يتعطل بيت المال أو يتعطل شأن الدولة الإسلامية؟! بمعنى أن المسلمين في غنى عنه، فرضى الله عنك يا عمر وأرضاك.

٧- تكبر أهل الكتاب وإعجابهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم؛ لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ﴾.

٨- أن العجب والتكبر قد يحمل على أذية الآخرين واحتقارهم وغمط حقوقهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ﴾.

وقد قال ﷺ: «الكبر بطل الحق، وغمط الناس»^(٢). أي: احتقارهم.

٩- جراءة أهل الكتاب على الكذب على الله وهم يعلمون؛ حيث يقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ﴾ أي: أن الله أباح لنا شرعاً استباحة أموال الأُميين وظلمهم، وهذا كذب على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) انظر: «الكشاف» (١/٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في الإبان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٠- أن من حَكَمَ أو أفتى بغير ما أنزل الله، ونسب ذلك إلى حُكْمِ الله وشرعه فقد كذب على الله تعالى، وفيه شبه من أهل الكتاب.

١١- أن من كذب على الله تعالى وهو يعلم؛ أشد عدواناً وإثماً ممن لا يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم يعلمون أنهم يكذبون ويتعمدون ذلك.

وقد قال ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١). والكذب على الله أشد وأعظم.

١٢- إبطال دعوى أهل الكتاب أنه ليس عليهم في الأُميين سبيل، لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بلى عليهم سبيل ومحاسبون في الاعتداء على الأُميين وعلى غيرهم.

١٣- الترغيب في الوفاء بالعهد، والثناء على أهله، وأنه من التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ﴾.

١٤- الترغيب في تقوى الله، وأنها سبب لمحبة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

١٥- أن خيانة الأمانة وعدم أدائها نقض للعهد ومنافٍ لتقوى الله.

١٦- إثبات صفة المحبة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

١٧- ذم أهل الكتاب وبخاصة أحبارهم وعلماهم؛ لأخذهم بعهد الله وأيمانهم عوضاً قليلاً، واستبدال الآخرة بالدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا﴾.

وذلك أن الكلام معهم والسياق فيهم، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مَثْمًا

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)، والترمذي في العلم (٢٦٦٩)، من حديث عبد الله بن

عمرو رضي الله عنهما.

قَلِيلًا فَيُنَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿ [آل عمران: ١٨٧].

١٨- تهديد الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً من أهل الكتاب وغيرهم ووعيدهم بأشد العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فرتب على فعلهم هذا خمس عقوبات، كل منها في غاية الشدة، وهي: حرمانهم من أي نصيب في الآخرة، ومن تكليم الله تعالى لهم تكليم لطف ورضا، ومن نظر الله تعالى لهم نظر رحمة ورأفة، ومن تزكيتهم لهم، مع توعدهم بالعذاب الأليم.

وكل واحدة من هذه العقوبات تدل على كفرهم؛ لأنه لا يستحقها إلا من كان كافراً. ١٩- التحذير من نقض عهد الله، والكذب في الأيمان، والاشتراء بها ثمناً قليلاً، والتحذير لهذه الأمة وبخاصة علمائها من مسالك أهل الكتاب السيئة.

وقد قال ﷺ: «من حلف على يمين هو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان»^(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم». قال: فقراها رسول الله ﷺ ثلاث مراراً. قال أبوذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال «المسبل، والمنان، والمنفق سلعتة بالحلف الكاذب»^(٢).

٢٠- يفهم من قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا

(١) أخرجه البخاري في الخصومات؛ كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٤١٧)، ومسلم في الإيمان، وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي في

البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأبوداود في اللباس (٤٠٨٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣)،

والترمذي في البيوع (١٢١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨).

خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ الآية: أن من وفوا بعهد الله ولم يشتروا بعهد الله وأياهم ثمنًا قليلًا أن لهم نصيبًا في الآخرة، ويكلمهم الله وينظر إليهم يوم القيامة، ويزكيهم، وقيهم العذاب الأليم، ولهم الثواب العظيم.

٢١- أن الحظ والنصيب حقًا ما كان في الآخرة؛ لأنها هي دار الحياة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ ولم يقل: في الدنيا؛ لأن نصيب الدنيا مهما كان لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة.

٢٢- إثبات الدار الآخرة والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٢٣- إثبات الكلام لله تعالى لأن نفي تكليمه لمن اشتروا بعهد الله وأياهم ثمنًا قليلًا يدل بمفهومه على ثبوت تكليمه لمن وفوا ولم يشتروا بعهد الله وأياهم ثمنًا قليلًا؛ لأنه - عز وجل - لو لم يكن يتكلم ويكلم هؤلاء ما كان لنفي تكليمه عن المذكورين فائدة، وما كان ذلك عقوبة لهم.

٢٤- إثبات النظر لله - عز وجل - لأن نفي نظره تعالى إلى المذكورين يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يدل بمفهومه على نظره إلى من كانوا بخلافهم.

٢٥- عدم تزكية الله هؤلاء المذكورين وعدم تطهيره لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، ومفهوم هذا تزكيته - عز وجل - لمن كانوا بخلافهم.

٢٦- شدة عذاب المذكورين يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: مؤلم حسيًا ومعنويًا.

٢٧- أن العقوبات منها ما هو منع وحرمان من الخير كحرمان نصيب الآخرة والحرمان من تكليم الله تعالى ومن نظره وتزكيته، ومنها ما هو جلب شر وخزي كالعذاب الأليم.

٢٨- أن من أهل الكتاب فريقًا يلوون ألسنتهم بتحريف ألفاظ الكتاب ومعانيه؛ ليظهر أن هذا المحرف من الكتاب، ويقولون هو من عند الله لإضلال الناس؛ لقوله

- تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ .
- ٢٩- نفي أن يكون ما لوى به أهل الكتاب ألسنتهم وحرفوه من الكتاب، وأن يكون من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ .
- ٣٠- كذب أهل الكتاب وافترأؤهم على الله تعالى وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .
- ٣١- الوعيد والتهديد لأهل الكتاب لكذبهم على الله وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد لهم ولمن سلك طريقهم في الكذب على الله، ولبس الحق بالباطل.
- ٣٢- أن الكذب على الله مع العلم والتعمد أشد ذنبًا ووعيدًا من الكذب بلا علم ولا تعمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .
- ٣٣- النفي القاطع أن يدعو أحد من من الله عليه بإعطائه الكتاب والحكم والنبوة إلى عبادة نفسه وطاعته من دون الله، وأن هذا لا يمكن أن يكون لا شرعًا ولا قدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .
- ٣٤- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر من سائر البشر.
- ٣٥- أن النبي من أنزل عليه الكتاب والوحي، وأعطى الحكم الشرعي بين الناس، والنبوة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ .
- ٣٦- أن الأنبياء عليهم السلام إنما يأمرون بطاعة الرب - عز وجل - وعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ .
- ٣٧- ينبغي أن يكون من يعلم الناس معلمًا ربانيًا، يقرن بين التعليم، والتربية على العمل؛ لأن ثمرة العلم هي العمل والتربي به؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ .
- ٣٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ .
- ٣٩- أن علم الكتاب وتعليمه ومُدارسته له الأثر في كون صاحبه ربانيًا عابدًا لله مطيعًا

له، مربيًا الناس على ذلك.

٤٠- استحالة أن يدعو أحد من الأنبياء عليهم السلام إلى الإشراف بالله واتخاذ الملائكة

والنبيين آلهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

٤١- الرد على المشركين من أهل الكتاب وغيرهم في اتخاذهم الملائكة والنبيين وغيرهم

أربابًا من دون الله.

٤٢- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ﴾، والإيمان بهم ركن من

أركان الإيمان الستة.

٤٣- أن من قال للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، وأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين

أربابًا فقد أمر بالكفر المخرج من الملة؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الواو: استثنائية، ﴿وَإِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين»، متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يا محمد حين أخذ الله ميثاق النبيين، اذكره بنفسك ولأمتك ولأهل الكتاب، و«الميثاق»: العهد المؤكد، وسُمِّيَ العهد ميثاقاً لأن كلاً من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر، كالوثاق وهو الحبل الذي يُشد به.

والمراد بـ﴿النَّبِيِّينَ﴾: ما يشمل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وميثاق النبيين ميثاق على أممهم.

﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾: فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.
قرأ حمزة بكسر اللام «لما»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لَمَّا﴾، وقرأ نافع وأبو جعفر بنون العظمة ﴿آتَيْنَكُمْ﴾، وقرأ الباقون ببناء المتكلم ﴿آتَيْتُكُمْ﴾.
واللام في قوله «لما» على قراءة فتح اللام: موطئة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق في معنى اليمين، ويجوز كون اللام للابتداء، و«ما»: شرطية أو موصولة، أي: للذي آتيتكم.
أو لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة، أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، ولتنصرنه، ولا يمنعكم ما أوتيتم من علم الكتاب والحكمة من ذلك.

وعلى قراءة كسر اللام تكون اللام للتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: من أجل إبتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة، ولمجيء رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به.

ويجوز كون «ما»: موصولة، أي: لأجل الذي آتيتكم، ولمجيء رسول مصدق، أي: شكرًا على إيتائي إياكم أو على الذي آتيتكم وعلى أن بعثت رسولاً مصدقاً لما معكم لتؤمنن به.

﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ «من»: تبيضية، أي: بعض الكتاب والحكمة، وقيل: بيانية.

وقوله: ﴿كِتَابٍ﴾: كالتوراة والإنجيل.

﴿وَحِكْمَةٍ﴾: الحكمة: الشريعة، والحكم بها بين الناس.

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ.

ويحتمل أن يشمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ محمداً ﷺ وغيره من الرسل - عليهم السلام - بأن أخذ الله الميثاق على النبيين جميعاً بأن يؤمن المتقدم منهم بمن يأتي بعده ويناصره، ويصدق بعضهم بعضاً^(١).

وقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: مصدق لما معكم من كتب الله تعالى؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما ببيان أنها حق من عند الله تعالى، وذلك باشتماله على ما يشهد بصدقها، وبكونه مصداق ما أخبرت به حيث أخبرت هذه الكتب ببعثته ﷺ، كما قال عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرٌ لِّرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فكانت بعثته الله ﷺ مصداق ما أخبرت به هذه الكتب، فكان بهذا مصدقاً لها.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، فالجملة جواب القسم، ويجوز أن تكون اللام: موطئة للقسم، أي: لتصدقن.

(١) انظر: «جامع البيان» (٥/٥٣٩-٥٤٤).

﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾، أي: ولتعيُننه على تبليغ رسالته ونشرها، وعلى قتال أعدائه، فالنصر هنا يشمل نصره باللسان، والدعوة إلى الله، وباللسان والعُدَّة والعتاد. والمراد: لتؤمنن به ولتنصرنه أنتم وأتباعكم.

﴿قَالَ أَقَرَّرْتُمْ﴾ أي: اعترفتم والتزمتم بذلك.

﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾: معطوف على ما قبله، أي: وأخذتم على ذلكم عهدي، أي: ميثاقى الشديد المؤكد الثقيل، والإصر: العهد الثقيل، وجمعه: أصار، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿قَالُوا أَقَرَّرْنَا﴾ أي: اعترفنا والتزمنا بأن نؤمن به وننصره.

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي: ليشهد كل منكم على نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وأيضاً ليشهد بعضهم على بعض، واشهدوا على أئمتكم بذلك.

﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: على العهد الذي أخذته عليكم وعلى أئمتكم، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩، ١٦٦، الفتح: ٢٨].

فاستشهدهم عز وجل على أنفسهم، وعلى بعضهم، وعلى أئمتهم على الميثاق الذي أخذه عليهم، وشهد عز وجل عليهم كلهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾.

ذكر الله - عز وجل - أخذه ميثاق النبيين إن بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، وأن يؤمن بعضهم بعضاً، ويصدق بعضهم بعضاً، وإقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك، وشهادته تعالى عليهم، وهو ميثاق عليهم وعلى أئمتهم، ثم أتبع ذلك ببيان حكم من تولى من أئمتهم عن الالتزام بهذا الميثاق، وأنه من الفاسقين، وفي هذا تحذير لأمة محمد

ﷺ وبخاصة أهل الكتاب الموجودين في عهده ﷺ من التولي عن الإيمان به ونصرته.
قوله: ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الفاء: استئنافية، و«من»: شرطية، و﴿ تَوَلَّى ﴾:
فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾. ومعنى «تولي» أي:
أعرض بقلبه وبدنه.

﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي: بعد أخذ ميثاق الأنبياء، وتقريرهم، وإشهادهم على ذلك،
وشهادة الله عليهم بذلك.

والمعنى: من تولى وأعرض من اتباع الأنبياء وأمهم عن الإيمان بالرسول ونصرتهم
وبخاصة خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ بعد تبليغ أنبيائهم لهم بما أخذ من الميثاق عليهم في
ذلك؛

ولهذا لم يقل: «فمن تولى بعد ذلك منكم» كما قال في سورة المائدة في خطاب بني
إسرائيل: ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢].

﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾: لأن الميثاق الذي أخذ على الأنبياء ميثاق عليهم
وعلى أهمهم، ولهذا لما رأى النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قطعة من
التوراة غضب؟ فقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم
بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو يبطل فتصدقوا
به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» (١).

والفاء في قوله: ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ رابطة لجواب الشرط، والجملة جواب الشرط.
والإشارة في قوله: «أولئك» لـ «من» في قوله: ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى ﴾؛ لأن معناها الجمع،
وقد أكدت هذه الجملة بكونها اسمية مُعَرِّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: فأولئك الذين بلغوا غاية الفسق. و(الفسق): الخروج عن طاعة الله تعالى.
وهو نوعان: فسق مُخْرَج من الملة وكفر، كما في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ
فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٨٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ [السجدة: ١٨].

وفسق دون ذلك، لا يُخرج من الملة، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِيءٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

والمراد بالفسق هنا في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الفسق المخرج من الملة، المؤدِّي إلى الكفر؛ لأن من تولى وأعرض عن الإيمان بالرسول وتصديقهم ونصرتهم، وخصوصاً خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ فهو كافر.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ ءَأَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٢).

حذَّر عز وجل عن التولِّي والإعراض عن الإيمان بالرسول ﷺ وغيره من الرسل ونصرتهم؛ ثم أتبع ذلك بالإنكار على الذين يَبْغُونَ غير دين الله من أهل الكتاب وغيرهم، وقد أسلم له سبحانه الخلق كلهم وإليه مرجعهم.

قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والفاء: حرف عطف على ما سبق، وقد أخرجت لتكون الصدارة لهزمة الاستفهام، والتقدير: «فأغير دين الله يبغون»، ويجوز أن يكون حرف العطف عاطفًا لما بعده على مقدر بينه وبين الهزمة، والتقدير: «أيتولون فغير دين الله يبغون؟».

﴿وَدِينِ اللَّهِ﴾: شرعه الذي شرعه لعباده، وهو دين التوحيد والعدل والإسلام،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأضافه - عز وجل - إليه؛ لأنه سبحانه هو الذي شرعه، وهو الذي يجازي عليه، وتعظيمًا له وتشريفًا.

﴿يَبْغُونَ﴾: قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب بياء الغيبة: ﴿يَبْغُونَ﴾،

وقرأ الباقون بقاء الخطاب «تبغون»، والمعنى: أفغير دين الله وشرعه وحكمه يطلبون ويريدون، أو تطلبون وتريدون، والمراد بهذا أهل الكتاب وغيرهم ممن يتبغي غير دين الله.

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه أسلم له من في السموات والأرض، وقدم الخبر: ﴿لَهُ﴾ للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: وله وحده أسلم من في السموات والأرض.

ومعنى «أسلم»: أي استسلم وانقاد كونًا، وليس المراد الاستسلام شرعًا؛ لأن الإسلام الشرعي لا إكراه فيه، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ ولأن الإسلام الشرعي لا يعم كل من في الأرض بل أكثرهم لا يسلم. و﴿مَنْ﴾: موصولة تدل على العموم، أي: جميع من في السموات والأرض.

وفي التعبير ب﴿مَنْ﴾ تغليب لجانب العقلاء؛ تكريماً لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولأنهم هم المكلفون دون غيرهم، ولأنهم أكثر من غيرهم؛ لأن من بينهم الملائكة.

وفي الحديث: «أطت السماء وحق لها أن تظط. ما من موضع شبر إلا وفيه ملك قائم لله أو راعع أو ساجد»^(١).

والسموات أكبر من الأرض، بل السماء الدنيا أكبر من الأرض، وكل سماء أكبر من التي تحتها.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: منصوبان على الحال، أي: طائعين وكارهين، و«الطوع»: ما فُعِلَ بالاختيار، و«الكره»: ما فُعِلَ بغير الاختيار.

أي: استسلم له من فيها طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا هُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْنَ ظُلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾^(٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ^(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فالمؤمن مستسلم لله تعالى طوعاً بقلبه وقالبه، والكافر مستسلم لله تعالى كرهاً، والخلق والكون كله مستسلم منقاد لله تعالى طوعاً كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بياء الغيبة ﴿يُرْجَعُونَ﴾ والضمير على هذه القراءة يعود إلى الذين يبغون غير دين الله، أو إلى «من» في قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أو إليهما معاً، وهو أولى.

فجميعهم إليه يرجعون، أي: يُرَدُّون يوم القيامة، فيحاسبهم ويفصل بينهم بحكمه، من كان منهم من أهل التكليف أو غيرهم. وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «ترجعون» وفقاً لقراءة «تبغون» فيعود الخطاب للذين يبغون غير دين الله، وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

وقدّم المتعلق في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ لإفادة الحصر والتخصيص، أي: وإليه وحده يرجعون، لا إلى غيره، فله - عز وجل - استسلم كل من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً في الدنيا، وإليه رجوعهم في الآخرة فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. فكيف لعاقل أن يبتغي غير دين الله ويعدل به غيره؟!!

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أخذ الله الميثاق على النبيين بأن يؤمن كل منهم بمحمد ﷺ وينصره إن بُعِثَ في زمانه، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، ويأخذوا ذلك على

أقوامهم وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية .

٢- امتنان الله - عز وجل - على الأنبياء عليهم السلام بما أعطاهم من الكتاب والحكمة، وتذكيرهم بذلك ليؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه، وليؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً؛ إذ الواجب عليهم أعظم من غيرهم؛ لأن الواجب على قدر النعمة، ويتفرع على هذا أن المنّة على العلماء أعظم من المنّة على غيرهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولهذا فالواجب عليهم من القيام بأمر الله، وبيان الحق، والدعوة إلى الله أعظم من الواجب على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

- اللَّهُ مِيثَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴿آل عمران: ١٨٧﴾.
- ٣- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مكلفون متعبدون كغيرهم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية.
- ٤- فضيلة نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الله - عز وجل - أخذ عليهم جميعاً الميثاق بالإيمان به، ونصرته؛ فهو سيد الأنبياء وإمامهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وهو صاحب الشفاعة العظمى، والمقام المحمود يوم القيام للفصل بين الخلائق.
- ٥- تحذير أهل الكتاب في عهد النبي ﷺ من تكذيب النبي ﷺ ومخالفته والكفر بما جاء به، بتذكيرهم بهذا الميثاق.
- ٦- تذكير النبي ﷺ وأُمَّته بهذا الميثاق، والذي أخذه الله على الأنبياء بالإيمان به ونصرته تشريةً وتكريماً له ولأُمَّته.
- ٧- تصديق الرسول ﷺ لما مع الأنبياء من قبله؛ لاشتمال ما جاء به من الوحي على بيان صدق ما معهم، ولأن بعثته ﷺ مصداق لما أخبرت به كتبهم، وتصديق بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾.
- ٨- فضل ما بُعث به نبينا محمد ﷺ من دين الإسلام على جميع الأديان؛ لأنه المصدق لها، والشاهد والمهيمن عليها، المشتمل على جميع أصول الشرائع السابقة.
- ٩- تقرير الأنبياء بما أخذ الله عليهم من ميثاق، وإقرارهم جميعاً بذلك، وإشهادهم على أنفسهم وعلى أممهم، وشهادة الله تعالى عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الآية.
- ١٠- أن ما أخذ الله من الميثاق على الأنبياء من الإيمان به ﷺ ونصرته وتصديق بعضهم بعضاً هو ميثاق على أقوامهم وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن تولى من أقوام الأنبياء وأتباعهم بعد أخذ الميثاق على أنبيائهم، ولا يدخل في هذا التحذير الأنبياء؛ لأنهم أقروا بهذا الميثاق، والتزموا به، وشهدوا بذلك على أنفسهم وعلى أقوامهم.
- ١١- أن من تولى من أتباع الأنبياء عن الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته وغيره من الأنبياء

فهو من الفاسقين الخارجين عن الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. والمراد بالفسق هنا الكفر المخرج من الملة.
 ١٢- أن من تولى قبل البيان وقيام الحجّة لا يُحكم عليه بالفسق ولا يُؤاخذ؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾.

١٣- التحذير من التولّي والإعراض عن الإيمان بالرسول ﷺ، وعن اتباعه ومناصرتة في دعوته باللسان والأبدان، وأن ذلك فسق وكفر.

عن عبد الله بن ثابت قال: «جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ فقال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال: عبد الله بن ثابت: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

قال: فَسَرِّيَ عن رسول الله ﷺ، وقال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتهم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»^(١).

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، فإنه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني»^(٢).

١٤- الإنكار الشديد على من يتنغي غير دين الله وشرعه وحكمه من أهل الكتاب وغيرهم - مع أن الملك والأمر كله لله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

١٥- تعظيم الله لنفسه بكمال ربوبيته وعموم ملكه وسلطانه، واستسلام جميع من في السموات والأرض له طوعاً وكرهاً، وتعظيماً لدينه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية،

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٨٧)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٥٦) ونسبه للحافظ أبي بكر.

فأضاف الدين إليه اهتمامًا به وتعظيمًا له.

١٦- أن مرجع كل من في السموات والأرض إلى الله تعالى، فإليه إياهم وعليه حسابهم

والحكم والفصل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، فله استسلم وانقاد

جميع من في السموات والأرض في الدنيا، وإليه رجوعهم جميعًا في الآخرة.

١٧- الوعيد والتهديد لمن ييغون غير دين الله من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

١٨- فضل الله تعالى وحكمه بين الخلق، ومجازاة أهل التكليف منهم بما عملوا، والوعد

لمن آمن بالله، والوعيد لمن كفر بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلَدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبَدَّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة أخذه ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ﷺ ونصرته هم وأممهم، وأنكر على من ييغون غير دين الله، ثم مقابل ذلك أمر النبي ﷺ أن يقول للناس من أهل الكتاب وغيرهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية.

فكما أخذ ميثاق النبيين وأممهم بالإيمان به وبرسالته، كذلك أمره ﷺ أن يخبر الناس بإيمانه هو وأمته بما أنزل على النبيين قبله، وأن يقول لمن ابتغوا غير دين الله وغيرهم ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية، وهذه الآية شعار الإسلام.

قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾: الخطاب والأمر للنبي ﷺ وهو أمر له ولأمته، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].

ولهذا جمع الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾، وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

والإيمان بالله يتضمن التصديق والإقرار بوجوده، وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْوَاقِعَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وأما بالذي أنزل علينا من الوحي، أي: بالقرآن والسنة؛ لأن كلاً منها وحي مُنَزَّل من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال هنا: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، وقال في آية البقرة: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الآية: ١٣٦]، فباعتبار مبدأ الإنزال عُدي بـ«على»؛ لأنه من أعلى ومن فوق، وباعتبار انتهاء الإنزال إلى المنزل عليه عُدي بـ«إلى». وقدّم الأمر بالإيمان بالمنزل على هذه الأمة في الآيتين تعظيماً له واعتناءً به.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وأما بالذي أنزل على إبراهيم عليه السلام - وهو أبو الأنبياء - من الصحف، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِنَايِمًا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ﴾ (٦٦) ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ (١٨) ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ أي: وأما بالذي أنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط.

وهؤلاء وإن لم تصل إلينا كتبهم فنؤمن بأن الله أنزل عليهم؛ لأن الله أخبرنا بذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾: هو إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وهو الابن الأول لإبراهيم، وهو الذي ابتلى الله إبراهيم بالأمر بذبحه فاستسلما معاً لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا بَنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَآتِيْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١١٢) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَهُ الْبَجِينِ﴾ (١١٣) ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُ أَبُؤِبْرَاهِيمَ﴾ (١١٤) ﴿فَدَصَّدَقَتِ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَالْبَلَاءُ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَّيْنَاهُ بِذِيحِ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ [الصفات: ١٠٢-١٠٧].

وهو أبو العرب وجد نبينا محمد ﷺ سيد الخلق وأفضل الرسل - عليهم السلام - .
فقدّم ذكر «إسماعيل» لسبقه زمناً وفضلاً، فهو أكبر من «إسحاق» وهو أفضل منه؛
لأنه أب لأفضل الرسل وسيد الخلق محمد ﷺ.

﴿وَإِسْحَاقَ﴾: هو إسحاق بن إبراهيم. الابن الثاني لإبراهيم - عليهما السلام -
ومن فضله أن جل الأنبياء بعده من ذريته.

﴿وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾: هو يعقوب بن إسحاق - عليهما السلام - ويلقب
«إسرائيل»، ومعناه «عبد الله»، وهو الذي ينسب إليه بنو إسرائيل.

﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾: جمع سبط، وأصل السبط في اللغة ابن البنت، ولهذا يقال
للحسن والحسين - رضي الله عنهما - سبطا رسول الله ﷺ.

قيل: المراد بـ «الأسباط» أحفاد إبراهيم أبناء ابنه يعقوب الاثنا عشر، كما في قوله
تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وعلى هذا يكون أولاد يعقوب كلهم أنبياء. وقد قال تعالى عن يوسف - عليه
السلام: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾

[غافر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَدْرِيكَ دَاوُدَ رَبُّورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقيل: المراد بـ «الأسباط» بطون بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء، فيكون التقدير:

وما أنزل على أنبياء الأسباط، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾
[الأعراف: ١٦٠].

وخص هؤلاء المذكورين؛ لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم.

﴿وَمَا أَوْقَى مُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: وأمنا بالذي أوتي موسى وعيسى، أي: بالذي أنزل
إليهما من الوحي والآيات الشرعية في التوراة والإنجيل، ومن الآيات الكونية التي

أعطياها كل منهما.

ولعل السبب في التعبير بقوله: ﴿وَمَا أَوْتِي﴾ بدل، «وما أنزل» للإشارة إلى الآيات الكونية التي أعطاهها الله كلا منهما، والتي بقي ذكرها إلى نزول القرآن؛ لأن موسى وعيسى -عليهما السلام- أُعطيا الكثير من الآيات الكونية؛ لأن موسى بعث في وقت قد انتشر فيه السحر، وعيسى قد بعث في وقت قد ظهر فيه الطب، فأعطي كل منهما من الآيات ما يناسب ما ظهر في عهده.

﴿وَالنَّبِيِّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: معطوف على «موسى وعيسى»، أي: وآمنا بما أوتي النبيون من ربهم من الآيات الشرعية والكونية، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، أي: وآمنا بما أوتي جميع النبيين والرسل من الكتب والمعجزات، كما قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: الجملة الحالية أي: حال كوننا لا نفرق بين أحد منهم في الإيمان، أي: لا نفرق بين أحد منهم والآخر، بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما هو حال اليهود والنصارى، بل نؤمن بهم جميعاً على السواء، إيماناً مجملاً - كما أخبر القرآن والسنة عنهم.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: الجملة في محل نصب معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ونحن له، أي: لله وحده مستسلمون، منقادون ظاهراً وباطناً، بقلوبنا وألستنا وجوارحنا. وقدّم المتعلق (له) على المتعلق به وهو (مسلمون) للدلالة على الحصر، أي: مستسلمون له وحده دون سواه، وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، و«يبتغ»: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة الياء، أي: ومن يطلب ويريد ﴿غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ «غير»: مفعول ﴿يَبْتَغِ﴾، و«دِينًا»: تمييز أو مفعول ثانٍ لـ«يبتغ» أي: ديناً يدين لله تعالى به، ويعمل به،

ويجازى عليه، ويُدان به، كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، أي: لكم دينكم الذي تدينون به، وعملكم الذي تعملون به، ولي ديني الذي أدين به وأعمل به.

﴿الْإِسْلَامُ﴾: معناه العام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهذا يطلق على جميع الأديان، فكل من انقاد لما جاءت به رسل الله فهو مسلم.

ومعناه الخاص: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع - وهو المراد هنا - وهو ينتظم المعنى الأول، أي: ومن يتبع غير الإسلام ديناً بعد مجيء الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: جواب الشرط «مَنْ»، والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلن يقبل منه ذلك الدين، كما قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، أي: مردود غير صحيح، فلا يقبله الله تعالى منه، ولا يقره رسوله ﷺ ولا المؤمنون، ولا يُثاب عليه، ولهذا قال:

﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، أي: وهو في الدار الآخرة من الخاسرين، الذين خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم وخسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وخسروا كل شيء، وحرموا من الثواب وأركسوا في العذاب.

خسروا دينهم لأنهم دانوا بغير الإسلام، وخسروا دنياهم لأنهم لم يعملوا فيها ما يقربهم إلى الله تعالى، وخسروا أنفسهم فضاعت أعمارهم وحياتهم سدى، وخسروا أموالهم فلم يقدموا منها ما ينفعهم في الآخرة، وخسروا أهليهم فحيل بينهم وبينهم في الآخرة؛ وتلك والله الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُونَ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى:

(١) سبق تخريجه.

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى:
 ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ
 يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩].

قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ
 وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦).

سبب النزول:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: «سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟» فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن فلاناً قد ندم، وإنه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ كَذِبًا وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) ، فأرسل إليه، فأسلم» (١).

وذهب بعض المفسرين إلى أنها نزلت في أهل الكتاب، آمنوا برسولهم، ثم كفروا فعبدوا غير الله، وآمنوا بمحمد ﷺ، وشهدوا أنه حق قبل مبعثه وبعده، بما في كتبهم من البشارة به، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]، وبما عندهم من المعرفة به، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٠]. ثم كفروا به حسدًا منهم وعنادًا.

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم - توبة المرتد (٤٠٦٨)، والطبري في «جامع البيان» (٥٥٧/٥، ٥٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٠٠/٢)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (١٤٢/٢، ٣٦٦/٤)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

والآية أعم من هذا كله فتشمل كل من كفر بعد الإيمان، وبعد قيام الحجة عليه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام ومعناه هنا: الاستبعاد، والمراد بالهداية في قوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾: هداية التوفيق، أي: يبعد أن يوفق الله للهدى قوماً كفروا بعد إيمانهم من العرب وأهل الكتاب وغيرهم، أي: ارتدوا ورجعوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وكيف يستحق من هذه صفته أن يهديه الله، أو كيف يتوقع أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم.

ويُتمثل كون الاستفهام للإنكار والنفي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

وذلك لأن من آمن وعرف الحق ثم ارتد عنه أعظم ذنبًا وكفرًا ممن لم يعرف الحق وبقي على كفره ولم يدخل في الإيمان.

فمن عرف الحق وتركه يُعاقب بالانتكاس وانقلاب القلب وزيفه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

والكفر بعد الإيمان وبعد معرفة الحق علامة على عدم تمكن الإيمان، فإن من ذاق حلاوة الإيمان يبعد أن يعود إلى الكفر، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار»^(١).

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾: الجملة في محل نصب عطفًا على جملة ﴿كَفَرُوا﴾، أي: كيف يهديهم بعد اجتماع الأمرين الكفر والشهادة بصدق الرسول. ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنهم قد شهدوا أن

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في «الإيمان» (٤٣)، والنسائي في «الإيمان وشرائعه» (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الرسول ﷺ حق، والواو في شهدوا تعود لمن كفروا.
 والمراد بـ«الرسول»: محمد ﷺ، و(ال) فيه للعهد الذهني؛ لأنه ﷺ معهود في الأذهان بعد بعثته ونزول القرآن عليه.
 أي: شهدوا أن الرسول محمداً ﷺ حق ثابت، صادق فيما أخبر به، عادل فيما حكم به، لاشك في رسالته.

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: معطوف على: ﴿وَشَهِدُوا﴾، ولم يؤنث الفعل، فلم يقل: «وجاءتهم»؛ لأن التأنيث في ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ غير حقيقي، وفصل بينه وبين الفعل بالمفعول «هم» ويجوز تأنيثه، كما في قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢١٣].
 أي: وجاءهم الآيات البينات في القرآن الكريم والكتب السابقة، واكتفى بذكر الصفة وهي «البيّنات» دون الموصوف وهي «الآيات»؛ لأن المهم في الآيات كونها بيّنات مُبيّنات مُبيّنات للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

والمعنى: وجاءهم الآيات البينات الواضحات، والحجج والبراهين القاطعات، على أن الرسول ﷺ حق، وما جاء به حق وصدق وعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الجملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها، فاستبعد هداية من كفروا بعد إيمانهم وشهادتهم أن الرسول حق، وبعد مجيء البيّنات إليهم؛ لأنهم ظالمون: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين.
 و﴿الظَّالِمِينَ﴾: جمع «ظالم»، والظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُنَّ وَلَمْ تَظْلِمِي مِنْهُنَّ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو إما تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرّم عمدًا، فهؤلاء ظلموا باختيارهم الكفر، ووضعهم مكان الإيمان، بعد تبين الحق لهم، وظلموا أنفسهم، فنقصوها حقها، وعرضوها للعذاب ودسوها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾
[الآيتان: ١٦١-١٦٢].

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾: الإشارة للذين كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول
حق، ومجيء البيئات إليهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾ تحقيراً لهم.
﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ، وهو وما بعده خبر للمبتدأ الأول ﴿أُولَئِكَ﴾ أو بدل
من ﴿أُولَئِكَ﴾.

﴿أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: أن الله تعالى يلعنهم؛ لاستحقاقهم لللعنة عز وجل،
واللعنة من الله: طرده وإبعاده لهم عن رحمته وعن جنته، وإدخالهم في عذابه وناره،
ومقتته لهم.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ أي: وعليهم لعنة الملائكة.

﴿وَالنَّاسِ﴾ أي: وعليهم لعنة الناس، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد، أي: عليهم لعنة
الملائكة أجمعين، ولعنة الناس أجمعين، مؤمنهم وكافرهم.
واللعنة من الملائكة ومن الناس: هي الدعاء بالطرد، والإبعاد عن رحمة الله وجنته،
ومقتهم وبغضهم لهم.

قوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله: ﴿خَلِيدِينَ﴾: حال.

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠)، من حديث أبي مالك
الأشعري - رضي الله عنه - وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿ فِيهَا ﴾ أي: في اللعنة، أي: ماكثين في هذه اللعنة مكثاً أبداً، تلاحقهم وتستمر معهم؛ لأن عذاب الكفار أبدي سرمدي، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ كقوله في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الآية: ١٨٥].

وجملة: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴾ في محل نصب على الحال، و﴿ الْعَذَابُ ﴾: العقوبة، أي: لا يخفف عنهم العذاب بأن ييؤن عليهم من شدته، أو بأن يقطع عنهم يوماً أو فترة، كما قال أهل النار لخزنتها: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩]، وكما قال تعالى: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أي: لا ينقطع عنهم فترة، ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي: يائسون من الخروج منه أو انقطاعه.

﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾: معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ولا هم يمهلون ويؤخر عنهم العذاب، بل يبادرون بالعذاب.

فيبادرون بالعذاب في الحياة الدنيا قبل الموت بالقتل على أيدي المؤمنين، والسبي، والاضطراب النفسي، والقلق، والشقاء الدنيوي، والمصائب التي سببها الكفر والبعد عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

ويبادرون بالعذاب عند الموت، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ويبادرون بالعذاب في البرزخ بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

عُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٨٤﴾ [غافر: ٤٦].

ويبادرون بالعذاب بعد البعث يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر: ٧١].

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

بعد ما ذكر عز وجل في الآيات السابقة استبعاد أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البيئات إليهم، وتوعدهم باللعنة والخلود فيها وفي العذاب، لم يؤيسهم، بل فتح لهم باب التوبة، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه ورأفته وواسع رحمته.

قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء هنا متصل، المستثنى:

﴿ الَّذِينَ تَابُوا ﴾، والمستثنى منه قوله تعالى: ﴿ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾.

ومعنى ﴿ تَابُوا ﴾ أي: رجعوا إلى الله، وأتابوا إليه، فرجعوا من الكفر إلى الإيمان، وتابوا مما حصل منهم من الكفر بعد الإيمان، فأقلعوا عن الردة بالرجوع إلى الإسلام، وندموا على ذلك، وعزموا على عدم العودة إليه، وكان ذلك في وقت قبول التوبة قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾: الإشارة إلى ما سبق من كفرهم بعد إيمانهم، وأشار إليه بإشارة

البعيد تحقيراً له.

﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي: وأصلحوا حالهم وأعمالهم، وما حصل منهم من فساد وإفساد.

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: فإن الله يتوب عليهم ويغفر لهم ويرحمهم؛ لأنه غفور

رحيم، أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَيْكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ ﴾ [النجم: ٣٢].

و ذو رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

والمغفرة ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.
والرحمة قسمان: رحمة ذاتية، ورحمة فعلية يوصلها عز وجل من شاء من خلقه،
رحمة عامة، وخاصة، وباجتماع المغفرة والرحمة زوال المهروب وحصول المطلوب.
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿١٠﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة استبعاد أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم
وشهودهم أن الرسول ﷺ حق وجاءهم البينات، واستثنى من ذلك من تابوا
وأصلحوا، ثم يبين في هذه الآية أن التوبة لا تقبل ممن كفروا بعد إيمانهم، واستمروا على
الكفر وازداد منه؛ لشدة ضلالهم وبعدهم عن الهدى.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا وعرفوا
الحق من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا﴾ أي: أوغلوا في الكفر وانحدروا في دركاته، واستمروا عليه
فازداد كفرهم كيفية ونوعية وكمية.

﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: عند حضور الموت، بحضور علاماته، كما قال تعالى:
﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي
تُبْتُ أَلَنْ﴾ [النساء: ١٨]، وقال ﷺ: «إن الله يقبل التوبة العبد ما لم يغرغ»^(١).

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾: كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾
[يونس: ٣٢]، والإشارة «أولئك» لمن كفروا وبعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً.

وأكد ضلالهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي:
الذين بلغوا غاية الضلال؛ لأنهم تركوا الحق بعد معرفته، وأشار إليهم بإشارة البعيد
«أولئك» تحقيراً لهم.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن غريب».

أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْرِينٍ﴾ (٢).

ذكر الله - عز وجل - في الآية السابقة عدم قبول توبة الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرًا، أي عند حضور الموت، ثم أتبع ذلك بذكر عدم قبول الفداء منهم بعد الموت. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، جملة ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: حال، أي: وماتوا حال كونهم كفارًا، أي: وماتوا على الكفر وعلى غير الإيمان.

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾: الجملة في محل رفع خبر «إِنَّ»، أي: فلن يقبل منه لو كان أنفق ملء الأرض ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال ابن كثير (٢): «أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يره قرية، كما سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جُدعان، وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» (٣).

﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾: معطوف على ما قبله فدل على أنه غيره؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، أي: لو أنفق هذا المبلغ في الدنيا لم يقبل منه، ولو افتدى به يوم القيامة من العذاب لم يقبل منه، ولم ينقذه من عذاب الله عز وجل. ويحتمل كون الجملة حالية، أي: فلن يقبل منه ولو في حال الافتداء به.

(١) أخرجه البزار فيما ذكر ابن كثير في تفسيره (٩٥/٢) وقال ابن كثير: «هكذا رواه وإسناده جيد».

(٢) «تفسيره» (٩٥/٢).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمعنى: ولو جعل هذا المال فدية له من عذاب الله لم يقبل منه.
و«الفدية»: مال أو عرض يدفع مقابل الخلاص. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ
أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وعن أنس ابن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل
النار يوم القيامة: أرأيت لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟» قال:
«فيقول: نعم» قال: «فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر
أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تُشرك» (١).

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: والإشارة للذين كفروا وماتوا وهم كفار، وفي الإشارة
بإشارة البعيد تحقير لهم، و«العذاب»: العقوبة.

﴿أَلِيمٌ﴾: على وزن «فعليل» بمعنى: «مفعل» أي: مؤلم موجع حسياً للأبدان
ومعنوياً للقلوب.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«من»: زائدة إعراباً، مؤكدة
لاستغراق النفي من حيث المعنى، و«ناصرين» جمع (ناصر) وهو الذي يدفع ويمنع
الضر عن غيره.

والمعنى: وما لهم من أي ناصر ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله ويمنعه قبل وقوعه،
أو يرفعه بعد وقوعه.

قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ
عَلِيمٌ﴾ (١٢).

بيّن عز وجل في الآية السابقة أن من مات على الكفر فلن يقبل منه ملء الأرض ذهباً
ولو افتدى به، ثم بيّن في هذه الآية ما ينال به البر وهو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله مما يحبون.
قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾ «لن»: حرف نفي ونصب للفعل المضارع، وتنقله من الحال

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٥)، وأحمد (٢٠٨/٣).

إلى الاستقبال، والمعنى: لن تدركوا البر وتحصلوا عليه، وتكونوا أبرارًا.

و«البر»: كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال ﷺ: «البر حُسن الخلق»^(١)، «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»^(٢). وهو ضد الإثم؛ ولهذا قال ﷺ: «والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١)، «والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب»^(٢).

﴿حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن تنفقوا مما تحبون، وفي هذا دلالة على تعدد خصال البر وأنه درجات، من أعلاها الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى مما يحبون.

و«من» في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تبعية، و«ما» موصولة، أي: بعض الذي تحبون من المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. أي: حتى تنفقوا بعض المال الذي تحبونه، ومن أحبه إليكم وأفضله عندكم؛ لما في ذلك من كرم النفس والبعد عن البخل والشح، ومن إثارة محبة الله تعالى ومرضاته على محبة المال والنفس.

وقيل: إن «من» لبيان الجنس.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَنْ نَأْتِيَ الْبِرَّ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب (٣٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٤/٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

الله، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿١﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله - عز وجل - أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» (١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أصاب أرضاً بخير، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخير لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمري به؟ قال: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» (٢)، وفي رواية قال: «فاحبس أصلها وسبل الثمرة» (٣).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، يتأول قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿٤﴾.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: اسم شرط، و﴿تُنْفِقُوا﴾: فعل الشرط، و﴿من﴾: بيانية مبينة للعموم في «ما»، ﴿شَيْءٍ﴾: نكرة في سياق الشرط وتفيد العموم أيضاً.

أي: وما تنفقوا من شيء، أي شيء كان، قليلاً كان أو كثيراً، مما تحبون أو مما لا تحبون، طيباً أو غير طيب.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة في جواب الشرط، أي: فإن

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة - فضل الصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (٩٩٨)، وأحمد (١٤١/٣).

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٧)، ومسلم في الوصية (١٦٣٣)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٨)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٦).

(٣) أخرجه النسائي في الأحباس (٣٦٠٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٧).

(٤) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٢٩٥/١) أن ابن عمر أعتق جارية له يقال لها رميثة. وقال: «إني سمعت الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإني والله إن كنت لأحبك في الدنيا، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل».

أنزل على أنبياء الأسباط.

٨- ثبوت نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، ووجوب الإيمان بما أُوتِيَ كل منهما من الآيات الشرعية في التوراة والإنجيل والآيات الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾.

٩- في التعبير بالإيتاء في قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ بدل الإنزال، وإعادة العامل تنبيه وتعظيم لما أُوتِيَ موسى وعيسى عليهما السلام من الآيات الكونية والشرعية.

١٠- وجوب الإيمان بما أُوتِيَ جميع النبيين من ربهم من الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: وما أُوتِيَ النبيون من ربهم من الآيات الكونية، ومن الكتب والآيات الشرعية، وما فيها من الأخبار وأصول الإيمان والشرائع إيماناً مجملًا.

أما من حيث الاتباع والعمل فالواجب بعد بعثة محمد ﷺ على جميع الناس اتباع شريعته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وما جاء من الأحكام في شرع من قبلنا، فإن وافقه شرعنا وجب العمل به لمجيئه في شرعنا، وما خالفه شرعنا فلا يُعمل به؛ وهذا بالاتفاق.

أما ما لم يأت في شرعنا مخالفةً له ولا موافقة، فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من قال: لا يُعمل به وفي شرعنا غنية عنه، ومنهم من قال: يُعمل به، لقوله تعالى:

﴿فَيَهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، والصحيح أن ما حكاه شرعنا على سبيل الاقرار له يعمل به، وما عداه فلا يعمل به.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة، بل خاصة الخاصة للنبيين؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ

- رَبِّهِمْ ﴿٨٤﴾، وتشريفهم وتكريمهم بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.
- ١٢- وجوب الإيمان بجميع الرسل دون تفریق بين أحدٍ منهم والآخر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.
- وفي هذا تعريض بدم أهل الكتاب الذين يكذبون رسالة محمد ﷺ؛ لأن الإيمان بالرسل أمر لا يتجزأ، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ أو بغيره من الرسل فليس بمؤمن، وإن آمن بموسى وعيسى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿النساء: ١٥٠-١٥١﴾.
- ١٣- وجوب الاستسلام والانقياد لله وحده باطنًا وظاهرًا، بالقلب واللسان والجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.
- ١٤- أن كل من دان بغير دين الإسلام فلن يقبل منه، ودينه باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.
- ١٥- نسخ الإسلام لجميع الأديان السابقة.
- ١٦- فضل الدين الإسلامي على جميع الأديان، فهو الحاكم والمهيمن عليها، الناسخ لها، الذي لا يقبل الله بعد بعثة محمد من أحدٍ سواه.
- ١٧- خسارة من دان بغير الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهلهم وأموالهم، خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم.
- ١٨- إثبات الدار الآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾.
- ١٩- أن من ارتد وكفر بعد الإيمان يُستبعد أن يُهدى؛ لأنه ضل على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.
- وهذا بخلاف الكافر الأصلي، فهو أقرب للهداية، كما قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿الممتحنة: ٧﴾.

٢٠- أن من ارتد بعد الإيمان أعظم ذنبًا، وأشد كفرًا ممن كان باقٍ على كفره؛ ولهذا لا يجبر الكافر الأصلي في الدنيا على ترك الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بخلاف الكافر المرتد فإنه يجبر على ترك الكفر والرجوع للإسلام وإلا قتل، قال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» (١).

٢١- أن هداية التوفيق والقبول خاصة بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ الآية.

٢٢- أن الرسول ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾.

٢٣- إقامة الحجة على الخلق على وجوب الإيمان وترك الكفر بالآيات البينات الشرعية والكونية، بما لا عذر معه لمن أقام على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

٢٤- أن الظلم سبب للضلالة والحيلولة دون الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ مَرَّةً وَنَذْرًا لَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

٢٥- إثبات الجزاء، وشدة وعيد المرتدين وعظم عقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جِزَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٦- التحذير من الردة إلى الكفر بعد الإيمان؛ لأن الله رتب على ذلك لعنته، وهي طرده وإبعاده من رحمته لمن كفر بعد الإيمان، ودعاء الملائكة والناس جميعًا عليه بذلك.

٢٧- جواز لعن الكافر غير المعين؛ لأن الله تعالى لعن الكافرين وأخبر بلعن الملائكة والناس أجمعين لهم.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٧)، وأبو داود في الحدود (٤٣٥١)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٥٩)، والترمذي في الحدود (١٤٥٨)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

- ٢٨- إثبات الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾.
- ٢٩- خلود المرتدين إلى الكفر بعد الإيمان في لعنة الله تعالى، والطرْد والإبعاد عن رحمته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وليس ثمة لمن طُرِد عن الرحمة والجنة إلا العذاب والنار، كما قال الشاعر:
- الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بها يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت تختار^(١)
- ٣٠- عدم تخفيف العذاب عن هؤلاء الكفرة المرتدين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لا بتهوينه عليهم، ولا بانقطاعه عنهم ولو لحظة.
- ٣١- مبادرة هؤلاء الكفرة بالعذاب، وعدم إنظارهم في الحياة، وعند الموت، وبعد الموت، وبعد البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.
- ٣٢- أن التوبة تجب ما قبلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٣٣- أن هداية من ارتد بعد الإيمان وإن كانت مستبعدة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ الآية، فإنها ليست ممتنعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ الآية.
- ٣٤- أن رحمة الله تعالى تسبق غضبه، وبعفه أوسع من عقوبته، حيث فتح باب التوبة لمن ارتدوا بعد الإيمان، بل ورغبتهم في ذلك، فلا يأس من رحمته.
- ٣٥- الترغيب في التوبة، وأنه ينبغي لمن تاب أن يصلح حاله، وأن يصلح ما أفسده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾.
- ٣٦- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٤١).

٣٧- عدم قبول توبة من ارتدوا إلى الكفر بعد إيمانهم، وازدادوا كفراً، واستمروا على الكفر حتى حضور الموت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

٣٨- أن من استمر على الكفر ولم يتب فإنه يزداد كفراً يوماً بعد يوم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ فهذا يتضمن زيادة كفرهم كيفية ونوعية وكمية بسبب الاستمرار على الكفر.

٣٩- أن من كفروا بعد الإيذان وازدادوا كفراً فقد ضلوا غاية الضلال؛ لأنهم تركوا طريق الهدى والحق والإيذان بعد ما عرفوه واختاروا طريق الضلال والباطل والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

٤٠- أن من كفر ومات على الكفر لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾.

٤١- شدة عذاب الكفار الذين ماتوا على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجه حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب.

٤٢- أنه لا ناصر لمن مات على الكفر، يدفع ويمنع عنه عذاب الله قبل وقوعه، أو يرفعه عنه بعد وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

٤٣- أن البر لا يُنال إلا بالإنفاق من المال المحبوب، ومن أحبه وأفضله؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه ذات يوم: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «فإن ماله ما قَدَّم ومال وارثه ما أَخَّر»^(١).

وذلك لأن خصال البر درجات، ومن أعلاها الإنفاق في مرضاة الله تعالى، لما فيه

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٦)، من حديث عبد الله بن مسعود

من الدلالة على كرم النفس، والسلامة من البخل والشح، ولما فيه من إيثار مرضاة الله تعالى على حب المال والنفس.

والمال كما يقال: «شريك الروح»، فمن أنفق منه بسخاء ووقِي شح نفسه، فإنه أقدر على القيام بما عداه من خصال البر، ولهذا رتب عز وجل عليه الفلاح، كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦].

٤٤ - الترغيب في الإنفاق مما يجب من المال؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَىٰ أَمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

وقد اختلف أهل العلم: هل يجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه لا يجوز، واعتبروا «من» في الآية تبعية - وهو الأظهر -، واستدلوا بأن النبي ﷺ قال لسعد رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»^(١).

ولما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: يا رسول الله، إن من توبتي أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، قال: «امسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير»^(٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز التصدق بجميع المال، واعتبروا «من» في الآية للجنس، فيشمل الصدقة بجميع المال، واستدلوا بما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ حث على الصدقة ذات يوم، فجاء عمر - رضي الله عنه - بنصف ماله، وجاء أبو بكر - رضي الله عنه - بجميع ماله حيث قال له

(١) أخرجه البخاري في الجناز - رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣١٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٦٢٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٢)، من حديث كعب رضي الله عنه.

الرسول ﷺ: «ماذا لأهلك»، قال: لهم الله ورسوله (١).
فأثنى ﷺ عليهما، ودعا لكل منهما.
والأظهر أن الأمر يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فمتى دعت الضرورة
والحاجة إلى إنفاق جميع المال جاز ذلك، كما في الكوارت والتكبات والمجاعات
الشديدة.

وكذا إذا كان الإنسان لديه قوة في التوكل على الله تعالى، وقدرة على العمل
بالبحث عما يستغني به عن السؤال.

أما إذا كان سيقى عالة على الآخرين، ويعرض نفسه لمذلة السؤال، ويُقصر في
النفقة الواجبة لنفسه ومن يعول؛ فهذا لا يجوز له التصدق بجميع ماله، وقد قال
الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

٤٥- أن حب المال أمر جبلي طبع عليه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَحْبُورٌ﴾ لكن ينبغي
الحذر من تقديم محبته على محبة الله ورسوله، وما يقرب إلى الله تعالى.

٤٦- علم الله - عز وجل - بكل ما ينفق من شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ
اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

٤٧- وعد الله - عز وجل - بإثابة المنفقين ومجازاتهم على القليل والكثير؛ لقوله تعالى:
﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلمه وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥).

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه الآية وما بعدها ما يقوي دخول أهل الكتاب في قوله تعالى فيما سبق:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الآية: ٨٦].

وفيها رد على اليهود في إبطالهم النسخ وإنكارهم نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام بدعوى أنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله، والشرائع لا تتبدل لأنها من عند الله.

قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ «كل» للتنصيص على العموم، و«الطعام» كل ما يطعم ويؤكل، وقد يطلق على ما يشرب.

﴿حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: حلالاً لبني إسرائيل، سواء كان نباتاً أو حيواناً أو غير ذلك.

و﴿إِسْرَائِيلَ﴾ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ومعنى ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ عبدالله، وبنوه هم الأسباط الاثنا عشر وما تناسل منهم.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ «إِلَّا»: أداة الاستثناء، والاستثناء هنا متصل، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: إلا الذي حرم إسرائيل على نفسه.

قيل: كان حرم على نفسه عرق النسأ الذي على الفخذ، وقيل: حرم لحوم الإبل والباها، وقيل غير ذلك.

قيل: كان ذلك بوحي من الله تعالى. وقيل: كان اجتهاداً من يعقوب نذر تحريم ذلك على نفسه تقريباً إلى الله تعالى، وقيل: نهاه الأطباء عن ذلك، وتبعه بنوه

في تحريم ذلك.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ ﴿قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ بِتَخْفِيفِ الزَّايِ مَعَ سَكُونِ النُّونِ: «تَنْزَلَ»، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَشْدِيدِ الزَّايِ وَفَتْحِ النُّونِ: ﴿تَنْزَلَ﴾.

أي: من قبل نزول التوراة على موسى - عليه السلام - وبين يعقوب وموسى مدد طويلة - ثم بعد نزول التوراة جاء فيها تحريم أشياء كثيرة مما كان حلالاً قبل نزولها - وهم يعلمون ذلك - وهذا هو النسخ بعينه، فلا ضير أن يأتي في شريعة عيسى وفي شريعة محمد عليهما الصلاة والسلام ما ينسخ بعض ما جاء في التوراة، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا﴾ ﴿الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالخَطَابُ فِي: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا﴾ لِلْيَهُودِ وَفِيهِ تَحَدُّ لِهِمْ، أَي: فَهَاتُوا التَّوْرَةَ فَاقْرَؤُوهَا أَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، لِتَعْلَمُوا صِدْقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَنَّ كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ حُرِّمَ فِي التَّوْرَةِ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ. وَهَذَا هُوَ النِّسْخُ وَبِهَذَا تَعْلَمُوا صِحَّةَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ النَّاسِخِ لِلتَّوْرَةِ وَغَيْرِهَا.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾: شَرْطِيَّةٌ، وَ﴿كُنْتُمْ﴾: فَعْلُ الشَّرْطِ، وَجَوَابُهُ مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا سَبَقَ، أَي: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا. أَي: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ إِبْطَالِ النِّسْخِ فِي الشَّرَائِعِ، وَأَنْ مَا كَانَ مُحْرَمًا فِي التَّوْرَةِ كَانَ مُحْرَمًا قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ.

قال ابن القيم^(١): «هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرّمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم وهي لحوم الإبل والبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه ظهر كذبكم وافترائكم في إنكار نسخ الشرائع والحجر

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠١-٥٠٢).

على الله تعالى في نسخها».

ومع تحديهم بهذا فإنهم لم يجرؤوا على الإتيان بالتوراة، بل بهتوا وانقلبوا صاغرين.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾.

قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية

تفيد العموم، و«افتري»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

والافتراء: الاختلاق والتقول بغير حق، أي: أن ينسب للشخص ما لم يقله. و«الكذب»: الإخبار بخلاف الواقع، ضد الصدق، فإن كان مخالفاً للواقع والاعتقاد المخير فهو أشد ذنباً وإثماً.

والمعنى: فمن اختلق وتقول على الله الكذب، بأن قال على الله ما ليس بحق، من أهل الكتاب أو غيرهم، فادعى أن ما حرم في التوراة كان محرماً قبل ذلك، وأنكر نبوة عيسى عليه السلام، ونسخ ما جاء به لبعض ما جاء في التوراة، وأنكر نسخ شريعة محمد ﷺ لشريعة موسى عليه السلام، ولجميع الشرائع قبلها، أو نفى أن يكون محمد ﷺ على ملة إبراهيم وشريعته.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد ذلك البيان، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، أي من بعد بيانه - عز وجل - أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه حتى نزلت التوراة فحرم فيها أشياء كثيرة مما كان قبل ذلك حلالاً مما يدل على وقوع النسخ في الشرائع.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، وقد أكد

وحصر وصف الظلم فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: فأولئك المفترون هم الذين بلغوا الغاية في الظلم بوضع الافتراء والكذب مكان الصدق. وردهم الحق الذي يعلمونه بدل قبوله، ونقص أنفسهم حقها بهذا المسلك. وجمعهم باعتبار معنى «من» وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٥﴾.

قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأهل الكتاب وغيرهم: صدق الله تعالى فيما أخبر به أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، وفي كل ما أخبر به، وفي كل ما قاله أو شرعه، فلا أحد أصدق من الله قيلاً ولا أحد أصدق من الله حديثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام.

﴿فَاتَّبَعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، و«اتبعوا»: معطوفة على صدق، فهي من جملة مقول القول، أي: وقل فاتبعوا ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

و«الملة» هي: الدين والشريعة، و«ملة إبراهيم»: ما كان عليه من إخلاص التوحيد والبراءة من الشرك، كما قال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿١٤﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وهي الحنيفية السمحة التي بعث بها نبينا محمد، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا بيان لملة إبراهيم.

﴿حَنِيفًا﴾: حال، و«الحنف» الميل، أي: مائلاً عن الشرك والأديان الباطلة إلى التوحيد ودين الحق، مستقيماً على شرع الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على الحال «حنيفاً».

أي: وما كان من المشركين بالله الذين يعبدون الأصنام، ويدخلون الشرك في عباداتهم.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: بل كان موحدًا مخلصًا لله تعالى، ولهذا يسمى «إمام الحنفاء».

والشرك: دعوة وعبادة غير الله، وتسويته بالله فيما هو من خصائص الله، كما قال المشركون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- إباحة كل الأطعمة لبني إسرائيل من الحيوان وغيره، قبل نزول التوراة، إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾.

٢- أن الله تعالى أن يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية.

٣- توسيع الله تعالى على بني إسرائيل قبل بغيهم، بإحلال كل الطعام لهم، وكانوا على شريعة إبراهيم عليه السلام، فلم يكن محرماً عليهم سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه.

٤- أن ما حرمه إسرائيل على نفسه حرمه بنوه وأحفاده من بعده حتى نزول التوراة.

٥- إثبات نزول التوراة من عند الله، وإثبات علوه - عز وجل - على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾.

٦- تبكيت اليهود والإشارة إلى أنهم سبب ما جاء من تحريم كثير من الأشياء عليهم في التوراة، وذلك بسبب بغيهم كما ذكر الله تعالى.

٧- إفحام اليهود وإقامة الحجة عليهم من كتابهم التوراة على جواز النسخ عقلاً وحصوله شرعاً حيث نسخت التوراة بعض الأحكام قبلها من إحلال كل الطعام لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، فحرمت عليهم أشياء كثيرة بسبب بغيهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال ابن القيم^(١): ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى لهم على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المأكل عليهم التي كانت حلالاً لبني إسرائيل وهذا محض النسخ».

وقال ابن كثير^(٢): «شرع في الرد على اليهود- قبحهم الله- وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله- عز وجل- قد نص في كتابه التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى، زيادة على ذلك، وكان الله- عز وجل- قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعاً، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة.

وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه، وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم وملة إبراهيم، فما لهم لا يؤمنون؟».

٨- الرد على اليهود في إنكارهم نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، بناء على إنكارهم النسخ، بدعوى أنه لا يمكن أن يأتي نبي بخلاف ما جاء به الذي قبله.

٩- أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم؛ لأن ملة إبراهيم لم يحرم فيها شيء من الأطعمة، بينما حرم على اليهود أشياء كثيرة في التوراة.

١٠- بلوغ الذين يفترون على الله الكذب ويردون الحق وينكرونه غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فأكد الظلم

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠١).

(٢) في «تفسيره» (٢/٦٢-٦٣).

وحصره فيهم لبلوغهم من الظلم غايته.

١١- جرأة المكذبين من أهل الكتاب وغيرهم على افتراء الكذب على الله تعالى، ومن اجترأ على الكذب على الله فجرأته على الكذب على الرسول ﷺ وعلى سائر الناس من باب أولى.

١٢- أن الحجة لا تقوم على العباد إلا بعد البيان والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

١٣- وجوب تصديق الله، وإظهار القول بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ فأقواله - عز وجل - وأخباره صدق، وأحكامه عدل وحق، وفي هذا أيضًا: تعريض بكذب أهل الكتاب.

١٤- وجوب اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وإخلاص التوحيد لله تعالى والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: اتبعوا ملة إبراهيم في إخلاص التوحيد والبراءة من الشرك وأهله وعلى هذا الأصل اتفقت جميع الشرائع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

أما من حيث فروع الشرائع فقد جعل الله لكل نبي شرعة ومنهاجًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

١٥- فضيلة إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله - عز وجل - أمرنا باتباعه وأثنى عليه، وجعله إمامًا وقدوة في إخلاص التوحيد لله تعالى والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٣١) وَأَوْحَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

١٦- فضل التوحيد، وأنه سبب النجاة، وخطر الشرك؛ لأنه سبب الهلاك، مما يوجب على العبد صيانة جناب التوحيد، والحذر من الشرك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمٌ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ أي: إن أسبق وأقدم بيت. والبيت في الأصل: بناء، يُؤوى إليه للسكن، أو للصلاة، أو غير ذلك. يكون من حجر، أو شجر، أو نسيج شعر أو صوف، أو من آدم، أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَدْخَلَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، يعني المساجد، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠].

و«البيت» بالتعريف: علم على بيت الله الحرام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

كما أن «الكتاب» علم على كتاب الله القرآن الكريم.

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: وضع وأسس في الأرض للناس لعبادة الله - عز وجل - باستقباله في الصلاة والدعاء وغير ذلك، وللطواف والصلاة والاعتكاف، وغيرها من أنواع العبادة والنسك.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: هو الذي ببكة، و«بكة» اسم من أسماء مكة، والبك: دق العنق، والتزاحم، وغير ذلك.

وسميت مكة بهذا الاسم، قيل: لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألدوا فيها بظلم، أي: تذللها وتدققها. وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي: يتزاحمون. وقيل: لأنه لا يوصل إليها إلا بمشقة وتعب، وقيل غير ذلك.

ويقال لها: «مكة»، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ

مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، ويقال لها: «أم القرى»، كما قال تعالى: ﴿وَلِنُنْزِلَنَّ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

[الأنعام: ٩٢]، ويقال لها: «البلد الأمين»، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، ويقال لها: «البلد الحرام»^(١).

والمراد بقوله: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ الكعبة. زادها الله شرفاً وتعظيماً، ويقال له: «البيت الحرام»، «البيت المحرم»، «البيت العتيق»، «المسجد الحرام»، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال إبراهيم فيما حكى الله عنه: ﴿رَبَّنَا إِفْنِ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠].

وهو البيت الذي بناه إبراهيم الخليل - عليه السلام - كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد»^(٢).

﴿مُبَارَكًا﴾ حال من «بيت» أي: وضع للناس حال كونه مباركاً فيه، والبركة: كثرة الخير ودوامه، أي فيه البركة والخير الكثير الدائم، والمنافع العظيمة، التي لا تحصى شرعية وقدرية، حسية ومعنوية، دينية ودنيوية.

فهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله مباركاً، وهو قبلة المسلمين منذ عهد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ومقصد الحجاج والمعتمرين، تضاعف فيه الحسنات،

(١) كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره وسيأتي ذكره قريباً.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (١٥٠/٥).

الصلاة فيه عن مائة ألف صلاة فيما سواه، كما جاء في الحديث^(١)، وكذا سائر العبادات فيه أفضل منها في غيره.

من حجه ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه^(٢)، وليس له جزاء إلا الجنة، ومن زاره كفرت ذنوبه^(٣).

وأعظم هذه البركات بعثة محمد ﷺ فيه، الذي بعثه الله - عز وجل - رحمة للعالمين، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

ومن البركات الدنيوية: أمن من دخله، وجلب الأرزاق وجباية الثمرات إليه من كل حذب و صوب، بسبب دعاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَن آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

ومن البركات الدنيوية: ما يحصل فيه من المكاسب في أيام المواسم وغيرها وخاصة في موسم الحج، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومن بركاته أيضًا ماء زمزم الذي قال فيه ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له»^(٤). وقال فيه أيضًا: «طعام طعم»^(٥).

(١) كما في حديث جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه» أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦).

(٢) كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)، وأخرجه الترمذي في الحج، بنحوه (٨١١).

(٣) كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٣٠٦٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

إلى غير ذلك من البركات والمنافع الدينية، والدينيوية، كما قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

﴿وَهُدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) معطوف على الحال السابقة، أي: حال كونه مباركًا وهدى للعالمين، أي: علامة ومنازًا يهتدي به الناس، وقبلة للتوجه إلى ربهم في الصلاة والدعاء، وعند القراءة والنوم، ويوجهون إليها بعد مباتهم، كما قال ﷺ: «البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً» (١).

وفيه أداء مناسك حجهم وعمرتهم، وفيه الطواف والصلاة، والاعتكاف والتعبد لله - عز وجل - بأنواع العبادات، تهوي إليه أفئدة الناس، ويأتون إليه من كل فج عميق، ويجتمعون فيه، ويعلم ويُرشد بعضهم بعضًا، وبذلك كله يزدادون هدى وإيمانًا.

قال ابن القيم (٢) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾: «ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه هو نفس الهدى».

و(العالمين) في الأصل جمع «عالم» وهم كل ما سوى الله، أي: كل ما خلق الله فهو «عالم» فعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوانات، وعالم الجمادات، وغير ذلك.

وسمي الخلق بـ«العالمين» أخذًا من العلامة لأنهم عَلِمُوا على خالقهم، وكل منهم آية تدل على وجوده - عز وجل - وعظمته وربوبيته وألوهيته ووحدانيته، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) [يس: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا - التشديد في أكل مال اليتيم (٢٨٧٥)، من حديث عبيد بن عمير - عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٦).

لِلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

وقد أحسن القائل:

فواعجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

والمراد بـ(العالمين) في قوله: ﴿وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ البشر؛ بنو آدم، وهم المكلفون، الذين ميزهم الله بالعقول التي هي مناط التكليف وكرمهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾.

قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ الضمير يعود إلى البيت في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾.

أي: فيه علامات واضحات، ودلالات ظاهرات، من عهد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى يومنا هذا - تدل على شرف البيت وعظمته - آيات شرعية، وهي الشعائر والمناسك التي تقام فيه كالحج والعمرة والهدي، وتأمين من دخله وغير ذلك، وآيات كونية، وهي المشاعر التي تقام فيها تلك الشعائر والمناسك؛ الكعبة ومقام إبراهيم، والصفاء والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وغير ذلك.

قال ابن القيم^(٢): «ما تضمنه من الآيات البيّنات، التي تزيد على أربعين آية».

﴿مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: بدل من (آيات)، أو عطف بيان، أي: من هذه الآيات البيّنات ﴿مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: مكان قيامه. واختلف المفسرون في المراد به، فذهب بعضهم إلى أن المراد بـ﴿مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم، ويناوله ولده إسماعيل

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٠٤).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٦).

الحجارة بعد أن ارتفع بناء البيت، وأثر قدميه فيه، والذي شرفه الله وعظمه، وأمر بالصلاة خلفه، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال أبو طالب في قصيدته اللامية^(١):

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

قال ابن كثير^(٢): «﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به، على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه، ويناوله ولده إسماعيل، وكان بجوار البيت، حتى أخره عمر بن الخطاب إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطَّوَّاف، ولا يشوشون على المصلين عنده، بعد الطواف، لأن الله أمرنا بالصلاة عنده».

وذهب بعضهم إلى أن المراد بـ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ كل مقام قام فيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في مناسك الحج، فيشمل المشاعر كلها. وهذا أولى لأنه يدخل فيه المقام المعروف، وكل مقام قامه إبراهيم - عليه السلام - في مناسك الحج.

ولهذا روى عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الحرم كله»، وفي رواية: «الحج كله»^(٣).

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ الضمير في «دخله» يرجع إلى البيت، والمراد ما يشمل الحرم كله، بدليل النصوص الأخرى من الكتاب والسنة.

وجملة ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يحتمل أن تكون تابعة لقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيكون من الآيات البيّنات في البيت أن من دخله كان آمناً حتى في زمن الجاهلية، وهذا يوجب تأمينه في الإسلام؛ لأن الله أخبرنا بذلك وأقره.

ويحتمل أن تكون جملة ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ مستأنفة، وهي خبر معناه: ومن دخله يجب أن يكون آمناً فلا يعتدى عليه، ولا يتعرض له.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٩)، «خزانة الأدب» (٢/ ٦٢).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧١١).

وعلى هذا فالاحتمالان يتفقان على وجوب تأمين من دخل الحرم، وأن من دخله كان آمناً، في الجاهلية والإسلام، آمناً قدرًا، مؤتمناً شرعاً ودينًا^(١). قال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وَمُحَاطَفًا لِلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ^٢﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا مَّأْمُونًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ نُفُورُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا^٣﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ^٤﴾ [الذِّكْرِ ٢] أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ^(٤)﴾ [قريش: ٣، ٤].

وحتى إن الله - عز وجل - أمّن الصيد فيه، وحرم تنفيره، وحرم قطع شجره وحشيشه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكة، ولا يُنفر صيده، ولا تُلْتَقَطُ لِقْطُهُ إِلَّا لِمَشْدٍ، وَلَا يُخْتَلَى خِلالَهُ^(٢)». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، لقينهم وليبوتهم. فقال: «إلا الإذخر»^(٣).

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح»^(٤).

وعن أبي شريح العدوي - رضي الله عنه - أنه قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ، الغد من يوم الفتح سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي، حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يجرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/٣٠٤)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/٤٠٣).

(٢) أي: لا يجوز ولا يحس حشيشه ونباته.

(٣) أخرجه البخاري في الجنايز (١٣٤٩)، وفي الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبو داود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٥، ٢٨٩٢)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣).

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٥٦).

الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب» فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخزية»^(١).

ولهذا كانت مكة شرفها الله خير أرض الله وأحبها إلى الله - عز وجل - كما قال ﷺ - فيما رواه عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة^(٢) في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قرأ أبو جعفر وحمة والكسائي وخلف وحفص بكسر الحاء: ﴿حِجُّ﴾، وقرأ الباقر بفتحها: «حِجُّ». والجملة مستأنفة، و﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾ مبتدأ مؤخر، وخبره ما قبله، إما قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾، أو قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ وهذا أولى.

قال ابن القيم^(٤): «والذي يقتضيه المعنى أن يكون - أي: الخبر - في قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾؛ لأنه وجوب والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق. وعلى هذا ففي تقديم قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وليس بخبر فائدتان إحداهما: أنه اسم لموجب الحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب. فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها الموجب، لهذا الغرض، والثاني: مؤدي الواجب، وهو المفترض عليه، وهم الناس. والثالث: النسبة والحق

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٦)، والترمذي في الحج (٨٠٩).

(٢) «الحزورة» على وزن «سورة» موضع بمكة عند باب الحناطين. انظر: «النهاية في غريب الحديث» مادة «حزر»

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، وأحمد (٣٠٥/٤)، وقال

الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٢-٥٠٣).

المتعلق به إيجاباً، وبهم وجوباً وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسماً سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله - سبحانه - بمثابة ما أوجبه غيره».

واللام في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ للاستحقاق، و«على» للوجوب، أي: يجب على الناس حقاً لله أن يحجوا.

﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾: قصد البيت تعبدًا لله عز وجل؛ لأداء المناسك في وقت مخصوص. والمراد بالناس المؤمنون منهم؛ لأن غير المؤمنين لا يقبل منهم الحج، بل ولا يمكنون من دخول الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «من»: موصولة، وهي بدل من «الناس»، بدل بعض من كل؛ لأن الناس، منهم المستطيع للحج، ومنهم غير المستطيع له، ووجوب الحج إنما هو على المستطيع، أي: من استطاع منهم طريقاً إلى البيت، ووصولاً إليه.

ونص في وجوب الحج على شرط الاستطاعة، مع أنها شرط في كل العبادات، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْقَرُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وكما قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١)؛ وذلك لمشقة الوصول إلى البيت، وكثرة الأسباب التي قد تحول دون الحج - مما لا يوجد في غيره من العبادات - كبعد الديار، وقلة المال، وعدم معرفة الطريق، أو عدم أمنه، وغير ذلك.

ولهذا فإن في تقييد الحج بالاستطاعة والنص عليها ما ليس في غيره من رفع الحرج وجبر خاطر من لم يستطعه، وذلك معنى مقصود للشارع.

والاستطاعة: القدرة، وتشمل القدرة بالبدن، والقدرة بالمال، والقدرة بهما أي: من

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام - الاقتداء ببعض سنن الرسول ﷺ (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج - فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استطاع إليه سبيلاً بأي وجه من أوجه الاستطاعة، وبأي سبيل.
فمن استطاع الحج بيده بأن استطاع الوصول إلى البيت، وأداء المناسك ماشياً وجب عليه ذلك، وإن لم يكن لديه مال. ومن استطاع الحج بيده وماله وجب عليه الحج، ومن استطاع الحج بهاله دون بدنه وجب عليه أن ينيب من يحج عنه.

ومفهوم قوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أن من لم يستطع السبيل إلى حج البيت فلا يجب عليه الحج، أي: من عجز عن الحج بيده وماله، بأن كان فقيراً وضعيفاً في بدنه فهذا لا يجب عليه الحج؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً تَمَهُهَا﴾ [الطلاق: ٧].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الواو: عاطفة، أو استنافية، و«من»: شرطية، و«كفر»: فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويحتمل أن تكون «من» اسماً موصولاً في محل رفع مبتدأ، أي: والذي كفر. وخبره جملة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وقرنت بالفاء؛ لشبه الموصول بالشرط في العموم. والكفر لغة: الستر والتغطية، وهو في الشرع نوعان^(١): كفر أكبر، مضاد للإيمان، ومخرج من الملة وموجب للخلود في النار، وهو أقسام خمسة:

١- كفر تكذيب وجود، وهو اعتقاد كذب الرسل فيما جاؤوا به من عند الله، كما قال

تعالى: ﴿وَمَا يَحْدِثُ آيَاتِنَا إِلَّا لَأَلْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

٢- كفر استكبار وإباء- مع التصديق، ككفر إبليس - لعنه الله، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ

أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ومنه كفر اليهود، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٥)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥-٣٧٩)، «الدرر السنية» (٢/ ٧٠-

٧١)، «عقيدة التوحيد» ص (١٠٠-١٠١)، وانظر: «لسان العرب» مادة «كفر».

٣- كفر الإعراض بأن يعرض الإنسان عن الرسول ﷺ، بسمعه وقلبه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء إليه البتة.

٤- كفر الشك، بأن لا يجزم بصدق الرسول، ولا بكذبه، بل يشك في أمره. قال ابن القيم: «وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة».

٥- كفر النفاق، وهو أن يظهر الإيمان بلسانه، وينطوي بقلبه على التكذيب، وهذا هو المنافق. والنوع الثاني من أنواع الكفر: الكفر الأصغر، الذي لا يُضاد الإيمان بالكلية، ولا يُخرج من الملة، ولا يُخلد صاحبه في النار، وإنما يوجب استحقاق الوعيد، كما في قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(١)، وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٢)، وقوله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت»^(٣).

ومن الكفر الأصغر كفر النعمة وعدم شكرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومعنى الآية: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: أن من حج عند الاستطاعة فقد أدى فريضته، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ فأنكر وجوب الحج، وهذا لا إشكال في كفره، حج، أو لم يحج، قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤): «وكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين، كما دل عليه القرآن».

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ هذه الفريضة، فريضة الحج، فلم يحج مع الاستطاعة،

(١) أخرجه البخاري في الإيذان (٤٨)، ومسلم في الإيذان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيذان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢)، من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيذان (٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٥، ٣٣٦).

وهذا بلا شك متعرض للوعيد، ولو لم يجحد وجوب الحج، كما هو ظاهر الآية.

عن عبدالرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً»^(١).

وعن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فينظروا كل من له جدة فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»^(٢).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي﴾ أي: له الغنى الكامل التام من كل وجه.

﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: عن كل أحد، من جميع خلقه، ليس بحاجة إليهم، ولا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً...»^(٣).

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: «فإن الله غني عنه، أو عنهم»، وذلك لإظهار عموم غناه - عز وجل - عنهم، وعن غيرهم من الخلق.

قال ابن القيم^(٤) في كلامه على الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الآية: «أتى بهذا النظم الدال على تأكيد الوجوب من عشرة أوجه: أحدها: أنه قدّم اسمه تعالى، وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجه عليهم بصيغة العموم، الداخلة

(١) أخرجه أبو بكر الإسماعيلي - فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٧٠/٢)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» - فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧٠/٢).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (٥٠٥/١).

عليها حرف «على»، ثم أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط، إيداناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر، فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: بعد التزام هذا الواجب وتركه، ثم عظم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموماً، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه، عن كل أحد، بكل اعتبار، وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التوكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد هذا الفرض العظيم.

الفوائد والأحكام:

- ١- أن أول بيت وضع للناس لعبادة الله هو الكعبة شرفها الله، التي في مكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ فهو قبل المسجد الأقصى والمسجد النبوي. وفي الحديث أنه ﷺ سئل أي المساجد بُني أول؟ فقال: «المسجد الحرام»، قيل: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قيل: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(١).
- ٢- عظم مكانة البيت الحرام، وفضله على المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، وسائر المساجد؛ لأنه أول بيت وضع للناس يستقبلونه ويتعبدون فيه - منذ عهد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - شرفه الله وعظمه، وأضافه لنفسه، وبارك فيه، وجعله هدى للعالمين، وجعل فيه آيات بينات، منها مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وأوجب على الناس حجه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

(١) سبق تحريجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦٦﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].
وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة، فيما سواه»^(١).

٣- أنه كلما كان المسجد أقدم في بنائه والصلاة فيه فهو أفضل؛ لأن مما فضل به البيت الحرام على غيره كونه أول بيت وضع للناس لعبادة الله، لكن قد يُفَضَّلُ غير الأقدم لاعتبارات أخرى.

٤- حكمة الله - عز وجل - التامة في وضع البيت للناس لحاجتهم إلى بيت يكون قبلة ومتعبداً لهم، ولهذا وضع الله - عز وجل - لهم هذا البيت المبارك بمكة، تأوي إليه أفئدتهم ويقصدونه من كل حدب وصوب ومن كل فج عميق.

٥- أن من أسماء مكة - شرفها الله -: «بكة»؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، كما أن من أسماؤها: «مكة»، و«أم القرى»، و«البلد الأمين» و«البلد الحرام» وغير ذلك.

٦- بركة البيت الحرام، وكثرة خيراته ومنافعه، الدينية والدنيوية، الحسية والمعنوية؛ لأن الله وضعه مباركا؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾.

٧- أن الله - عز وجل - وضع البيت ليكون منارا للعالمين يهتدون به، وقبلة للتوجه إلى ربهم في صلاتهم وعباداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

٨- أن في هذا البيت آيات بينات، ودلالات ظاهرات شرعية، وهي الشعائر والمناسك التي تقام فيه، كالحج والعمرة، والهدي، وتأمين من دخله، وغير ذلك، وفيه آيات كونية، وهي المشاعر التي جعلها الله محلا لتلك الشعائر والمناسك، منها البيت، ومقام إبراهيم، والصفاء والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وغير ذلك؛ لقوله تعالى:

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦).

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾.

٩- أن من أعظم الآيات البيّنات التي فُضِّلَ وشُرِّفَ بها البيت الحرام ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي: أماكن قيامه - عليه الصلاة والسلام، عند بناء البيت، وفي أداء المناسك، وتنقلاته في الحج.

١٠- فضل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله عظم مقامه، وجعله قدوة للناس في كل مقام قامه، وفي أداء المناسك.

١١- وجوب تأمين من دخل البيت الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ ولهذا

حرم عز وجل القتال فيه، إلا على سبيل الرد والمدافعة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا

تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهذا يدل على أن حرمة المسلم أعظم من حرمة المسجد الحرام.

كما حرم عز وجل - تعظيماً لحرمة البيت - تنفير صيده، وقطع شجره وحشيشه، كما قال ﷺ: « لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد، ولا يختلي خلاه»^(١).

وإنما أبيع القتال فيه لرسول الله ﷺ ساعة من نهار، عام الفتح؛ لحمايته، وتوطيد أمنه، وتطهيره من الشرك والأصنام، ودفع ظلم أهل الشرك عنه، حيث منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من العمرة عام الحديبية، وقد عادت حرمة بعد ذلك، فهو حرام بحرمة الله، إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وإنما لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أحلها لرسوله، ولم يحلها لكم»^(١).

لكن الحرم لا يؤوي محدثاً، ولا يعيد عاصياً. ولهذا لما أخبر رسول الله ﷺ أن ابن

(١) سبق تحريمه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

خطل متعلق بأستار الكعبة، قال ﷺ: «اقتلوه»^(١).

وفي حديث أبي شريح أنه لما ذكر لعمر بن سعد حديث تحريم مكة، وكان عمرو يبعث البعوث إلى مكة، قال عمرو: «يا أبا شريح: إن الحرم لا يعيد عاصياً، ولا فارساً بدم، ولا فارساً بخزبة»^(٢).

١٢- وجوب الحج على كل من استطاع إليه سبيلاً، ببدنه، أو بهاله وبدنه، أو بهاله؛

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

وهو ركن من أركان الإسلام ومبانيه العظام، كما قال ﷺ: «بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»^(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(٤).

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج»، فقام الأقرع بن حابس، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فما زاد فهو تطوع»^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٤٦)، ومسلم في الحج (١٣٥٧)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٨٥)، والنسائي

في مناسك الحج (٢٨٦٧)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه البخاري في الإيذان (٨)، ومسلم في الإيذان (١٦)، والنسائي في الإيذان وشرائع (٥٠٠١)،

والترمذي في الإيذان (٢٦٠٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وأحمد (٥٠٨/٢).

(٥) أخرجه أبو داود في المناسك (١٧٢١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٠)، وابن ماجه في المناسك

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قالوا: يا رسول الله، الحج في كل عام؟ قال: «لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها لعذبتم»^(١). ولهذا قال ﷺ لنسائه في حجته: «هذه ثم ظهور الحصر» يعني: ثم الزمن ظهور الحصر، ولا تخرجن من البيوت^(٢).

ومن شرط الاستطاعة عند المرأة وجود محرم لها؛ لأنه لا يجوز للمرأة أن تسافر مطلقاً بدون محرم، لا للحج، ولا لغيره، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم» فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال ﷺ: «انطلق فحج مع امرأتك»^(٣).

فإذا كانت المرأة قادرة ببدينها وما لها ووجدت محرماً وجب عليها الحج، وإن لم تجد محرماً فلا يجب عليها الحج بنفسها، لكن هل يلزمها أن تنيب من يحج عنها إذا كانت قادرة بما لها أو ببدينها وما لها؟ اختلف أهل العلم في هذا على قولين: فمنهم من قال: لا يلزمها؛ لأن الحج لا يجب عليها شرعاً إلا بوجود محرم لها، وإذا لم يوجد المحرم فلا حج عليها.

ومنهم من قال: يلزمها أن تنيب؛ لأن وجود المحرم إنما هو شرط للأداء، وليس بشرط للوجوب فالحج واجب عليها بوجود القدرة المالية، أو البدنية والمالية، لكن أداءه لا يجب عليها إلا بوجود المحرم، وإذا لم يوجد المحرم وجب عليها أن تنيب من يحج عنها، وإذا ماتت والحال هذه وجب إخراج أجره الحج من تركتها. والأظهر القول الأول، وعلى هذا فلا يجوز إخراج قيمة الحج من مالها إذا ماتت؛ لأنه قد صار إلى الورثة، والحج ليس بواجب عليها شرعاً. واختلف أهل العلم هل الحج واجب على الفور أم على التراخي، فذهب بعضهم

(٢٨٨٦)، والحاكم (٢/٢٩٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك - فرض الحج (٢٨٨٥).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٧٢٢)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٨٦٢)، ومسلم في الحج (١٣٤١)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٠).

إلى أنه على التراخي؛ لأن الحج فرض في السنة التاسعة، فأمر ﷺ أبا بكر أن يحج بالناس في تلك السنة، ولم يحج ﷺ إلا في السنة العاشرة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحج واجب على الفور وهو الأحوط؛ لأن الإنسان ما يدري ما يعرض له.

١٣- أن الحج لا يجب على من لم يستطع إليه سبيلاً؛ لعجزه في بدنه، وماله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

١٤- في تقييد وجوب الحج بشرط الاستطاعة والنص عليها ما ليس في غيره من رفع الحرج وجبر خاطر من لم يستطعه، وذلك معنى مقصود للشارع.

١٥- سباحة الدين الإسلامي، ويسر تعاليمه، وعدم تكليفه ما لا يستطاع، وذلك من رحمة الله عز وجل بهذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

١٦- كفر من ترك الحج مع الاستطاعة؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر وجوب الحج: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فإن جحد وجوب الحج فهو كافر الكفر الأكبر المخرج من الإسلام، يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتدًا. واختلف أهل العلم فيما إذا ترك الحج غير جاحد لوجوبه، فذهب بعضهم إلى أنه يكون كافرًا كافرًا أكبر، كمن جحد وجوبه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه لا يكفر كافرًا أكبر، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: ومن كفر هذه الفريضة، أي: فريضة الحج، فلم يؤدها، فهو كفر دون كفر، كما في قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(١)، وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١).

وقوله ﷺ: «اثنان في الناس، هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على

(١) سبق تخرجه.

الميت»^(١)، وقوله ﷺ: «فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم»^(٢).
ويقوي هذا القول ما رواه عبدالله بن شقيق، قال: «كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»^(٣).
ولا شك أن من ترك الحج مع الاستطاعة متعرض للوعيد الشديد، ويخشى عليه الموت على غير الإسلام، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام»^(٥).
١٧- غنى الله - عز وجل - الكامل التام عن جميع خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.
وفي المقابل فإن العالمين كلهم هم الفقراء إليه - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

* * *

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٢٨)، ومسلم في الإيمان (٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان - ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢٢).

(٤) سبق تحريجه.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» (١/٣٠٥).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهِ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مِن ءَآمَنَ نَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَآبَ يَرُدُّوكُم بِعَدَآئِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهِ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ .

قوله: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ في الموضوعين، وصدر بـ ﴿قُلْ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد، و«يا» في الموضوعين حرف نداء، وصدر خطاب أهل الكتاب بالنداء لهم للتنبيه على عظم الأمر، وخطورته.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، سموا بذلك لأن الله - عز وجل - أنزل عليهم الكتاب، فأُنزل على اليهود «التوراة»، وأُنزل على النصارى «الإنجيل».

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰتِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتفريع.

واللام: حرف جر و«ما» استفهامية، وحذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها،

أي: لماذا تكفرون بآيات الله، وتحذونها، وتكذبون بها.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، فالآيات الكونية سميت آيات لدلالاتها على وجود خالقها وعظمتها ووحدانيته، وكماله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ ءِٔيَآه تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والآيات الشرعية سميت آيات، لدلالاتها على صدق من جاء بها، وأنها من عند الله، بكونها صالحة لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، لا اختلاف فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

والمراد بقوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيات الكونية والشرعية.

والكفر بالآيات الكونية بإنكار خالقها - كما يزعم أهل الإلحاد، أو اعتقاد شريك

مع الله عز وجل أو معين في خلقها، كما يزعم أهل الشرك.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَكُمُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].
والكفر بالآيات الشرعية يكون بتكذيبها وجحودها، أو بمخالفتها وعدم اتباعها؛
إما استكباراً وإباءً، وإما إعراضاً عنها، وإما شكاً فيها، وإما نفاقاً بإظهار الاتباع مع
التكذيب بها باطناً.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: حالية، فالجملة داخلية ضمن التوبيخ في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لم تكفرون بآيات الله، والحال أنكم تعلمون أنه شهيد على عملكم.
ويحتمل أن تكون الواو استثنائية، فتكون الجملة مستأنفة للتهديد والوعيد.
قوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد مطلع رقيب حفيظ، و«شهيد» على وزن «فعليل»
صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على عظم شهادته عز وجل.

﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» مصدرية، أي: على عملكم، أو موصولة، أي: على الذي
تعملونه، وهي تفيد العموم، أي: والله شهيد ومطلع على أعمالكم، وفي هذا من الوعيد ما
فيه لأهل الكتاب؛ لأنه - عز وجل - إذا كان شهيداً على أعمالهم، مطلعاً عليها، من كفرهم
وتكذيبهم بآيات الله ومخالفتهم لها، فسيحصبها عليهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.
قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ
شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

أمر الله - عز وجل - النبي ﷺ في الآية السابقة بتوبيخ أهل الكتاب على كفرهم
بآيات الله، بأنفسهم، ثم أمره بتوبيخهم على ما هو أشد من ذلك، وهو عدوانهم بصد
غيرهم عن سبيل الله.

قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ لم تصرفون الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن دين الله وشرعه
الذي شرعه، وصراطه المستقيم الموصل إليه، وإلى مرضاته.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنِ

﴿سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، «من»: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول لـ «تصدون» أي: تصرفون عن دين الله الذي آمن به، وهم في الحقيقة يصدون من آمن فيخرجونه من الإيـان، ويصدون من لم يؤمن فيمنعونه من الدخول في الإيـان. ولهذا قال: «تصدون»، ولم يقل «تخرجون» ونحوه؛ لأن الصد يكون لمن آمن ولن لم يؤمن. وإنما ذكر صدهم من آمن، لأنه أشد وأعظم، وهو أيضًا سبب لصد من لم يؤمن؛ لأن من رأى الناس يخرجون من الدين زهد في الدخول فيه. ﴿تَبٰغُوْهَا عَوْجًا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم تبغونها عوجًا.

و«عوجًا» مفعول به ثانٍ لـ «تبغونها»، أو حال. يقال في المعاني «عوج» بكسر العين، اسم مصدر، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ﴿١﴾ قِيَمًا﴾ [الكهف: ٢، ١]، ويقال في الأعيان: «عوج» بفتح العين، مصدر، فيقال: «حائط عوج»، و«سور عوج». و«العِوَج» و«العَوَج» بالكسر والفتح: الميل، ضد الاستقامة، قال الشاعر:

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم عليّ إذا حرام (١)
أي: ولم تميلوا.

والضمير في «تبغونها» يعود إلى ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: تطلبون السبيل وتريدونها ﴿عِوَجًا﴾ أي: مائلة عن الحق معوجة، غير مستقيمة، بسلوك ما أنتم عليه من الكفر والضلال، والتهاون والتفريط فيما أمر الله به، أو الغلو والإفراط فيه، وارتكاب ما نهى الله عنه، مخالفة لهدي الله القويم، وصراطه المستقيم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرٰهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۗ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ذٰلِكَ الَّذِيْنَ

(١) البيت لجريـر. انظر: «ديوانه» (ص ٢٦٨).

الْقِيمَةُ ﴿التوبة: ٣٦، يوسف: ٤٠، الروم: ٣٠﴾.

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم شهداء، تشهدون على أنكم تصدون عن سبيل الله، وتبغونها عوجًا؛ لعلمكم بصدق محمد ﷺ، وأنه يدعو إلى سبيل الله ودينه الحق، وأنتم شهداء على ذلك، بشهادة كتب الله - عز وجل - المنزلة على أنبيائكم.

فهم شهداء على أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا؛ لأنهم يعرفون الحق ويخالفونه استكبارًا وعنادًا، وهم شهداء على صدقه ﷺ بشهادة كتبهم المنزلة عليهم، لكنهم جحدوا هذه الشهادة وأنكروها، وكانوا أول كافر به، كما قال تعالى مخاطبًا لهم: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٤١].

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: حالية، و«ما» نافية، و«ما» في قوله ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية. أي: وما الله بغافل عن عملكم، أو عن الذي تعملونه، وهي تفيد العموم، أي: وما الله بغافل عن جميع الذي تعملونه من الصد عن دين الله، وابتغاء العوج، وغير ذلك، وفي هذا تهديد ووعد لهم بأنه - عز وجل - سيحصي عليهم أعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصفات السلبية، التي تدل على كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فقوله: ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ لإثبات كمال حياته - عز وجل - وهكذا قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يتضمن مع نفي أن يكون - عز وجل - غافلًا عما يعملون يتضمن إثبات كمال رقابته على أعمالهم، وعلى كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِ نُطِيعُوا أَقْرَبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.

بعدما ويخ عز وجل أهل الكتاب، وتوعدهم وهددهم على كفرهم بآيات الله وصددهم عن سبيله من آمن، وابتغائهم الطريق العوج، حذر المؤمنين من طاعتهم.

قوله: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب «ها» للتنبيه، و«الذين» صفة لـ«أي» أو بدل منها، وصدر خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم بوصف الإيمان؛ تكريماً وتشريفاً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما بعده من توجيهات من مقتضيات الإيمان، وعدم امثال ذلك يعد نقصاً في الإيمان.

وقد فرق عز وجل بين خطاب المؤمنين، وخطاب أهل الكتاب، فخطب المؤمنين بقوله: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بغير واسطة تشريفاً وتفضيلاً لهم، بينما خاطب أهل الكتاب بواسطة، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكِنَابُ﴾.

﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب، والمراد من لم يؤمن منهم، وهم أكثرهم، أي: إن تطيعوا طائفة من اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه.

وقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ يدل على أن أهل الكتاب ليس كلهم على هذا الوصف؛ لأن منهم من آمن، فأمن من النصارى النجاشي، وأمن من اليهود عبد الله بن سلام رضي الله عنهما. ﴿يُرُدُّوكُمْ﴾ يرجعوكم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾؛ لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، ويودون رد المؤمنين كفاراً، ويعملون على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وفي قوله: ﴿يُرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ إشارة إلى أنهم يبدلون ما في وسعهم لإخراج المؤمنين عن دينهم، كما أنهم يسعون في صد من لم يؤمن عن الإيمان، وأنهم لا يقنعهم حتى يردوا المؤمنين عن دينهم، إلى ما هم عليه من الكفر؛ لأنهم حرفوا وبدلوا، وأشركوا مع الله «عزيراً» و«المسيح».

لكنهم يتدرجون في الوصول إلى ذلك بالسعي أولاً، لإفساد عقائد وأخلاق

المسلمين، بما يثيرون من الشبه، وما ينشرون من الرذائل؛ لتزهد المسلمين في دينهم، وإخراجهم منه، فإذا صار الواحد منهم بلا دين سهل عليهم اقتناصه لدينهم. وقد مكثت إحدى حملاتهم التنصيرية في مصر سنتين لم يعتنق النصرانية مسلم واحد، فشكا قائد الحملة إلى أحد بطارقتهم، فقال له: أنا لا أريدك أن تخرج المسلمين من الإسلام وتدخلهم في النصرانية، هذا أمر صعب، أنا أريدك أن تخرجهم من الإسلام، فإذا خرجوا منه سهل علينا اقتناصهم للنصرانية. وصدق الله العظيم: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١١).

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«كيف» للاستفهام. ومعناه الاستبعاد، أي: يُستبعد أن تكفروا، وحاشاكم أن تكفروا، وفيه معنى: التحذير أيضًا. ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ ﴿أي: تقرأ عليكم آيات الله، القرآن الكريم. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعيش بين أظهركم، يدعوكم ويعلمكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
به موقنات أن ما قال واقع (١)

فهذان وازعان لهم من الكفر: آيات الله، ورسوله.

ويحتمل كون الاستفهام في الآية بمعنى التعجب، أي: كيف يمكن أن تكفروا وأنتم تقرأ عليكم آيات الله القرآن الكريم، ورسول الله بين أظهركم وهو تعجب من حالهم، وتوبيخ لهم لو حصل منهم ذلك، وحاشاهم من ذلك.

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٥٥) - عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

والآية على الاحتمالين فيها تبيّن لأهل الكتاب من رجوع المسلمين عن دينهم مهما حاول أهل الكتاب، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمنون، وهم عند ربهم؟! وذكروا الأنبياء. قال: وكيف لا يؤمنون، والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وكيف لا تؤمنون، وأنا بين أظهركم؟ قالوا: فأين الناس أعجب إيماناً؟ قال: قوم يجيئون من بعدكم، يجدون صحفًا يؤمنون بها فيها»^(١).

وفي رواية أنه قال ﷺ: «يا أيها الناس من أعجب الخلق إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر؟ قالوا: فالنبيون يا رسول الله. قال: وكيف لا يؤمن النبيون والوحي ينزل عليهم من السماء؟ قالوا: فأصحابك يا رسول الله. قال: وكيف لا يؤمن أصحابي وهم يرون ما يرون؟ ولكن أعجب الناس إيماناً قوم يجيئون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، أولئك إخواني»^(٢).

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»^(٣).

(١) الحديث في «جزء ابن عرفة» (ص ٥٢ رقم ١٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/٥٣٨)؛ من حديث عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/٧١) وقال: «وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري، والله الحمد».

وروي معناه من حديث عمر بن الخطاب وابن عباس وأنس رضي الله عنهم. انظر: «مسند أبي يعلى» (١/١٤٧ رقم ١٦٠)، «مجمع الزوائد» (١٠/٦٥ رقم ١٦٦٨٩)، «المعجم الكبير» للطبراني (١٢/٨٧ رقم ١٢٥٦٠)، «شرح مشكل الآثار» (٦/٢٦٩ رقم ٢٤٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/٨٧ رقم ١٢٥٦٠).

(٣) سبق تخريجه.

قال ابن عباس: «ولن يجد أحد طعم الإيوان، وإن كثرت صلواته وصومه حتى يكون كذلك، وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» (١).

﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أي: يعبده، ويتمسك بحبله، ويستعين به، ويتوكل عليه، كما في قول المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَاكْفُرْ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ وَالْمَنَازِلِ ۚ ذَٰلِكُمْ دِينُكَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ أَسْفُودًا ۚ فَاتَّبِعَنِي أَلَمْ تَرَىٰ أَنِّي جَاءْتُكَ بِالْبُرْهَانِ ۖ وَأَنَا إِلَهُكَ الْحَقُّ ۖ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ حَقِّ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: فلا يُخشى عليه من الضلال، وهذه الجملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ والفاء: رابطة لجواب الشرط لاقتراحه بـ«قد». و«هَدَىٰ» بالبناء للمفعول، أي: كُتبت له الهداية أزلًا في اللوح المحفوظ، ووفق لها عملاً باعتصامه بالله، دُلَّ على الحق، ووفق إليه، وفيه.

وذلك؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهذه عامة، فالله هاد بهذا المعنى، أي: دال ومرشد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: دللناهم وأرشدناهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. والرسول والدعاة إلى الله هداة بهداية الله - عز وجل - كما قال تعالى مخاطبًا نبينا محمدًا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال إبراهيم - عليه السلام - لأبيه: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، وقال موسى - عليه السلام - مخاطبًا فرعون: ﴿وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَا مَرْيَمُ لِمَا صَبَرْتِ لِمَا وَكَاثُرًا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى:

(١) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص (٤٧٩).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَا قَوْمِ أَتَعْبُونَ أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨].

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله - عز وجل - كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ولعل الحكمة في مجيء الفعل «هدي» مبنياً للمفعول محذوفاً فاعله؛ ليشمل نوعي الهداية وطرقها.

﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [١١١] قرأ ابن كثير في رواية قبل في جميع القرآن بالسین: «سراط»؛ معرفاً ومنكراً. وقرأ حمزة بإشمام الصاد زائياً، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة: ﴿ صِرَاطٍ ﴾. ونكر الصراط في قوله: ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ تعظيماً له وتفخيماً. و«الصراط» الطريق الواضح الواسع المسلوك.

﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ معتدل مستو، غير معوج، يوصل إلى الغاية بأقرب وقت، وأقصر مسافة، لا انحراف فيه يميناً أو شمالاً يزيد في مسافته، ويعرض للضياع، ولا نزول فيه ولا ارتفاع، يزيد في مسافته، ويشق على سالكيه بالنزول والارتفاع، قال جرير^(١) يمدح هشام بن عبد الملك:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

والمستقيم في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين.

والمعنى: ومن يعتصم بالله عبادة له، وتمسكاً بكتابه، وسنة رسوله ﷺ، واستعانة بالله - عز وجل - وتوكلاً عليه، فقد هدي ووفق إلى طريق واضح معتدل لا اعوجاج فيه، وهو صراط الله، الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

قال عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]، وقال

تعالى: ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٣].

(١) انظر: «ديوانه» ص (٢١٨)

وهو الذي يهدي ويدعو إليه رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن كثير^(١): «فالاعتصام بالله، والتوكل عليه، هو العمدة في الهداية، والعمدة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد». ولكن المصيبة كل المصيبة عدم تحقيق الاعتصام بالله لدى كثير من المسلمين، وما أصاب الأمة ما أصابها من الضعف على مستوى الأفراد والجماعات والدول، وما ابتلي كثير من المسلمين بما ابتلي به إلا بسبب عدم تحقيق الاعتصام بالله وكتابته وسنة رسوله ﷺ. فبسبب ذلك وقع كثير من المسلمين في كثير من البلاد الإسلامية في الشرك ودعاء غير الله والاستغاثة به.

وبسبب ذلك حصل التفريط في كثير من الواجبات؛ وأعظمها الصلاة عمود الإسلام، والزكاة، وصلاة الجماعة وغير ذلك من حقوق الله، وحقوق الخلق. وبسبب ذلك تساهل كثير من المسلمين في الوقوع في المحرمات كالربا والمعاملات المحرمة والمشتبهة، والزنا، والعقوق، وقطيعة الرحم والغيبة والنميمة، والحسد والعداوة والبغضاء والظلم والكذب وشهادة الزور، وغير ذلك. وبسبب ذلك وئدت وحدة المسلمين تحت شعارات ما أنزل الله بها من سلطان فرقت المسلمين، وجعلتهم شيعاً وأحزاباً وجماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام. وبسبب ذلك انحرف فئام من أبناء المسلمين، ووقعوا في حبال أعداء الإسلام، وخرجوا على الأمة وعلماؤها وولاتها بالكفير والتفجير.

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. فمن اعتصم بالله حقاً، فعظم الله - عز وجل - وحقق توحيده، وأدى حقوقه التي من أعظمها بعد التوحيد إقامة الصلاة إقامة تامة كما شرع الله - عز وجل - مع جماعة المسلمين، وأدى حقوق الخلق؛ من الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب وغيرهم، وحقوق الأمة التي يتولاها، وتدبر كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ، فهو مهدي محفوظ بحفظ الله عز وجل؛ ولهذا

(١) في «تفسيره» (٢/٧١).

قال - عز وجل - مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾، أي: إن هذا يكاد يستحيل.

وهكذا كل من تمسك بكتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ فهو محفوظ بحفظ الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك»^(١).

الفوائد والأحكام:

- ١- أمر الله - عز وجل - لنبية ﷺ بتوبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.
- ٢- وجوب الإيمان بآيات الله - عز وجل - الكونية والشرعية؛ لأن الله - عز وجل - أمره ﷺ بتوبيخ من أنكروها.
- ٣- إثبات شهادة الله - عز وجل - واطلاعه التام، على ما يعمله أهل الكتاب وغيرهم من الكفر بآيات الله وتكذيبها ومخالفتها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ٤- تهديد من يكفر بآيات الله ويكذبها ويخالفها من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو - عز وجل - شهيد على أعمالهم يحصيها عليهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.
- ٥- توبيخ أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله ودينه من آمن به، ومن أراد الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾.
- ٦- أن ما جاء به محمد ﷺ هو دين الله وصراطه الذي يجب اتباعه، لهذا سماه - عز وجل - سبيله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿الشورى: ٥٢، ٥٣﴾.

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (٢٩٣/١، ٣٠٣، ٣٠٧)، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

٧- إرادة أهل الكتاب سلوك الناس الطريق العوج، وهو ما هم عليه من الباطل والمخالفة للحق والعدول عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

وهكذا يريد كل دعاة الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

٨- أن كل من سعى في صد الناس عن دين الله، وأراد الطريق العوج من دعاة التغريب وغيرهم ففيه شبهة من اليهود والنصارى؛ لأن هذا مسلكهم.

٩- أن إخراج من دخل في دين الله وحمله على الارتداد، أعظم وأشد من منع من أراد الدخول فيه، كما أنه سبب للمنع من الدخول فيه، لهذا خصه - عز وجل - بالذكر فقال: ﴿لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾.

١٠- شهادة أهل الكتاب على أنفسهم أنهم يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، وأنه ﷺ يدعو إلى سبيل الله ودينه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ وإنما منعهم من اتباعه ﷺ الاستكبار والحسد.

١١- كان الواجب على أهل الكتاب عدم الصد عن سبيل الله وعدم ابتغاء العوج؛ لأنهم يعلمون أنهم على الباطل، وأنه ﷺ على الطريق الحق.

١٢- إثبات كمال رقابة الله عز وجل على أعمال أهل الكتاب وغيرهم، وأنه ليس بغافل عما يعملون، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

١٣- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشریفًا وتكريمًا لهم، وحثًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما بعده وهو عدم طاعة أهل الكتاب من مقتضيات الإيمان، وعدم ذلك نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

١٤- تحذير المؤمنين من طاعة دعاة الكفر، من أهل الكتاب، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا أَقْرَبَاءَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾.

فلا يجوز الاغترار بها بيدونه من الصداقة والمودة، فهم أعداء مهما أظهروا من ذلك كما

قال تعالى: ﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ﴾ [المائدة: ٥١]،
وقال تعالى: ﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا
بِمَآ جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ۗ﴾ [المتحة: ١].

١٥- حرص الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على رد المسلمين عن دينهم إلى ما هم عليه من الكفر، وأنهم لا يقنعون منهم بدون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۗ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۗ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولأجل ذلك تجدهم يسعون بشتى الوسائل لإفساد عقائد وأخلاق المسلمين ويدسون السم في الدسم، فيدعون إلى إخراج المرأة من بيتها وسفورها باسم تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها، ويدعون إلى مصادرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باسم الحرية وعدم التدخل في شؤون الآخرين، ويزينون للناس الربا والقمار والمكاسب الخبيثة بدعوى حرية الكسب وتنمية المال ونحو ذلك. ويدعون إلى تعطيل الحدود في الإسلام، ويصمونها بالوحشية كقتل القاتل، ورجم الزاني أو جلده، وقطع يد السارق، وجلد القاذف وشارب الخمر بدعوى الدفاع عن حقوق الإنسان، وكأنهم أرحم بالإنسان من خالقه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

يرحمون المجرمين، ولا يرحمون المجتمع بأسره من شرور المجرمين، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۗ﴾ [المائدة: ٥٠].

١٦- أن السبب في تسلط الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المؤمنين، هو إيمانهم بالله وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۗ﴾ [البروج: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٧].

١٧- أن من أهل الكتاب من آمن فلا يسعى في رد المسلمين إلى الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية. ومفهوم هذا أن فريقاً منهم ليسوا كذلك.

١٨- استبعاد كفر المؤمنين، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله ﷺ بين أظهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ والتعجيب والتحذير من أن يحصل شيء من ذلك، والتوبيخ لمن فعله؛ لأن الحجة عليه أقوم، وذنبه أعظم - وحاشاهم رضي الله عنهم من ذلك - وإنما سيقت الآيات لتبيح كفر أهل الكتاب من ارتداد المؤمنين؛ ولهذا لم تقع الردة إلا بعد موته ﷺ من بعض الأعراب، ومن لم يتمكن الإيمان من قلوبهم.

١٩- أن القرآن الكريم هو آيات الله الدالة على كماله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى صدق من جاء به من عند الله - عز وجل - المعجز بأقصر سورة منه؛ لقوله تعالى: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾.

٢٠- أن من بلغه القرآن قامت عليه الحجة، سواء تلاه عليه الرسول ﷺ، أو غيره؛ لقوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ﴾ أي: يتلوها الرسول ﷺ أو غيره، ممن يبلغ عنه.

٢١- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بإضافته إليه عز وجل - في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

٢٢- أن في كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ العصمة - بإذن الله لمن تمسك بهما من الكفر والضلال.

٢٣- أن من اعتصم بالله - عز وجل - عبادة له وتمسكاً بحبله، واستعانة به وتوكلاً عليه، فقد كتبت له الهداية إلى الصراط المستقيم أزلاً في اللوح المحفوظ، وعملاً في هذه الحياة، أرشد إلى الحق، ووفق إليه، وفيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١).

٢٤- الحث على الاعتصام بالله؛ عبادة له، وتوكلاً عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١).

٢٥- في تنكير «صراط» في قوله: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تعظيم له، لأنه صراط الله المؤدي إلى الله - عز وجل - ومرضاته، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا وصفه بأنه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: معتدل لا عوج فيه.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ سبق الكلام على هذا.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أو امره واجتناب نواهيه. والتقوى: مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الشيء الضار، أو المخوف وقاية، فتتقي البرد بلبس الملابس الثقيلة، وتتقي الشوك بلبس النعلين، وهكذا. وأصلها: «وَقَوَى» قلبت الواو تاء؛ لعلة تصريفية.

وتقوى الله - عز وجل - هي وصيته للأولين والآخرين، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ ءَاتَوْا آلَ كَثَبٍ مِنْ قَبْلِكَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا

﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي: حق تقواه، بقدر استطاعتكم وجهدكم، كما قال تعالى في سورة

التغابن: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [الآية: ١٦].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر^(١).

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (١٢٩/١)، وابن أبي شيبة (٢٩٧/١٣)، والطبري في «جامع البيان» (٦٣٧/٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٤٢/٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/١٢٨- الأثر ٢٩٩)، والطبراني (٨٥٠١)، والحاكم (٢/٢٩٤). وهو صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ولا غضاضة في أمر المؤمنين بتقوى الله - عز وجل - فقد أمر الله بها نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وهو ﷺ أتقى الناس لربه، كما قال ﷺ: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»^(١).

ولما قال أحدهم للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اتق الله» أنكر عليه بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول لأمر المؤمنين «اتق الله»؟ فقال عمر رضي الله عنه: «دعه، فليقلها، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»^(٢).

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، و«تموتن» فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والنون المذكورة للتوكيد.

﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حال كونكم مسلمين.

والمراد بالإسلام ما يشمل الإيمان، أي: إلا وأنتم مسلمون ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل معه الآخر. أي: ولا تموتن إلا على الإسلام.

والنهي عن الموت إلا على الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام طوال الحياة، أي: بادروا إلى الإسلام، والزموه، واثبتوا عليه إلى الموت؛ لأن العبرة بالخاتمة، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

والمرء ما يدري متى يفجأه الموت، وقد قيل:

كل امرئٍ مُصَبَّحٍ في أهله والموت أدنى من شراك نعله^(٣)

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن

وروي مرفوعًا. انظر: «تفسير ابن كثير» (٧١/٢).

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٣٣٢/٨).

(٣) البيت لحكيم النهشلي. انظر: «البيان والتبيين» (١٢٦/٣).

يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه»^(١).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٢).

لكن من عاش مستمسكاً بالإسلام فهو حري أن يحفظه الله حتى يتوفاه على ذلك- بكرمه- عز وجل- وفضله.

ويؤيد هذا ما جاء في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة- فيما يبدو للناس- وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»^(٣).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»^(٤).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، وأحمد (١٩٢/٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء- خلق آدم صلوات الله وسلامه عليه وذريته (٣٣٣٢)، ومسلم في القدر- كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢).

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧)، وأبوداود في الجنائز (٣١١٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٧).

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر (٢٦٧٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٨)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٢).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رجل من الأنصار مريضاً، فجاءه النبي ﷺ يعودُه، فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: «كيف أنت يا فلان؟» قال: بخير يا رسول الله، أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف» (١).

والله - عز وجل - لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فالغالب أن من عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه؛ ولهذا فإن من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه (٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣).

رُوي أن هذه الآية نزلت في الأوس والخزرج (٣). والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ الواو: عاطفة، والاعتصام: التمسك بما يعصم، ويحمي من المخوف والمحذور، و«حبل الله»: دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].
وسمي دين الله وشرعه حبلًا له - عز وجل - لأنه الموصل إليه وإلى رضوانه وجنته، وهو الذي وضعه.

﴿جَمِيعًا﴾: حال، أي: كلكم أيها المؤمنون.

(١) أخرجه الترمذي في الجنايز (٩٨٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١) - وقال الترمذي: «حسن غريب» ورواه البزار - فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٧٣/٢) قال: «وقد رواه بعضهم مرسلًا».

(٢) أخرجه مسلم في «الإمارة» (١٩٠٩)، وأبو داود في «الصلاة» (١٥٢٠)، والنسائي في «الجهاد» (٣١٦٢)، والترمذي في «فضائل الجهاد» (١٦٥٣)، وابن ماجه في «الجهاد» (٢٧٩٧)؛ من حديث سهل

ابن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤٩٨/٢)، «تفسير ابن كثير» (٧٤/٢).

قال ابن القيم^(١): «ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله، فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتا. فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسلم بها في طريقه».

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالاجتماع، ثم أكد ذلك بنهيهم عن التفرق، أي: ولا تفرقوا شيعاً وأحزاباً، جماعات وأفراداً.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(٢).

وفي حديث أبي مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»^(٣).

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من الضعف والتخلف، وتسلب الأعداء، والجهل والفقر والمرض، إلا بسبب التفرق شيعاً وأحزاباً وجماعات، كما قال الشاعر:

وتشعبوا شعباً فكل جزيرة فيها أمير المؤمنين ومنبر^(٤)

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٦-٥٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في الأفضية (١٧١٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الصف الأول فالأول (٤٣٢)، والنسائي في الإمامة (٨٠٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧٦).

(٤) البيت لمساور بن هند بن زهير. انظر: «شرح ديوان الحماسة» للبربري (١/١٧٦)، «شرح ديوان الحماسة» للأصفهاني (ص ٣٣٢)، «شرح حماسة أبي تمام» (٢/٢٥٣).

بل إن ما وقع فيه المسلمون اليوم من التفرق جماعات وحزبيات وتصنيف للطوائف أشد وأعظم، حيث يؤكد بعض هذه الجماعات لبعض باسم الإسلام على حساب الإسلام - نسأل الله الهداية والتوفيق، وجمع كلمة المسلمين على الحق.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: واذكروا بألستكم ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالثناء عليه، والتحدث بها، واذكروها بقلوبكم، واشكروها بجوارحكم؛ لأن ذكر نعمه - عز وجل - سبب لشكرها، كما قال تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا مَا آتَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ ﴿١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢].

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة يفيد العموم.

و«نعمة الله»: كل ما أنعم الله به على خلقه من النعم الدينية والدينية، والعطاء والرزق، وجلب النعم، ودفع النقم.

أي: تذكروا كل نعم الله عليكم، والتي أهمها وأعظمها نعمة الإيوان، ببعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن.

﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا﴾ هذا بيان وتفسير لنعمة الله عليهم.

﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» أي: حين كنتم أعداء بينكم الحروب والغارات والفتن والثارات.

فالأوس والخزرج كانت بينهم حروب دامت أكثر من مائة وعشرين سنة، منها يوم بعاث، وكذا الحال بالنسبة لقبائل العرب الأخرى: قريش، وهوازن وغيرها.

﴿فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جمع بين قلوبكم على الحق والهدى.

ولم يقل: «ألف بينكم»؛ لأن الشأن والمدار على اجتماع القلوب، حتى ولو تباعدت الأبدان والأوطان، ولا فائدة في اجتماع الأبدان مع تنافر القلوب وتفرقها، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

بل إن اجتماع الأبدان مع تنافر القلوب يمثل خطرًا عظيمًا، ولهذا كان المنافقون أخطر أعداء الإسلام على المسلمين؛ لأنهم بين أظهرهم.

والتأليف بين القلوب ليس بالأمر السهل، وكما قيل:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجه كسرها لا يجبر^(١)

لكن الذي خلق القلوب - سبحانه وتعالى - يؤلف بينها بقدرته وعزته وحكمته؛ ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال عز وجل للمؤمنين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ٧]، وقال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين، فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي. كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله آمن»^(٢).

﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ أي: صرتم.

﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب إنعامه عليكم بالهداية للإسلام.

﴿إِخْوَانًا﴾ أي: إخوة متآلفين متحابين، تربط بينكم أقوى رابطة هي رابطة أخوة

الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

تلك الرابطة التي تتضاءل أمامها جميع روابط النسب، والعرق والوطن، والجماعات والحزبيات والقوميات، وغير ذلك.

تلك الرابطة التي آخت بين أبي بكر القرشي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم^(٣)

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس، أو لعلي رضي الله عنه. انظر: «اللطائف والطرائف» (ص ١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة - إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٣) البيت لنهار بن توسعه. انظر: «الكامل في اللغة» (١٣٣/٣).

وقال الآخر:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اعتماداً على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب^(١)
وقد ضرب الصحابة- رضوان الله عليهم- في هذه الأخوة الإيمانية فيما بينهم أروع
الأمثلة، حتى إن الأنصار لما قدم إليهم المهاجرون- قاسموهم أموالهم وديارهم، وأثروهم
على أنفسهم، وعلى قرباتهم للأخوة التي آخاها الرسول ﷺ بينهم.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: وكنتم قبل الإسلام ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾
أي: على طرف ﴿حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وشفأ الشيء طرفه، الذي من كان عليه فهو عرضة
للسقوط والهلاك، كما قال تعالى في أصحاب مسجد الضرار: ﴿أَمْ مِّنْ أُمَّةٍ مِّنْ أُمَّةٍ مِّنْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَهَا
شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ومعنى قوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: على طرف حفرة من نار جهنم بسبب
ما أنتم عليه من الكفر والشرك، أي: ليس بينكم وبين السقوط في النار والوقوع فيها
إلا أن تموتوا، كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا﴾ أي: فخلصكم منها، وأبعدكم عنها، بهدايتكم للإيمان.
﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الكاف: اسم بمعنى «مثل» نعت لمصدر محذوف؛
أي: بياناً مثل ذلك البيان في هذه الآيات، يبين الله لكم آياته، الشرعية والكونية.
﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تهتدوا، إلى ما ينفعكم في دينكم
ودنياكم وأخراكم، هداية دلالة وعلم، وهداية توفيق وعمل.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٤).

أمر الله عز وجل المؤمنين في الآيتين السابقتين بتقواه، والاعتصام بحبله، ونهاهم عن

(١) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» (١/ ٤١٤).

التفريق، ثم أمرهم بأن يكون منهم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - وهو من تقوى الله - عز وجل - لأهميته فعطفه على الأمر بتقوى الله أشبه بعطف الخاص على العام.

قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ الواو: عاطفة، أو استثنائية، واللام: للأمر، ولهذا جزم الفعل بعدها، والأصل في الأمر: الوجوب.

﴿مِنْكُمْ﴾ الخطاب: للمؤمنين، و«من»: تبعيضية، أي: وليكن بعضكم يدعون إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويؤيد هذا قوله ﴿أُمَّةٌ﴾.

ويحتمل أن تكون «من» لبيان الجنس، أي: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة.

﴿يَدْعُونَ﴾ كل من يصلح توجيه الدعوة إليه، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ الخير اسم يجمع خصال الإسلام، كما في حديث حذيفة - رضي الله عنه - أنه قال: «يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟»^(١).

فالدعاء إلى الخير هو الدعاء إلى الإسلام وجميع شرائعه العظام، من فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتي كلها خير في الدين والدنيا والآخرة، كالدعوة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، وغير ذلك من الواجبات، والدعوة إلى ترك المحرمات كالربا والزنا والسرقعة، وغير ذلك. وكل ذلك خير وضده شر، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (٨٤٧)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٤٤).

﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم الخير، وهو سبب لفعل الخير، وقدم الدعوة إلى الخير لأنها ينبغي أن تكون قبل الأمر والنهي، لأنها توجيه وتعليم، ثم يعقبها الأمر والنهي، وقرن بين الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنها من أعظم وأهم واجبات الدين.

وقوله: ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي: ويأمرون الناس بفعل المعروف. و«المعروف» كل ما أمر به الشرع وأقره، كالأمر بالإيمان بأركان الإيمان الستة، وأداء أركان الإسلام الخمسة وغير ذلك.

﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أي: وينهون الناس عن المنكر، وهو كل ما نهى عنه الشرع وأنكره من المعاصي وأنواع الشرور والفساد، كالشرك والربا وقتل النفس بغير حق، والزنا والسرقه وغير ذلك من فعل المحرمات، أو ترك الواجبات.

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الإشارة للذين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهاً بهم ورفعاً لشأنهم. وأكد الفلاح وقصره فيهم، بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم» أي: أولئك هم المفلحون حقاً، دون غيرهم.

قال ابن القيم^(١): «فخص هؤلاء بالفلاح، دون من عداهم، والداعون إلى الخير، هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان». والفلاح: الفوز والظفر بالمطلوب، والنجاة والسلامة من المهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا، بالإيمان والحياة الطيبة، والسعادة في الآخرة بالجنة والنجاة من النار.

فالمفلحون: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٨).

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآية.

في هذا تأكيد لما سبق من الأمر بتقوى الله - عز وجل - والاعتصام بحبله، والنهي عن التفرق، كما أن فيه إشارة إلى أن من أعظم أسباب التفرق ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ أي: ولا تصيروا أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ أي: مثل الذين تفرقوا من أهل الكتاب، وغيرهم، وصاروا أحزابًا وشيعًا.

﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في قلوبهم تجاه ما جاءهم من الحق، على ألسن رسل الله، وفي كتبه، وتركوا الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقدّم التفرق على الاختلاف، مع أن الاختلاف هو سبب التفرق - والله أعلم؛ لأن التفرق هو محصلة الاختلاف، ونتيجته الظاهرة السيئة.

والمعنى: ولا تصيروا أيها المؤمنون كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلّفوا، فتتفرقون وتختلفون مثلهم، بل اعتصموا بحبل الله جميعًا، وادعوا إلى الخير، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: من بعد ما جاءتهم من عند الله - عز وجل - الآيات البينات في كتب الله - عز وجل - وعلى السنة وأيدي رسله من الآيات الشرعية والآيات الكونية، مما لا عذر لهم معه في التفرق والاختلاف، وترك الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ [البينة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وعن معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين اختلفوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة- يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة، وهي: الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلب^(١) بصاحبه، لا يبقى منه عرق، ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب- لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به»^(٢).

وفي حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»^(٣).

وإذا كان ﷺ في هذا لا ينطق عن الهوى، فيجب على كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن يحذر من هذا التفرق، وأن يلزم جماعة المسلمين، كما قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك»^(٤).

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: وأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب: العقاب، و«عظيم» على وزن «فعليل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على شدة عظمة هذا العذاب، ولا أحد يقدر عظمة هذا العذاب، إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

(١) الكلب: داء يصيب الكلاب، فمن عضه قتله.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٥٩٧)، وأحمد (١٠٢/٤).

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن

(٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، لانحطاط مرتبتهم، وأكد عذابهم، بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء، للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشریفًا وتكریمًا لهم، وحثًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما بعده: من الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام إلى الموت والاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق والاختلاف من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك نقص في الإيمان.

٢- وجوب تقوى الله - عز وجل - حق تقواه، بقدر الاستطاعة والجهد، لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٣- لا غضاضة في أمر المؤمنين بتقوى الله - عز وجل - فقد أمر الله بها سيد الخلق ﷺ.

٤- وجوب المبادرة إلى الإسلام، ولزومه، والثبات عليه، إلى المات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُؤْنُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

٥- أن المدار على الخاتمة، وما يموت عليه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُؤْنُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لكن جرت العادة بفضل الله - عز وجل - أن من عاش على الإسلام فإنه يحفظه الله، حتى يتوفاه على الإسلام - وهذا أمر مشاهد وواقع، حتى إن أناسًا صدقوا في طلب أن يموتوا شهداء، فرزقهم الله الشهادة، وأناسًا صدقوا مع الله في طلب الموت سُجْدًا، وصوامًا، ونحو ذلك فتوفاهم الله على ذلك.

٦- وجوب الاعتصام بشرع الله، والتمسك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾.

٧- وجوب الاجتماع على شرع الله، والتحاكم إليه، وتحريم التفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

٨- أن في تمسك الأمة بشرع الله واجتماعها عليه عصمة لها وقوة في داخلها، وأمام أعدائها وغيرهم. وفي تهاونها في التمسك بشرع الله وتفرقها ضعفها وتخلفها وتسلط الأعداء عليها - كما هو حال الأمة اليوم.

- ٩- وجوب ذكر نعم الله بالثناء عليه بها باللسان، وتذكرها بالقلب، وشكرها بالجوارح، والتي أعظمها نعمة الإسلام والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.
- ١٠- أن من أكبر نعم الله - عز وجل - وأعظمها على المؤمنين تأليفه - عز وجل - بين قلوبهم بالإيمان - بعد أن كانوا أعداءً قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.
- وهي نعمة من الله - عز وجل - ومنة على الصحابة - رضي الله عنهم - على وجه الخصوص، وعلى من يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة على وجه العموم.
- ١١- أن تذكر المنعم عليه لحاله قبل النعمة، من فرقة، أو مرض، أو فقر، أو فقدان أمن، أو غير ذلك، من أسباب شكر النعمة، وقد قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».
- ١٢- أن ثمرة التأليف بين القلوب تحقيق الأخوة الإيمانية بين المؤمنين التي تتلاشى أمامها جميع روابط النسب والعرق والوطن، والقوميات، والحزبيات، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.
- ١٣- أن التفرق والتشتت نقمة، وعلامة على سلب النعمة، يجب الحذر منه.
- ١٤- نعمة الله - عز وجل - ومنته على المؤمنين السابق منهم واللاحق، بإنقاذهم بالإيمان من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.
- ١٥- إثبات النار، وأنها موجودة الآن معدة للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ أي: وكنتم على طرف حفرة من النار، تكادون تسقطون فيها، بسبب الكفر والشرك، فأنقذكم منها بالإيمان.
- ١٦- تبيين الله - عز وجل - آياته الشرعية والكونية لنا أتم بيان، إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، (١٧) إِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ، (١٩) [القيامة: ١٦-١٩]، والآيات في بيانه عز وجل لآياته وتفصيلها كثيرة جدًا. وفي هذا رد على أهل التحريف والتأويل المذموم الذين يقولون: المراد بالآيات

خلاف ما يظهر منها، فهم بهذا يزعمون أن الله لم يبينها، وأنهم أعلم بالمراد بها منه تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

١٧- أن الحكمة والعلة في بيانه- عز وجل- آياته للناس؛ لأجل أن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وفي هذا رد على من ينفي من أهل البدع حكمته- عز وجل- في أفعاله.

١٩- رحمة الله- عز وجل- بالناس ومحبته لهديتهم، ولهذا بين لهم آياته لأجل أن يهتدوا، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، كما قال عز وجل مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء: ١٠٧].

٢٠- وجوب الدعوة إلى الإسلام وشرائعه العظام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو فرض كفاية؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ و«من» للتبعية.

ويحتمل كون «من» لبيان الجنس، فتكون الدعوة واجبة على الأمة كلها، أي: ولتكونوا أمة داعية إلى الخير.

وذلك حسب معرفة الإنسان وقدرته؛ لأن هناك من الأمور ما يمكن أن يدعو له كل مسلم، وهناك منها ما يحتاج إلى أهل العلم.

وينبغي أن تكون الدعوة إلى الخير بالحكمة وبالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، مع الإخلاص، والحذر من الانتصار للنفس، ونحو ذلك.

ويجب على الداعية إلى الخير أن يكون عالماً بما يدعو إليه شرعاً، ولا يكفي مجرد حسن النية والقصد، فإن الشيطان قد يأمر بسبعين باباً من الخير؛ ليصل إلى باب من الشر أعظم من ذلك الخير. قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه-: «ليس

كل مرید للخير يصيبه». وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصداً وصولاً إلى باب من الشر أعظم^(١)

(١) هذا البيت من قصيدة لي.

ولهذا فإن ما يُرفع من شعار «كن داعياً» ينبغي ألا يكون على إطلاقه، فيدخل في الدعوة من لا يحسنها، ولا يصلح لها، فيكون ضرره أكبر من نفعه.

٢١- الترغيب في كل ما هو خير؛ قولاً أو فعلاً أو بذلاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ وذلك يشمل خير الدين والدنيا.

٢٢- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو فرض كفاية؛ لقوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ وقد يجب على جميع الأمة إذا لم يستطعه بعضها.

عن حذيفة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه، فلا يستجيب لكم»^(١).

وعن أبي سعيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢). فالإنكار باليد يكون لولي الأمر ولأهل الحسبة الذين ولاهم، ولمن له ولاية من الرجال والنساء، على من تحت ولايته كالأب والأم، وولي اليتيم ونحوهم. والإنكار باللسان لكل من قدر عليه وأحسنه، والإنكار بالقلب لا يعذر في تركه أحد.

ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أولاً: العلم الشرعي بما يأمر به الإنسان أو ينهى عنه، بحيث يعلم أن هذا الأمر مما أمر الله به، أو مما نهى الله عنه، فإن كان مجهول ذلك وجب عليه ترك الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وأحمد (٣٨٨/٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥).

ثانياً: أن يكون على بينة من حال المأمور والمنهي بأنه ترك هذا المعروف، أو ارتكب هذا المنهي، فإن كان لا يدري، أو يشك في ذلك، أو قيل له ذلك ونحو ذلك، فلا يجوز له الدخول في ذلك؛ لما يترتب عليه من مفساد، وقد قال الله - عز وجل -:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦)

[الإسراء: ٣٦]، وقال عز وجل: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَنَّ تُصِيبُوا

قَوْمًا بِجَهَنَّمَ فَنُصِصُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٦) [الحجرات: ٦].

ثالثاً: أن يكون الأمر والنهي بالحكمة، بأن لا يؤدي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منكر أعظم من ذلك. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداب من أهمها:

أن لا يخالف فعل الأمر والناهي قوله، بأن يأمر بالمعروف وهو لا يفعله، أو ينهى عن المنكر وهو يفعله، قال تعالى موبخاً من يفعل ذلك: ﴿ أَنَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤) [البقرة: ٤٤].

وفي حديث أسامة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: مالك، يا فلان، ألم تك تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمركم بالمعروف، ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(١).

قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلاً لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذو الضنا	كيا يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدًا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانها عن غيرها	فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق - صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرفائق (٢٩٨٩).

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالعلم منك وينفع التعليم
لأنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم^(١)

وامثال الإنسان لما يأمر به، واجتنابه لما ينهى عنه من أعظم أسباب القبول لأمره ونهيه عند الناس، لكنه ليس شرطاً في الأمر والنهي، لانفكاك الجهة، فعليه أن يأمر نفسه وينهاها بل ويبدأ بها، فإن لم يأمر نفسه ولم ينهها، فلا يبرر له ذلك ترك أمر غيره ونهيه، فهو يحاسب على الأمرين؛ ولهذا قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، وهذا يقتضي اشتراكهم في الفعل، ودمهم على ترك التناهي.

وكما قيل:

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنب
فمن يعظ العاصين بعد محمد
ومن آداب الأمر والنهي: القول اللين؛ كما قال عز وجل لموسى وهارون - وقد أرسلهما إلى أعتى الخلق، فرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقال الله - عز وجل - لسيد الخلق نبينا محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فليت كثيراً ممن يتولون الأمر والنهي والدعوة والتوجيه ينتبهون لهذا، ويتفطنون له، وقد قال ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه» (٢)، وقال ﷺ: «إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» (٣).

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: توطين النفس على الأذى في سبيل

(١) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» (ص ٤٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر (٢٥٩٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٣٥٦)، ومسلم في البر (٢٥٩٣)، من حديث عائشة - رضي الله عنها، وأخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٠٧)، وأحمد (٨٧/٤)، من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه.

ذلك، والصبر عليه، كما قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَبْنِي أَقْرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

٢٣- عظم مكانة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لهذا خصهما الله بالذكر وقرن بينهما في الآية.

٢٤- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم الدعاء إلى الخير، ولهذا عطف عليه من عطف الخاص على العام.

٢٥- وعد الله عز وجل - الذي لا يتخلف - للدعاة إلى الخير، والأمين بالمعروف، والناهين عن المنكر بالفلاح، وتأكيد ذلك لهم، بل وحصره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وهذا يدل على فضل الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكفى ذلك شرفاً أنه طريق الرسل - عليهم الصلاة والسلام.

٢٦- نهي المؤمنين عن التفرق والاختلاف، كما فعل أهل الكتاب من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، كما قال عز وجل عنهم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

٢٧- أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب التفرق والاختلاف؛ لأن الله أعقب الأمر بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنهي عن التفرق والاختلاف.

٢٨- ذم أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وقامت عليهم الحجة.

٢٩- إذا كان التفرق والاختلاف قد يُبرر قبل مجيء البينات، فإن التفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، وظهور الحق أمر لا مبرر له، ولا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

٣٠- بيان الحق في هذه الشريعة الكاملة أتم بيان، في كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ، مما لا عذر فيه في التفرق والاختلاف.

٣١- الوعيد الشديد للذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى:

﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٢- أن من سلك مسالك أهل الكتاب وسنتهم السيئة من هذه الأمة فمصيره مصيرهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أُبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أُبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

نهى الله تعالى هذه الأمة أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وتوعدهم بالعذاب العظيم، ثم أتبعه ببيان متى يكون ذلك وحال الناس فيه، وذكر شيء من جزائهم.

قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ ﴿يوم﴾: ظرف زمان منصوب متعلق بالخبر المحذوف للعذاب في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أو بمضمرة تدل عليه الجملة، أي: يعذبون يوم تبيض وجوه، أو بمحذوف تقديره: «اذكر» أي: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

والمراد به يوم القيامة. وعرفه بما يحصل فيه من بياض وجوه، وسواد وجوه، تعظيماً له وتهويلاً، ترغيباً وتشويقاً، وترهيباً وتخويفاً.

ومعنى ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تكون بيضاء تعلوها النضارة والنور، وهي وجوه المؤمنين السعداء، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وقال ﷺ: «لكم سيمًا ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غرًّا محجلين من أثر الوضوء» (١).

(١) أخرجه البخاري في الطهارة (١٣٦)، ومسلم في الطهارة (٢٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٢)، من

فوجوههم بيضاء مسفرة مستنيرة بسبب ما يقابلون به من التهتة والبشارة بالجنات وما فيها من ألوان النعيم، وما هم فيه من الفرح والسرور والأمن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].
وقدم ذكر بياض وجوه؛ لأن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.

﴿وَسَوْدٌ وَجُوهٌ﴾ أي: تكون سوداء مظلمة، وهي وجوه الأشقياء من الكفرة وأهل الأهواء والبدع والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهُهُمُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

وذلك لما في قلوبهم من الغم والههم وشدة الخوف، وما يلاقون من التوبيخ والتقريع، ولما يترقبون ويتوقعون من حلول النقمة والعذاب الأليم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهُهُمُ بِأَسْرَةٍ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُونَ أَن يَقْعَلَ بِهَا قَارِعَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].
ولا تنافي بين قوله: ﴿وَسَوْدٌ وَجُوهٌ﴾ وقوله: ﴿وَجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] لاختلاف الأحوال والأوقات، ففي بعضها يكونون زرقاً وفي بعضها يكونون سوداً.

وأيضاً فقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي زرق العيون وهذا لا ينافي سواد الوجوه.

وقيل: المراد بالسواد ما يجمع الزرقة والسواد فيكون المعنى واحداً، وقيل غير ذلك.
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الفاء: عاطفة للتفريع، و«أما»: للتفصيل، وبدأ بذكر الذين اسودت وجوههم في هذا التفصيل، بينما أخرجهم فيما قبل، وهذا من باب اللف والنشر، فبدأ هنا بحال الذين اسودت وجوههم لمجاورته: ﴿وَسَوْدٌ وَجُوهٌ﴾ وتعجيلاً بذكر مساءتهم، وليكون الاختتام بالحال الحسن كما ابتدئ بالوصف الحسن.

﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، أي: فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم. وجواب «أما» لا بد فيه من الفاء، فلما سقط الجواب سقطت الفاء معه. وجاز ترك الجواب لدلالة السياق عليه.

وأبهم القائل؛ للتهويل، وليعم كل قائل، فيحتمل أن القائل لهم ذلك هو الله تعالى، أو الملائكة، أو أهل المحشر، أو الرسول ﷺ.

وفي الحديث قوله ﷺ: «ليردن عليّ أقوام أعرفهم ثم يختلجون دوني فأقول يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(١).

واختلف في المعنيين بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فقيل: هم أهل الكتاب، آمنوا بالنبي ﷺ قبل بعثته، فلما بعث كفروا به، وقيل: هم أهل الأهواء والبدع، وقيل: هم المنافقون، آمنوا بالظاهر، وكفروا بالباطن.

والظاهر أن الوصف بسواد الوجوه والتوبيخ بقوله: ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ يعم جميع الكفار، كما أن الوصف ببياض الوجوه، وحصول الرحمة، ودخول الجنة يعم جميع المؤمنين.

وقد يحمل الإيذان في قوله: ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ في حق البعض أنهم آمنوا ثم ارتدوا وكفروا، أو غير ذلك.

وقد يحمل في حق الجميع على الفطرة؛ لأن الإيذان في الأصل هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(٢).

وقال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٤)، والنسائي في الافتتاح (٩٠٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي: ويقال لهم: ﴿ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ومعنى ﴿ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ ﴾ أي: قاسوا العذاب وتجروه وأحسوا به، و«العذاب»: العقوبة والنكال، والأمر للإهانة.

فجمع لهم بين العذاب المعنوي المؤلم للقلب، بالتقريع والتوبيخ والتنديم والإهانة، وبين العذاب الحسي المؤلم للبدن. والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي، بل هو أشد منه.

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفركم وعدم إيمانكم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٠٧).

كما بدأ بذكر بياض وجوه المؤمنين ختم بالكلام على حسن حالهم، فقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ الواو: عاطفة، و«أما»: تفصيلية كسابققتها، أي: وأما الذين ابيضت وجوههم، وهم المؤمنون.

﴿ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الفاء: واقعة في جواب «أما»، و«في» للظرفية، والمراد برحمة الله تعالى هنا رحمته المخلوقة وهي الجنة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي»^(١).

فسمى «الجنة» رحمته؛ لأنه - عز وجل - يرحم بها من يشاء؛ ولأنهم لا يدخلونها إلا برحمته، كما قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»^(٢).

﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي: هم ماكثون فيها مقيمون، مكثًا أبدئيًا، وإقامة دائمة؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في التفسير - باب قوله: ﴿ وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴾ (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها - النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرض (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها يخرجون منها، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾.
كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الإشارة لما سبق من الآيات، وبخاصة من الآيات من بعد قوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [الآية: ٥٨]. وقد تكون الإشارة للقرآن كله، ويقوي هذا كونها جاءت بصيغة البعد «تلك».

و«آيات» جمع آية، وهي العلامة، والمراد بها هنا: آيات الله الشرعية؛ آيات القرآن الكريم. وسمي القرآن الكريم آيات الله؛ لما فيه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وكونه صالحاً لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، دالاً على كمال الخالق - عز وجل - في ذاته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، وعلى صدق من جاء به، ولما فيه من صفات الخلود والشمول والكمال، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأها عليك بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلِنُنزِّلَنَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، أي: إذا قرأه جبريل عليه السلام فاتبع قراءته.

﴿بِالْحَقِّ﴾: حال أي: نتلوها عليك حال كونها متلبسة بالحق، والحق الأمر الثابت، فهي بنفسها حق، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ

مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

وطريق وصولها حق، وسندها أصح الأسانيد وأعلاها، نزلت من عند الله - عز وجل - بواسطة جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ سيد المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ لِنزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

وهي أيضًا مشتملة على الحق، أخبارها صدق وأحكامها عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ لما ذكر عز وجل انقسام الناس إلى قسمين: قسم تبيض وجوههم، وقسم تسود وجوههم، وما لكل منهم من الجزاء أتبع ذلك بنفي أن يريد ظلمًا للعالمين في إشارة إلى أن كلاً منهما جوزي بما عمل من غير ظلم بزيادة في عذاب مذنب أو نقص من ثواب محسن، أي: لا يريد كونًا؛ أي: لا يشاء.

والواو في قوله ﴿وَمَا﴾: استثنائية، و«ما»: نافية عاملة عمل «ليس»، ولفظ الجلالة اسمها، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل نصب خبرها، و﴿ظُلْمًا﴾ مفعول لـ«يريد»، وهي نكرة في سياق النفي تدل على انتفاء جنس الظلم أن تتعلق به إرادة الله تعالى، و«العالمين» كل ما سوى الله تعالى.

فنفى عز وجل أن يريد ظلمًا للعالمين، بأن يعذب أحدًا منهم بغير ذنب، أو يزيد في عقابه، أو يضيع عنده ثواب أحد أو ينقص، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١، الحج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

نفى عز وجل أن يريد ظلمًا للعالمين، ثم أيد هذا النفي وقواه ببيان أن له ما في السموات والأرض، وإليه مرجع الأمور كلها، فليس هناك ما يدعوه للظلم؛ لأنه سبحانه وتعالى ذو الكمال في ذاته وصفاته وفي ملكه وسلطانه وغناه، وفي قدرته على كل شيء. والظالم إنما يظلم غيره ليكمل نقصًا في نفسه، أو ليزداد عزًا أو سلطانًا أو ملكًا.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، ولفظ الجلالة «الله» متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«ما»: اسم موصول يفيد العموم بمعنى «الذي» في محل رفع مبتدأ مؤخر.

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله، وجاء التعبير بـ«ما» في الموضعين بدل «من» تغليياً للعالم على غير العالم. وقدم الخبر لإفادة الحصر، أي: والله وحده كل الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقاً وملكاً.

﴿وَالِإِلَهِ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بين - عز وجل - أن له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً، ثم بين أن مرجع الأمور كلها إليه تدبيراً وتصريفاً. وقدم الخبر هنا أيضاً لإفادة الحصر، أي: وإلى الله تعالى وحده وإلى حكمه وقضائه ترجع الأمور كلها، أي: إليه وحده تصير وتعود جميع الأمور والشؤون، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

وأظهر في الجمل الثلاث، بذكر لفظ الجلالة «الله» دون الإضمار تعظيماً لله - عز وجل - ولتكون كل جملة منها مستقلة الدلالة بنفسها.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات البعث والجزاء، والحث على تذكره والتذكير به وأحوال الناس فيه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآية.
- ٢- انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين، فريق تبيض وجوههم، وفريق تسود وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.
- ٣- أن الوجه مرآة يظهر عليها أثر الحالة التي فيها الإنسان من فرح واستبشار، أو خوف وقلق واضطراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، وفي الحديث: «أنه ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه

قطعة قمر»^(١).

- ٤- أن الذين تسود وجوههم يوم القيامة هم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].
- ٥- أن الأصل في العباد الإيـان، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن الكفر طارئ عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.
- ٦- شدة عذاب الكفار وأنه يجمع لهم بين التفرير والتوبيخ والعذاب المعنوي القلبي، وبين العذاب الحسي البدني؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ٧- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بأمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ٨- التحذير من الكفر؛ لأن الله رتب عليه اسوداد الوجوه والعذاب والنكال المعنوي والحسي، القلبي والبدني.
- ٩- أن الذين تبيض وجوههم يوم القيامة هم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا إنما يكون لأهل الإيـان.
- ١٠- أن الجنة رحمة الله تعالى يرحم بها من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.
- ١١- إثبات خلود أهل الجنة في رحمة- عز وجل- وحنته خلوداً أبدياً لا يحول ولا يزول؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فالجنة لا تنفى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها.
- ١٢- الترغيب في الإيـان لما رتب الله عليه من بياض الوجوه ورحمة- عز وجل- والخلود في جنته.
- ١٣- تعظيم آيات الله الشرعية، آيات القرآن الكريم؛ لأن الله أشار إليها بإشارة البعيد تعظيماً لها؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

- ١٤- دلالة القرآن الكريم بإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره على أنه من عند الله - عز وجل - ذو الكمال في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته المستحق للعبادة دون سواه؛ لهذا سمي القرآن الكريم آيات الله.
- ١٥- نزول القرآن الكريم وتلاوته على الرسول ﷺ بالحق، فهو حق ثابت وطريق وصوله إلى الرسول ﷺ حق، وهو مشتمل على الحق، أخباره صدق وأحكامه عدل؛ لقوله تعالى: ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.
- ١٦- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾.
- ١٧- نفي إرادة الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ونفي إرادته - عز وجل - للظلم لا يدل على استحالة ذلك في حقه، كما يزعم المعتزلة، بل لو شاء إرادة ذلك لفعل، لكنه تعالى لا يريد الظلم، وقد حرمه على نفسه.
- ١٨- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ فمفهوم هذا أنه - عز وجل - يريد العدل فيهم.
- ١٩- نفي الظلم عن الله عز وجل؛ لأنه إذا انتفى عنه إرادة الظلم فانتفاء الظلم عنه من باب أولى.
- ٢٠- إثبات كمال عدل الله تعالى؛ لأن نفي إرادة الظلم عنه من الصفات السلبية التي تدل على كمال ضدها وهو عدله في جميع أحكامه الشرعية والجزائية والكونية.
- ٢١- عموم ملك الله عز وجل وأن كل ما في السموات وما في الأرض له وحده؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.
- ٢٢- أن مرجع الأمور كلها ومصيرها إلى الله تعالى وحده، وإلى حكمه وقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.
- ٢٣- أنه ليس ثمة ما يدعو لإرادته تعالى للظلم، وذلك لعصمته - عز وجل - وكماله، وتمام عزته وسلطانه، وعموم ملكه وسعته.

قال الله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدَبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا إِلَّا يُجَبَلِ مِنْ اللَّهِ وَجَبَلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ .

أمر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أن تكون من المؤمنين أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويبن أنهم هم المفلحون، وحدّر من سلوك منهج الذين تفرقوا واختلفوا بعد البيئات وتوعدهم بالعذاب العظيم. ثم أثنى في هذه الآية على هذه الأمة ببيان أنها كانت خير الأمم لقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وفي هذا تأكيد لمكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام، ووجوب الاهتمام به.

قوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ كُنْتُمْ ﴾ الخطاب لهذه الأمة أمة محمد ﷺ، و«كان» هنا مسلوقة الزمن تدل على تحقق الوصف، أي: على تحقق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كنتم وما زلتم.

﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ﴿ خَيْرَ ﴾: اسم تفضيل، ﴿ أُمَّةٍ ﴾ أي: جماعة وطائفة.

﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ أوجدت أي: كنتم خير وأفضل الأمم التي أوجدها الله تعالى منذ بدء الخليقة وأفضلها، وأنفعها للناس، فكتابكم أعظم الكتب، ورسولكم أفضل الرسل، وأمتكم خير الأمم.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: «خير الناس

للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلون الإسلام»^(١).

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الجملة في محل نصب خبر ثان لـ ﴿كُنْتُمْ﴾ أو في محل نصب على الحال من ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أو نعت لها، أو مستأنفة.

وهذه الجملة وما عطف عليها وهو قوله: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فيها بيان وجه وسبب خيرية هذه الأمة على الأمم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ معطوف على ما قبله. والإيمان بالله يشمل الإيمان والتصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه. والإيمان بالله تعالى شرط لصحة وقبول جميع الأعمال الظاهرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

وبهذا كله كانت هذه الأمة خير أمة، وكانت أمة وسطاً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله مع أنه لا يقبل بدون الإيمان بالله؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعار وعنوان ظاهر لقوة الأمة، وقوة إيمانها. وفي قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ امتازت الأمة عن أهل الكتاب، وفي قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ امتازت عن أهل الشرك.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ الواو: استثنائية، و«لو»: شرطية. و﴿ءَامَنَ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

واقترن الجواب باللام على الأوضح والأكثر في جواب «لو» إذا كان مثبتاً، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطْمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وقد تحذف اللام من جوابها، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٧)، والطبري في «جامع البيان» (٦٧٤/٥).

وقوله: ﴿وَلِيَحْشَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩].
 أما إذا كان جوابها منفيًا فالعكس هو الأكثر، وهو حذف اللام من جوابها. وقد
 يقترن بها نادرًا كما قيل:

ولو نُعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي^(١)

والمعنى: ولو آمن أهل الكتاب وبخاصة اليهود بما جاءهم عن الله تعالى على السنة
 رسلهم، وعلى لسان محمد ﷺ كما آمنتم أيها المؤمنون ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان
 الإيمان خيرًا لهم خيرية مطلقة، من الكفر، ومما هم عليه من الرئاسة في الدنيا ومن كل
 شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾
 [البقرة: ١٣٧].

وأيضًا لارتفعت عنهم الذلة والمسكنة وغضب الله، وضوعفت أجورهم؛ كما قال
 تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ يُنثَلِ عَلَيْهِمْ قَالَ ءَأَمْنَا بِهِ ءِ إِنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].
 وقال ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بي
 فله أجران» الحديث^(٢).

﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب الذين آمنوا وهم قليل،
 كالنجاشي من النصارى، و«عبدالله بن سلام» من اليهود.
 ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: وأكثر أهل الكتاب الفاسقون، أي: الخارجون
 عن طاعة الله تعالى، وعن الإيمان به خروجًا مطلقًا إلى معصيته والكفر به. يدل على

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «خزانة الأدب» (٤/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٣)،
 والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١١٦)، وابن ماجه في النكاح (٢٩٥٦)، من
 حديث أبي موسى رضي الله عنه.

هذا: أن قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ذكر في مقابل قوله: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾. والفسق في الأصل يطلق على الكفر.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَاؤَيْبُهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، كما يطلق على ما دون الكفر؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْهُ فَاِسْقُوا بِنِيَابٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

فأكثر أهل الكتاب فاسقون، وأكثر الناس كذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَلَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىٌ وَإِنْ يُقْتَلُوكُمْ يُؤَلِّمُكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُضُرُّوكُمْ﴾.

أثنى عز وجل على هذه الأمة بكونها خير الأمم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، ويين أنه لو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، وأن منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، ثم أتبع ذلك بطمأننة المؤمنين أن أهل الكتاب لن يضرورهم إلا أذى.

قوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. والفاعل في ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾ يعود إلى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لن يضرركم أيها المؤمنون هؤلاء الفاسقون وبخاصة من اليهود الذين ينتشرون بكثرة حول المدينة.

﴿إِلَّا أذىٌ﴾: أداة استثناء، والاستثناء هنا منقطع، أي: لن يضرركم ضرراً بقتال أو غلبة لكن أذى بألستهم بما تسمعون منهم من شرك بالله واستهزاء بكم وبدينكم وسب وشتم ونحو ذلك.

قال ابن القيم^(١): «إذ المعنى: لن ينالوا منكم إلا أذى، وأما الضرر فإنهم لن

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٠٩).

ينالوه منكم ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فنفى لحوق ضرر كيدهم بهم، مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم، ولو أنه بالإرهاب والكلام وإلجائهم إلى محاربتهم، وما ينالهم من الأذى والتعب، ولكن ليس ذلك بضارهم، ففرق بين الأذى والضرر.

ويدل على هذا وأنه لا يلزم من الأذى حصول الضرر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله.

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر»^(١).

وقال ﷺ: «ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيههم ويرزقهم»^(٢).

فأثبت الأذى له لكنه - عز وجل - نفى ضرره له، فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَنُضْرُوا اللَّهُ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»^(٣).

وقيل: إن الاستثناء متصل، أي: لن يضرركم ضررًا ألبتة إلا ضرر أذى، أي: ضررًا يسيرًا لا يبالي به، مما يتفوهون به من سيئ الكلام.

وهذا وعد لرسول الله ﷺ ولأصحابه ولمن تبعهم من المؤمنين باتباع سنته ﷺ واقتفاء آثار أصحابه الكرام، إخلاصًا وعقيدة وعلماً وعملاً، كما قال ﷺ:

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦)، وأبو داود في الأدب (٥٢٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

«لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١).

﴿وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ﴾ أي: وإن يقاتلكم أيها المؤمنون أهل الكتاب وبخاصة اليهود ﴿يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: يجعلون أدبارهم وظهورهم وأفئدتهم تليكم بدل أن تكون وجوههم نحوكم، وهذا كناية عن الانهزام والفرار من موقع القتال، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وقال تعالى في اليهود: ﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: استثنائية، أي: ثم هم لا ينصرون مطلقًا، قاتلوكم أو لم يقاتلوكم.

قال السمين الحلبي^(٢): «قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، ولم يجزم عطفًا على جواب الشرط؛ لأنه كان يتغير المعنى، وذلك أن الله تعالى أخبر بعدم نصرتهم مطلقًا، ولو عطف على جواب الشرط للزم تقييده بمقاتلتهم لنا، وهم غير منصورين مطلقًا قاتلونا أو لم يقاتلونا».

ويحتمل أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة للتراخي في المرتبة، والجملة معطوفة على جملة الشرط والجزاء معًا، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون مطلقًا، فترقى من الإخبار والوعد بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة إلى الإخبار والوعد بما هو أتم وأعلى وأعظم من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقًا، ولا يصح أن يكون العطف على جملة الجواب وحدها ﴿يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ لأنه لو كان العطف على هذه الجملة، لجاء الفعل مجزومًا أي: «ثم لا ينصروا»،

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) في «الدر المصنونة» (١٨٨/٢).

ولكان المعنى أقل، أي: ثم لا ينصروا عند مقاتلتهم لكم.
والنصر: المنعة والتقوية والتأييد. أي: فلا هم يتصرون بمنعة وقوة منهم، ولا أحد غيرهم يستطيع نصرهم بتأييده وتقويته لهم، وجعلهم في منعة من عدوهم.
قال ابن كثير^(١): «وهكذا وقع، فإنهم يوم خير أذلمهم الله، وأرغم آناهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير كلهم أذلمهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، سلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الدهرين».

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يضرب الفاسقون من أهل الكتاب المؤمنين إلا أذى، وأخبر أنهم لو قاتلوا المؤمنين لولهم الأدبار ثم لا ينصرون، ثم بين في هذه الآية سبب ذلك فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الآية.

قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: ضربت على هؤلاء الفاسقين من اليهود الذلة.
وقوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن الضارب للذلة عليهم معلوم وهو الله - عز وجل - وإيثاراً لعدم إسناد ذلك إليه - عز وجل - مباشرة، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»^(٢).

ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: فرضت عليهم الذلة، وألزموها قدرًا وشرعًا، فلا تفارق قلوبهم، أشبه بالنقش على سكة النقود المضروبة، لا يزول عنها، فصارت هذه الذلة كالطبع على قلوبهم لا مخلص لهم منها.

(١) في «تفسيره» (١٦/٢).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الانفتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿الذَّلَّةُ﴾ الذل والهوان والصغار.

﴿أَيْنَ مَا تُقِفُوا﴾ «أينما» اسم شرط جازم مبني في محل نصب على الظرفية المكانية، أي: في أي مكان وُجدوا من الأرض، فهم أذلاء.

﴿إِلَّا يَجِبِلُ مِنَ اللَّهِ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، والباء للمصاحبة والملابسة، أي: ضربت عليهم الذلة في عموم الأحوال إلا في حال كونهم متلبسين و متمسكين بحبل من الله.

و«الحبل» في الأصل ما يتوصل به إلى المقصود، والمراد به في الآية السبب، وسمي السبب «حبلًا»؛ لأنه يوصل إلى المقصود.

فمعنى ﴿إِلَّا يَجِبِلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: إلا بسبب من الله، أي: بعهد من الله ترتفع عنهم به الذلة. وذلك إما بالإسلام وبهذا يحصل لهم كمال العزة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وإما بأدائهم الجزية ورضوخهم لحكم الإسلام ظاهراً، فيأمنون وتحفظ لهم حقوقهم بسبب كونهم أهل ذمة، قال تعالى: ﴿فَنِلُّوا الَّذِينَ لَا يُمِئُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿وَجِبِلُ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: وبحبل من الناس، أي: وبسبب من الناس، أي: بعهد أو أمان من الناس.

والعهد: ما يتم بين المسلمين وبين غيرهم من الكفار أن لا يعتدي أحد على أحد، كما حصل بين الرسول ﷺ وبين المشركين في صلح الحديبية، ولا يصح إلا من ولي أمر المسلمين أو نائبه أو من يقوم مقامه من قائد الجيش ونحوه.

والأمان أن يدخل أحد من غير المسلمين بأمان من أحد من المسلمين يؤمنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَةً﴾ [التوبة: ٦]، ويصح هذا من أي فرد من أفراد المسلمين، كما قال ﷺ لأم

هانئ: «قد أجرنا من أجزت يا أم هانئ»^(١).

وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَحَبَلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ ما هو أعم من العهد والأمان، فيدخل فيه المناصرة والتأييد لليهود من غيرهم من الكفار، كما حصل منذ نحو سبعين سنة وإلى يومنا هذا من مناصرة النصارى لليهود واستيلائهم على فلسطين وبيت المقدس. ﴿وَيَأْتُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رجعوا وانصرفوا بغضب من الله. وهذا مما يقوي أن المراد بالآيات اليهود؛ لأنهم أخص بغضب الله تعالى من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُتُوْبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال ﷺ في تفسير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الآية: ٧]، قال: «المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى»^(٢).

والباء في قوله: ﴿بِغَضَبٍ﴾ للمصاحبة، أي: مصطحبين لغضب من الله، أي: مستحقين مستوجبين لغضب من الله، و«من» في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: للابتداء، أي: صادر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُتُوْبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ومن غضب الله عليه أغضب عليه الخلق، كما قال ﷺ: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس»^(٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذين غضب الله عليهم وأغضب الله عليهم خلقه.

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٣٣٦)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٨-٣٧٩)، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص (٤٩٣).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضرب الله تعالى عليهم المسكنة، وبُني الفعل لما لم يسم فاعله هنا؛ لما ذكر في قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾.

أي: وفرضت عليهم المسكنة وألزموها قدرًا وشرعًا، فلا تنفك عنهم. والمسكنة في الأصل: الفقر والحاجة، ومنه سمي «المسكين» أخذًا من السكون وعدم الحركة واللصوق للتراب بسبب الفقر والحاجة.

والمعنى: ألزموا السكنة، وهي فقر القلوب؛ ولهذا فهم أحرص الناس على جمع المال وأشدهم إمساكًا له، فمع أنهم الآن أغنى العالم وأكثرهم عرضًا فهم أفقر الناس قلوبًا، وأقلهم بذلًا وأعظمهم شحًا وبخلًا، كما قال تعالى: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة لما سبق، أي: ذلك المذكور من ضرب الذلة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله، وضرب المسكنة عليهم.

﴿يَأْتُهُمُ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ «كان» هنا مسلوبة الزمن تدل على اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كانوا وما زالوا، ولهذا عبر هنا بالمضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على ذلك في المستقبل. أي: بسبب أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدونها، ولا يؤمنون بها، مما أنزل على رسلهم، وعلى محمد ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ أي: ويقتلون الأنبياء الذين أرسلوا إليهم قتلاً بغير حق، أي: بالباطل والظلم. والمراد بهذا أسلاف بني إسرائيل، لا المعاصرين له ﷺ.

كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الآية: ٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ قَتَلْتُمُونَنَا يَا اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقِّ﴾ لبيان الواقع، وهو أن قتل الأنبياء كله بغير حق، ولا يمكن أن يكون بحق، وفيه أيضًا: تشنيع على أهل الكتاب.

فجمعوا بين الكفر بآيات الله وهذا إخلال بالتوحيد وبين قتل الأنبياء وهذا إخلال بالرسالة.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا تأكيد وتعليل لما قبله، أي: ضربت عليهم الذلة، ورجعوا بالغضب وضربت عليهم المسكنة بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ لأن الكفر عصيان ومخالفة، وقتل الأنبياء تعدٍ واعتداء. فالإشارة هنا لسبب ما وقع بهم وهو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق. والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم بالكفر بآيات الله، ولسبب اعتدائهم بقتل أنبياء الله بغير حق، بل ظلماً وعدواناً. فكفرهم بالآيات سببه العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء. ويحتمل أن تكون الإشارة إشارة ثانية إلى ضرب الذلة والمسكنة والغضب، فيكون سبباً ثانياً.

الفوائد والأحكام:

١ - شهادة الله تعالى لهذه الأمة بأنها خير الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ لأن المراد به عالمو زمانهم، يقوي هذا قوله ﷺ في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(١).

وقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أَعْطُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا»^(٢). وهذا مما خص الله تعالى به هذه الأمة، كما قال ﷺ: «وجعلت أمتي خير الأمم»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في التفسير - سورة آل عمران - (٣٠٠١)، وابن ماجه في الزهد - صفة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، وأحمد (١٢٦/١، ٤٤٧/٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧٨/٢): «وهو

حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبي سعيد، ونحوه».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٩٨/١)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عن سهل بن سعد- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوهم على صورة القمر ليلة البدر»^(١).

٢- أن سبب خيرية هذه الأمة على غيرها من الأمم كونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وبهذا امتازت هذه الأمة وتميزت عن سائر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمتى تخلت الأمة عن القيام بهذه الشعيرة فإنها لا تستحق هذه الخيرية. ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله منها»^(٢).

٣- التعريض بما عليه أهل الكتاب من عدم التناهي عن المنكر، كما قال تعالى عنهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

بل ومن عدم الإيمان بالله حقاً وبما أوجب الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعظم مكانتهما في الإسلام؛ لأن الله رتب الخيرية على القيام بهما مع الإيمان بالله. ولهذا عد بعض أهل العلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الركن السادس من أركان الإسلام.

٥- أنه كلما قامت الأمة بهذا الواجب العظيم؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثير فيها الخير والصلاح وظهر فيها الحق، وبإضاعة هذا الواجب يكثر الشر، وينتشر

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٧)، ومسلم في الإيمان (٣٧٣)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦٧٣/٥).

الفساد، ويعلو صوت الباطل، كما هو الحال في كثير من البلاد الإسلامية. ولن يعود للأمة مجدها وعزها وسؤدها وكرامتها، ولن تحقق خيريتها إلا بالقيام بهذه الشعيرة العظيمة، فهي صمام أمان للأمة.

٦- إثبات التفاضل بين العمّال، وتفاضل العمّال بتفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية. وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصانه - كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

٧- أن الإيمان بالله شرط لصحة وقبول جميع الأعمال من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

٨- البشارة ببقاء هذه الشعيرة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله في هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وكما قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١).

٩- التنديد بمسلك أهل الكتاب باختيار الكفر بدل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

١٠- أن أهل الكتاب منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١١- عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم ليسوا على الحق والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١٢- أن أهل الكتاب لن يضرروا المسلمين في قتال أو غلبة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾. وهذا وعد من الله - عز وجل - لا يتخلف مع تحقيق الإيمان والقيام بأمر الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من واجبات الدين. فإن فرطت الأمة في ذلك - كما هو حال المسلمين

(١) سبق تخرجه قريباً.

اليوم - فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب.

١٣ - أن أهل الكتاب قد يستطيعون أذى المؤمنين بالاستهزاء بهم وبدينهم وبرسولهم؛

لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَذَىٰ ۗ﴾ أي: لكن يؤذونكم أذى بالاستهزاء ونحوه.

وقد كان اليهود ينادون الرسول ﷺ بقولهم: «راعنا» ويورون بوصفه ﷺ

بالرعونة. فنهى الله - عز وجل - المؤمنين عن هذه الكلمة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نُنْظَرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. وكانوا يسلمون

على النبي ﷺ وأصحابه بقولهم: «السام عليكم»^(١) أي: الموت.

١٤ - أن أهل الكتاب لو قاتلوا المسلمين، لولوا أديبارهم المسلمين فارين منهزمين؛

لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُفْتِنُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ لما هم عليه من الخوف والجبن وفي

الإخبار بهذا تقوية للمسلمين وتثبيت لهم.

وهذا مرهون بصدق المسلمين مع الله وتمسكهم حقاً بدينهم وإعداد القوة مما

يجعل لهم القوة والهيبة في نفوس أعدائهم، كما قال ﷺ في الحديث: «نصرت

بالرعب مسيرة شهر»^(٢).

وما حصل من استئساد لليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، ليس

لشجاعة فيهم وإنما سبب ذلك تخلي المسلمين عن الأسباب التي رتب الله النصر

عليها، من التمسك حقاً بدينهم، وإعداد القوة، ففقدوا القوتين القوة المعنوية

بعدم التمسك بدينهم، والقوة المادية بعدم إعداد العدة والعتاد، وبهذا خلا الجو

لغيرهم واستأسد الفأر، وكما قيل:

خلا لك الجو فيضي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري^(٣)

والله - عز وجل - لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِن

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)،

من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص ٤٦).

اللَّهِ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ وَحَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿الرعد: ١١﴾.

١٥- أن أهل الكتاب لا ينصرون على أهل الإيمان سواء قاتلوهم أم لم يقاتلوهم؟
لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ﴾.

وهذا وذاك والذي قبلهما، أعني عدم نصره أهل الكتاب، وتوليتهم الأديبار، وعدم ضررهم المؤمنين إلا أذى كل هذا مشروط باجتماع القوتين المعنوية والمادية عند المسلمين؛ المعنوية بتمسكهم بدينهم عقيدة وقولاً وعملاً، والمادية بإعداد العدة والعتاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿الأنفال: ٦٠﴾.

١٦- ضرب الذلة على أهل الكتاب وبخاصة اليهود وملازمتها لهم وعدم انفكاكها عنهم، حتى ولو صار لهم بعض الظهور، فإنهم أذلاء مهزومون من الداخل؛ لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثَبِّتُوا﴾، فحالهم كحال الذي يصيح ويصرخ وهو الأعلى، فقيل: كيف تصرخ وأنت الأعلى؟ فقال: أخاف أن يقلب بي.

١٧- أن الذلة لا ترتفع عن أهل الكتاب إلا بحبل من الله، أي: إلا بعهد من الله بأن يسلموا، أو يدفعوا الجزية فيكونوا أهل ذمة تحفظ لهم بذلك حقوقهم وكرامتهم، أو بحبل من الناس كالعهد أو الأمان بينهم وبين المسلمين ونحو ذلك.

١٨- غضب الله على أهل الكتاب وبخاصة اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

١٩- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق به، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية المتعلقة بمشيئته عز وجل. وهو صفة كمال لله تعالى عند حصول سببه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٢٠- ضرب المسكنة على أهل الكتاب، فهم فقراء النفوس والقلوب حتى ولو كانوا من أكثر الناس مالاً وثروة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾. وقد قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٣)، وابن

- ٢١- الدلالة على نبوته ﷺ وصدق ما جاء به من الإخبار بالغيب الذي وقع من ضرب الذلة والمسكنة على اليهود وغير ذلك.
- ٢٢- أن السبب في ضرب الذلة على أهل الكتاب، وغضب الله عليهم وضرب المسكنة عليهم هو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيائهم واعتداؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكِ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.
- ٢٣- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.
- ٢٤- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾.
- ٢٥- التشنيع على أهل الكتاب وبيان شدة عتوهم وطغيانهم، حيث جمعوا بين الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، وبين العصيان والعدوان، بين معصية الله تعالى بالكفر، والاعتداء بقتل الأنبياء بغير حق.
- ٢٦- أن المعاصي يجر بعضها بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.
- ٢٧- ربط الأشياء بأسبابها والعقوبات بموجباتها وبيان عدل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾.
- ٢٨- التحذير من مسالك أهل الكتاب من الكفر بآيات الله والعصيان والاعتداء ونحو ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آلِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آلِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أن أكثر أهل الكتاب فاسقون، وضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم، ثم أتبع ذلك ببيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء فمنهم أمة مؤمنة قائمة على أمر الله، وفيه تأكيد لقوله تعالى في ذلك: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما أسلم عبد الله ابن سلام، وثعلبة بن سَعِيَّة، وأسيد بن سَعِيَّة، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فأمنوا وصدقوا ورجبوا في الإسلام، وتنحوا فيه^(١)، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آلِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾»^(٢).

قوله: ﴿لَيْسُوا﴾ الضمير يعود إلى أهل الكتاب، والمراد بهم الموجودون في عهد النبي ﷺ، والواو: اسم ليس. ﴿سَوَاءً﴾: خبرها. و«سواء» بمعنى متساوين، أي: ليسوا على حد سواء؛ كلهم فاسقون وكفار، بل منهم المؤمنون، كما قال تعالى قبل هذا:

(١) أي: توجهوا له، وصاروا في ناحيته وقصدوه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/٦٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٧٣٧). وانظر: «السيرة

النبوية» لابن هشام (١/٥٥٧).

﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الآية: ١١٠]، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، وفي هذا إنصاف لهم، واحترام من أن يظن أن أهل الكتاب كلهم على غير الإيمان.

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: جملة مستأنفة، وهو وما بعده بيان لقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فلم يقل: «منهم» بل قال: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ - والله أعلم - لطول الفصل بين الظاهر الذي ترجع إليه الضائرتان، أو لاستئناف الجملة، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها ومعناها، ولتشريف هذه الأمة من أهل الكتاب.

و﴿مِنْ أَهْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجاز الابتداء بها وهي نكرة لوصفها بـ﴿قَائِمَةٌ﴾.

و﴿أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة وجماعة. ﴿قَائِمَةٌ﴾ أي: ثابتة على الحق، مستقيمة على طاعة الله تعالى قائمة بأمره، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣].

وقال ﷺ: «قل آمنتم بالله ثم استقم»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة»^(٢).

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«أمة»، ويجوز كونها في محل

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، من حديث سفيان بن عبدالله الثقفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢١٧٣)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

نصب على الحال والتعبير بالمضارع في «يتلون» وفي الأفعال بعده للدلالة تجدد هذه الأفعال منهم.

والمراد بـ ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ آياته الشرعية «القرآن الكريم».

وتلاوتها تكون بقراءتها قراءة لفظية- مع تدبر معانيها، وتكون باتباعها والعمل بأحكامها- وكل منهما مراد هنا، فالمعنى: يقرؤون آيات الله الشرعية ويعملون بما فيها.

﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: أوقات الليل وساعاته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبْرِينَ

إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي: غير منتظرين وقت نضجه.

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ الجملة مستأنفة، أي: وهم يسجدون لله ويصلون، ويحتمل

كونها في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ أي: يتلون آيات الله وهم ساجدون أي: وهم يصلون.

والسجود يطلق على السجود على الأعظم السبعة، كما في الحديث: «أمرت أن

أسجد على سبعة أعظم»^(١).

كما يطلق السجود على الصلاة كلها، وإنما خص السجود بالذكر أو أطلق على

الصلاة كلها؛ لأنه أفضل حالات الصلاة فهو أفضل من القيام، ومن الركوع؛ لأنه أدل

على كمال الخضوع؛ لقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢)، وقوله ﷺ

لربيعة الأسلمي لما سأله مرافقته في الجنة قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»^(٣).

فوصفهم في هذه الآية بتلاوة آيات الله، وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل

الحالات؛ الصلاة، والسجود فيها، أي: جمعوا بين أفضل القول وهو تلاوة القرآن،

وأفضل الفعل وهو السجود لله تعالى.

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٠)، ومسلم في الصلاة (٤٩٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٩٧)، والترمذي

في الصلاة (٢٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبوداود في الصلاة (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق (١١٣٨)، من

حديث ربيعة بن كعب رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الكلام مستأنف. وقدم ذكر تلاوة آيات الله والسجود على الإيمان بالله واليوم الآخر - والله أعلم؛ لأن تلاوة آيات الله سبب للإيمان به وباليوم الآخر والثبات على ذلك.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لـ «أمة» وأن تكون حالاً، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويصدقون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وما يقع فيه من الأهوال والحساب والجزاء والجنة والنار وغير ذلك. وسمي بـ«اليوم الآخر» لأنه لا يوم بعده، فأخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة. ويقرن عز وجل في القرآن الكريم الإيمان باليوم الآخر كثيراً بالإيمان به - سبحانه وتعالى؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل ويحفز على العمل حيث فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر لعظم مكانته في الإسلام، ومقابلة لوصف المؤمنين به في قوله قبل هذا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الآية: ١١٠]، فوصف به أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص. وعُدِّي الفعل «يسارعون» بـ«في» دون «إلى»؛ ليتضمن ذلك المسارعة إلى الخيرات، والمسارعة في الخيرات أثناء القيام بها، فهم يفعلون الخيرات ويبادرون إلى فعلها وفي فعلها ويكملونها.

﴿وَالْحَيَّرَاتِ﴾ جمع «خيرة» أو «خير» وهي كل ما يقرب إلى الله تعالى من فعل الواجبات والمندوبات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدقات والإحسان إلى الغير قولاً وفعلًا وبدلاً وغير ذلك.

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الإشارة للأمة من أهل الكتاب القائمة بأمر الله تعالى الموصوفة بالصفات المذكورة. وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تعظيماً لشأنهم ورفعاً لمنزلتهم. و«من» في قوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: تبعيضية، و﴿الصَّالِحِينَ﴾ جمع «صالح»، والصالح ما توفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥).

قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بياء الغيبة: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾، وقرأ الباقون بقاء الخطاب على الالتفات «وما تفعلوا من خير فلن تكفروه».

والواو في قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا﴾: عاطفة، و«ما»: شرطية، و﴿يَفْعَلُوا﴾: فعل الشرط، و«من» في قوله: ﴿مِنَ خَيْرٍ﴾ بيانية فيها بيان الإبهام في اسم الشرط «ما»، أي: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي خير كان، قليلاً كان أو كثيراً، وأياً كان نوعه وكيفه وكمه. ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾: جملة جواب الشرط، وربط بالفاء لاقتراحه ب(لن).

والمعنى: فلن يجحد ويستر ذلك الخير، أي: فلن يجرموا ثوابه ولن يضيع عند الله عز وجل.

بل سيجازون ويشكرون عليه. والكفر ضد الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾

[الإسراء: ١٩].

﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أي: والله ذو علم بالمتقين الذين اتقوا الله بفعل الخيرات وترك المحرمات، رجاء في ثوابه وخوفاً من عقابه.

وفي ختم الآية بهذا تأكيد لقوله قبله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الآية، ولقوله: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾، وفيه وصف لهم بالمتقين وهو مسك ختام أوصافهم، ووعد لهم بالجزاء والثواب، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- أن أهل الكتاب ليسوا سواء على منهج واحد، فكما أن منهم الفاسقين الكافرين فمنهم أمة مؤمنة قائمة بأمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ الآية.

٢- كمال عدل الله - عز وجل - فإنه لما ذكر أن أكثر أهل الكتاب فاسقون وذمهم وذكر ما عوقبوا به بين في هذه الآيات أنهم ليسوا سواء، وأن منهم أمة قائمة - يعني قائمة بأمر الله وأثنى عليهم بذكر صفاتهم - احتراماً من أن يظن أن أهل الكتاب كلهم فاسقون وكفار لا خير فيهم.

٣- امتداح من آمن من أهل الكتاب والثناء عليهم بالقيام بأمر الله تعالى، وتلاوة آياته أثناء الليل، والصلاة والسجود لله تعالى، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في الخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ۖ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۗ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

- ٤- أن ما فعله أهل الكتاب وغيرهم من خير فلن يضيع عند الله، وسيجازون به ويعطون ثوابه كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.
- ٥- تساوي الناس في الإسلام فيما يشرع لهم القيام به من الأعمال، ومجازاة كل منهم بما عمل، سواء من كان منهم أصله من أهل الكتاب أو من هذه الأمة.
- ٦- الحث والترغيب في الصفات المذكورة من القيام بأمر الله تعالى، وتلاوة آياته آناء الليل والسجود له، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات، وبيان فضيلة هذه الأعمال، ومكانة المتصفين بها؛ لأن الله - عز وجل - أثنى على أهلها، وأشار إلى رفعة مكانتهم وأنهم من الصالحين، المتقين، ووعدهم بإثابتهم على ذلك.
- ٧- فضيلة الصلاح؛ لأن الله وصف به أهل الإيمان به، بل وصف به أنبياءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
- ٨- أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.
- ٩- الترغيب في عمل الخير مطلقاً قليلاً أو كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.
- ١٠- علم الله تعالى الواسع بالمتقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، وفي هذا تأكيد لقوله تعالى قبل هذا: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.
- ١١- أن من عمل بما ذكر من الصفات المذكورة في الآيات فهو من الصالحين المتقين.
- ١٢- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ لأن علمه عز وجل بالمتقين فيه وعد لهم بمجازاتهم بالثواب، كما يفهم من ذلك التحذير من ترك التقوى، والوعيد لغير المتقين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

كما قال تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١١٠﴾﴾ [الآية: ١١٠].

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أن من أهل الكتاب أمة قائمة بأمر الله وأثنى عليهم ووعدهم بالثواب، ثم أتبع ذلك بالوعيد للذين كفروا في هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «إِنَّ» للتوكيد، أي: إن الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه أو شيئاً من ذلك، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧].

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن تدفع ولن تجزي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً بدفع ومنع شيء من عذاب الله وبأسه عنهم قبل وقوعه، أو رفعه بعد وقوعه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله أي شيء، أيًا كان ومهما قل.

﴿أَمْوَالُهُمْ﴾: الأموال: جمع مال، وهي كل ما يتحول ويملك من نقد أو عين وغير ذلك، أي: لن تغني عنهم أموالهم من الله شيئاً، بأن يقدموها فدية للخلاص من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾.

لِيَقْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿المائدة: ٣٦﴾، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿الحديد: ١٥﴾.

﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الواو: عاطفة، وكرر حرف النفي «لا» لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم شيئاً، بدفع ومنع عذاب الله عنهم أو رفعه. وخص الأموال والأولاد؛ لأنهم يفتخرون بذلك، ولأن الناس في الدنيا يفتدون بالمال ويدفعون به عن أنفسهم، ويتقون بالأولاد ويتصرفون بهم، كما ينتصر الأقارب بعضهم ببعض، كما قال الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجاء بدون سلاح^(١)

لكن ذلك لا يدفع بأس الله تعالى عنهم وعقابه إذا أَرَادَهُ بِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿الرعد: ١١﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿الأحزاب: ١٧﴾.

وأما في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء: ٨٨-٨٩﴾، وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ ﴿الممتحنة: ٣﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَجِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمْرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿عبس: ٣٤-٣٧﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُصْرُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ يُؤْتِيهِمُ الْيَوْمَئِذِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَجِيَّتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴿المعارج: ١٠-١٤﴾.

﴿وَأَوْلَاتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، أي: أولئك الذين كفروا ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أهلها وساكنوها وملازموها.

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» (ص ٢٩).

﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تأكيد للجمله قبلها، وبيان أن مصاحبتهم للنار مصاحبة خلود فيها، لا انقطاع لها.

أي: هم فيها ماكثون مقيمون إقامة أبدية؛ لأن النار لا تفتنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها. وقد أكد هذا باختيار الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والدوام.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآية السابقة أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ثم أتبع ذلك ببيان السبب في ذلك وهو بطلان نفقاتهم بسبب كفرهم وظلمهم.

قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿مَثَلُ﴾ أي: شبه وصفة، ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة تفيد العموم أي: مثل الذي ينفقون في هذه الحياة الدنيا في بطلانه واضمحلاله، وهو عام لكل ما ينفقونه من أموالهم في وجوه البر والخير، أو في وجوه الكفر والشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ الكاف للتشبيه، كشبه وصفة ﴿ريحٍ فيها صِرٌّ﴾ أي: ريح عاصفة شديدة الهبوب، شديدة البرد، شديدة الصوت، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكْنَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: زرع قوم، ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَانِ ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئاً﴾ [الكهف: ٣٣]. أي: ولم تنقص منه شيئاً. وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

ويشمل في الشرع ترك الواجب وفعل المحرم، أي: ظلموا أنفسهم بالمعاصي، وأعظم ذلك الشرك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾

[الأنعام: ٨٢] أي: بشرك، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿فَأَهْلَكْتُهُ﴾ أي: أبيضته وأحرقته، بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي

عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فشبه عز وجل نفقات الكفار في اضمحلالها وعدم انتفاعهم بها بسبب كفرهم - وهم أحوج ما يكونوا إليها - بزرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فسلط الله عليه ريحاً شديدة البرودة فأهلكته، وهم أحوج ما يكونوا إليه فلم تقبل نفقات هؤلاء بسبب كفرهم، ولم يسلم هؤلاء حرثهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، أي: وما ظلمهم الله فيما أوقع

بهم، بل هذا مقتضى عدله، والجزاء من جنس العمل.

والضمائر في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تعود إلى الذين

كفروا، أي: وما ظلمهم الله في إبطال نفقاتهم وعدم قبولها؛ لأنهم هم الذين تسببوا في ذلك بظلمهم لأنفسهم بالكفر المحبط للأعمال.

ويجتمل أيضاً عود الضمائر على أصحاب الحرث، أي: وما ظلمهم الله في إهلاك

حرثهم بالريح والبرد؛ لأن سبب ذلك ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

ولا مانع من حمل الضمائر على الجميع فكل من الفريقين هلك وضاع نتاج عمله

بسبب ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي.

وقدم المفعول ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لإفادة الحصر، أي: لا يظلمون إلا أنفسهم، كما قال

تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

الفوائد والأحكام:

١ - أن الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عقاب الله وعذابه شيئاً،

لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ

وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾، بل هي وبال وحسرة عليهم؛ لأنهم اتخذوها للصد عن

- دين الله، والتكاثر والتفاخر والخيلاء.
- ٢- أن أهم ما يستغني به الناس في حياتهم الأموال والأولاد.
- ٣- ينبغي التعلق بالله ورجائه، وعدم الاغترار بالأموال والأولاد فإنها لا تنفع إلا إذا استعين بها على طاعة الله تعالى وأنفقت في سبيله.
- ٤- أن الذين كفروا هم أهل النار وساكنوها وملازموها، والخالدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ أَحْصَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.
- ٥- إثبات النار، وأنها لا تنفى ولا يفنى عذابها.
- ٦- تحقير الكفار؛ لقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ بإشارة البعيد.
- ٧- ضرب الأمثال في القرآن الكريم بتشبيه المعقول بالمحسوس لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ الآية.
- ٨- أن نفقات الكفار في الحياة الدنيا لا تنفعهم في الآخرة بل تضيع سدى وتذهب هباءً؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥].
- ولما سألت عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ: قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).
- ٩- التحذير من إنفاق الأموال لغير وجه الله تعالى، للرياء وكسب الثناء والذكر عند

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٣٦٥).

الناس، وفي المحرمات والمعاصي.

١٠- بلوغ القرآن الكريم الغاية في البلاغة في تشبيهه نفقات الكفار في ضياعها واضمحلالها وهلاكها بريح فيها صر أصابت حرث قوم فأهلكته.

١١- أن الله- عز وجل- ما ظلم هؤلاء الكفار في إبطال نفقاتهم؛ لأن ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر، كما أنه سبحانه ما ظلم أصحاب هذا الحرث بإهلاكه بالريح؛ لأن ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٢- كمال عدل الله- عز وجل- وأنه لا يظلم أحد من خلقه، وإنما هم يظلمون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَنَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

١٣- الإشارة إلى أن نفس الإنسان وديعة عنده ينبغي أن يحملها على ما فيه صلاحها ونجاتها وسعادتها في دينها ودنياها وأخراها وأن ينأى بها عن مواقع الزلل والخطر، وما يعرضها للهلاك، ولعذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٤- أن الكافر والعاصي لا يضر في الحقيقة إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتقديم المفعول أنفسهم للدلالة على الحصر؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧، الأعراف: ١٦٠].

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِنْتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ سَأَوْهُمْ وَإِن تُصِيبِكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ .

قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، ﴿تَتَّخِذُوا﴾ أي: تجعلوا، وهو ينصب مفعولين، الأول هنا «بطانة» والثاني محذوف تقديره «أصفياء» أو نحو ذلك. و«البطانة» بكسر الباء وهي في الأصل: داخل الثوب الذي يلي البدن، وجمعها بطائن، كما قال تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِّنْ إِسْتَرْبِقٍ﴾، و«بطانة الرجل» هم أصفياءه وأصدقائه وخاصة الذين يفضي إليهم بأسراره ويطلعهم على خاصة أموره وأحواله. قال الشاعر:
أولئك حُلُصَانِي نَعَمٍ وَبِطَانَتِي وهم عييتي من دون كل قريب^(١)
سموا بطانة؛ لأنهم يلونه ويطلعون على أسراره وأموره الباطنة، كما تلي بطانة الثوب بدن لابس، والثوب له بطانة وله ظهارة، فالبطانة: ما ولي الجسد، والظهارة: ما كان فوق ذلك.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«بطانة»، ويجوز تعلقه بـ«لا تتخذوا»، و«من» للتبعيض أي: من غيركم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، أي: من غير الله. فقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٠٧).

غير أهل دينكم المسلمين.

وقيل: «من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير على هذا: لا تتخذوا بطانة دونكم في الإيمان والعمل والمنزلة.

والمعنى: لا تتخذوا وتجعلوا أولياء وأصفياء وخواص لكم من المنافقين، واليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر تفضون إليهم بأسراركم، وتطلعونهم على دواخل أموركم وأحوالكم، وهم «الوليجة»، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ [التوبة: ١٦].

وقد روي أن هذه الآيات نزلت في قوم من المؤمنين كان يصفون المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية عامة فلا يجوز اتخاذ بطانة من غير المؤمنين مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ خَبَالًا مَدُونًا مَاعِنْتُمْ فَادَّتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

هذه الجملة مستأنفة، تعليلاً للنهي في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أي: لأنهم لا يأتونكم خبالاً ويودون ما عنتم، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر.

﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ خَبَالًا﴾ ﴿لَا﴾: نافية، و«يألون»: ينصب مفعولين، الأول ضمير المخاطبين، والثاني ﴿خَبَالًا﴾. أي: لا يألون جهداً ولا يقصرون في خبالكم.

ومنه قول معاذ رضي الله عنه: «أجتهد رأيي ولا ألو»^(١) أي: لا أقصر في ذلك.

والخبال: الفساد في الرأي والعقل؛ ولهذا يوصف به فاسد الرأي والعقل.

والمعنى: أنهم يبذلون كل جهد لإفساد رأيكم، وتقليلكم، واختلال أموركم.

﴿وَدُونًا مَاعِنْتُمْ﴾ الود: خالص المحبة، و«ما»: مصدرية، و«العنت»: المشقة

الشديدة والتعب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي: لشق

(١) أخرجه أبو داود في الأفضية (٣٥٩٢)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

عليكم، وقال تعالى: ﴿عَزَّيْرُ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: ما شق عليكم.

فمعنى ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أحبوا بكل قلوبهم «عتكم» أي: المشقة الشديدة عليكم وإتعايبكم، معنويًا بقلوبكم، وحسيًا بأبدانكم وأموالكم، في أمور دينكم ودنياكم، بإضعاف قوتكم المعنوية؛ قوة الدين والإيمان بالتشكيك في دينكم، وصد الناس عنه ونحو ذلك، وإضعاف قوتكم المادية العلمية والاقتصادية والسياسية، وقوة العدة والعتاد وغير ذلك.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿بَدَتِ﴾ أي: ظهرت، ﴿الْبَغْضَاءُ﴾: الكراهية والحنق والحقد والعداوة، ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، ﴿مِنْ﴾: لابتداء الغاية، اي: قد ظهرت الكراهة والعداوة الشديدة لكم، ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: من أقوالهم وفتلات ألسنتهم، فهم لشدة عداوتهم لا يملكون أنفسهم، ولا يقدرّون على حفظ ألسنتهم من النضح بها في قلوبهم، وإن حاولوا التكتّم على ذلك بغية الوصول إلى مآربهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

وفي الأثر: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله عز وجل على صفحات وجهه وفتلات لسانه»^(١)، وكما قيل: «كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفتلات اللسان». قال الشاعر:

فحسبكم هذا التمايز بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح^(٢)
وقال الآخر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم^(٣)

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ «ما»: موصولة، أي: والذي تخفي صدورهم وقلوبهم من البغضاء والكراهية والعداوة لكم أكبر وأعظم، مما يظهر من أفواههم وعلى ألسنتهم.

(١) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/١٣٦).

(٢) البيت لحيص بيص. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/١٩١).

(٣) البيت لزهير. انظر: «ديوانه» (ص ١٥).

وفي هذه الجملة الأربع تأكيد للنهي السابق وكشف وفضح لكثير ممن يتملقون ويظهرون خلاف ما يبطنون من البغضاء والعداوة وإضهار الشر والغش، كما قيل:

لا تأمنن عدوًّا لأن جانبه خشونة الصل عقبى ذلك اللين^(١)
وقال الآخر:

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب^(٢)
وقال الآخر:

يعطيك من أذى اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب
يلقاك يحلف إنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب^(٣)

واتخاذ بطانة من غير المسلمين خطره عظيم، وضرره جسيم على الأمة، على الأفراد والجماعات، وبخاصة ولاية الأمر وأرباب المسؤوليات في الأمة، ولهذا يجب الحذر كل الحذر من ذلك، فإنهم مهما أظهروا من النصح فلا يوثق بهم، ولا ينبغي أن يطلعوا على أحوال المسلمين وأسرارهم.

وقد ذكر أن أبا موسى الأشعري - رضي الله عنه - اتخذ كاتبًا نصرانيًا في بيت المال فكتب إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعزله، وقال: كيف نأمنهم وقد خوَّفهم الله؟ فكتب إليه أبو موسى: إن بيت المال بحاجة إليه وإنه ذو معرفة بالكتابة والحساب ولا يوجد من يقوم مقامه.

فأرسل إليه عمر - رضي الله عنه - بطاقة صغيرة كتب فيها: «مات النصراني والسلام»^(٤) أي: قدّر أن هذا النصراني مات، هل تتعطل أمور الأمة؟ أي: ابحث عن غيره فلسنا بحاجة إلى مثله.

كما ينبغي أن يحذر من البطانة السيئة حتى ممن يحسبون على الإسلام من أرباب الشبهات والشهوات الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ

(١) البيت ينسب للشريف الرضي. انظر: «جواهر البلاغة» ص ١٨٢، «البلاغة الواضحة» ص ١٥٦.

(٢) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص ١٥).

(٣) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٥١).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿ [النساء: ٢٧].

وما أكثر هؤلاء من دعاة الديمقراطية والتطور والانفتاح ونبذ الموروث القديم من أبواب أعداء الإسلام ممن هم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه: «دعاة على أبواب جهنم»^(١).

وكم زال من ملك، وتبدلت من دول، وزالت من نعم، وحلت من نقم، بسبب التساهل في اختيار البطانة الصالحة، مما يوجب الحرص على اختيار البطانة الصالحة، والحذر من بطانة السوء.

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»^(٢).

ولهذا كان من أهم ما يُدعى به لولاءة أمور المسلمين أن يرزقهم الله البطانة الصالحة التي تدلهم على الخير وتحثهم عليه، وتحذرهم من الشر وتنهاتهم عنه.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: قد أوضحنا وأظهرنا لكم عناية بكم الآيات الكونية والشرعية، ومن ذلك الدلائل على سوء اتخاذ بطانة من دونكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٥].

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي عقول تعقلون بها وتفهمون ما بيّناه لكم من الآيات، وتهدىكم إلى ما ينفعكم وتمنعكم عما يضركم.

وذلك أن العقل عقلاق: عقل هو مناط التكليف، ولولاه ما كلفوا، وليس مراداً هنا، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو المراد هنا.

أي: إن كنتم ذوي عقول تعقلون بها الآيات وتهتدون بها إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١١)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أي: إن بياننا الآيات لكم لا يظهر إلا لمن كان له عقل يده ويهديه إلى الحق، ويجزئه ويمنعه عن الباطل واتباع الهوى، فيهتدى بالآيات إلى الحق، ويتعد عن الباطل، ويسلم من اتخاذ بطانة من دون المؤمنين تفسد عليه أمره. قال الشاعر:

وأفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا^(١)

أما من كان له عقل لكنه لم يهده إلى الحق ولم يجزئه عن الباطل فإنه أعمى عن بيان الآيات، وليس بعاقل، بل متبع لهواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وقال الذين كفروا: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

قوله تعالى: ﴿هَاتَتْكُمْ أَوْلَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا لِلَّهِ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١١٣﴾. نهى الله - عز وجل - المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم، وعلل لذلك النهي بأن هؤلاء البطانة لا يألون جهداً في خيال المؤمنين، ويودون عنهم، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وأنه ليس من العقل اتخاذهم بطانة، ثم ذكر في هذه الآية والتي بعدها ما يؤيد ذلك من واقع تعاملهم وبين خطأ المؤمنين في موالاتهم حتى يبذلونها لمن لا يحبهم بل يبغضهم ويعاديهم.

قوله: ﴿هَاتَتْكُمْ﴾ قرأ قبيل عن ابن كثير بالقصر: «هاتتم»، وقرأ الباقون بالمد ﴿هَاتَتْكُمْ﴾ و«ها»: حرف تنبيه، «أنتم»: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والخطاب للمؤمنين. ﴿أَوْلَاءَ﴾: اسم إشارة منادى، وأصله: يا هؤلاء ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: خبر المبتدأ.

والضمير «هم» في ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعود إلى البطانة في قوله: ﴿بِطَانَةٍ مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أي: تحبون هذه البطانة، أي: ها أنتم يا هؤلاء المؤمنين تحبون هؤلاء المنافقين الذين اتخذوهم بطانة من دونكم إحساناً منكم الظن بهم، لما يظهرون لكم من الإيمان.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي: وهم لا يحبونكم لا ظاهراً ولا باطناً، كما قال تعالى: ﴿قَدْ

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (٢/١١٣).

بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴿٤٣٦﴾.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: معطوف على ما قبله، و«ال» في «الكتاب»: للجنس،

أي: وتؤمنون بكتب الله تعالى كلها، ولهذا أكده بقوله: ﴿كُلِّهِ﴾.

أي: وتصدقون ظاهراً وباطناً بجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى؛ القرآن والتوراة والإنجيل والزيور، وصحف إبراهيم وغيرها، مما سمى الله تعالى لكم ومما لم يسم. وهم في شك وريب من ذلك، بل لا يؤمنون بذلك، أو يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كاليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، ويكفرون جميعاً بالقرآن الكريم.

﴿وَإِذَا لَقُوا قَالُوا﴾ نفاقاً وتقية: ﴿ءَأَمَنَّا﴾ أي: صدقنا بما جاء به محمد ﷺ مثلكم، وهم كما قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَا أَوْهَاهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا قَالُوا ءَأَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ أي: انفردوا وحدهم.

﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ العض: تحامل الأسنان بعضها على بعض، ويعبر به عن الندم المفرط، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]، فكأن صاحب الغيظ يتمنى أن يجعل عدوه بين أسنانه فيقضمه من شدة غيظه، قال أبو طالب: وقد صالحوا قوماً علينا أشحة يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل^(١)

و﴿الأنامل﴾ جمع أنملة، وهي: أطراف الأصابع.

﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: من شدة الغيظ في قلوبهم، والغيظ: الحنق، وشدة الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، والتغيظ: إظهار الغيظ، وقد يكون مع ذلك صوت، كما قال تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

(١) البيت لأبي طالب عم النبي ﷺ. انظر: «خزانة الأدب» (٢/٦٠).

﴿ مِنْ ﴾ للسببية، أي: بسبب شدة الغيظ والحنق عليكم؛ لما يرون من نعمة الله عليكم بالإيمان، وظهور أمركم، واجتماع كلمتكم، وعدم تمكنهم من ردكم إلى دينهم ومن نيل مآربهم فيكم.

﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل مؤمن، أي: قل لهؤلاء موتوا بغيظكم. والأمر في قوله: ﴿ مُوتُوا ﴾ للإهانة والإغاظه، أي: موتوا بغيظكم تأسفًا وتحسرًا حيث لم تجدوا إلى التشنفي سبيلًا.

والباء في قوله: ﴿ بِغَيْظِكُمْ ﴾ للسببية، أي: موتوا كمدًا بسبب غيظكم، فهو دعاء عليهم بزيادة غيظهم لما يرون من عز الإسلام وقوة المسلمين إلى أن يهلكوا بسبب ذلك. ويجوز كون الباء للحال والملابسة والغاية، أي: موتوا متلبسين بغيظكم، وهذا دعاء ببقائهم على غيظهم بسبب عز الإسلام وقوة أهله إلى أن يموتوا متلبسين به. والأول أولى؛ لأنه أشد في التحدي لهم وإغاظتهم، وإظهار القوة أمامهم، ومفاصلتهم، أي: موتوا بسبب غيظكم، فإن الله - عز وجل - متم نعمته على المؤمنين ومكمل دينه ومظهره ومعل كلمته، رغم أنوفكم.

عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو ذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»^(١).

وعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فما له في الآخرة من نصيب»^(٢).

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ الجملة مستأنفة، ﴿ إِنَّ ﴾ للتوكيد، و﴿ عَلِيمٌ ﴾ على وزن «فعليل». أي: ذو علم تام واسع ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾؛ ولهذا بين عز وجل لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه قلوب البطانة من غيرهم من الغيظ والبغضاء والعدوان وغير ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٤/١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/١٣٤).

و«ذات الصدور» صاحبة الصدور، وهي القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَاتِّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦] أي: إن الله ذو علم واسع تام بالقلوب وما فيها من المكنونات من المعتقدات والأسرار والنوايا، والصلاح والفساد، والتي عليها مدار صلاح البدن أو فساده، كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوُّهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.^(١٢٠)

ذكر عز وجل في الآية السابقة شدة غيظ المنافقين وأعداء المؤمنين، ثم أتبع ذلك وأكد به يدل على تناهي عداوتهم إلى حد الحسد والشائنة، فقال: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوُّهُمْ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوُّهُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

و﴿حَسَنَةٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل حسنة. والحسنة: كل ما حسن في أمر الدين والدنيا.

أي: إن تحصل لكم أيها المؤمنون أي حسنة في دينكم، من نصر كما في بدر وغير ذلك، ومن ظهور وكثرة وعزة، وتأييد لدينكم أو في دنياكم بأبدانكم وأموالكم وبلدانكم من عافية وغنى، وخصب ونماء ونحو ذلك.

﴿سَوُّهُمْ﴾: جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة الواو. والأصل «تسوؤهم».

أي: تحزنهم تلك الحسنة أيًا كانت؛ لشدة عداوتهم لكم، فلم يقف الحال بهم عند عدم محبة الحسنة والخير لكم وعدم مسرتهم بذلك، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد، وهو أن ذلك يسوؤهم، مما يؤكد شدة عداوتهم ووجوب الحذر منهم.

(١) سبق تخريجه.

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها. والسيئة: كل ما يسوء في أمر الدين أو أمر الدنيا.

و«سيئة» هنا نكرة في سياق الشرط فتعم أي: سيئة تصيب المؤمنين في دينهم، أو دنياهم، في أبدانهم أو أموالهم وبلدانهم، كما حصل في أحد حديث أدبيل العدو على المؤمنين؛ لحكمة يعلمها الله تعالى، وكما في حصول جذب وقحط، أو إصابة طرف من المؤمنين، أو اختلاف بينهم ونحو ذلك.

﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ «الباء» في «بِهَا» للشيئية، أي: يفرحوا بسببها، أي: يُسرُّوا الشدة عداوتهم لكم.

وهنا كذلك لم يقف الحال بهم عند عدم المبالاة بما يصيب المسلمين، أو عدم كراهة المصيبة لهم، بل يفرحون بها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لُيْبِطُنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْتَمِئْنَ كُنْتُمْ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣].

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

ختم الله تعالى هذه الآيات بعد النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، وتأکید ذلك والتحذير منه، بذكر البلسم الشافي والعلاج الكافي والسبب الواقعي، بإذن الله تعالى من كيد هؤلاء وغيرهم فقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ الآية، أي: وإن تصبروا على ما ينالكم منهم، وعلى غير ذلك من المصائب.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه، من اتخاذ بطانة من دونكم وغير ذلك.

وقدم الصبر على التقوى؛ لأنها مبنية عليه، ولا تقوم إلا به.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب وخلف: «لا يَضُرُّكُمْ» بكسر الضاد والتخفيف من «الضير» بمعنى الضرر والضيم، ومنه ما جاء في الحديث: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضارون»، وفي رواية: «لا

تُضَارُونَ» في رؤيته»^(١)، أي: لا يلحقكم «ضير» أي: ضرر وضميم.
 وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ من «الضرر».
 ﴿كَيْدُهُمْ﴾ أي: مكرهم الخفي؛ للإيقاع بكم وخذاعكم.
 ﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء.
 أي: لا يضركم ولا يضيمنكم كيدهم ومكرهم وخذاعهم شيئاً أياً كان، ومهما قل.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها، ﴿بِمَا
 يَعْمَلُونَ﴾: متعلق بالخبر ﴿مُحِيطٌ﴾، وقدم عليه للتأكيد على عموم إحاطته - عز
 وجل - بكل ما يعملون، و«ما»: موصولة أو مصدرية.
 أي: إن الله بالذي يعمله أعداؤكم أيها المؤمنون، أو بعملهم، من الكيد لكم
 والكفر والصد عن دين الله ﴿مُحِيطٌ﴾.

أي: مطلع عليه بعلمه، محيط به بقدرته وسلطانه، فلا يخرجون عن علم الله تعالى،
 ولا يفرون عن قدر الله وقدرته وسلطانه، وسيجازيهم ويعاقبهم على أعمالهم في الدنيا
 والآخرة، ويكفيكم إياهم.

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا﴾.
- ٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا
 الوصف، وأن الانتهاء عما نهى الله عنه في الآية من مقتضيات الإيمان، وعدمه
 نقص في الإيمان.
- ٣- نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة - فضل صلاة الفجر (٥٧٣)، وفي التوحيد (٧٤٣٨)، ومسلم في
 المساجد - فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٤)،
 من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

دُونِكُمْ ﴿﴾، والنهي يقتضي التحريم، كما قال تعالى: في الكفار والمشركين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ ءَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].
وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوْلِيَاءَ تَلْفُوتِ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرٰنِي ءَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿هُرِّمْنَا عَلٰٓدُو فَاَحَدَرَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فلا يجوز لولاة الأمور وأصحاب المسؤوليات في الأمة اتخاذ بطانة من دون المؤمنين من المنافقين أو من أهل الكتاب وغيرهم كما لا يجوز ذلك لعامة المسلمين أفراداً أو جماعات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ﴾ [سورة هود: ١١٣].

وقد روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن ههنا غلاماً نصرانياً من أهل الحيرة، حافظاً كاتباً، فلو اتخذته كاتباً؟ قال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين»^(١).

٤- أن العلة والسبب في النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين أنهم لا يألون المؤمنين خبالاً، ويودون عنتهم والمشقة عليهم، وما تظهره أفواههم من البغضاء، مع ما تخفيه صدورهم مما هو أكبر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ خَبَالًا مَدُونًا مِمَّا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

٥- أن المنافقين وأعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم لا يألون جهداً في خبال المؤمنين أي: إفساد رأيهم وأمورهم مما يوجب عدم الركون إلى آرائهم ومشورتهم.

٦- مودة غير المؤمنين العنت والمشقة للمؤمنين.

٧- ظهور بغض المنافقين وغيرهم من أعداء الإسلام للمؤمنين من أفواههم وفتلات

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٧٤٣).

ألستهم مهما أرادوا كتمان ذلك.

٨- أن ما يخفيه هؤلاء من البغضاء والعداوة في صدورهم أكبر مما يظهرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ودلائل هذا واضحة من واقعهم فإنهم يتحينون الفرص فإذا سنحت لهم فرصة وقوي جانبهم أظهروا ما هو أكبر.

٩- عدم جواز اتخاذ بطانة ممن ليسوا محلاً لذلك من المسلمين، ممن لا يعرف نصحهم- بل ربما يظهر غشهم وعدم نصحهم- وما أكثر هؤلاء- ممن قد يكونون أشد خطراً، وأعظم ضرراً من غير المسلمين- وهذا أمر مشاهد فإنه ما أضر بالمسلمين اليوم أكثر من هؤلاء ممن هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمري إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

١٠- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين ببيان الآيات الشرعية والكونية ومن ذلك بيان الآثار السيئة المترتبة على اتخاذ بطانة من غير المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ﴾

١١- إقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ وهذا البيان عام.
١٢- أن الذين يعقلون آيات ويتفكرون بها هم المؤمنون فقط، ولهذا خصهم بالخطاب فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

١٣- أنه لا يهتدي لبيان الآيات وينتفع بها إلا العقلاء الذين تهديهم عقولهم إلى الخير وتمنعهم من الشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- أن من لم يهده عقله إلى التأمل والتفكير في آيات الله والإيمان بها فهو غير عاقل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وإن كان عنده عقل الإدراك، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

١٥- تأكيد النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، بذكر البراهين الدالة على علل ذلك النهي من الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الآية.

١٦- التوبيخ الشديد للمؤمنين في اتخاذهم بطانة من دونهم. والإشارة إلى أن هؤلاء في باطلهم أصلب منكم في حقكم، كما قال عمر رضي الله عنه: «اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة»^(١).

١٧- علم الله - عز وجل - بما تنطوي عليه القلوب من المحبة وضدها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

١٨- كراهة غير المؤمنين للمؤمنين وعدم محبتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

١٩- الثناء على المؤمنين من هذه الأمة بإيمانهم بجميع كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

وفي هذا تعريض بأن من عداهم لا يؤمنون بجميع الكتب كاليهود لا يؤمنون بالإنجيل والقرآن، والنصارى لا يؤمنون بالقرآن. ومن لم يؤمن بجميع كتب الله فليس بمؤمن، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

٢٠- نفاق هؤلاء ومخادعتهم للمؤمنين بقولهم: (آمنا) وإذا خلوا أظهروا خلاف

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٤٣/٣).

ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، والعبرة بالأفعال لا بالأقوال.

٢١- شدة غيظ هؤلاء وعداوتهم وحنقهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وهذا علامة على أشد ما يكون من الغيظ.

٢٢- بلاغة القرآن الكريم في تصويره شدة غيظ أعداء المؤمنين بَعْضَهُمْ عَلَيْهِم الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، أي: بمن يتمنى أن يكون عدوه بين أسنانه وأضراسه فيطحنه ويقضمه بها من شدة الغيظ والحنق.

٢٣- ينبغي إظهار القوة والشدة أمام أعداء المسلمين وإهانتهم وإغاثتهم، وعدم الملاينة معهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

٢٤- إثبات وتأكيد علم الله التام بما تخفيه الصدور، وتضميره القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وإذا كان علياً بما في الصدور والقلوب فعلمه بما ظهر من باب أولى.

٢٥- الوعيد لمن أضر الشر، والوعد لمن أضر الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فمقتضى علمه أن يحاسب ويجازي على ما في الصدور من خير أو شر.

٢٦- أن أعداء المسلمين من المنافقين وغيرهم يسوؤهم أن يحصل للمسلمين أيُّ حسنة وخير، ويفرحهم أن يحصل لهم أيُّ سيئة ونقيصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، وإن أظهروا خلاف ذلك.

٢٧- أن من يسوؤه حصول الخير لك، ويفرحه حصول الشر لك فهو عدو وليس بصديق، وإن ادَّعى ذلك وأظهره، وكما قيل:

صديقي من يقاسمني همومي ويرمي بالعداوة من رماني
ويصفولي إذا ما غبت عنه وأرجوه لنائبة الزمان

٢٨- الإطناب بذكر عشر مساوئ للبطانة من غير المؤمنين، تأكيداً على شدة

تحريم ذلك، ودليلاً على عظيم خطره.

- ٢٩- أن في الصبر والتقوى ضماناً لدفع ضرر كيد أعداء الأمة؛ بل لدفع جميع الشرور؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.
- ٣٠- الحث على الصبر والتقوى ففيهما النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.
- ٣١- إحاطة الله - عز وجل - بعلمه وقدرته وسلطانه بأعمال هؤلاء الذين يكيدون للمسلمين والوعيد والتهديد لهم وأنه - عز وجل - لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عقابه لهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.
- ٣٢- في ابتلاء المؤمنين بكيد أعدائهم لهم تمحيص للمؤمنين، يظهر صبرهم وتعظم تقواهم لله تعالى وتعلقهم به وثقتهم بوعدده ونصره، كما أن فيه استدراجاً لأعدائهم؛ ليتبادوا في طغيانهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٣) إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١٤﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ اللَّهُ بِكُمُ بِنُجْشَةَ الْفَيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١١٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١١٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَاطِبِينَ ﴿١١٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٣).

نهى الله - عز وجل - المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم لا يألونهم خبالاً من المنافقين وأهل الكتاب؛ لما في ذلك من الفساد، ولما تنطوي عليه قلوبهم من محبة المشقة على المؤمنين، والبغضاء وعدم المحبة لهم، والكفر والنفاق، والغیظ على المؤمنين ومحبة السوء لهم، ثم أيد ذلك بذكر قصة أحد التي نجم فيها نفاق المنافقين وكيدهم وأسيادهم من اليهود حيث رجع عبدالله بن أبي بلث الجيش، وقال كما حكى الله عنه: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. فهذه الآية ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ﴾ إلى تمام ستين آية نزلت في وقعة أحد، وهذه السورة كلها نزلت بعد أحد.

قال ابن القيم^(١): «افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية».

قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الواو: استثنائية، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أي: واذكر حين غدوت من أهلك، والغدو: الخروج أول النهار، وقد يحمل هنا على مجرد الخروج؛ لأن خروج النبي ﷺ في «أحد» كان يوم

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥١٠).

الجمعة بعد الصلاة عند أكثر أهل السير، وكانت وقعة أحد في السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال، يوم السبت الحادي عشر من شوال، وقيل: السابع من شوال.

﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿مِنْ﴾: ابتدائية، أي: مبتدأ هذه الغدوة من أهلك، أي: من بيت أهلك وزوجك في المدينة.

وسبب هذه الغزوة أن المشركين لما قُتل يوم بدر سبعون رجلاً من أشرفهم وكبرائهم، وأسر سبعون أرادوا الأخذ بالثأر من النبي ﷺ وأصحابه، فجمعوا الجموع والأحايش، وأقبلوا في نحو ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة في مكان يُقال له: «عَيْنَيْن».

فاستشار النبي ﷺ أصحابه هل يخرج إليهم؟ فأشار عليه بعضهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، وأشار عبدالله بن أبي وبعض الصحابة بعدم الخروج من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا رأيه ﷺ، وكان هو الرأي، لكن أُلح عليه الذين أشاروا بالخروج، فدخل ﷺ ولبس لأمة الحرب التي توضع على الرأس، وخرج إلى أصحابه، فقال بعض الذين أشاروا عليه بالخروج: لعلنا استكرهنا رسول الله، ليتنا لم نتكلم بهذا. فقالوا: يا رسول الله: إن شئت أن لا نخرج فعلنا. فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمة أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»^(١).

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الجمعة بعد الصلاة في ألف من أصحابه، وفي أثناء الطريق رجع عبدالله بن أبي بثلاث الجيش مغاضباً لرسول الله ﷺ؛ لأنه لم يأخذ برأيه ومشورته في البقاء في المدينة، وقال هو وأصحابه - كما ذكر الله عنهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿هُمُ لِلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءُ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. [آل عمران: ١٦٧]. واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في غدوة الوادي، وجعل

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٥١)، والدارمي (٢/١٢٩، ١٣٠)، من حديث جابر - رضي الله عنه - ورجاله ثقات، وله شاهد من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أخرجه الحاكم (٢/١٢٨، ١٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال». وتهيأ ﷺ للقتال، وبوأ أصحابه، وهم سبعمائة مقاعدهم للقتال، وجعلهم ميمنة وميسرة، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: «انضحوا الخيل عنا، أي: ادفعوها عنا بالنبال، ولا تؤتينا من قبلكم، والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا العير فلا تبرحوا مكانكم». وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، أي: لبس درعاً فوق درع، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبدالدار - رضي الله عنه.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبدالدار اللواء^(١).

فحصل القتال يوم السبت في أول النهار، وانتصر المسلمون وولى المشركون الأدبار، فجعل المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة - وهم على الجبل - أن المشركين قد ولّوا الأدبار، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، قالوا: انتهت الحرب وأرادوا النزول للمشاركة في جمع الغنائم، فذكّرهم أميرهم بقول رسول الله ﷺ: «لا تبرحوا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا»، لكنهم لم يأخذوا بذلك ونزلوا. فكر خالد ابن الوليد في مجموعة من فرسان قريش من خلف ظهور المؤمنين لما انكشفت بنزول الرماة، فاختلط المشركون بالمسلمين من ورائهم، فقتل سبعون رجلاً من المسلمين، منهم حمزة عم النبي ﷺ، ومثّل به.

وجرح النبي ﷺ وشج في وجهه وكسرت رباعيته، فأخذ يمسح عن وجهه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله»^(٢). وأمر النبي ﷺ بدفن شهداء أحد في مصارعهم، ولم يُغسلوا ولم يُكفّنوا؛ لأن الشهيد يُبعث يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم والريح ريح المسك^(٣).

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٦٣/٢) - وما بعدها، «زاد المعاد» (٣/١٩٢) وما بعدها، «تفسير ابن كثير» (٩١/٢).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٩١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٤٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحصل ما حصل من الابتلاء للنبي ﷺ وأصحابه مما قدره الله تعالى وقضاه؛ لحكم وأسرار عظيمة جاءت الإشارة إليها في ثنايا الآيات في ذكر هذه القصة. وقتل من المشركين نيِّفًا وعشرين، وقال أبو سفيان يومئذ: «اعل هُبَل، اعل هُبَل، يوم بيوم بدر، والحرب سجال»^(١).

وقد أطال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»^(٢): بذكر هذه الغزوة وما جرى فيها، وما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام والفقه، وفي ذكر بعض الحكم والغايات التي كانت فيها.

﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونك تبوي المؤمنين مقاعد للقتال. ومعنى ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنْزِلُ، أي: تنزل المؤمنين مقاعد للقتال. والتبوء: النزول. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ﴾ [الحشر: ٩] أي: نزلوها، وقال ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣).

﴿مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ﴾ «مقاعد» مفعول ثانٍ لـ «تبوي» أي: تنزل المؤمنين منازل للقتال، وتجعلهم ميمنة وميسرة، وكلاً في مكانه، وموقعه المناسب له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [الفر: ٥٤-٥٥].

حيث نزل صلوات الله وسلامه عليه المؤمنين منازلهم، وربتهم ونظمهم تنظيمًا عجيبًا، يدل على براعته ﷺ في فنون السياسة والحرب. وفي التعبير بقوله: «مقاعد» إشارة إلى ثبات كل منهم بمكانه المحدد له بثبوت القاعد في مجلسه.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ذو سمع واسع لما يقولون، ولجميع الأقوال والأصوات،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، وأحمد (٢٩٣/٤)؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) (٢٤٣-١٩٢/٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء - ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه في العلم (١١٠)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه في الجناز (١٢٩١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وقد أخرجه مسلم في المقدمة، تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (٢)، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٣)، ومن حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (٤).

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع بما في ضمائركم وبكل شيء.
قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٣٣)

سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ
أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة - وما نحب، أو ما
يسرني أنهما لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾» (١).

قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ «إِذْ» بدل من «إِذْ» في قوله: ﴿وَإِذْ
عَدَوْتَ﴾ فالتقدير على هذا: اذكر إذ هممت، أي: حين همت طائفتان منكم أن تفشلا.

﴿هَمَّتْ﴾ الهم: يطلق على العزم، ويطلق على مجرد حديث النفس.

﴿طَّائِفَتَانِ﴾: مثني: «طائفة»، وهي الجماعة من الناس، والطائفتان هنا: هما بنو
حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج - وهما الجناحان.

﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ «أَنْ» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف
محذوف، والتقدير: همتا بالفشل، و«الفشل» في كل أمر بحسبه، والمراد به هنا
الجبين والخوف والانزمام، أي: همت هاتان الطائفتان أن تجبنا وترجعا، لا لشك
منهما أو نفاق، ولكن بسبب ما فعله عبد الله بن أبي حيث انخزل ورجع بثلاث
الجيش، مما كان له الأثر على نفوس الجيش، ولكن الله عصمهما وثبتهما، فمضيا مع
رسول الله ﷺ. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ فتولاهما عز وجل بولايته الخاصة
فثبتهما، فلم تفشلا ولم تفعلما ما همتا به ولم ترجعا، وهو نعم المولى ونعم النصير.

﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أي: متوليها بولايته الخاصة وناصرهما؛ ولهذا ثبتها فمضيا

(١) أخرجه البخاري في التفسير - باب ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ (٤٢٨٢)، ومسلم في
فضائل الصحابة - فضائل الأنصار - رضي الله عنهم - (٢٥٠٥).

مع رسول الله ﷺ، فلم تفشلا ولم ترجعا، فصار ذلك منقبةً لهما.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ«يتوكل»، وقدم عليه للدلالة على الحصر، أي: وعلى الله وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

و«التوكل على الله»: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار- مع تمام الثقة بالله- عز وجل- وفعل الأسباب المشروعة.

وأكثر الناس يدعون التوكل على الله، وينطقون بذلك بألسنتهم، لكنهم يلهثون وراء الأسباب، وينسون مسبب الأسباب- سبحانه وتعالى- وهذا دليل على عدم صدقهم في الاعتماد على الله والثقة به.

وفريق من الناس يزعمون التوكل على الله تعالى ويهملون فعل الأسباب المشروعة وهذا ليس بتوكل، ولكنه تواكل، كما قال عمر- رضي الله عنه- لما قيل له: إن أناسًا من أهل اليمن يحجون وليس معهم زاد، ويقولون: نحن المتوكلون. فقال رضي الله عنه: «هؤلاء ليسوا بمتوكلين ولكنهم متواكلون».

وقال عمر رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»^(١).

فلمتوكل على الله حقًا من جمع بين الاعتماد على الله وفعل الأسباب.

وخص عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن التوكل من مقتضيات الإيمان؛ ولأن المؤمنين هم الذين يتوكلون على الله تعالى، كما قال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٣٦).

ذَكَرَ عز وجل نبيه ﷺ والمؤمنين بخروجه إلى أحد وما جرى عليهم من المصيبة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والآيات بعدها، وذَكَرَ عز وجل المؤمنين في أثناء ذلك بما منَّ به عليهم قبل ذلك من النصر العظيم يوم بدر- بسبب توكلهم على الله-

(١) ذكره في «إحياء علوم الدين» (٢/٦٢).

مع قلة عددهم وضعف عدتهم وكثرة عدوهم وقوته، في إشارة واضحة إلى أن عدم النصر في أحد ليس سببه القلة والضعف، وإنما كان سببه المخالفة وعدم الطاعة- كما سيأتي في الآيات بعد هذا، ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالذي نصرهم ببدر وهم أذلة قادر على نصرهم في سائر المواطن، وما حصل لهم في أحد لا ينبغي أن يفت في عضدهم فالحرب سجال.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ الواو: استثنائية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد»، والتقدير: والله لقد نصركم الله ببدر، أي: جعل لكم الغلبة والظهور في وقعة بدر الكبرى، حيث قتلوا سبعين من صناديد قريش، وأسروا سبعين، وكانت في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

والباء في قوله: ﴿بِبَدْرِ﴾ للظرفية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَنُؤْرُونَ عَلَيْهِمْ مُمْصِحِينَ ﴿١٧٧﴾ وَيَأْتِلُ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨] أي: وفي الليل.

و«بدر» محلة بين مكة والمدينة، وهي إلى المدينة أقرب، بينها وبين المدينة نحو ثمان وعشرين فرسخًا، تعرف ببئر فيها، تنسب إلى رجل حفرها يقال له: بدر بن النارين، وقيل غير ذلك.

جرت فيها معركة بين المسلمين والمشركين، وسببها أن النبي ﷺ سمع بعير لقريش مع أبي سفيان قدمت من الشام تحمل تجارة لهم، وبما أنهم قد أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم، وهم حرب على المسلمين، فندب ﷺ أصحابه للخروج لأخذ هذه العير، فخرج بنحو ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ومعهم سبعون بعيراً وقرسان فقط، يتعاقب على البعير الواحد الرجلان أو الثلاثة، فعدد أقل وعدة قليلة.

فعلم أبو سفيان بخروجهم فأرسل إلى أهل مكة يستنجدهم؛ لحماية عيرهم فخرجوا لنجدته بكبرائهم وأشرفهم ما بين التسعمائة إلى ألف بعدتهم وعتادهم وسلك أبو سفيان طريق الساحل، ونجا بالبعير فأرسل إليهم؛ ليرجعوا، لكنهم أبوا الرجوع، بطراً منهم ورياءً، وزين لهم الشيطان أعمالهم وغرهم، كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ

لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴿٤٧﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨].

فالتقى الجمعان ببدر ونصر الله رسوله ﷺ والمؤمنين مع ما هم عليه من قلة العدد والعدة، فقتلوا سبعين رجلاً من صناديد قريش وألقوهم في قلب بدر، وأسروا سبعين منهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً. وقد ذكر الله تعالى قصة هذه الغزوة مفصلة في سورة الأنفال.

قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونكم أذلة. و«أذلة» جمع «ذليل» أي: ضعفاء، قليل عددكم، قليلة عدتكم، وأنتم في أحد أكثر عددًا وعدة منكم في بدر- وفي هذا إشارة إلى أن تخلف النصر في «أحد» ليس بسبب الضعف وقلة العدد والعدة، وإنما بسبب المخالفة والعصيان.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الفاء: للتفريع أي: فاتقوا الله بفعل أو امره واجتناب نواهيه، واثبتوا في القتال، ولا يفلّ حدّكم ما حصل لكم في أحد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ «لعلّ» للتعليل، أي: لأجل أن تكونوا ممن يشكرون، أي: لتنالوا درجة الشاكرين، القائمين بطاعة الله؛ لأن حقيقة شكر الله تعالى على نعمة النصر وغيرها من النعم؛ يكون بتقوى الله تعالى بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه.

فبذلك تدوم النعم؛ وتندفع النقم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لَبِنَ شَكْرَتِهِمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَبِنَ كُفْرَتِهِمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الشاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم^(١)

والشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا^(٢)

فالشكر بالقلب بالإقرار بالنعمة، باطنًا، والشكر باللسان بالاعتراف بالنعمة ظاهرًا

(١) البيتان ينسبان لأبي العتاهية، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الدر الفريد» (٢/ ٣٩٥).

(٢) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» (ص ٣٤٤).

بالقول بالثناء على الله تعالى ونسبتها إليه والتحدث بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والشكر بالجوارح يكون بالاستعانة بها على مرضاة الله، واستعمالها في طاعة الله تعالى والبعد بها عن معصيته.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ ﴿١١٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» بدل من «إذ» في قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١]، أو متعلق بـ«نصركم».

والخطاب للنبي ﷺ خاصة، كقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الآية: ٣٧] ونحو ذلك. أي: إذ تقول مبشراً ومثبتاً للمؤمنين.

﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ هذا إلى قوله ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مقول القول، أي: إذ تقول للمؤمنين وهم الصحابة- رضي الله عنهم- هذا القول. روي أن الصحابة- رضي الله عنهم- رأوا أن المشركين أخذ يمد بعضهم بعضاً على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ الآية (١).

وهذا وعد لا يتخلف؛ لأنه ﷺ كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، ي بن والتقدير: أن يكفيكم إمداد ربكم. والإمداد: الزيادة والعطاء، والإعانة. وأسند الفعل «يمد» إلى اسم الربوبية؛ لأن الرب هو الذي له الخلق والملك والتدبير. والاستفهام للتقرير؛ أي: أن ذلك يكفيكم؛ ولهذا قال بعده: «بلى».

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٢٠-٢١).

﴿ثَلَاثَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي: «منزّلين» من «نزل»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿مُنَزَّلِينَ﴾ من: «أنزل».

و«أنزل» و«نزل» بمعنى واحد. أي: منزلين من السماء، كما قال تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّ نَصِيرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

يحتمل أن يكون هذا من تنمة قول الرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من الله تعالى تأييداً لقول نبيه ﷺ وزيادة على ما وعدهم تكراً وتفضلاً.

﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب للإثبات، وإبطال النفي، والتقرير.

أي: بلى يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين:

﴿إِن نَصِيرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

قوله: ﴿إِن نَصِيرُوا﴾، أي: إن تصبروا على قتال عدوكم، وعلى فعل ما أمركم الله به، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: وتتقوا الله باجتناب ما نهاكم الله عنه من الفشل والهوان أمام الكفار، وغير ذلك.

﴿وَيَأْتُوكُم﴾ الضمير الواو في «يأتوكم» للمشركين، وكذا في قوله: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾.

﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: من وجههم هذا، ومن ساعتهم هذه مبادرين ومباغتين لكم غضباً منهم للانتقام ليوم بدر. يقال: جاء فلان وخرج من فوره. أي: خرج مبادراً.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ أي: يزودكم ربكم.

﴿بِحَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فوعدهم ﷺ بأن يمدهم ربهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وقرر ذلك بتكفله عز وجل لهم إن صبروا واتقوا، وجاءهم العدو من فوره هذا؛ بأن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وعاصم بكسر الواو: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ اسم فاعل، أي: معلّمين أي: هم سَوّموا أنفسهم، أي: جعلوا عليها علامات تدل على شجاعتهم مثل لبس لأمة الحرب، ونحو ذلك.

وقرأ الباقون بفتح الواو: «مسوّمين» اسم مفعول، أي: معلّمين من السماء بعلامات الجهاد والقتال. قيل: عليهم عمام سود أو بيض، وعلى نواصي خيولهم وذيوها الصوف الأبيض، وقيل غير ذلك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»^(١).

وكونهم معلمين أخص من مجرد الإنزال فتكفل عز وجل لهم بزيادتهم من حيث الكمية إلى خمسة آلاف وتكفل لهم من حيث الكيفية بكونهم مسومين معلمين عليهم علامات القتال والشجاعة.

والسياء: العلامة. قال الشاعر^(٢):

غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سيمياء لا تشق على البصر

أي: له علامة حسن ظاهرة يراها كل ناظر إليه بلا مشقة.

وقد اختلف المفسرون هل هذا الإمداد المذكور هنا في بدر أو في أحد على قولين:

القول الأول: أن هذا كان يوم بدر وأن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله قبله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ ويشكل على هذا أنه قال هنا: ﴿بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ﴾ و﴿بِحَمْسَةِ أَلْفٍ﴾ بينما قال في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الآية: ٩].

وقال ابن كثير^(٣) في الإجابة على هذه: «فالجواب أن التنصيص على الألف هاهنا

(١) أخرجه البخاري في المغازي - شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٥).

(٢) البيت لابن عتقاء الفزاري. انظر: «الكامل في اللغة» (٢٢/١)، «زهر الآداب» (١٠٢٧/٤)، «أمالى

القالى» (٢٣٧/١)، «الحماسة البصرية» (١٥٦/١)، «التذكرة الحمدونية» (٣٠٦-٣٠٧)، وروايته

في الأمالي والتذكرة والحماسة: «غلام رماه الله بالخير مقبلاً».

(٣) في «تفسيره» (٩٤/٢).

لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف آخر مثلهم.

وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

وعلى هذا يكون المسلمون في بدر أمدوا بألف ثم بثلاثة، ثم بخمسة آلاف.

والقول الثاني: أن هذا الوعد بالإمداد كان في أحد، فيكون قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلقاً بقوله قبل ذلك: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وذلك يوم أحد، وهذا الوعد مشروط بالصبر والتقوى؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ ولم يتحقق هذا من المسلمين، بل حصل منهم ما يخالفه وهو المعصية والتنازع والفشل، ولهذا لم يتحقق هذا الوعد بالإمداد، لا بثلاثة ولا بخمسة.

وعلى هذا فلا إشكال بين آيتي آل عمران وآية الأنفال. فآية الأنفال ذكر فيها الإمداد بألف من الملائكة مردفين، وهو ما حصل في بدر، وآيتا آل عمران ذكر فيها الوعد بالإمداد بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف في أحد بشروط ولم يحصل الإمداد فيها، لعدم تحقق الشروط.

ولا ينافي هذا ما ثبت من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتها قبل ولا بعد»^(١). فإن هذا قتالاً من الملائكة عن رسول الله ﷺ، وليس هو الإمداد المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾.

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٤)، ومسلم في الفضائل - قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أحد (٢٣٠٦).

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير في «جعله» في محل نصب مفعول أول لـ«جعل» يعود إلى الإمداد، والوعد به بالشروط الثلاثة، أو إلى قول النبي ﷺ، أي: إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.
والمراد بـ«الجعل» هنا الجعل الكوني، أي: وما جعله الله كونًا.

﴿إِلَّا بُشِّرَى لَكُمْ﴾ «بشرى»: مفعول ثان لـ«جعل» إذا كانت بمعنى «صير»، وقد تكون «بشرى» مفعولاً لأجله، أي: وما جعله الله إلا لأجل البشرى لكم. أي: ما هو إلا بشرى لكم تبشرون بها.
و«البشرى»: الخبر السار، مأخوذ من البشرية؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرته، واستنار وجهه.

﴿وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبِكُمْ بِهِ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تطمئن قلوبكم به، أي: لأجل أن تسكن قلوبكم، ويزول عنها الخوف ويقوى التفاؤل ويحصل الثبات، والضمير في «به» يرجع إلى مرجع الضمير في «جعله»، والباء: للسببية، أي: ولتطمئن قلوبكم بسببه.

وأخر هنا المتعلق «به» وقدمه في آية سورة الأنفال، كما حذف منها قوله: ﴿لَكُمْ﴾ فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِنَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].
وهذا قد يدل على أن السياقين ليسا في غزوة بدر، بل آية الأنفال في غزوة بدر، وآيتا آل عمران في غزوة أحد.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، أي: وما النصر إلا من عند الله تعالى وحده - حتى وإن أمدكم بثلاثة آلاف وخمسة آلاف من الملائكة، فليس النصر منهم ولا بكثرة العدد والعدة، ولا بحولكم وقوتكم، وإنما النصر من عند الله تعالى وحده فيجب الاعتماد عليه وحده مع فعل الأسباب.

﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وفي الأنفال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: ١٠].
و﴿الْعَزِيزِ﴾: اسم من أسماء الله - عز وجل - يدل على أنه ذو العزة التي لا ترام،

كما جاء في الدعاء: «ذو العزة التي لا ترام»^(١).

عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

و﴿الْحَكِيمِ﴾: اسم من أسماء الله - عز وجل - يدل على أنه ذو الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.
وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١٢٧).

قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، وهو متعلق بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، أو متعلق ب﴿نَصْرَكُمْ﴾، أو متعلق بقوله: ﴿يُمَدِّدْكُمْ﴾.
والأول أولى؛ ليكون عامًا في كل نصر.

والمعنى: ليهلك طائفة من الذين كفروا، وفي قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ إشارة إلى أن العدو الذي يلي المسلمين أولى بالقطع والقتل، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَنِلُوهَا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وهذا كما هو المأمور به شرعًا، فهو أيضًا مقتضى الحكمة، فليس من الحكمة أن يقاتل العدو البعيد ويترك القريب؛ لأن القريب أشد خطرًا على المسلمين.

﴿أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾ «أو»: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة التعليل: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾. والكبت: الإذلال والإهانة؛ أي: يذلهم ويخزيهم ويردهم بغيظهم وغمهم وكمدهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتَبُوا مَا كَتَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. أي: أهينوا وأذلوا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾^(٢) كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَبِ بْنِ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيرجعوا مخذولين خاسرين لم ينالوا ما أرادوا

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وما أملوا، كما حصل في غزوة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

حيث أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨).
هذه الآية مما يقوي أن السياق والإمداد المذكور في هذه الآيات في أحد وليس في بدر.

سبب النزول:

عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كُسرَت رباعيته يوم أحد، وشجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله - عز وجل -» فأُنزل الله - عز وجل -: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١).
وعن سالم عن أبيه «أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا»، بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد». فأُنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.»

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٢).
وفي رواية عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة، قال: فأُنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى آخر الآية، وهداهم الله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير - غزوة أحد (١٧٩١)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن - من سورة آل عمران (٣٠٠٢)، وابن ماجه في الفتن - الصبر على البلاء (٤٠٢٧).

(٢) أخرجهما البخاري في المغازي (٤٠٧٠).

للإسلام»^(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ كان يقول في بعض صلواته في صلاة الفجر: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية^(٢).

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: بل الأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]. أي: ترجع الأمور كلها.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ «أو» في الموضعين عاطفة، والجملتان معطوفتان على جملة التعليل ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾.

وعلى هذا تكون جملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضة بين هاتين الجملتين وبين الجملة المعطوف عليها.

وقيل: «أو» بمعنى «إلى» وفي الآية حذف، والتقدير: فاصبر إلى أن يتوب الله عليهم. أي: لا تيأس، ولا تدع عليهم، بل اصبر إلى أن يتوب الله عليهم، أو يعذبهم.

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوفقهم للرجوع عما هم عليه من الكفر إلى الإسلام، ومن الضلال إلى الهدى، ويقبل ذلك منهم.

وفي هذا إشارة إلى أنه - عز وجل - سيتوب عليهم أو على بعضهم. وهو ما حصل حيث تاب الله على بعضهم.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ العذاب: العقوبة، وهو في الأصل يحمل على عذاب الدنيا والآخرة،

(١) أخرجه أحمد (٢/١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٠).

وعلى العذاب من الله الذي ليس للمؤمنين فيه يد، وعلى العذاب بأيدي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

والأولى أن يحمل قوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ على العذاب من الله في الدنيا والآخرة، الذي ليس للمؤمنين فيه يد، لأن تعذيبهم على أيدي المؤمنين بنصر الله لهم ذكر في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

وهكذا حصل لهؤلاء الكفار، فقطع الله طرفاً منهم فهلك، وكبت فريقاً منهم فانقلبوا خائبين، وتاب الله على فريق منهم ودخلوا الإسلام، وعذب فريقاً منهم بالموت على الكفر. ﴿فَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾: تعليل لما قبله، أي: لقوله ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾.

أي: فإنهم بسبب ظلمهم يستحقون ما ذكر من العقوبات، من قطع طرف منهم، وكبتهم ورجوعهم خائبين، أو تعذيبهم، إلا أن يوقفهم الله للتوبة فيتوبوا ويتوب الله عليهم - وبهذا يرتفع عنهم وصف الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٩).

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، ثم بين في هذه الآية أن له - عز وجل - وحده الأمر والملك كله.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، واللام في قوله: (الله) لام الملك والاستحقاق والاختصاص، وقدم الخبر (الله) على المبتدأ للدلالة على الحصر، و«ما» في الموضعين: اسم موصول يدل على العموم، أي: والله تعالى وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾

المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى

يضع عليه كنفه^(١) ثم يقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله - عز وجل - : «أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(٢).

ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ «من»: موصولة، أي: للذي يشاء من العباد، وهو من اقتضت

حكمته المغفرة له من أهل المعاصي دون من مات على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ويعذب الذي يشاء من العباد، وهو من استحق العذاب

من ماتوا على الشرك أو على المعاصي.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ أي: والله ذو مغفرة واسعة، ولهذا يغفر لمن يشاء.

﴿رَحِيمٌ﴾: ذو رحمة واسعة، هي سبب مغفرته.

الفوائد والأحكام:

١ - تذكير النبي ﷺ المؤمنين بخروجه لـ «أحد» وما جرى فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وكان خروجه ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة، وكانت المعركة يوم السبت أول النهار الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وقيل: في السابع من شوال، وقيل غير ذلك.

٢ - تشریف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣ - حسن تدبير النبي ﷺ في إنزال المؤمنين مقاعدهم للقتال؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَوَّأُ

الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فجعلهم ﷺ ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على الجبل.

٤ - أهمية التنظيم في الحرب بإنزال المقاتلين مقاعدهم ومعرفة كل فرد وفريق منهم

(١) أي: ستره ورحمته.

(٢) سبق تخريجه.

- مكانه ومهمته، حتى لا تضطرب الأمور.
- ٥- أن الذين شهدوا أحداً مع النبي ﷺ من المؤمنين حقاً؛ لأن الله شهد لهم بذلك، فقال: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكفى بها شهادة. وهذا بخلاف المنافقين الذين رجعوا من عرض الطريق.
- ٦- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ فهو سبحانه ذو سمع يسع جميع الأقوال والأصوات ويحيب الدعوات.
- ٧- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].
- ٨- أن طائفتين من المؤمنين همّت بالفشل والرجوع، كما رجع المنافقون، ولكن الله ثبتهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهما بنو حارثة وبنو سلمة.
- ٩- خطر المنافقين والمثبطين على الأمة فإن رجوع عبدالله بن أبي بثلث الجيش، وقولهم، كما حكى الله عنهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، كان له الأثر على المؤمنين حتى همّت طائفتان منهم بالفشل والرجوع.
- ١٠- أن من تولاه الله تعالى سلم من الفشل ووفق للفوز والفلاح والنجاح في دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾.
- ١١- منة الله تعالى على هاتين الطائفتين ومنقبة عظيمة لهما حيث كان الله وليهما.
- ١٢- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾.
- ١٣- أن التوكل على الله تعالى من مقتضيات الإيمان، وأن الذين يتوكلون على الله حقاً هم المؤمنون.
- ١٤- أن التوكل على الله أكبر معين للمؤمن في الملهمات وما دونها، شريطة فعل الأسباب المشروعة.
- ١٥- امتنان الله تعالى على المؤمنين بنصرهم في بدر مع قلة عددهم وعدتهم، وكثرة عدوهم وعدته.

١٦- قدرة الله تعالى التامة على قلب موازين القوى، وأن النصر من الله، وليس بكثرة العدد والعدة- وإن كانت من أسباب النصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَ مَدْرِينٌ﴾ [التوبة: ٢٥].

وعن عياض الأشعري أنهم كتبوا إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يستمدونه، قال: فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا، وأحصن جندًا: الله- عز وجل- فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم، فهزمناهم أربعة فراسخ. قال: وأصبنا أموالًا^(١).

١٧- أن المؤمنين قد يكونون أذلة بسبب قلة عددهم، وضعف عتادهم- لكنهم أقوياء بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

١٨- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

١٩- أن شكر نعمة النصر وغيرها من النعم يكون بتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٠- بث النبي ﷺ روح الأمل والتفاؤل في نفوس أصحابه: تقوية لقلوبهم، ورفعًا لمعنوياتهم، عند القتال، وفي الأزمات؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ الآيتين.

وهكذا ينبغي لولاة المسلمين وقادتهم ودعاتهم.

ولما كان الصحابة- رضي الله عنهم- يحفرون الخندق، واعترضتهم صخرة شديدة فجاءوا للنبي ﷺ وأخبروه، فجاء ونزل في الخندق وأخذ المعول فضر بها به ضربة انقذ منها شعاع أضواءت منه قصور كسرى، وفي الثانية قصور قيصر،

(١) أخرجه أحمد (٤٩/١). قال ابن كثير في «تفسيره» (٩٣/٢): «وهذا إسناد صحيح».

وفي الثالثة قصور تبع في اليمن. فقال ﷺ: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، ومفاتيح فارس، ومفاتيح اليمن»^(١) مع ما كان عليه المؤمنون من شدة الخوف، كما وصف الله حالهم بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

٢١- ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ ربوبية النصر والإمداد والعون والتأييد والتوفيق.

٢٢- إثبات وجود الملائكة؛ لأن الرسول ﷺ وعد المؤمنين بأن يمدهم ربهم بهم، وأنهم ذوو أجسام يحصون بالعدد وينزلون من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿مِخْمَسَةَ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقد تم إمداد المؤمنين في «بدر»، وتحلف الإمداد في «أحد» لتخلف شرطه.

٢٣- أن الصبر والتقوى سببان للنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

٢٤- أن إتيان العدو من فورهم مبادرين ومباغتين المؤمنين من أسباب النصر والإمداد بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾.

٢٥- أن الوعد بالإمداد بالملائكة ما جعله إلا لأجل بشارة المؤمنين وطمأنة قلوبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾.

٢٦- عناية الشرع بالبشارة وطمأنة قلوب المؤمنين، وبخاصة وقت الأزمات، عند القتال ونحو ذلك؛ لعظم الحاجة إلى ذلك، مما يكون سبباً للتفاؤل، ورفع المعنويات.

٢٧- أن النصر لا يأتي إلا من عند الله تعالى مهما بلغت الأسباب المادية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

لهذا يجب فعل الأسباب والاعتماد على الله تعالى وطلب النصر منه وحده، كما قال

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٦)، وأحمد (١٨٦٨٤).

تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿[التوبة: ٢٥-٢٦].﴾

٢٨- إثبات اسم الله تعالى: «العزیز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة التي لا ترام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام لله - عز وجل - بأقسامه الثلاثة؛ الكوني والشرعي والجزائي، والحكمة البالغة، بقسميها؛ الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾.

٣٠- في اجتماع العزة والحكم والحكمة في حقه - عز وجل - زيادة كماله إلى كمال ودلالة على أن مقتضى عزته وحكمه وحكمته نصر أوليائه.

٣١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنهَم ظَالِمُونَ﴾

وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم الذين ينفون الحكمة في أفعال الله ويزعمون أنه يفعل بمجرد المشيئة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

٣٢- أن الله تعالى ينصر المؤمنين، ويمدهم بالملائكة وينصره؛ ليهلك طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فيرجعوا ذليلين منهزمين، فيسلم المسلمون من شرهم ويكونوا عبرة لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

٣٣- أن عاقبة الذين كفروا إما أن يهلكهم الله أو يذلهم على أيدي المؤمنين، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

٣٤- أن من حكمة الله تعالى بل مما أمر به وشرعه عدم استئصال أهل الكفر؛ ليتوب الله

على من شاء منهم، وليبقى الصراع بين الحق والباطل؛ ليميز الله الخبيث من الطيب والكافر من المؤمن.

٣٥- أن الرسول ﷺ لا يملك من الأمر الكوني شيئاً، فلا يستطيع هداية أحد أو إضلاله أو جلب النفع والنصر لا لنفسه ولا لغيره، ولا دفع الضر؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وفي هذا رد على الذين يغلون بالرسول ﷺ ويرفعونه إلى مقام العبودية ويطلبون منه قضاء الحاجات. وقد قال الله تعالى له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

كما أن في هذا إبطالاً لقول غلاة الصوفية أن المكلف قد يترقى في العبودية إلى أن يصل درجة اليقين فتسقط عنه التكاليف، فلا يجب أو يحرم عليه شيء. وإذا كان ﷺ لا تسقط عنه التكاليف بل هو مأمور منهي، فما دونه من باب أولى.

٣٦- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ وتخفيف من حزنه لكفر قومه.

٣٧- أن الله قد يتوب على أعتى الناس وأشدهم كفرًا، فيوفقه للإيمان ويقبله منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣٨- أن الله تعالى قد يعذب الكافرين بعذاب من عنده، ليس للمؤمنين فيه يد؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

٣٩- أن الظلم سبب لعذاب الله تعالى، وأنه سبحانه لا يعذب إلا الظالمين، بارتكاب الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

٤٠- بيان أن الله - عز وجل - وحده كل ما في السموات وما في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٤١- مغفرة الله تعالى حسب مقتضى حكمته ورحمته وفضله لمن يشاء ممن هو أهل

لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾.

٤٢- تعذيب الله- عز وجل- لمن يشاء حسب مقتضى حكمته وعدله لمن هو أهل

لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

٤٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة.

٤٤- إثبات صفة المغفرة لله- عز وجل- وأنه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ

لِمَن يَشَاءُ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾.

٤٥- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل- فهو- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة التي وسعت

كل شيء وعمّت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾.

٤٦- اقتران هاتين الصفتين في حقه- عز وجل- سعة المغفرة، وسعة الرحمة زيادة

كماله- عز وجل- إلى كمال حيث يجمع لعباده بين زوال المرهوب بمغفرته لهم،

وحصول المطلوب برحمته لهم- نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ۝

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن عمرو بن أقيش- رضي الله عنه- كان له ربًا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قبلكم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح، فحُمِلَ إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه: حمية لقومك أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله؟ فقال: بل غضبًا لله ولرسوله، فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة^(١).

ولعل من حكمة نظم هذه الآية في قصة أحد ما جاء في هذا الخبر- إن كان صحيحًا وهذه الآية نزلت قبل آيات الربا في سورة البقرة.

قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ﴾ «لا»: ناهية، والنهي هنا للتحريم المؤكد؛ لأن أكل الربا من أعظم الكبائر، بل قال بعضهم هو أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. وخصَّ النهي عن أكل الربا دون سائر الانتفاعات به في المشارب والملابس والمسكن والمراكب وغير ذلك؛ لأن الأكل هو أخص أنواع الانتفاع، وهو كسوة الباطن وأشد ما يكون ضرورة للإنسان، فالنهي عن أكل الربا نهي عن سائر الانتفاعات التي دون الأكل من باب أولى.

و«الربا» في اللغة: الزيادة، قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ۖ﴾

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله- عز وجل- (٢٥٣٧).

[الحاقة: ١٠]، أي: زائدة، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [الحج: ٥]، أي: علت وزادت، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن رِّبَالٍ يَرِيحُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيحُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، أي: فما آتيتم من ربا ليزيد في أموال الناس فلا يزيد عند الله.

والربا نوعان:

ربا النسيئة: والنسيئة: التأجيل والتأخير، فيؤجل ما على المدين من الدين الحال سنة أو سنتين أو أقل أو أكثر مقابل الزيادة فيه وهذا هو ربا الجاهلية، فإذا حل الدين قالوا للمدين: إما أن تفي، وإما أن تُربي، أي: إما أن تسدد الدين، وإما أن تزيد فيه.

وربا الفضل: وهو الزيادة بين شيئين يحرم التفاضل بينهما، قال ﷺ: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل سواءً بسواء يداً بيد فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»^(١).

فإذا بيع أحد هذه الأصناف بجنسه لزم فيه شرطان: التساوي، والتقابض في مجلس العقد. وإذا بيع أحد هذه الأصناف بغير جنسه من الأصناف المذكورة مما يوافقها في علة الربا لزم فيه شرط واحد، وهو التقابض في مجلس العقد، وإذا بيع بغير جنسه مما لا يوافقها في علة الربا لم يشترط فيه التساوي ولا التقابض.

فإذا بيع ذهب بذهب، أو فضة بفضة، أو بر ببر - ونحو ذلك لزم التساوي بينهما وأن يتم القبض في مجلس العقد.

وإذا بيع ذهب بفضة، أو فضة بذهب، أو بر بشعير أو شعير ببر ونحو ذلك لزم القبض في مجلس العقد دون التساوي بينهما؛ لقوله ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد».

وإذا بيع ذهب أو فضة ببر أو شعير لم يلزم التساوي ولا القبض.

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وهم يسلفون السنة والسنتين فقال: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل

(١) أخرجه مسلم في المساقاة - الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً (١٥٨٧)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

معلوم»^(١).

ومعنى «يسلفون» أي: يقدمون الدراهم، أي: الثمن، ويؤخرون السلعة من تمر أو بر ونحو ذلك، أي: يؤخرون المثمن.

فهذا الحديث مخصص لعموم قوله ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد».

فيجوز تعجيل الثمن من النقد ذهباً كان أو فضة، وتأجيل المثمن من غيرهما من هذه الأصناف الربوية؛ برّاً كان أو تمرّاً أو شعيراً أو ملحاً.

فيشتري الرجل مثلاً من صاحب بستان أو غيره «برّاً» لمدة سنة أو سنتين ويعطيه ثمنه دراهم نقداً. فهنا قدم الثمن وهو الدراهم، وأخر المثمن وهو البر، وهذا هو السلف الذي كان يتعامل به أهل المدينة حين قدمها النبي ﷺ، ويسمى «السلم» وقد أقرهم النبي ﷺ عليه، وقال: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم».

﴿أَضْعَفًا مُضْعَفَةً﴾: حال، أي: حال كونه أضعافاً مضاعفة، و﴿أَضْعَفًا﴾ جمع «ضِعْف» و«ضعف الشيء» كثره مرتين، أي: مثله مرتين، فضعف الدرهم درهمان.

﴿مُضْعَفَةً﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «مضْعَفَةً» بالتشديد مع حذف الألف، وقرأ الباقر: ﴿مُضْعَفَةً﴾ بإثبات الألف مع التخفيف. ومعنى القراءتين واحد.

و﴿مُضْعَفَةً﴾ صفة لـ«أضعافاً» أي: كل ضِعْف من هذه الأصناف مضاعف وكل ما ازداد أجلاً ازداد مضاعفة إلى ما لا حد له.

وهذا ربا الجاهلية الذي كانوا عليه قبل الإسلام، فإذا حلَّ أجل الدين قال الدائن للمدين: إما أن تفي وإما أن تربى، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر،

(١) أخرجه البخاري في السلم (٢٢٤١)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٤)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٣)، والنسائي في البيوع (٤٦١٦)، والترمذي في البيوع (١٣١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهكذا كل عام فيضعف القليل حتى يصير كثيرًا.

وعلى هذا فالقيد والوصف بقوله: ﴿أَضْعَفًا مُّضْعَفَةً﴾؛ لبيان الواقع غالبًا، ولا مفهوم له، فلا يفهم منه أن الربا إذا لم يكن أضعافًا مضاعفة جاز أكله. فالربا بشتى صوره محرم لا يجوز.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ نهي عز وجل المؤمنين عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، ثم أمرهم بتقوى الله في إشارة واضحة إلى خطورة أكل الربا ومنافاته تقوى الله، أي: اتقوا الله بترك الربا، وترك ما نهاكم الله عنه، وفعل ما أمركم الله به.

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١).

روي عن أبي حنيفة - رحمه الله - أنه كان يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه (١).

قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: واجعلوا بينكم وبين النار وقاية بترك الربا، وامتنال أوامر الله واجتناب نواهيه، وبمعنى آخر: واتقوا عذاب النار بتقوى الله - عز وجل - بفعل أوامره واجتناب نواهيه. ولهذا قدّم الأمر بتقوى الله تعالى فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾؛ لأنها هي السبب الواقى من النار.

﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: التي هيئت للكافرين؛ لتكون لهم مآلاً ومصيراً وداراً لتعذيبهم. أي: أعدها الله وهياها لتعذيب الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢).

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الواو: عاطفة، والطاعة: امتثال الطلب وموافقته، فعلاً للمأمور، وتركاً للمحذور.

(١) انظر: «الكشاف» للزخشري (٤١٤/١)، و«غرائب القرآن» للنيسابوري (٢/٢٥٧)، و«محاسن التأويل» (٢/٤١١).

﴿وَأَرْسُولٌ﴾ أي: وأطيعوا الرسول، و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

أي: وأطيعوا الله والرسول في فعل المأمورات وترك المحظورات. وقد يحمل الأمر بتقوى الله والأمر بتقوى النار على ترك المحظورات، ويحمل الأمر بطاعة الله والرسول على فعل المأمورات.

وعطف اسم الرسول أو وصفه على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذا بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو؛ ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: «أجعلتني لله نداءً أو عدلاً؟ ما شاء الله وحده»^(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (لعل) للتعليل، أي: لأجل أن ترحموا، فلما كانت التقوى سبباً للوقاية من النار، فطاعة الله تعالى والرسول سبب للرحمة.

والمعنى: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الخاصة بأوليائه، والتي هي سبب السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٢- تشریف المؤمنين وتكريمهم بندايمهم بوصف الإيمان، والترغيب والحث على الاتصاف بهذا الوصف.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- أن عدم أكل الربا من مقتضيات الإيوان، وأن أكله نقص في الإيوان، بل نقص عظيم في الإيوان؛ لأن الربا من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. إن لم يكن أكبرها، وذلك؛ لأنه محاربة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

٤- تحريم أكل الربا، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ﴾، وإذا كان أكل الربا محرماً، وهو أخص وأهم وجوه الانتفاع فسائر الانتفاعات التي دونه محرمة من باب أولى.

وإنما شدد الشرع في تحريم الربا حتى عد من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله إن لم يكن أكبرها كما قال بعض أهل العلم؛ لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، وبخاصة أموال الفقراء والمحتاجين.

ولما فيه من المنافاة لما أمر الله به من الإحسان والمواساة بالصدقة والقرض، وإنظار المعسر، ونحو ذلك إضافة إلى ما فيه من تضخيم الأموال عند طبقة من الناس دون غيرهم؛ مما يؤدي إلى ركود اقتصاد الأمة بسبب عدم استثمار هذه الأموال في مشاريع زراعية وصناعية وتجارية تنفع الأمة كلها.

٥- ظاهر قوله تعالى: ﴿أَضْعَفَتْنَا مُضَاعَفَةً ۖ﴾ أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة.

والصحيح أن هذا القيد والوصف إنما هو لبيان الواقع والغالب، وإذا كان القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ اَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اَلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ۗ﴾ [الآية: ٢٣]، فقوله: ﴿اَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ۗ﴾ قيد لبيان الواقع غالباً فلا مفهوم له فتحرم الربيبة على زوج أمها سواء كانت في حجره أو لم تكن في حجره. ومثل هذا قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَنِيَّتِكُمْ عَلَى اَلْإِغْيَاءِ إِن اَرَدْنَ تَحَصُّنًا ۗ﴾ [الآية: ٣٣]. فقوله: ﴿إِن اَرَدْنَ تَحَصُّنًا ۗ﴾ لبيان الواقع والغالب، وهو أنهم كانوا يكرهونهم مع أنهم يردن التحصن، فلا يدل بمفهومه على جواز إكراههم إن لم يردن التحصن. وعلى هذا فالربا محرم بشتى

- صوره وأشكاله سواء كان أضعافاً مضاعفة أو لم يكن كذلك.
- ٦- وجوب تقوى الله تعالى باجتناب الربا، وفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ٧- أن تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه هي سبب الفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.
- ٨- أن الفلاح والفوز من الله - عز وجل - وليست التقوى عوضاً عنه، وإنما هي مجرد سبب؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.
- ٩- أن الفلاح والفوز والنجاح مطلب لكل أحد، فمن موفق له، ومن مخذول دونه، نسأل الله التوفيق.
- ١٠- وجوب اتقاء النار وعذابها باجتناب الربا وبتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾.
- ١١- خطر الربا وعظم أمره وشدة عقابه، والوعيد عليه والتنفير منه؛ لأن الله - عز وجل - نهى عنه، ثم أتبعه بالأمر بتقواه - عز وجل - ثم أتبع ذلك بالأمر بتقوى النار، ووصفها بأنها أعدت للكافرين تنفيراً منها ومن أهلها ومن أسباب دخولها؛ ولهذا قال أبو حنيفة رحمه الله: «هذه أخوف آية في القرآن»^(١).
- ١٢- إثبات وجود النار وأنها معدة الآن ومهيأة للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.
- ١٣- أن مآل الكافرين ومصيرهم ودارهم في الآخرة هي النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. أما العصاة فإنها ليست لهم بدار، بل يدخلونها لتطهيرهم، ويخرجون منها، وقد يعفو الله عنهم فلا يدخلونها.
- ١٤- التحذير من الكفر؛ لأنه سبب لدخول النار والخلود فيها.
- ١٥- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.
- ١٦- أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ لهذا عطف بالواو التي تقتضي

(١) سبق تخريجه.

التشريك اسم الرسول ﷺ أو وصفه على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

١٧- أن طاعة الله تعالى ورسوله سبب رحمة الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وليست الطاعة عوضاً عن رحمة الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَافِرِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْهُمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَكُنَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

نهى عز وجل المؤمنين في الآيات السابقة عن أكل الربا، وأمرهم بتقواه عز وجل واتقاء النار، وطاعته عز وجل والرسول ﷺ، ورتب على ذلك الفلاح والرحمة، ثم أتبع ذلك بأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته الواسعة التي أعدها للمتقين، وهذا أشبه بالبيان والتأكيد؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: «سارعوا». بدون عطف، وقرأ الباقر بالعطف: ﴿وَسَارِعُوا﴾ فهو معطوف على «أطيعوا» أو على «اتقوا».

والمسارعة: المسابقة والمنافسة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[الحديد: ٢١]﴾، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَسْبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

والمسارعة: مفاعلة كالمغالبة، أي: ليسبق بعضهم بعضاً، أي: تنافسوا أيكم يسبق الآخر إلى مغفرة ربكم وجنته الواسعة، وفي هذا أمر بالمسارعة والمنافسة، وهو أيضاً مبالغة في طلب الإسراع، وفي ذلك كله ما لا يخفى من الإغراء والترغيب في المسارعة إلى مغفرة الرب وجنته.

﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته. أي: وسارعوا إلى طلب ونيل مغفرة من ربكم بالاستغفار والتوبة من الذنوب، وبالأعمال الصالحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وفي الحديث: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

وفي تنكير وتنوين «مغفرة» ووصفها بقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ تعظيم لها؛ لأنها من الرب؛ الخالق المالك المدبر - سبحانه، المرابي عباده بجميع النعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: معطوف على «مغفرة»، أي: وسارعوا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

والجنة هي الدار التي أعدها الله لعباده المؤمنين وأوليائه المتقين، فيها من ألوان النعيم ما لا يقدر قدره إلا الرب العظيم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

فيها كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٢).

أي: وسارعوا إلى جنة من ربكم عرضها السموات والأرض بالأعمال الصالحة. وبحصول مغفرة الرب - عز وجل - يزول المكروه والمرهوب، وبدخول جنته يحصل المحبوب والمطلوب - نسأل الله من فضله.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠)، وأحمد (٣٣٥/٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨) - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الجملة في محل جر صفة لـ «جنة»، أي: عرضها كعرض السموات والأرض، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

والعرض يطلق على ما يقابل الطول وليس مراداً هنا، ويطلق على الاتساع، وهو المراد هنا، والشيء العريض هو الواسع في العرض بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيق؛ ولهذا ذكر هنا عرض الجنة للدلالة على سعتها، وكما قيل:

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المذعور كِفَّةُ حَابِلٍ (١)

وأيضاً: فإن الجنة مقببة مستديرة، والشيء المقبب المستدير عرضه كطوله.

والجنة قبة تحت العرش، كما قال ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشَ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» (٢).

قال ابن كثير (٣): «وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها. وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح» وذكر حديث: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ...».

وفي هذا الحديث دلالة على أن الجنة فوق السموات تحت العرش في أعلى عليين، كما أن النار تحت الأرض في أسفل سافلين.

﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الجملة في محل جر صفة ثانية لـ «جنة».

﴿أَعَدَّتْ﴾ بني الفعل لما لم يسم فاعله ليوافق قوله في النار: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل

عمران: ١٣١]، ولأن المعد لها معلوم وهو الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٨٩].

(١) البيت لعبدالله بن العجاج. انظر: «ديوانه» (ص ٣١١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» (٢/٩٨).

ومعنى ﴿أَعَدَّتْ﴾: هيئت وجهزت، أي: أعدها الله - عز وجل - وجهزها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله - عز وجل - واتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبالإيمان ظاهراً وباطناً، كما قال تعالى في آية سورة الحديد: ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الآية: ٢١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٣٥﴾ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾.

أمر عز وجل في الآية السابقة بالمسارعة إلى مغفرته وجنته التي أعدها للمتقين، ثم نوه ببعض صفاتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الآية.

قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل جر صفة «للمتقين».

وبدأ بذكر وصفهم بالإنفاق في السراء والضراء، ليقابل - والله أعلم - ما نهي عنه قبل هذا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أضعفًا مضاعفًا﴾ [الآية: ١٣٠]؛ لأن الإنفاق ضد أكل الربا، فالإنفاق مأثور به ومحمود، وأكل الربا منهي عنه ومذموم. ولأن المال شريك الحياة وعزيز على النفس فإنفاقه دليل صدق وقوة الإيمان، ولهذا قال ﷺ: «والصدقة برهان» (١).

والإنفاق: إخراج المال وبذله. والمراد به هنا الإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله تعالى من النفقات الواجبة كالزكاة والإنفاق على الأهل ونحو ذلك، والنفقات المستحبة من الصدقات والهديات ونحو ذلك.

ولم يذكر مفعول ﴿يُنْفِقُونَ﴾؛ ليعم كل ما ينفق ويبذل من نقود وأعيان ومنافع وغير ذلك، كما لم يذكر المنفق فيه؛ ليعم جميع مجالات الإنفاق، واجبة كانت أو مستحبة.

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾، أي: في حال السراء والضراء، والسراء: ما يسر، أي: في حال الرخاء والسعة واليسر، ونحو ذلك. و«الضراء»: ما يضر، أي: في حال الشدة والضيق والعسر، ونحو ذلك.

فهم ينفقون في الحالين، فليسوا ينفقون في السراء فقط، ويمسكون في الضراء، بل ينفقون حتى في الضراء فلا يمنعهم ضيق الحال من الإنفاق قدر وسعهم، كما قال تعالى: ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

وإذا كانوا ينفقون في السراء والضراء، فهم ينفقون في جميع الأحوال والأوقات، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِّمَاعِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والإنفاق في الضراء أشد وأصعب، وعليه المحك فهو أدل على حقيقة التقوى.

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾: معطوف على ما قبله، وهذه هي الصفة الثانية من صفات المتقين. و«الكاظمين»: جمع «كاظم» و«الكظم» معناه: الكتم والإمساك - مع شدة الألم والتأثر.

وفي الحديث: «إذا ثأب أحدكم فليكظم ما استطاع»^(١) أن يمنع فتح فمه ما استطاع مع شدة ذلك.

والغيظ: الحنق وشدة الغضب الموجب للانتقام بالقول، والفعل بالطبيعة البشرية فالكاظم الذي امتلأ قلبه غيظاً وغضباً وحبسه، قال تعالى: ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] أي: ممتلئ قلبه حزناً، وقال تعالى عن يونس - عليه السلام -: ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨] أي: ممتلئ قلبه غمًا وهمًا.

أي: والذين يكتمون ويخفون ويمسكون غيظهم وغضبهم، فإذا اغتاظوا وثاروا واشتد غضبهم حبسوا غيظهم ومنعوه، ولم يحملهم على الانتقام أو التشفّي بقول أو

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٩)، ومسلم في الزهد والرفائق - تسميت العاطس وكراهة التثاؤب (٢٩٩٤)، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٨)، والترمذي في الصلاة (٣٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فعل - وهذا من أشد ما يكون على النفس؛ وذلك لأن أقوى القوى تأثيرًا على النفس القوة الغاضبة تشتهي إظهار الغضب والتنفس بما في داخل النفس من الغضب، فإذا استطاع الإنسان إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها دل ذلك على عزيمة في النفس وقهرًا لإرادة الشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة، وهو القوة حقًا؛ ولهذا قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

وقال ﷺ: «فما تعدون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢).

وكظم الغيظ من أعظم الصفات؛ لأن الغضب إذا اشتد قد يوقع الإنسان فيما لا تحمد عقباه من الأفعال كالقتل وإتلاف المال، وربما قتل نفسه بأي وسيلة كانت. ومن الأقوال كالطلاق والسب والشتم، وربما التلطف بالكفر. نسأل الله السلامة والعافية.

وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولاً، وأقلل لعلي أعيه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب، فأعاد عليه، حتى أعاد عليه مرارًا، كل ذلك يقول: لا تغضب»^(٣).

وفي رواية عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصني. قال: «لا تغضب» قال الرجل: ففكرت حين قال ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله^(٤).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد الله إلا ملأ جوفه إيماناً»^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة - فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء؟ (٢٦٠٩)، وأحمد (٢/٢٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٠٨)، وأبوداود في الأدب (٤٧٧٩)، وأحمد (١/٣٨٢)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٤)، من حديث الأحنف بن قيس عن عم له يقال له: جارية بن قدامة السعدي.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٣٧٣).

(٥) أخرجه أحمد (١/٣٢٧) قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/١٠٢): «إسناده حسن ليس فيه مجروح».

وعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء»^(١).
وقال ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»^(٢).

ولهذا فإن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الغضبان الذي اشتد به الغضب لا عبرة بأقواله، ولا بإقراراته؛ من طلاق أو قذف أو عتق أو بيع أو شراء أو غير ذلك.
﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المتقين، فترقوا من كظم الغيظ، إلى العفو عن الناس.

﴿وَالْعَافِينَ﴾ جمع «عاف» والعفو: ترك المؤاخذة على الذنب، أو التسامح عن الحق أو بعضه.

أي: الذين إذا أساء إليهم أحد من الناس بقول أو فعل لم يقابلوا إساءته بالانتقام بل يعفون عنه ولا يكون في قلوبهم أي موجدة عليه، كما يعفون ويتسامحون عن بعض حقهم أو كله، كل ذلك طلباً للأجر من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فيتبعون كظم الغيظ بالعفو عن أساء إليهم من الناس، وفي هذا تنويع وتكميل لكظمهم الغيظ؛ لأن العفو منزلة أعلى وأجل من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع الساحة، والتجاوز كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويعفون ويتسامحون عن بعض حقهم أو كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

و«العفو»: صفة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ولو لم يكن إلا أنه من أعظم صفات الرب

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبوداود في الأدب (٤٧٧٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٢)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٢)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

عز وجل، وبخاصة إذا كان العفو عند المقدرة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

أما إذا كان العفو عن عجز عن الانتقام فهذا لا يحمد ولا يمدح صاحبه، بل يذم؛ لأنه عفو العاجز، كما قال الشاعر يذم قومه:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحساناً
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا	شنوا الإغارة فرساناً وركباناً ^(١)

وفي قوله: ﴿عَنِ النَّاسِ﴾ دلالة على أن العفو مشروع ما أمكن عن الناس جميعاً من المؤمنين وغيرهم ما لم يكن غير المؤمن محارباً- وهذا فيما هو من حقوق الخلق، أما ما كان من حق الله تعالى، فلا يجوز العفو عنه؛ لأنه ليس لأحد من الخلق أن يعفو عن حق الله تعالى، أو يسقطه.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أثنى الله - عز وجل - على المتقين بالصفات المذكورة، وهي الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم أتبعها بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في إشارة واضحة إلى أن عملهم هذا من الإحسان، وأن هذه الصفات الثلاث كلها من الإحسان.

فيكون في الآية وصفهم بأربع صفات: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان، أي: أنهم محسنون، فهم محسنون بالإنفاق وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وهم محسنون أيضاً باتباع كظم الغيظ والعفو عن أساء إليهم بالإحسان إليه، وهذه درجة عظيمة أعلى من الكظم والعفو، وأعم منها وأجل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً

(١) الأبيات لقريط بن أنيف. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١/٥).

بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(١).

وفي التعبير بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ دون وصفهم بالمحسنين زيادة ترغيب بالإحسان، والذي يشمل الإحسان في عبادة الله تعالى بالإخلاص له - عز وجل - والمتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله تعالى بإيصال النفع الديني والديني إليهم ودفع الشر عنهم في ذلك كله.

كما أن فيه إثبات المحبة لله تعالى، وإذا كان عز وجل يحب المحسنين، فمفهوم ذلك أنه لا يحب المسيئين، بل يبغضهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ تَوْبًا إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ذكر عز وجل في الآيتين السابقتين صفات المتقين مما يتعلق بفعل الطاعات من الإنفاق والكظم للغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم، ثم أتبع ذلك بذكر صفتهم وحالهم إذا وقع منهم فاحشة أو ظلم، فذكر أولاً حال كمالهم، ثم ذكر حال تداركهم لنقائصهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾، الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على الموصول في الآية السابقة، فهي في محل جر صفة رابعة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿فَعَلُوا﴾: فعل الشرط، و«الفاحشة»: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين، كالزنا واللواط، ونكاح الابن زوجة أبيه، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى حكاية عن لوط أنه قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠، النمل: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة و الآداب - استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكل ما تجاوز الحد في الفساد فهو فاحشة، كعقوق الوالدين وشهادة الزور والسرقه وغير ذلك من الكبائر، وأفحش الفواحش الشرك بالله.

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ «أو»: عاطفة تفيد التقسيم والتنويع، أي: أو ظلموا أنفسهم بما دون الفاحشة، وهي الصغائر.

وقد تحمل الفاحشة هنا على ما يستفحش من الذنوب كالزنا ونحوه، من الكبائر، ويحمل ظلم النفس على ما سوى ذلك من الذنوب كبائر كانت أو صغائر.

كما قيل العطف في الآية من عطف العام على الخاص، لأن الذنوب كلها ظلم للنفس. وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: فعلوا فاحشة وظلموا أنفسهم.

وكل خروج عن طاعة الله تعالى فهو ظلم للنفس، سواء كان تركاً لما أمر الله به، أو

ارتكاب لما نهى الله عنه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْدِينُ الْقَائِمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وذلك أن النفس وديعة عند الإنسان يجب عليه أن يسعى في سلامتها وخلاصها

وفكاكها، وفيما يسعدها في دينها ودنياها وأخرائها، فيحملها على فعل أسباب السعادة

والنجاة، وينأى بها عن أسباب الشقاء والهلاك، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع

نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

وكما قيل:

وما الناس إلا عاملان فعامل يُتبرُّ ما بيني وآخر رافع^(٢)

﴿ذَكُرُوا اللَّهَ﴾، جواب الشرط «إذا»، أي: ذكروا الله - عز وجل - بقلوبهم

وألستهم وجوارحهم؛ فذكروا الله تعالى بقلوبهم؛ بذكر عظمته ووعدته ووعدته،

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص ٥٦).

وذكروه بألستهم بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والاستغفار والتوبة، والدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك. وذكروا الله تعالى بجوارحهم؛ فابتعدوا بها عن معصيته خوفاً من عقابه، واستقاموا بها على طاعته، رجاءً في ثوابه.

﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: للتعقيب والترتيب، والاستغفار: طلب الغفر، أي: طلب الستر للذنوب، وعدم المؤاخذة عليها، أي: فطلبوا من الله - عز وجل - المغفرة لذنوبهم، أي: لما وقع ويقع منهم من المعاصي والآثام، من فعل فاحشة، أو ظلم للنفس أو غير ذلك.

فجمعوا بين الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه بقلوبهم، والإقلاع والبعد عنه بجوارحهم، وطلب المغفرة والتوبة والاستغفار بألستهم.

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذه الجملة اعتراض - بين قوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

والغرض من هذا الاعتراض واضح وهو بيان وتأکید وجوب التعلق بالله والرجوع إليه وحده، وتسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالمشركين الذين يدعون غير الله ويتخذون الشفعاء بينهم وبين الله تعالى.

و«مَنْ» في قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله، والنفي بصيغة الاستفهام أبلغ لكونه مشرباً بالتحدي، كأنه يقول: اتئوالي بأحد يغفر الذنوب إلا الله، لا أحد يغفر الذنوب غيره.

﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر. أي: لا أحد يغفر الذنوب بسترها والتجاوز عنها إلا الله تعالى، كما قال ﷺ في الدعاء الذي علمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١).

وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحِدِ اللَّهُ عَفْوَاً

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رَجِيمًا ﴿ [النساء: ١١٠].

عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه - عز وجل - قال: «أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال - تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي: رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي: رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك» وفي رواية: «قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»^(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم مادامت الأرواح فيهم. فقال الله: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»^(٣).

وعن علي - رضي الله عنه - أن أبا بكر - رضي الله عنه - حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، أو ثم يصلي ويستغفر الله - عز وجل - إلا غفر الله له»^(٤).

وفي رواية: «ما من رجل يذنب، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية»^(٥).

﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾: معطوف على قوله: ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ والإصرار على

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٨)، وأحمد (٢/٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٢/٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/٢، ١٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٩٥).

(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٠٦).

الشيء: الاستمرار عليه.

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لم يستمروا على الذي فعلوا، أو على فعلهم من الفاحشة أو ظلم النفس بل ألقعوا وتابوا. فجمعوا بين الندم على فعل الذنب، والعزم على عدم العودة إليه بقلوبهم، والإقلاع والبعد عنه بجوارحهم وطلب المغفرة والتوبة والاستغفار منه بألسنتهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يعلمون عظمة من عصوه - سبحانه وتعالى، ويعلمون عظم معصيته ومخالفة أمره بفعل فاحشة أو ظلم للنفس، أو غير ذلك، ويعلمون أن المغفرة لا تحصل مع الإصرار، ويعلمون أن الله - عز وجل - يغفر ويتوب على من استغفر وتاب إليه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٣٦).

ذكر عز وجل صفات المتقين في الآيات السابقة، ثم أتبعها بذكر جزائهم في هذه الآية. قوله: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ الإشارة للمتقين المتصفين بالصفات السابقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهاً بشأنهم.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ ثوابهم ومكافأتهم على عملهم. ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ستر من ربهم - عز وجل - لذنوبهم عن الخلق، وتجاوز منه تعالى عنها، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تعظيم لهذه المغفرة.

﴿وَجَنَّاتٌ﴾: معطوف على مغفرة، وهي جمع «جنة»، وجمعت؛ لأنها جنان كثيرة ومتنوعة، ودرجات ومنازل مختلفة، حسب اختلاف الأعمال، كما قال ﷺ: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الغابر في الأفق». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى»، والذي نفسي بيده، رجال

آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»^(١).

ولما سألت أم حارثة رسول الله ﷺ فقالت: «يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة- وكان قُتل يوم بدر- فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»^(٢).

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري من تحت غرفها وقصورها وأشجارها الأنهار، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتنعمون بمشاهدتها ويصرفونها حيث شاؤوا من غير أخطود.

قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخطود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان^(٣)

وهي أنواع أربعة كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفتنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها بإجماع المسلمين.

﴿وَنِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾: معطوف على قوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ﴾.

﴿وَنِعَمَ﴾: فعل لإنشاء المدح، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره «هو».

و«ال» في ﴿الْعَامِلِينَ﴾ للعهد، أي: نعم أجر العاملين هذا الجزاء.

﴿أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ أي: ثواب العاملين وجزاؤهم، أي: نعم وحسن وعظم هذا الجزاء بالمغفرة من ربهم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار مع الخلود فيها أجر العاملين بتقوى الله تعالى المتصفين بالصفات العظيمة المذكورة.

وفي هذا ثناء منه- عز وجل- وامتداح لأجرهم وتعظيم له، كما قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) «النونية» (ص ٢٢٩).

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

نعمت جزاء المتقين الجنة فيها الأماني والمنسى والمنة^(١)

والتعريف في ﴿الْعَمِلِينَ﴾ للعهد، أي: ونعم أجر العاملين هذا الجزاء، وفي هذا تفضيل للجزاء، وللعمل المجازي عليه، وللعاملين، أي: إذا كان لأصناف العاملين أجور- كما هو المتعارف- فنعم أجر العاملين بتقوى هذا الأجر. وسمى ثوابهم «أجرًا» لأنه- سبحانه وتعالى- تكفل به وضمنه لهم، وأوجبه على نفسه تفضلاً منه وكرماً وامتناناً على عباده.

الفوائد والأحكام:

١- الحث والترغيب والإغراء بالمسارعة إلى مغفرة الله عز وجل وجمته؛ لقوله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآيات.

٢- أن الحياة ميدان للمنافسة والمسابقة والمسارعة إلى مغفرة الله تعالى وجمته، فأين

المشمرون؟! ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة فجاء عمر- رضي الله عنه- بنصف ماله، وقال: لأسبقن أبا بكر إن سبقته، فجاء أبو بكر- رضي الله عنه- بجميع ماله، وسأل رسول الله ﷺ عمر: ما تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم مثله، وسأل أبا بكر: ما تركت لأهلك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله، قال عمر رضي الله عنه: فعلمت أنني لن أسبق أبا بكر بعد اليوم^(٢).

وقد روي عن الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»^(٣). وفي هذا المطلب العظيم أزهقت نفوس المجاهدون، وأفنيت أعمار العلماء الربانيين في خدمة القرآن والسنة والشرع المبين، وفيه أنفقت أموال المحسنين، وسهرت

(١) البيت مجهول النسبة. انظر: «صناعة الإعراب» (٢/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة المصنف (٧/ ٨٨)، وأحمد في الزهد (ص١٧٦)، وابن أبي الدنيا في الزهد (ص٢٢٩).

لأجله عيون العابدين.

- ٣- عناية الله - عز وجل - بالمؤمنين حيث يأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته.
- ٤- إثبات صفة المغفرة العظيمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ففي تنكيرها وكونها منه - عز وجل - إشارة إلى عظمتها وسعتها.
- ٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة بعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٦- سعة الجنة وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ولأنها من الله - عز وجل - وعنده.
- ٧- أن التخلية قبل التحلية، وإزالة المرهوب مقدمة على توفير المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ فقدم ﴿مَغْفِرَةٍ﴾؛ لأن بها التخلية وزوال المرهوب، ثم ذكر الجنة التي بها حصول المطلوب؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.
- ٨- فضل التقوى والترغيب فيها والبخارة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
- ٩- أن الجنة موجودة الآن معدة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
- ١٠- امتداح الله - عز وجل - للمتقين وثناؤه عليهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْمَعْرُوفِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
- ١١- فضل الاتصاف بالصفات المذكورة، وهي الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم، والاستغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها؛ لأن الله امتدح المتقين بها، وخصها من بين خصال التقوى.
- وإذا كان عز وجل قال: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم ذكر صفاتهم، وقال في سورة الحديد: ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الآية: ٢١]، ففي هذا وذاك دلالة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. خلافاً للمرجئة.

١٢- فضيلة الإنفاق والترغيب فيه في جميع الأحوال؛ لأن الله امتدح به المتقين وقدمه على الصفات بعده؛ لما فيه من نفع الآخرين.

١٣- فضيلة كظم الغيظ، والترغيب في الإمساك بزمام النفس عند الغضب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

١٤- الترغيب في العفو عن الناس وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى، كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦- محبة الله تعالى للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وهذا غاية مطلبهم، ويفهم من الآية عدم محبته للمسيئين.

١٧- الترغيب في الإحسان إلى الناس مطلقاً، وأن منه الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس؛ لأن الله لما ذكر هذه الصفات أتبعها بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٨- أن المتقين ليسوا بمعصومين عن فعل الفاحشة أو ظلم الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

١٩- أن فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يחדش التقوى إذا استغفر الإنسان وتاب، وقد قال ﷺ: «لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(١)، وقال ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(٢).

وهذان الأبوان- عليهما السلام- لما تابا وأنابا إلى الله تعالى، وتاب الله عليهما صارت منزلتهما عند الله تعالى بعد التوبة أفضل من منزلتهما قبل المعصية والتوبة.

وهكذا حال كل تائب إلى الله تعالى إذا صدق في توبته ورجوعه إلى الله تعالى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وابن ماجه في الزهد- ذكر التوبة (٤٢٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب».

٢٠- أن الذنوب منها ما هو مستفحش، ومنها ما هو دون ذلك، لكنه ظلم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: فعلوا ما يستفحش، أو ظلموا أنفسهم بما دون ذلك، مع أن الكل ظلم للنفس. لكن الذنوب بعضها أفحش من بعض، كما أن منها كبائر، ومنها صفائر.

٢١- مبادرة المتقين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم إلى ذكر الله تعالى والاستغفار لذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَكُرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

٢٢- أن ذكر الله تعالى سبب للتوبة والاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿ذَكُرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

٢٣- لا أحد يغفر الذنوب إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فهو سبحانه يغفر الذنوب جميعًا مغفرة تامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وعن الأسود بن سريع - رضي الله عنه - قال: إن النبي ﷺ أتى بأسير، فقال: «اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي ﷺ: عرف الحق لأهله»^(١).

فلا يتعاضمه - سبحانه - ذنب أن يغفره، بل إنه يبذل السيئات حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

أما المخلوق فإنه لو غفر لمن أساء إليه - وهذا في الناس قليل - فإنه غالبًا يتبع ذلك بالمن والأذى لمن عفى عنه، وربما يذكره بين حين وآخر بذلك.

٢٤- عدم إصرار المتقين على ما فعلوا من فاحشة أو ظلم للنفس وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٥- وجوب الاستغفار من الذنوب، والتحذير من الإصرار عليها؛ لأن الإصرار على الذنب سبب لعدم التوفيق للتوبة، وقد يجعل من الصغيرة كبيرة؛ ولهذا قال ابن

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٣٥).

عباس رضي الله عنهما: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»^(١).
 ٢٦- أن من استمر على ذنب وهو لا يعلم أنه ذنب فإنه قد يعذر؛ لفهوم قوله تعالى:
 ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- رفعة شأن المتقين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾.
 ٢٨- التنويه بما أعد للمتقين من الجزاء العظيم من مغفرة ربهم لذنوبهم وجنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿جَرَّأُوهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وبهذا يزول عنهم المرهوب ويحصل لهم المطلوب.

٢٩- أن من أعظم نعم الجنة جريان الأنهار من تحت قصورها وغرفها وأشجارها؛
 لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

٣٠- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبدياً؛ وأمنهم من الخروج منها، ومن انقطاع
 نعيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وهذا نعيم معنوي يضاف إلى ما هم فيه
 من ألوان النعيم.

٣١- امتداح الله تعالى وثناؤه لما أعد للمتقين من عظيم الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ
 أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ عملوا قليلاً فأجروا كثيراً، وعند الصباح يحمد القوم السرى،
 وعند الجزاء يجد العامل جزاءه كاملاً موفوراً.

٣٢- الحث والإغراء على العمل، أي: العمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ
 الْعَمِلِينَ﴾.

٣٣- تكفل الله عز وجل بثواب أهل الجنة وجزائهم، لهذا سمّاه «أجراً» تفضلاً منه وكرماً.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/٦٥١).

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧).

نهى الله - عز وجل - في الآيات السابقة المؤمنين عن أكل الربا، وأمرهم بتقواه، وافتاء النار، وطاعته - عز وجل - ورسوله ﷺ، والمصارعة إلى مغفرته - عز وجل - وجنته التي أعدها للمتقين، وأثنى عليهم بذكر صفاتهم ومدح جزاءهم وثوابهم. وفي هذه الآية وما بعدها عود إلى قصة أحد، وفيها تسلية للمؤمنين وتعزية لهم في مصابهم في أحد، وفيها تشجيع وبشارة لهم، وتقوية لنفوسهم، وإحياء لعزائمهم وهمهم وذكر الحكم الباهرة، والفوائد الظاهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم.

قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ ﴿ قَدْ ﴾: للتحقيق، وتأکید الخبر ﴿ خَلَتْ ﴾: مضت وسبقت، والخطاب في قوله: ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ لهذه الأمة.

﴿ سُنَنٌ ﴾: جمع «سنة»، وهي: السيرة والطريقة، والمثال المتبع، كما قال الشاعر:
فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها^(١)
والمراد: قد خلت سنن الله في الأمم قبلكم في نصرة المؤمنين وإهلاك المكذبين، كما قال تعالى: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال

(١) البيت لخالد بن زهير الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي. انظر: «ديوان الهذليين» (١/١٥٥).

تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٣].

وسنن الله تعالى ثابتة لا تتبدل ولا تتحول في نصره أوليائه وإهلاك أعدائه وأعدائهم، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الذِّبْرِ خَلْوًا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجْعَلُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٧].

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فسيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم، أي: فسيروا في الأرض سيرًا حسيًّا بأبدانكم على أقدامكم ومراكبكم؛ لتقفوا بأنفسكم على ديار أولئك المكذبين وتشاهدوها بأبصاركم فذلك أقوى في الاعتبار من السماع. وسيروا في الأرض سيرًا معنويًّا بقلوبكم بالتفكر في أحوال تلك الأمم وهذا أعم وأوسع، والمراد بالأرض أرض الله عامة، وبخاصة أرض وديار المكذبين.

﴿فَانظُرُوا﴾ بأبصاركم وعيونكم، وتأملوا وتفكروا ببصائرهم وقلوبهم. فالسير الحسي في الأرض أقوى في الاعتبار؛ لأنه يجتمع فيه التأمل والتفكر في القلب، والنظر والمشاهدة بالبصر، وليس الخبر كالعيان^(١). والسير المعنوي في الأرض أوسع وأعم لأنه يشمل التفكر بالقلب بكل ما سمع، وإن لم يشاهده.

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الجملة في محل نصب مفعول ﴿فَانظُرُوا﴾، و﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام وعاقبة الشيء نهايته وما يؤول إليه.

أي: كيف كانت عاقبة ونهاية المكذبين لله ورسوله أن عاقبهم الله بأنواع العقوبات، وحلت بهم المثالات فصارت نهايتهم الهلاك، وزال ملكهم، وصاروا أثرًا بعد عين،

(١) سبق تحريجه.

وصارت ديارهم بلاقع بسبب الذنوب والمعاصي والكفر بالله وتكذيب رسله.
وفي هذا تسلية للمؤمنين في مصابهم في أحد، وتحذير للأمة كلها من مسالك المكذبين
وعقوباتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾
[الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾
[النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
[غافر: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾
[غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّكْفَرِينَ أَمْثَلَهَا﴾ [محمد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال تعالى:
﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ
مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فأهلك قوم لوط بالخاصب، وشمود بالصيحة، وقارون بالخسف في الأرض، وقوم
نوح وفرعون بالغرق.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨).

قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: الإشارة إلى القرآن الكريم، ومنه ما ذكروا به في هذه
الآيات من مؤاخذه المكذبين.

وأشار إلى القرآن بإشارة القريب ﴿هَذَا﴾؛ لأنه حاضر في الأذهان.

﴿بَيَانٌ﴾: مصدر «بَيَّن» يقال: بَيَّنَّ بَيِّنًا وَبَيِّنًا وَبَيَانًا. وجاء التعبير باسم المصدر عن

الموصوف بالبيان، وهو القرآن من باب المبالغة، حتى كأن الموصوف هو الصفة نفسها. فالقرآن بيان، وفيه البيان.

والبيان: الإيضاح، وكشف الحقائق الواقعة، والهدى والرشاد، وحذف المتعلق في قوله: ﴿بَيِّنَاتٌ﴾؛ ليعم بيان كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي: بيان للناس كلهم، فالقرآن عام من حيث «التبيين» فهو بيان لكل شيء، ومن حيث «المبين له» فهو بيان لجميع الناس.

أي: هذا القرآن بيان لكل شيء، وهدى وإرشاد للناس كلهم، به تقوم عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فيه بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وبيان أخبار الأمم السابقة، وما جرى بين الرسل وأتباعهم، وبين المكذبين من أقوامهم، وعاقبة كل منهم، بنصر الله لأوليائه المؤمنين، وإهلاكه لأعدائه المكذبين.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: معطوف على ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ فهو بيان للناس عامة، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون بهدي القرآن ويعملون به، ويتعظون بمواعظه.

والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]. أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٣).

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ الواو: استثنائية، و«لا»: ناهية، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. والوهن: الضعف، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]. أي: لا تضعفوا عن الجهاد وقاتل الكفار في المستقبل بسبب ما نالكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾

[النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: معطوف على ما قبله، وكرر «لا» للتأكيد، والحزن: الأسف والأسى على مصاب قد مضى من حصول شر أو فوات خير، أي: ولا تحزنوا بقلوبكم على من قتل منكم.

فكل مصيبة دون الدين تهون، وفي الله عوض عن كل فائت، وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره وما لكسر قناة الدين جبران^(١)

فنهاهم عن الوهن والضعف؛ لإشعارهم أنهم أقوىاء بالله تعالى؛ ليزدادوا قوة وإقدامًا، ونهاهم عن الحزن على ما مضى؛ إذ لا فائدة في ذلك، ولثلاث فقر عزائمهم، أو يفوت ذلك في عضدهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم أنتم الأعلون، ويحتمل كون الواو: استئنافية، أي: وأنتم الأعلون شرعًا ومنزلة بالإيمان، وأنتم الأعلون العالون قدرًا بنصر الله تعالى لكم حتى ولو أصابكم ما أصابكم، فالعقبى لكم في الدنيا والآخرة والنصر لكم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وفي هذا بشارة لهم.

و﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ جمع «الأعلى» وفتح ما قبل الواو في ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ للدلالة على الألف المحذوفة في «الأعلى» لالتقاء الساكنين.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه محذوف دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فأنتم الأعلون بإيمانكم، ويكون مصابكم أقل من مصابهم، مع أن عددكم وعدتكم أقل منهم، وأنتم الأعلون بوعد الله لكم بالنصر في المستقبل في دينكم ودنياكم وأخراكم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص ٨٠).

بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾
وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ۗ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَٰوِلَهَا
بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي
وخلف وعاصم في رواية أبي بكر بضم القاف: «قَرْحٌ»، وقرأ الباقون بفتح القاف
﴿قَرْحٌ﴾، ومعناها واحد فـ«القرح» بضم القاف وفتحها: «الجرح».
وقيل: إن «القرح» بالضم: «الجرح»، و«القرح» بالفتح: «ألم الجرح»، والقولان
متلازمان؛ لأن الألف من لازم الجرح.

ومعنى ﴿يَمَسَّكُمْ﴾: يصبكم، كما قال تعالى: ﴿مَسَّهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾
[البقرة: ٢١٤]، أي: أصابتهم. والمعنى: إن يصبكم جراح وقتل.

﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ«قد».
والمراد بـ«القوم» كفار مكة، أي: فقد أصاب المشركين قرح مثله، أي: جراح وقتل وذلك
في بدر حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون، فكنتم كفافاً، كما قال تعالى: ﴿أَوْلَمَّا
أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا أَقْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، أي: أصبتم منهم في بدر مثلي ما أصابوا منكم في أحد، أي:
ضعفه، حيث قتلتم منهم سبعين رجلاً وأسرتهم سبعين.

وفي هذا تسلية للمؤمنين بأن ما أصابهم من قتل وجراح يوم أحد، قد أصاب عدوهم
مثله يوم بدر فليس المصاب خاصاً بهم، وفي هذا تخفيف لمصاب المؤمنين، أي: هذا بهذا،
والإنسان إذا علم أن عدوه قد أصابه مثل مصابه هانت عليه مصيبتة، مع الفرق الشاسع
والبون الواسع بين قتلى الفريقين، فقتلى المؤمنين في الجنة، وقتلى المشركين في النار؛ ولهذا لما
قال أبو سفيان: الحرب سجال؛ يوم لنا، ويوم لكم. فقال ﷺ لأصحابه: أجيئوه: فقالوا:

«لا سواء، لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»^(١).

والمصائب إذا عمت خفت؛ ولهذا قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر^(٢):

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

ولما حضرت الاسكندر المقدوني الوفاة أمر أمه أن تكتب على باب قصره بأن لا يأتي أحد للعزاء إلا من لم تصبه مصيبة، فلما مات كتبت ذلك فلم يأتيها أحد يعزيها، فسألت لم ذلك؟ فقيل لها: إنك كتبت على باب القصر أنه لا يأتيك للعزاء إلا من لم تصبه مصيبة، وما من الناس أحد إلا وقد أصابته مصيبة، فقالت: يا ولدي لقد عزيتني عن نفسك بنفسك.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ الواو: استثنائية، وأشار للأيام بإشارة البعيد «تلك»؛ لأن الأيام منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب، كما أن منها ما هو سابق ومنها ما هو لاحق.
والأيام تشمل الأيام المعروفة والأزمنة، وما يقع فيها من النقم والنعيم، كما قال تعالى:
﴿وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].

﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ تكلم عز وجل بضمير العظمة إشارة إلى عظمته - عز وجل - وكمال سلطانه في تدبير أمر هذا الكون، ومداولة الأيام بين الناس.

ومعنى ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نجعلها دولا بينهم، فتارة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء، وتارة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء.

وهذا من سنن الله تعالى الكونية، ففي بدر كانت الدولة للمسلمين على المشركين، وفي أحد كانت الدولة للمشركين على المسلمين، لحكم وأسرار عظيمة ذكرها الله تعالى في هذه الآيات.

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «كيف كان قتالكم إياه؟ قال: الحرب بيننا سجال،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٧١).

(٢) انظر: «ديوانها» (ص ٨٤).

ينال منا وننال منه. فقال هرقل: وكذلك الرسل تبلى وتكون لهم العاقبة»^(١).
قال ابن القيم^(٢) في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد: «ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، اقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة».

فالأيام دول، ودوام الحال من المحال، فمن عز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، ومن صحة إلى سقم ومن سقم إلى صحة، وهكذا، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

وقال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر^(٣)

وقال الآخر:

ومن عاش في الدنيا فلا بد أن يرى من العيش ما يصفو وما يتكدر^(٤)

قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ هذا شروع في بيان الحكمة فيما أصابهم يوم بدر.

﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الواو: عاطفة، والمعطوف عليه مقدر دل عليه ما

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٣٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥١٠).

(٣) البيت لنمر بن تولب. انظر: «ديوانه» (ص ٣٤٧).

(٤) البيت مجهول القائل. انظر: «المستطرف» (ص ٤٣).

سبق، أي: أصابكم ما أصابكم من القرع، وجعلنا الأيام دولاً ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ واللام في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾: للتعليل، أي: لأجل أن يعلم الله الذين آمنوا، أي: لأجل أن يعلم علماً يترتب عليه مجازاتهم؛ لأن الله - عز وجل - قد علم أولاً المؤمنين من غيرهم، وعلم كل شيء، لكنه - عز وجل - لا يحاسب الخلائق على ما في علمه السابق أولاً قبل إيجادهم وحصول الإيمان منهم أو عدمه، وإنما يحاسبهم بعد وجود ذلك وحصوله منهم. أي: وليعلم الله الذين يرضون ويسلمون بما يقدره الله تعالى من مداولة الأيام بين الناس، فيصبرون على الضراء، ويشكرون عند السراء، ويلبسون لكل حالة لبوسها الشرعي، فلا تجزعهم المصيبة، ولا تبطرحهم النعمة، كما قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلاَّ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [النكبات: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، والمراد بالفتنة في الآية ضد الخير.

فمداولة الأيام وما يحصل فيها من خير أو شر أو نصر أو هزيمة فيه أعظم الابتلاء والامتحان للعباد لتمييز المؤمن الصادق من الكافر والمنافق، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

الطَّيِّبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴿ [الأنفال: ٣٧].
 ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾: معطوف على قوله: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ﴾ أي: جعل الله تعالى الأيام دولاً بين الناس وجعل الدولة للكفار عليهم في أحد؛ ليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم أيها المؤمنون شهداء، أي: يجعل ويختار ويصطفي منكم شهداء، أي: أناساً يستشهدون ويقتلون في سبيله، حيث قتل في هذه الغزوة سبعون رجلاً منهم، اختارهم الله واصطفاهم للشهادة في سبيله.

والشهداء: جمع شهيد، وهو الذي يقتل في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، سمي شهيداً؛ لأن تعريضه نفسه للقتل شهادة فعلية منه على صدق إيمانه، ولأن الملائكة تشهده، وغير ذلك.

أي: ليعلم الذين آمنوا بصبرهم حال الشدة وشكرهم حال الرخاء، ولكي يختار ويصطفي من المؤمنين شهداء.

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وقتال المؤمنين والصد عن دين الله، وقابل قوله: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ في إشارة إلى فضل الشهادة ومحبة الله للشهداء وأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار - كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما^(١)، فهو كقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَرَبَّصُوتَ بِنَاءِ آلَاءِ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، وفي قوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ احتراس من أن يظن ما حصل لهم من الدولة في أحد من محبة الله لهم.

وأيضاً: ﴿ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالقعود عن القتال من المنافقين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦]؛ ولهذا لم يتخذ منهم شهداء.

﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ جمع «ظالم»، والظلم النقص، كما قال تعالى: ﴿ كَلْنَا الْجِنَّ إِنَّكَ أَكْهَلُهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [الكهف: ٣٣]، وهو أيضاً: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل

(١) سبق تخريجه قريباً.

العدوان.

وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. فالظالم من اعتدى في حق الله، أو حق عباده، ونقص حق الله، أو حق عباده، فمن أشرك بالله أو عصاه فقد ظلم واعتدى ونقص حق الله تعالى، ومن اعتدى على عباد الله تعالى فقد ظلمهم ونقص حقهم. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم بقدر ظلمهم، ومفهوم هذا محبته للمقسطين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ معطوف على ما قبله داخل ضمن الحكمة في إصابتهم بالقرح وجعل الأيام دولاً، أي: ولأجل أن يمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ﴾ «التمحيص»: التنقية والتصفية والتخليص. أي: يمحص الله الذين آمنوا، أي: ليبتلهم ويصفيهم بما أصابهم من القرح وإدالة الكافرين عليهم؛ ليتين ويتميز المؤمنين الخالص منهم والصفوة، ولينقيهم من ذنوبهم بذلك المصاب؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾: معطوف على ما قبله، و«المحق»: إهلاك الشيء وإذهابه بالكلية، أي: ويهلك الكافرين، أي: ومن حكمة الله تعالى في إصابتكم بالقرح ومدولة الأيام، وجعل الدولة لهم عليكم استدراجاً لهم؛ ليمحقهم؛ لأنهم إذا انتصروا ازدادوا طغياناً وبغياً وبطراً؛ اغتراراً منهم بما حصل لهم من نصر، فيعودون لقتالكم مرة بعد أخرى، فيكون محققهم ومعاجلتهم بالعقوبة والهلاك في الدنيا الموصول بهلاكهم وعذابهم في الآخرة في النار وبئس القرار. وقد أهلك جميع الذين حاربوا رسول الله ﷺ يوم أحد، وأصروا على الكفر، فما أصاب المؤمنين فضيلة وشهادة وتمحيص، وما أصاب الكافرين محق وهلاك، وشتان بين الحالين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴿١﴾

ذكر عز وجل أن من الحكم فيما أصاب المسلمين في أحد تميز المؤمنين وتمحيصهم واصطفاء شهداء منهم، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية؛ تأكيداً لما قبله، وبياناً لتحتم هذا الابتلاء والتمحيص، فدرج الجنة ليس مفروشاً بالورود والرياحين.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ﴿أَمْ﴾: هي المنقطعة التي بمعنى «بل» الانتقالية وهمزة الاستفهام، أي: بل أحسبتم، والاستفهام للتوبيخ والإنكار والنفي. و﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«حسب» أي: أحسبتم دخول الجنة، ومعنى «أحسبتم» أي: أظننتم.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ الواو: حالية، و«لَمَّا»: حرف نفي وجزم، وهي أشد نفيًا من «لم» وتفيد ترقب حصول المنفي، و﴿يَعْلَمِ﴾: مجزوم بها حرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

أي: أظننتم أن تدخلوا الجنة، والحال أن الله لما يعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. أي: ولم تبتلوا بالجهاد والشدائد، فتجاهدوا وتصبروا؛ ويعلم الله ذلك منكم بعد وقوعه فيجازيكم عليه بدخول الجنة.

والمعنى: لا تحسبوا ولا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وفي الحديث: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»^(١).

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الشاعر:

فدرب الصاعدين كما علمتم به الأشواك تكثر لا الورود^(١)
وقال الحسن: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقع في القلب
وصدقه العمل»^(٢)، ولهذا يقال: «التمني رأس مال المفاليس».

وقال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس^(٣)
وسلعة الله تعالى غالية، كما قال ﷺ: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله
الجنة»^(٤).

قال ابن القيم^(٥):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحد لا اثنان

ومعنى ﴿جَاهِدُوا﴾ بذلوا جهدهم بأموالهم وأنفسهم في القتال في سبيل الله.
﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ أي: الصابرين على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره
المؤلمة، وكل هذه الأقسام الثلاثة تجتمع في القتال في سبيل الله، ففيه الصبر وحبس النفس
على طاعة الله؛ لأن القتال أمر شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ
وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وفيه الصبر عن معصية الله بعدم الفرار وترك القتال، وفيه
الصبر على أقدار الله المؤلمة من القتل والجراح والمشقة، ونحو ذلك. وقد كان من أسباب
ما أصاب المسلمين في أحد عدم صبر الرماة؛ فحصل على المسلمين ما حصل.

(١) البيت لوليد الأعظمي - شاعر عراقي - في ديوانه «الزوابع». انظر: «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص ٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٦٣)، وفي «الإيمان» ص (٩٢)، وأحمد في الزهد ص (٢٦٣)،
والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٦٥).

(٣) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق (٢٤٥٠)، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال:

«حديث حسن غريب».

(٥) «النونية» (ص ٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣).

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لقد كنتم، و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿تَمَنَّوْنَ﴾ أصلها تتمنون، والتمني: طلب ما يصعب ويتعسر حصوله، أو يستحيل، كما في قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب^(١)

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ إشارة إلى أن ما حصل منهم لما استشار النبي ﷺ الناس في الخروج إلى أحد أو البقاء في المدينة والتحصن فيها أشار عليه الشباب - وبخاصة من لم يشهدوا بدرًا - بالخروج، وكانوا يتمنون أن يموتوا ويستشهدوا، كما استشهد بعض إخوانهم في بدر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي: كنتم تمنون الموت بالقتل والاستشهاد مع من استشهد في بدر، ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي: من قبل هذا اليوم.

وها أنتم اليوم في أحد لقيتموه وجعل لكم ما تمنون، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾: أبصرتموه وشاهدتموه بأعينكم فيما بينكم، والضمير يعود إلى الموت. أي: رآه من استشهد منكم في «أحد» بنفسه، ورآه من لم يستشهد بغيره. وقيل: رأيتم أسبابه في صفوف المقاتلين ولمعان السيوف، وحد الأسنة، واشتباك الرماح. ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم تنظرون عيانًا بيانًا على أشد ما تكونوا إحساسًا، فأين بلاؤكم وصبركم، وكيف جبتكم وتحاذلتم وانهمزتهم.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله تعالى هذه الأمة بسنن الله تعالى الخالية في الأمم الماضية؛ لقوله تعالى:

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ٣٢).

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ .

- ٢- الحث على السير في الأرض والنظر فيها والاعتبار بالأمم السابقة وديارهم، وما آلت إليه أحوالهم، وعاقبة المكذبين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أي: سيروا في الأرض وانظروا فيها معتبرين متعظين، لا متفرجين؛ ولهذا قال ﷺ: « لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(١).
- ٣- أن للمسير في الأرض ومشاهدة آثار الغابرين أثرًا في الاعتبار أقوى من أثر السماع.
- ٤- أن ما حصل للمؤمنين من الابتلاء في أحد بسبب المخالفة هو من سنن الله تعالى مع أتباع الأنبياء، مما يوجب الحذر من مخالفة أمر الله ورسوله.
- ٥- سوء عاقبة المكذبين لله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ مما يوجب الحذر من مسالكهم.

- ٦- أن القرآن الكريم بيان لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ ﴾ بحذف المتعلق، أي: بيان لكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].
- ٧- أن القرآن الكريم بيان وإرشاد وهدى لجميع الناس المؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ .

- ٨- أن القرآن الكريم هدى وموعظة للمتقين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

- ٩- أن كثيرًا من الناس لا ينتفع بالقرآن، ولهذا خصّ الله تعالى من بين الناس المتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن فيهدون به ويتعظون.
- ١٠- فضيلة التقوى، وأن من لم يهتد بالقرآن ولم يتعظ به فليس من المتقين.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر: ٨٠] (٤٧٠٢)، ومسلم في الزهد والرفائق- «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين» (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١١- نبى الله- عز وجل- المؤمنين عن الوهن والضعف فيما يستقبلهم من الأحداث والنوائب، وعن الحزن على ما فاتهم فيما مضى، وما وقع لهم من المصائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

١٢- وضوح الحكمة التشريعية في النهي عن الوهن وعن الحزن؛ لأن الوهن ينافي ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان وبخاصة المؤمن من الحزم والعزم في جميع أموره، كما أن الحزن على ما مضى لا يرد فائتاً، بل قد يكون سبباً لفتور العزيمة وضعف الإرادة.

١٣- تقوية عزائم المؤمنين، وتثبيت قلوبهم وتشجيعهم للمضي قدماً والتغلب على ما يلاقيهم من الصعاب والنوائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾. وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم^(١)

١٤- أن المؤمنين هم الأعلون في كل حال؛ في حال النصر وعدمه، لأنهم يجيئون ويقاثلون لهدف نبيل، وهو إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه، فهم الأعلون في كل حال، والعقبى لهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾. وكما قيل:

علو في الحياة وفي الممات^(٢)

١٥- أن من شرط الإيمان أن لا يهن المؤمن ولا يضعف أمام الأعداء، وما يلاقيه من الصعاب؛ لأنه قوي بالله تعالى والله معه، ومعينه وناصره، وأن لا يحزن على ما مضى وفات فلن يفيد ذلك، ومن الله تعالى عوض عن كل فائت، وما كان في الله تلفه كان على الله خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- ينبغي أن يكون المؤمن قوياً بالله تعالى في أي حال من شدة أو رخاء أو غنى أو فقر أو صحة أو مرض، أو نصر أو عدمه؛ لأن العزة لله تعالى ولرسوله والمؤمنين. والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(١) البيت للمنتبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٧٢).

(٢) من شطربيت لابن الأنباري. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٩).

سَيِّئًا ﴿ [النساء: ١٤١].

١٧- أن الوهن والضعف تجاه العدو والنوائب، والحزن على ما مضى، نقص وضعف في الإيمان، وليس من صفات المؤمنين.

وإذا كان الله - عز وجل - قد نهى المؤمنين عن الوهن والضعف أمام الأعداء وفي طلبهم وقاتلهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ [النساء: ١٠٤].

فإن مما يحز في النفس ويحزن القلب ويندى له الجبين أن تجد الوهن والضعف قد دبَّ، بل واستشرى بين كثير من المسلمين أمام أنفسهم، فضعفوا عن القيام بكثير من حقوق الله تعالى، وحقوق الأمة، حتى أصابهم الوهن والضعف في أعظم حقوق الله تعالى بعد الشهادتين - وهي الصلاة، التي هي عمود الإسلام وقاعدته التي تدور عليها رحاه، فمنهم من تركها بالكلية، ومنهم من يصلّيها حيناً ويتركها أحياناً، ومنهم من لا يقيمها كما شرعها الله، ولا يصلّيها مع جماعة المسلمين في المساجد.

كما أصابهم الوهن والضعف في القيام بحقوق الأمة ومصالحها وتحمل مسؤولياتها كالأذان والإمامة في المساجد، والتدريس والتعليم في شتى المراحل، والأعمال الوظيفية على اختلافها وتنوعها - وغير ذلك من مسؤوليات الأمة، بسبب ضعف الاحتساب وعدم استحضار النية، وعدم الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى في الحفاظ على مصالح الأمة ومكائنها.

وضعفت بسبب ذلك العزائم وتحطمت المعنويات وتقاعت الهمم فالقائمون على المساجد من المؤذنين والأئمة لسان حال فريق منهم ومقالمهم يقول: ربطني المسجد وقيد حريتي، ولسان حال كثير من المدرسين ومقالمهم يقول: النصاب كثير، ولسان حال كثير من الموظفين ومقالمهم يقول: الدوام طويل - وهكذا - وكما قيل:

كل من لقيت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن (١)

وكل هذا وذاك مما جعل الأمة في مؤخرة الركب. تتقدم الأمم وتتظم فيها الحياة كما تتظم دقات عقارب الساعة بينما يراوح المسلمون مكانهم ويعيشون حياة

(١) البيت للمعري. انظر: «روض الأخبار» (ص ١٤١).

التخلف والفوضى والجهل والفقر والمرض، ولن يعود للأمة عزها ومجدها وكرامتها، ولن تنهض من كبوتها وتتبوأ مكانتها اللاتئة بها بين الأمم إلا بالعودة حقاً إلى دينها، وتحمل المسلمين جميعاً؛ دولاً ومؤسسات وأفراداً مسؤولياتهم، وقيام كل منهم بواجبه المنوط به في عمله، وبهذا تنتظم حياة الأمة ديناً ودنياً، وتأخذ مكانها بين الأمم، وما ذلك على الله بعزيز.

١٨- تسلية المؤمنين وتعزيتهم والتخفيف عليهم بأن ما أصابهم من قرح يوم أحد فقد أصاب القوم قرح مثله في بدر، والأيام دول، فيوم لهم ويوم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

١٩- أن مما يهون المصيبة على المصاب تذكيره بأن ما أصابه قد أصاب غيره مثله أو أشد وأن المصائب حمة وليست حكرًا على أحد، وأعظم مصيبة المصيبة في الدين، وأعظم مصيبة أصيبت بها الخليقة فقد محمد ﷺ، كما قال حسان- رضي الله عنه^(١):

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

٢٠- أن الأيام دول بين الناس تكون فيها الدولة لهؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء، وتتقلب فيها الأحوال بالنسبة للأفراد والجماعات والدول، فمن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٢١- تمام ربوبية الله تعالى وسلطانه في خلقه؛ خلقًا وملكًا وتدييرًا؛ لقوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٢٢- أن ما حصل على المؤمنين في أحد من قرح بقتل سبعين رجلًا منهم وجعل الدولة لعدوهم عليهم؛ لحكم وأسرار عظيمة، منها: أن يظهر في علم الله الذين آمنوا، ويتخذ منهم شهداء، ويمحصهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، وقوله: ﴿وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٦٣).

٢٣- أن في الابتلاء بالمصائب ونحوها تميز المؤمنين وتمحيص الصفوة منهم وتنقيتهم من الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

٢٤- أن الله - عز وجل - لا يجاسب العباد على ما في علمه الأزلي عنهم، وإنما يجاسبهم على ما وجد وظهر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

٢٥- فضيلة الشهادة ومكانة الشهداء عند الله؛ لأن الله يتخذهم ويصطفيهم لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٢٦- فضل شهداء أحد - رضي الله عنهم؛ لأن الله اتخذهم شهداء، وشهد لهم بالشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

٢٧- نفي محبة الله للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٨- إثبات المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب العادلين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٩- التحذير من الظلم سواء كان في حق الله تعالى، أو في حق الخلق، في دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم؛ لأن الله تعالى لا يحب الظالمين، بل يبغضهم وينتقم منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٣٠- أن من حكمة الله تعالى في إدالة الكافرين على المؤمنين كما حصل في أحد، وفي جعل الأيام دولاً بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ليغتر أهل الباطل ويستمروا في عنادهم واستكبارهم فيمحقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾.

٣١- أن نهاية أهل الكفر المحق والهلاك والدمار والخسران والبوار.

٣٢- الإنكار على من يطمع في دخول الجنة بلا جهاد ولا صبر، ولا ابتلاء؛ لقوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾،

والمعنى: لا تحسبوا ذلك فإن حسبتم دخول الجنة بغير جهاد فأنتم جاهلون، كما أنكم إن لم تحسبوا ذلك ولم تقوموا بالجهاد وتصبروا عليه فأنتم مفرطون.

٣٣- أن سلعة الله الجنة غالية الثمن لا تنال بالتمني، وإنما تنال بالجهاد والصبر والعمل.

٣٤- أن الجهاد والصبر من أسباب دخول الجنة؛ الجهاد بالنفس والمال والعلم والعمل، والصبر بأنواعه الثلاثة؛ الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٣٥- إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه بجعلهم يرونه وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴾.

٣٦- لا ينبغي أن يتمنى الإنسان المكروه وما قد يعجز عنه، وإنما يسأل الله تعالى العافية فإذا ابتلي فعليه الصبر، كما قال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية»^(١).

وليس في الآية دليل كراهية تمني الشهادة، بل فيها دليل على عدم كراهية ذلك؛ لأن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها.

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده وددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيأ ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك. واجعل

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - لا تتمنوا لقاء العدو (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير - كراهية تمني لقاء العدو (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٢٧)، ومسلم في الإمامة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٥٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

موتي في بلد رسولك»^(١).

وقد أجاب الله دعاءه فقتل وهو يصلي بالمسلمين بمسجد رسول الله ﷺ.

وقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشدك الله من غاز وقد رشد^(٢)

٣٧- ينبغي أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وقوته وجهده، بل يجب أن يعتمد على ربه-

عز وجل- ويسأله العون والتوفيق- مع فعل السبب، ويخاف من شؤم نفسه

وذنوبه، وكما قال علي رضي الله عنه^(٣):

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٩٠)، من حديث سالم عن أبيه عن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (١/١٩١).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ٣٧)، «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/١٧٧)، «محاضرات الأدباء» (١/٥٣٢).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرَدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَانلَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قال ابن كثير (١): «لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قُتل منهم نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان ضرب رسول الله ﷺ، فشججه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء - عليهم السلام - فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له أسوة بهم في الرسالة، وفي جواز القتل عليه».

وعن ابن أبي نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمداً ﷺ قد قُتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (٢).

وروي أن أناساً من أهل النفاق قالوا: إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول.

(١) في «تفسيره» (٢/١٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/١٠٢)، وذكره ابن كثير (٢/١٠٩) ونسبه للبيهقي في دلائل النبوة.

فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: «إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه»^(١).

وفي رواية أنه قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقُتل»^(٢).

قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و﴿مُحَمَّدٌ﴾: هو نبينا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: ما هو إلا رسول من عند الله، مهمته تبليغ رسالة ربه، وليس بدعاً من الرسل بل هو من جنس الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ وهي محط القصر، أي: ما هو إلا رسول موصوف بخلو الرسل قبله، أي: مضيه وانقراضهم قبله وسيخلو ويمضي مثلهم. و﴿قَدْ﴾: للتحقيق ﴿خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: مضت؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. أي: قد مضت وسبقت من قبله الرسل، فمنهم من مات ومنهم من قُتل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ بَغَى الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٦١].

و«ال» في ﴿الرُّسُلُ﴾ للعموم، أي: قد خلت من قبله جميع الرسل، فهو خاتمهم، وفي هذا توطئة لقوله بعده: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ الآية، والهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ والإنكار والنهي، والفاء للتعقيب.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/١٠٢) مختصراً عن أنس رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

و«إن»: شرطية، و﴿مَاتَ﴾: فعل الشرط، ﴿أَنْقَلَبْتُمْ﴾: جواب الشرط، والخطاب لمن شهدوا بدرًا وغيرهم من المؤمنين.

﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، «أعقاب» جمع «عقب»، وهو: «العرقوب» مؤخر القدم. وفي الحديث: «ويل للأعقاب من النار»^(١)، أي: مؤخرة الأقدام. والانقلاب على العقب: الرجوع على الوراء، ورجوع القهقري، والسير على غير هدى، وأصل الانقلاب التحول من حال إلى حال.

والمعنى: أفإن مات أو قتل كغيره من الرسل ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتم وارتددتم عن دينكم. أي: أتقلبون على أعقابكم وترجعون عن دينكم وتركون الجهاد إن مات أو قتل رسولكم، والمراد: اثبتوا على دينكم، ولا تتردوا عنه، وإن مات رسولكم أو قتل، كما ثبتت الأمم قبلكم على أديانهم ولم يرجعوا ويرتدوا بعد أنبيائهم. وكنى بالرجوع والارتداد عن الدين بالانقلاب والرجوع على الأعقاب تقييحًا له وذمًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ انتقل الكلام من صيغة الخطاب إلى صيغة العموم والغيبة، فلم يقل: «وإن انقلبتم على أعقابكم فلن يضر الله شيئًا»؛ ليكون الحكم عامًا لكل من رجع وارتد عن دينه منهم ومن غيرهم، كما أن فيه عدم مواجهتهم بالخطاب بهذا بعد أن وبخهم وحذرهم من ذلك، إضافةً إلى ما في تنويع التعبير من لفت الانتباه.

والواو: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم، ﴿يَنْقَلِبْ﴾: فعل الشرط. ﴿فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ«لن» و﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء.

(١) سيأتي تحريجه برواياته عند تفسير قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

أي: فمن يرجع على عقبيه ويرتد عن دينه فلن يضر الله أي شيء، وإنما يضر نفسه؛ لأن الله تعالى لا تضره طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(١).

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أنكر عز وجل ووبخ من انقلب على عقبيه، ثم أثنى وامتح الشاكرين ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ وامتثلوا أمره، ولم يرتدوا عن دينه، والسين في قوله: ﴿وَسَيَجْزِي﴾ للتنفيس، وهي تحول الفعل المضارع من كونه صالحاً للحال والاستقبال معاً إلى كونه خالصاً للاستقبال.

والجزاء: الثواب والمكافأة على العمل، و﴿الشَّاكِرِينَ﴾: جمع «شاكراً»، وهم الذين شكروا الله تعالى على نعمه واستعانوا بها على طاعته والثبات على العبودية له وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واتباع رسوله ﷺ حياً وميتاً وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ - رضوان الله عليهم - الذين ثبتوا على دينه بعد وفاته ﷺ وارتداد من ارتد من العرب.

فهم سادات الشاكرين وفي مقدمتهم أميرهم أبو بكر - رضي الله عنه - كما قال علي رضي الله عنه: «﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الثابتين على دينهم، منهم أبو بكر وأصحابه، فكان علي - رضي الله عنه - يقول: كان أبو بكر أمير الشاكرين، وأمير أحبب الله، وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله»^(٢).

قال ابن القيم^(٣): «فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم».

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في

الزهد (٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩٧/٦-٩٨).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٥٥/١).

و«الشكر» يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، كما قال الشاعر:
 أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا^(١)
 وشكر الله تعالى بالقلب بالاعتراف باطناً بنعم الله تعالى واستشعار أنها من الله تعالى
 ويفضله، لا بحول الإنسان وقوته.

والشكر باللسان يكون بالثناء على الله تعالى بلسان المقال بحمده تعالى على نعمه؛ من
 نعمة الإسلام والإيمان والخلق والرزق وغير ذلك، والاعتراف بها، ونسبتها إلى الله تعالى،
 والتحدث بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وشكر الله تعالى بالجوارح يكون باستعمالها في طاعته والثبات على دينه وامتنال أوامره
 واجتناب نواهيه ويكون بظهور أثر نعمة الله تعالى على العبد في مأكله ومشربه وملبسه
 ومسكنه ومركبه ونحو ذلك؛ كما قال ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٢).
 ولم يذكر أو يحدد جزاءهم، ليدل على عظمتهم وكثرتهم؛ لأنه على قدر من جازاهم به وهو
 العظيم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾
 [السجدة: ١٧]، وأيضاً فإن جزاءهم متفاوت ومختلف؛ لأنه على قدر شكرهم.

والمعنى: وسيجزى الشاكرين بمغفرة ذنوبهم، ورفع درجاتهم، وبالثواب العظيم
 والفضل الواسع والجزاء الحسن، كما قال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال
 تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى
 أضعاف كثيرة»^(٣).

(١) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» (ص ٣٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - رضي الله عنهما -
 وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن
 ماجه في الصيام (١٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُّوجِبًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَعَجُزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

يَبَيِّنُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيَمُوتُ كَمَا مَضَى غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ، إِمَّا بِمَوْتٍ أَوْ قَتْلِ، وَحَذَرُ مِنَ الرَّجُوعِ عَنِ دِينِهِ بَعْدَ ذَهَابِهِ، ثُمَّ يَبَيِّنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَجْلِهَا الْمَكْتُوبِ الْمَحْدَدِ. وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلْأُمَّةِ بِمَوْتِهِ، وَأَنَّهُ لَا عَذْرَ فِي الرَّجُوعِ عَنِ دِينِهِ كَمَا أَنَّ فِيهِ حُضًّا عَلَى الْجِهَادِ وَلَوْ مَا عَلَى تَرْكِهِ خَشْيَةَ الْقَتْلِ.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية. تدل على نفي هذا الشيء وامتناعه قدرًا وكونًا.

﴿لِنَفْسٍ﴾ «نفس»: نكرة في سياق النفي، فتعم كل نفس من أنفس الآدميين وغيرهم من جن وحيوان.

و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿أَنْ تَمُوتَ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان، و«إلا» في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أداة حصر.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُّوجِبًا﴾.

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والفرق بينها: أن ما أذن الله به كونًا لا بد من وقوعه ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى، وما أذن الله به شرعًا فلا يلزم وقوعه، ولا بد أن يكون محبوبًا لله تعالى.

فمعنى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إلا بقضائه وقدره، أي: لا يمكن أن تموت نفس أي نفس إلا بإذن الله تعالى وقضائه وقدره الكوني، فمهما حاول الناس أن يميثوا أحدًا فلن يستطيعوا ما لم يأذن الله تعالى بذلك قدرًا وكونًا.

وهذه العقيدة الراسخة هي سر بطولات وتضحيات المجاهدين في الإسلام، كما

قال سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة وما في جسدي شبرًا إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء»^(١).
وكما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء^(٢)

و«الموت»: خروج الروح من البدن ومفارقتها له. وفي الحديث: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه»^(٣).

﴿كُنْتَبًا مُّوَجَّلًا﴾، ﴿كُنْتَبًا﴾: مصدر مؤكد للجمله التي قبله.
أي: أن الموت مكتوب ﴿كُنْتَبًا مُّوَجَّلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾
[الرعد: ٣٨].

ومعنى ﴿كُنْتَبًا﴾ أي: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

ومكتوب عند نفخ الروح في الإنسان في بطن أمه كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقه مثل ذلك، ثم مضغه مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد^(٤).

ومكتوب أيضًا فيما يقدر ويقضى كل سنة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ

(١) أخرجه ابن عساکر في «تاریخ دمشق» (٢٧٣/١٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤٤١/١).
(٢) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص ١١).
(٣) سبق تحريجه.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ ﴿ [الدخان: ٣-٤].

ولا يشكل على هذا قوله ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» (١).

فإن معنى الحديث أن صلة الرحم سبب لسعة الرزق وطول العمر - في المقدر والمكتوب في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، بمعنى أن الله قدر وكتب سعة رزق هذا وطول عمره بسبب صلته لرحمه - وكل ذلك مكتوب عند الله تعالى كما أن صلة الرحم سبب للبركة في الرزق والعمر، والذكر الحسن بعد الموت.

والذكر للإنسان عمر ثان (٢)

.....

﴿مُؤَجَّلًا﴾ أي: محددًا بأجل، أي: بوقت معلوم لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر.

فكتب لكل نفس متى تموت وكيف تموت كتابًا مؤجلًا محددًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ نُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [النافقون: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعَجِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

﴿وَمَنْ يُرِدْ تَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يُرِدْ﴾:

فعل الشرط، ﴿نُؤْتِهِ﴾: جواب الشرط، مجزوم وعلامة جزمه حذف الياء.

أي: ومن يقصد بعمله جزاء الدنيا دون الآخرة، وفي هذا تعريض بمن يحضر القتال لأجل الغنيمة.

﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: نعطه جزاء عمله في الدنيا، من الدنيا حسب ما قدر له، وليس له

في الآخرة من نصيب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي

(١) سبق تخريجه.

(٢) سطر بيت لأحمد شوقي. انظر: «الشوقيات» (١/٦٣).

﴿الْآخِرَةَ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: ومن يقصد بعمله جزاء الآخرة، ويعمل لها نعطه منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وفرق ما بين الإرادتين والمرادين، وشتان ما بين العطاءين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان^(١)

فعطاء الدنيا بل الدنيا بما فيها متاع قليل، متاع غرور، لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وعطاء الآخرة أعظم وأجزل وأدوم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [٦٥] أنظر كيف فضَّلنا بعضهم على بعضٍ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١].

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي: وسنجزى ونثيب ونكافئ الشاكرين على شكرهم بالاعتراف بنعم الله تعالى بقلوبهم والشاء عليه بها بألستهم وظهور أثرها عليهم والاستعانة بها بجوارحهم على طاعة الله تعالى بالمغفرة والجزاء العظيم والثواب الجزيل والفضل الواسع، وهم الذين أرادوا ثواب الآخرة دون من أراد الدنيا وحدها كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مَنِ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [١٦٦].

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص ١٤٨).

في هذه الآية تشجيع وحفز لهم أصحاب النبي ﷺ - وتثبيت لهم - وهم خير الأصحاب - بذكر ما جرى لكثير من الأنبياء وأتباعهم من قتال وقتل، وما كان عليه أتباع الأنبياء قبلهم، من القوة وتحمل ما يصيبهم في سبيل الله، وعدم الضعف والاستكانة، وقوة الصبر، وفيها تسلية للمسلمين عما أصابهم يوم أحد، وعما وقع في نفوسهم بسبب الإرجاف بقتله ﷺ، وتوييح لمن جزعوا وضعفوا بسبب ما أصابهم.

قوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ قرأ ابن كثير وأبوجعفر بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة «وكأئن»، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مشددة: ﴿وَكَايْنٍ﴾ وهي كلمة مبنية على السكون على القراءتين في محل رفع مبتدأ، تفيد التكثير مثل «كم» الخبرية.

﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾: جار ومجرور ميمز «كأين»؛ لأنها لفظة مبهممة، والمعنى: وكم من نبي، أي: وكثير من النبيين.

﴿قَتَلَ مَعْمُرِيَّتُونَ كَثِيرٌ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوعمر، ويعقوب بضم الكاف وكسر التاء من غير ألف: «قُتِلَ» بصيغة المبني للمجهول، وقرأ الباقون بفتح الكاف والتاء وألف بينهما ﴿قَتَلَ﴾ بصيغة المفاعلة من القتل، وهي المدافعة بالقتل بين فريقين. والفاعل على قراءة (قاتل) ونائب الفاعل على قراءة (قُتِلَ) ضمير مستتر يعود إلى (نبي) والتقدير: وكأين من نبي قاتل هو، أو كأين من نبي قتل هو.

وتكون جملة ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ﴾ جملة تامة مستقلة، والوقف على ﴿قَتَلَ﴾ وعلى (قُتِلَ) في القراءة الأخرى.

وعلى هذا تكون جملة ﴿مَعْمُرِيَّتُونَ كَثِيرٌ﴾ مستأنفة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه معه ربيون كثير، و(مع): ظرف مكان متعلق بـ«قاتل» أو «قتل» والهاء مضاف إليه، وهو في محل رفع خبر مقدم، و﴿رَبِّيَّتُونَ﴾: مبتدأ مؤخر.

ويكون المعنى على هذا: وكثير من النبيين قاتل، أو قتل حال كونه معه ربيون كثير، فالقتال واقع من النبيين، والقتل واقع عليهم، وفي الحالين معهم ربيون كثير من أصحابهم مقاتلون. ويجوز أن يكون الفاعل على قراءة (قاتل) ونائب الفاعل على قراءة

«قُتل»: (ربيون): والوقف على قوله (كثير)، والمعنى على هذا: وكثير من النبيين قاتل ربيون كثيرون معه، أو قُتل ربيون كثيرون معه من أتباعه، وعلى هذا فالقتال واقع من الربيين والقتل واقع عليهم.

وعلى تقدير أخصر يجوز أن يكون الفاعل على قراءة «قاتل» ضمير يعود إلى النبي ﷺ و(ربيون) أي: وكأين من نبي قاتل وقاتل معه ربيون كثير.

وعلى قراءة (قُتل) يجوز أن يكون نائب الفاعل ضمير النبي ﷺ و(ربيون) أي: وكأين من نبي قتل وقتل معه ربيون كثير، ويكون الوقف على هذا على قوله: ﴿كثيرٌ﴾. والقراءتان بمثابة آيتين، فالقتال واقع من الجميع الأنبياء والربيين، والقتل واقع عليهم جميعاً.

﴿رَبِّيُونَ﴾: جمع «ربي»، مثل «الربانيين»: جمع «رباني»، وكلاهما منسوب إلى «الرب»، لكن ﴿رَبِّيُونَ﴾ كسرت راءه عند النسب، وهم المتبعون شريعة الرب. أو منسوب إلى «الرَّبة» بكسر الراء وهي الطائفة والجماعة، ف«ربيون»، أي: طوائف وجموع كثيرة من الأتباع الذين تربوا على الإيمان وطاعة الله تعالى وعبادته، رباهم الله تعالى واختارهم لربوبيته الخاصة.

﴿كثيرٌ﴾: صفة لـ ﴿رَبِّيُونَ﴾، أي: ربيون كثيرون.
﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكْبَرُوا﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير في «وهنوا»، وما بعده يعود إلى الربيين على القراءتين (قاتل)، و«قتل».

﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي: فما عجزوا، أو جننوا وما خارت عزائمهم.
﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ اللام: تعليلية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي أصابهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طريقه ونصرة دينه.

أي: في القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١).

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: فما وهنوا بسبب الذي أصابهم في سبيل إعلاء كلمة الله، بل زادهم ذلك شجاعة وعزيمة وإقدامًا، لقوة إيمانهم ويقينهم أن ما يصيبهم في سبيل الله مغنم، وليس بمغرم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَاءً إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنِيِّ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولما دميت إصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»^(١)

وقال عمير بن حمام رضي الله عنه: «بخ بخ، لئن بقيت إلى أن أكل هذه التمرات إنها حياة طويلة»^(٢).

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: في مقاومة العدو بل كانوا أقوياء بقلوبهم وأبدانهم.

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ «الاستكانة»: الذل والخضوع ضد العز، أي: وما ذلوا وما ضعفوا لعدوهم، مع أنه قُتل كثير منهم أو قُتل أنبياءهم، بل كانوا أعزاء شاخي الرؤوس؛ لأنهم يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وأن قتلهم في الجنة وقتل عدوهم في النار.

ويدخل في الوصف بقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ من قُتل منهم ومن لم يُقتل، أي: فما وهن من بقي منهم؛ لما أصابهم من قتل أصحابهم وغير ذلك، وما ضعفوا وما استكانوا.

وما وهن من قتل منهم عند القتل، ولا ضعفوا ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كرامًا مقبلين غير مدبرين.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ بعد أن نفى عنهم الوهن في سبيل الله والضعف والاستكانة ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ في إشارة واضحة إلى وصفهم بالصبر.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، ومسلم في الجهاد والسير - ما لقي النبي ﷺ من أذى (١٧٩٦)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٥)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (١٩٠١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أي: والله يجب الصابرين على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وكل ذلك متحقق بمن قاتل في سبيل الله من غير وهن ولا ضعف ولا استكانة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧).

نفى عز وجل في الآية السابقة عن هؤلاء الربيين الصفات السلبية في قتالهم مع أنبيائهم، وهي: الوهن والضعف والاستكانة مما يدل على حسن فعلهم وثبات قلوبهم ورباطة جأشهم، وعظيم صبرهم، ثم أتبع ذلك بما يدل على حُسن قولهم بدعائهم ربهم بالمغفرة والتثبيت والنصر، وعظيم رجائهم بنصر الله تعالى، فجمعوا بين فعل السبب قولاً وفعلاً وبين الاعتماد على الله عز وجل.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«كَانَ»: فعل ماض ناقص، و«قَوْلُهُمْ»: خبرها مقدم، قُدِّم؛ لأنه خبر عن مبتدأ محصور.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿أَنْ قَالُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، أي: وما كان قولهم إلا هذا القول ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

أي: وما كان قولهم في قتالهم، وتجاه ما أصابهم في سبيل الله من قتل كثير منهم أو قتل أنبيائهم إلا هذا القول، أي: طلب مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وتثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين.

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، حذف منه «يا» تخفيفاً، وتبركاً بالبداءة باسمه - عز وجل - ونادوه وتوسلوا إليه باسم أو وصف الربوبية الذي معناه: الخلق والملك والتدبير، فكأنهم يقولون: يا من له التصرف وإجابة الدعاء:

﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: استر ذنوبنا وتجاوز عنها.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، أي: واغفر لنا إسرافنا في أمرنا، وتجاوز عنه، أي: اغفر لنا صغائر الذنوب وكبائرها، وما حصل منا من تقصير أو إفراط؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو بسبب ذنوبهم وإسرافهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْهُمُ الْجُمُعَاتُ إِنَّمَا أَسْتَلْزَمَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال تعالى:

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فعلموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن ما أصابهم بسبب ذلك، فسألوا الله المغفرة، والاعتراف بالذنب توبة.

و«الإسراف»: مجاوزة الحد، و«الأمر» واحد الأمور، وهو الشأن، أي: وإسرافنا في أمورنا وشؤوننا، والإسراف في الأمر قسمان:

القسم الأول: الإسراف ومجاوزة الحد في الغلو، كما في قصة النفر الذين حرّموا على أنفسهم بعض المباحات، كما في حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

والقسم الثاني: الإسراف ومجاوزة الحد في التقصير، وهو نوعان:

النوع الأول: إسراف في تعدي حدود الله تعالى بترك واجب أو الإخلال به، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والنوع الثاني: إسراف في قربان حدود الله تعالى، أي: محارمه، بفعل محرم، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

والإسراف يكون في المأمور واجباً أو مندوباً. ويكون في المنهي محرماً كان أو مكروهاً، كما يكون في المباح كالإسراف في النفقة ونحو ذلك.

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠١)، والنسائي في النكاح (٣٢٦٧).

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلمهم ويهزمهم، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصره منوطة بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ فوفوا المقامين حقهما؛ مقام المقتضي وهو التوحيد والاتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصره، وهو الذنوب والإسراف»^(١).

﴿وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ سألوا ربهم أولاً مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم؛ تطهيراً وتركية لهم، ثم سألوه تثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين - تقديماً للتخلية على التحلية.

﴿وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامَنَا﴾ الواو: عاطفة، أي: اجعل أقدامنا ثابتة راسخة عند ملاقات الأعداء، فلا تزل بنا أقدامنا فنفر عند اللقاء، وثبت أقدامنا عند ورود الشبهات، وأمام الشهوات.

وتثبيت الأقدام يكون حسياً كما في مواطن القتال والنزال، وبه يحفظ الله المؤمن من الفرار من الزحف.

ويكون معنوياً، وبه يحفظ الله المؤمن من الزيع عند ورود الشبهات، ومن الوقوع في حبائل الشهوات.

وتثبيت الأقدام علامة ظاهرة على ثبات القلوب، والذي هو سبب ثبات الأقدام.

﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: واجعل النصر والغلبة والظهور لنا على القوم الكافرين أي: على أعدائنا، وهذا اعتراف منهم أنه لا ناصر لهم سوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وهذا يدل على عظم رجائهم بالله تعالى وثقتهم بوعده ونصره، فلم يصددهم ما أصابهم عن رجاء نصره، وفي الحديث: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت

(١) «بدائع التفسير» (١/٥١٦) بتصرف واختصار.

ودعوت فلم يستجب لي»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَنتَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ تَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٤٨).

قوله: ﴿فَأَنتَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ الفاء: استئنافية، و«آتاهم»: أعطاهم، وهي

تنصب مفعولين، الأول: ضمير الهاء، والثاني: ﴿تَوَابَ﴾.

و﴿تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ جزاءها وأجرها بالنصر على أعدائهم، والظفر بهم، وكون العزة والغلبة لهم في الدنيا، وتيسير أمورهم فيها، هذا جزاؤهم المعجل.

وخير من ذلك وأفضل، وأعظم منه وأجزل ثوابهم المؤجل في الآخرة، ولهذا وصفه بالحسن - دون ثواب الدنيا - فقال:

﴿وَحَسْنَ تَوَابِ الآخِرَةِ﴾ أي: وحسن جزاء الآخرة، أي: والجزاء الحسن في الآخرة، بالمغفرة، ورفعة الدرجات كما قال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله»^(٢).

وبمضاعفة الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة، وأحسن ذلك وأعظمه وأفضله وأجله النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى الجنة والثواب الحسن، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ^(٢).

ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن؛ لأنه لا مقارنة بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لِّوَكَاثِلُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى: ٣٦].

بل ولا مقارنة بين الدنيا كلها وما فيها، وبين الآخرة وثوابها؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، وأبوداود في الصلاة (١٤٨٤)،

والترمذي في الدعوات (٣٣٨٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخرجه.

[الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾
 [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ
 الْحَيَوةَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»^(١).

وثواب الدنيا وإن كان فيه حسن، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ [البقرة:٢٠١]، فهو حسن نسبي مشوب بالمنغصات؛ لأن
 الدنيا دار شقاء وعناء، لا تصفو، ونعيمها مشوب بالكدر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

وكما قيل:

ومن عاش في الدنيا فلا بد أن يرى من العيش ما يصفو وما يتكدر^(٢)
 وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغرك ما فيها من الزخارف واحذر من دواهيها

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في ختم الآية بهذا إشارة إلى أن المذكورين محسنون، فأحبهم
 الله؛ ولهذا أثنى عليهم بهذا الثواب العظيم في الدنيا والآخرة. أي: والله يحب المحسنين في
 عبادة الله تعالى إخلاصاً له ومتابعة لرسوله ﷺ والمحسنين إلى عباده.

ولم يقل: والله يحبهم لأنهم محسنون لبيان محبته - عز وجل - المحسنين منهم ومن
 غيرهم، وأن من عمل مثلهم فهو محسن يستحق الثواب.

ومن أحبه الله وفقه لكل خير، وحفظه من كل شر، ويسر له أمور دينه ودنياه
 وأخراه، وألقى في قلوب الخلق محبته، نسأل الله تعالى من فضله، كما قال عز وجل في
 الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «المستطرف» (ص ٤٣).

سمعه الذي يسمع به. الحديث»^(١).

وقال ﷺ: «إن الله - عز وجل - إذا أحب عبداً نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»^(٢).

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن الرسول محمداً ﷺ سيمضي ويفارق الحياة كما مضى من قبله من الرسل، إما بموت أو قتل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، وفي هذا مقدمة وإرهاص بين يدي موت الرسول ﷺ.

٢- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويرفعونه إلى مقام الربوبية أو الألوهية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآية.

٣- في التذكير بمضي الرسل عليهم السلام قبل محمد ﷺ تهيئة للأمة وإعداد لها؛ ليخف عليها مصابها به وتسلية لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية.

٤- أن الرسول محمداً ﷺ خاتم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وأل للعموم، أي: قد خلت من قبله جميع الرسل.

٥- في قوله تعالى: ﴿أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ إشارة إلى جواز أن تكون مفارقة الرسول ﷺ الدنيا إما بسبب الموت أو القتل. وقد مات النبي ﷺ على فراشه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾، وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها».

قال عمر- رضي الله عنه-: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات» (١).

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أقبل أبو بكر- رضي الله عنه- على فرسه من مسكنه بالسبح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فميمم النبي ﷺ وهو مُسَجَّى ببرد، أو مُغَشَّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله، ثم بكى فقال: بأبي أنت وأمي، يا نبي الله، لا يجمع الله عليك مَوْتَيْنِ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مَتَّهَا» (٢).

ومع أنه ﷺ مات على فراشه إلا أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: «مازلت أجد من الأكلة التي أكلت بخبير، فهذا أوان قطعت أبهري» (٣).

وذلك حين أكل من الشاة المسمومة التي أهدتها إليه اليهودية، فقد تكون وفاته ﷺ بسبب ذلك؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه ﷺ مات شهيداً قتله اليهود.

وهو ﷺ وجميع الرسل أكمل حياة في البرزخ من الشهداء، وإن ماتوا على فرشهم؛ ولهذا فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، قال ﷺ لما قالوا له كيف نسلم عليك وقد أرمت؟ قال ﷺ: «إن الله- عز وجل- قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام» (٤).

٦- التحذير من الانقلاب على الأعقاب والردة عن الإسلام بموت النبي ﷺ أو قتله،

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجناز (١٢٤٢)، وفي المغازي (٤٤٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود في الدييات (٤٥١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٤٧)، والنسائي في الجمعة (١٣٧٤)، وابن ماجه في الجناز (١٦٣٦)،

من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه.

والتهديد والوعيد لمن فعل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾.

٧- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية في التنفير فيما يريد التنفير منه بوصفه الردة عن الإسلام بالانقلاب على الأعقاب، ففي هذا أبلغ وأشد التنفير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المك: ٢٢]، وذلك أن الارتداد على العقب عَلمٌ في انتكاس الأمر، ومثُلٌ للحوار بعد الكور.

٨- أن الإسلام دين التقدم والرقي؛ لمفهوم قوله: ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾؛ لأنه إذا كانت الردة عن الإسلام رجوع إلى الوراء فالتمسك به هو عين التقدم والرقي بلا شك.

وإذا كان الله - عز وجل - وبخ الأمة وأنكر عليهم ارتداد من ارتد منهم بسبب موت النبي ﷺ أو قتله - مع أنه رسول الأمة، وبموته انقطاع الوحي من السماء، كما قالت أم أيمن لما جاء إليها أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - يزورانها فبكت. فقالا لها: «ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ». فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها^(١).

ومع أن مصيبة الأمة به ﷺ لا تعدلها مصيبة، كما قال حسان رضي الله عنه:

فما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد^(٢)

فيجب ألا يفت في عضد الأمة أو يززعزع إيمانها، أو بعض لوازمه، فقد من هو دونه ﷺ من العظماء في الأمة؛ كالحاكم العادل، والعالم الرباني، والجواد الكريم، ونحوهم، وينبغي للأمة أن تستعد في كل أمر من مهماتها من أمور الولاية والدين بعدة أناس من أهل الكفاءات في ذلك إذا فقد أحدهم قام غيره مقامه؛ لأن في الآية إشارة للأمة أن لا تكون بحال يزعزعا عن إيمانها أو عن بعض لوازمه فقد

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٦٣).

- رئيس أو عظيم، وما ذاك إلا بالاستعداد لكل طارئ.
- ٩- أن من انقلب على عقبيه وارتد عن الإسلام لن يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.
- ١٠- أن الله - عز وجل - لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.
- ١١- وعد الله تعالى لا يخلف وعده بالجزاء العظيم للشاكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، وفي هذا تفضل منه - عز وجل - عليهم من وجهين: مدحهم بوصفهم بالشاكرين - مع أن القيام بطاعته واجب عليهم، ووعده لهم بالجزاء وتكفله لهم بذلك - مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.
- ١٢- أنه لا يمكن أن تموت نفس إلا بإذن الله تعالى وقدره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.
- ١٣- أن آجال الأنفس وغيرها محددة لا تتقدم ولا تتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ مَوَاجِلًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْزِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].
- ١٤- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، وفي هذا الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على فعله لا اختيار له.
- ١٥- أن لكل من الناس وجهة هو موليتها فمن يريد ثواب الدنيا ومن يريد ثواب الآخرة، وشتان ما بين الإرادتين والمرادين - والله غالب على أمره. وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وصدق المصطفى الكريم حيث قال: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).
- ١٦- ليس في الإخبار بإعطاء كل من يريد الآخرة ومريد الدنيا منها، والمقابلة بينهما ما

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يدل على جواز إرادة الدنيا دون الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فهذا لا يدل على جواز فعل الشر، كما أنه ليس فيه ما يدل على منع مرید الآخرة من ذكر نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

١٧- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، فمن أراد بعمله ثواب الآخرة أعطاه الله منها، ومن أراد بعمله ثواب الدنيا أعطاه الله منها، ولكل امرئ ما نوى، كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

١٨- تفضيل الآخرة وثوابها على الدنيا وثوابها؛ ولهذا قدم إرادة ثواب الآخرة على إرادة ثواب الدنيا؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة، ولهذا سميت دنيا، والآخرة هي الحيوان.

١٩- عدل الله - عز وجل - في إيتاء كل مرید من مراده، سواء من الآخرة، أو من الدنيا ومجازاة كل بما عمل.

٢٠- أن فضل الله - عز وجل - واسع يسع البر والفاجر والمؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّهُتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوْرًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٢١- أن من أراد بعمله ثواب الآخرة فهو من الشاكرين الذين وعدهم الله تعالى

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمامة (١٩٠٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- بالجزاء؛ لأن الله ختم الآية بقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي: الذين شكروا نعم الله تعالى عليهم بطاعته واجتناب معصيته، رجاء ثوابه والدار الآخرة.
- ٢٢- فضيلة الشكر والترغيب فيه والحث عليه؛ لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، وقوله في هذه الآية: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.
- ٢٣- أن كثيراً من الأنبياء السابقين وكثيراً من أتباعهم قاتلوا أو قتلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُرِيبُونَ كَثِيرًا﴾.
- ٢٤- الثناء على الأنبياء السابقين وأتباعهم بالتضحية والصبر وتحمل القتال والقتل في سبيل الله بلا وهن ولا ضعف ولا استكانة؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.
- ٢٥- إغراء المؤمنين وحثهم على القتال مع نبيهم والتضحية والصبر على القتال والقتل في سبيل الله دون وهن أو ضعف أو استكانة- كما هو حال أتباع الأنبياء قبلهم، فعن خباب بن الأرت- رضي الله عنه- قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله. فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بيمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه»^(١).
- ٢٦- أن القتال في سبيل الله والجهاد مشروع في الملل السابقة.
- ٢٧- محبة الله تعالى للصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. وهذا يدل على علو مكانتهم عنده، وعظم ما أعد لهم من الأجر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].
- ٢٨- إثبات صفة المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٥٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤٩).

الاختيارية المتعلقة بالمشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٩- الترغيب في الصبر والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.
٣٠- بيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الشجاعة والقوة والعزيمة والعزة وعدم الذل والاستكانة إلا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

٣١- الثناء على هؤلاء الربيين بجمعهم بين الجهاد بالفعل بالصبر على القتال والقتل وعدم الوهن في سبيل الله وعدم الضعف والاستكانة، وبين الجهاد بالقول بالتوسل إلى ربهم بطلب مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وتثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.
وبهذا جمعوا بين فعل السبب والتوكل على الله والاستعانة به ودعائه. وهكذا ينبغي للمؤمنين في حربهم وسلمهم وجميع أحوالهم.

٣٢- فضيلة هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلخ. والترغيب فيه؛ لما فيه من تعظيم الرب وسؤاله المغفرة والاعتراف بالذنب والإسراف؛ لأن الاعتراف بذلك توبة، ولما فيه من الافتقار إلى الله تعالى وطلب التثبيت والعون منه والنصر على القوم الكافرين - وهذا من جوامع الدعاء.

٣٣- ينبغي الحذر من الذنوب ومن الإسراف في الأمور، وسؤال الله تعالى المغفرة، والتثبيت والعون والنصر؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير، وليس في غنى عن الله تعالى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

٣٤- امتنان الله تعالى على المذكورين بسبب قتالهم مع أنبيائهم ودعائهم، بإعطائهم ثواب الدنيا بالنصر، وحسن ثواب الآخرة بالجنة وعظيم الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمِنَ الَّذِينَ أَوْجَبُوا لَكَ بِذُنُوبِهِمْ رِجْزَ الْآخِرَةِ﴾.

٣٥- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، حيث يجمع فضلاً منه للعبد بين ثواب الدنيا

وثواب الآخرة، بخلاف العقوبة، فإن من عوقب في الدنيا لا يعاقب في الآخرة، فلا يجمع له بين عقوبتين - عدل منه عز وجل.

٣٦- شتان بين الدنيا وثوابها والآخرة وثوابها؛ ولهذا وصف الله - عز وجل - ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا، فقال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلَدُّنَا وَحَسَنَ تَوَّابٍ الْآخِرَةَ﴾.

٣٧- إثبات الآخرة والبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَسَنَ تَوَّابٍ الْآخِرَةَ﴾.

٣٨- محبة الله تعالى للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومفهوم هذا أنه لا يحب المسيئين.

٣٩- في ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثناء على المذكورين بوصفهم بالمحسنين.

٤٠- الترغيب في الإحسان والحث عليه؛ الإحسان في عبادة الله تعالى إخلاصاً له، ومتابعة لرسوله، والإحسان إلى عباد الله؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ومن أحبه الله تعالى أثابه وأكرمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَبَكُمْ مَا تُوْحِبُونَ ۗ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ۝

وَبِحْ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْقَلِبُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ بِمَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ قَتْلِهِ، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ مَبِينًا لَهُمْ أَنَّ مَرَادَ الْكَافِرِينَ هُوَ رَدُّهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ.

قوله: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: سبق الكلام عليه.

﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿تَطِيعُوا﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿يُرَدُّوكُمْ﴾، وكل منهما علامة جزمه حذف النون، أي: إن تطيعوا الذين كفروا من المنافقين والمشركين وأهل الكتاب - فيما يأمرونكم به أو ينهونكم عنه؛ لأن الطاعة امتثال الطلب بفعل المأمور أو ترك المنهي.

﴿يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: يُرجعوكم على أعقابكم، وعلى أذباركم، والمراد: يردوكم ويرجعوكم عن دينكم إلى أول أمركم من الكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، أي: إن تطيعوا فريقًا من أهل الكتاب وهم الكفار منهم.

﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ الفاء: واقعة في جواب الشرط، ﴿خَاسِرِينَ﴾: حال. والانقلاب: التحول من حال إلى حال، والمعنى: فترجعوا بطاعتكم لهم والارتداد عن

دينكم حال كونكم خاسرين دينكم وديناكم وأخراكم، وذلك هو الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتُدُّوا عَنِّي أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾.

لما كان الحامل على طاعة الكفار - غالباً - إما رجاء نصر أو عون منهم، أو خوفاً منهم ومداراة لهم. أي: رجاء جلب خير أو دفع ضرر منهم أتبع عز وجل النهي عن طاعتهم بقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾، وفي ضمن ذلك أمرهم بطاعته - عز وجل - وموالاته وحده.

قوله: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ ﴿بَلِ﴾ للإضراب الإبطالي، أي: لا تطيعوا الكافرين ولا تتولوهم طمعاً في نفعهم أو خوفاً منهم، بل أطيعوا الله ووالوه، واستعينوا به وتوكلوا عليه؛ فهو مولاكم وحده؛ الذي بيده جلب الخير ودفع الضرر، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

وولاية الله تعالى للخلق نوعان:

ولاية عامة لجميع الخلق؛ فهو - عز وجل - متولي أمورهم لا يخرجون عن تدبيره وقدره؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

وولاية خاصة بالمؤمنين؛ بتوفيقهم وحفظهم ونصرهم ونحو ذلك، كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ» (١).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق - التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و«المولى»: الذي يتولى غيره بجلب النفع والخير له، و«الناصر» الذي يدفع الضر والشر عنه.

والله عز وجل ﴿ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ أي: أعظمهم وأقدرهم وأقواهم نصراً، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ أي: أعدلهم في نصره؛ لأنه سبحانه ينصر الحق وأهله. قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَيَسْأَلُونَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ . رُوِيَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ بَعْدَمَا انْصَرَفُوا مِنْ وَقْعَةِ «أُحُد» تَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا كَيْفَ نَنْصُرُ بَعْدَ أَنْ قَتَلْنَا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلْنَا، وَهَزَمْنَا هُمْ، وَلِمَا نَسْتَأْصِلُهُمْ؟ فَهَمُّوا بِذَلِكَ فَأَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَانْصَرَفُوا خَائِبِينَ.

قوله: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بما يدل على عظمته، أي: «سنلقي نحن» لأنه العظيم سبحانه، كما يتكلم عن نفسه - عز وجل - بصيغة الإفراد للدلالة على وحدانيته، كما قال تعالى: ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢].

والسين في قوله: ﴿ سَنُلْقِي ﴾ للتنفيس، تفيد التحقيق والقرب. ﴿ الرُّعْبَ ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بضم العين: «الرُّعْب»، وقرأ الباقون: ﴿ الرُّعْبَ ﴾ بإسكان العين.

﴿ الرُّعْبَ ﴾: الفزع وأشد الخوف، وإذا وقع الرعب في القلب انهزم المقاتل من الداخل وعجز عن المقاومة وانهزم في الظاهر، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر: ٢].

وقال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(١)، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي»^(٢).

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب شركهم بالله، والشرك بالله: دعوة غير الله وعبادته مع الله.

﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي لم ينزل به سلطاناً ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: شيئاً لم ينزل به سلطاناً.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي مع سكون النون: «يُنَزَّل».

وقرأ الباقر: «يُنَزَّلُ» بالتشديد، مع فتح النون.

﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة وبرهاناً، أي: ما لم ينزل به حجة وبرهاناً، ولم يقم عليه دليل ولا حجة.

والقيد في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؛ لبيان الواقع، ولتسفيه عقول المشركين، وليس للاحتراز؛ لأن الواقع أنه لا يمكن أن يقوم دليل أو حجة على أن الله شركاء، بل الأدلة والحجج النقلية والعقلية وغيرها قائمة على نفي ذلك؛ ولهذا كان سبب إلقاء الرعب في قلوبهم شركهم بالله؛ لخواء قلوبهم وخلوها من الإيمان بالله وتوحيده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ أي: ومرجعهم ومصيرهم في الآخرة النار، وفي تعريف «النار» دلالة على وجودها، أي: النار المعلومة.

﴿وَيَبْسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ «بَس»: فعل جامد؛ لإنشاء الذم، أي: وقبح وساء مَثْوَى الظالمين هي، أو النار.

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل و التيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨/٥)، والترمذي في السير (١٥٥٣) - وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

و«المثوى» المستقر الذي يثوي إليه الإنسان، ويستقر فيه. أي: وقبح وساء مستقر الظالمين ومسكنهم النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الواو: استثنائية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والله لقد صدقكم الله وعده، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد» التي للتحقيق.

﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ يقال: صدّقه، أي: أخبره بالصدق، أي: أخبر المتكلم المخاطب بالصدق. ويقال: صدّقه، أي: صدّق المخاطب المتكلم فيما أخبر به.

و«صدق الوعد»: تحقيقه والوفاء به، ولا أحد أوفى بعهده ووعدته من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ أَلْعِمَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١].

ومعنى ﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: وفي لكم بوعدته وأنجزه لكم، فصار ما أخبركم به واقعاً صدقاً.

﴿وَعَدَهُ﴾: منصوب بنزع الخافض، أي: صدقكم الله في وعده، أي: فيما وعدكم به من النصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إِذْ تَحُسُونَهُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ﴿صَدَقَكُمُ﴾ أي: صدقكم الله وعده حين تحسونهم، أي: وقت حسهم، وعبر عن الماضي بصيغة المضارع،

أي: بحكاية الحال، لاستحضار الصورة في الذهن.

ومعنى ﴿تَحْسُونَهُمْ﴾: تقتلونهم، والحس: أشد القتل.

قال الشاعر^(١):

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فحس به الأعداء عرض العساكر
وقال أيضًا:

ونحسهم بالبيض حتى كأننا نفلق منهم بالجماجم حنظلا^(٢)

﴿يَأْذِنُهُ﴾ أي: بإذن الله تعالى الكوني والشرعي.

والمعنى: إذ تقتلونه أشد القتل بإذن الله - عز وجل - الكوني والشرعي، وتسليطه إياكم عليهم، حيث قتلوا منهم تسعة عشر أو سبعة عشر رجلاً، وانهمز المشركون، وفروا هاربين، وكان النصر والغلبة للمؤمنين وذلك أول النهار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: للغاية، و﴿إِذَا﴾: ظرفية غير شرطية، والتقدير إذ تحسونهم بإذنه إلى وقت فشلكم.

والمعنى: ولقد صدقكم الله وعده حين تقتلونهم بإذنه إلى وقت فشلكم وتنازعكم في الأمر.

ويجوز كون ﴿حَتَّىٰ﴾ ابتدائية، والجملة مستأنفة، و﴿إِذَا﴾: شرطية، و﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب. أي: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم النصر، أو خذلتكم، أو انقسمتم إلى قسمين، ونحو ذلك.

و«الفشل»: الجبن والضعف والخور.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الفشل: الجبن»^(٣).

(١) ينسب هذا البيت لعتبة الليثي، وينسب أيضًا لحسان رضي الله عنه وليس في ديوانه. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٢١٦).

(٢) البيت لعتبة الليثي. انظر: «مجمع الزوائد» (٦/٣٠٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٦/١٣٨).

﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ المنازعة: المخاصمة والتجادب؛ لأن كل واحد من المتخاصمين ينزع حجة الآخر؛ ليكون الحق معه. والمعنى: وتخاصمتم واختلقتم في الأمر. و﴿الْأَمْرِ﴾: الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَدْنَا لَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [الحج: ٦٧]. والأمر أيضًا: واحد الأوامر. أي: وتنازعتم في أمركم، أي: في شأنكم، وفي الأمر الذي أمركم به الرسول ﷺ.

والخطاب على هذا للرماة الذين أمر عليهم الرسول ﷺ عبدالله بن جبير، وكانوا خمسين رجلًا. وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، ابقوا في الجبل سواء كانت لنا أو علينا»، لكنهم لما انتصر المسلمون في بادئ الأمر وانهمزم المشركون وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم طمعوا في مشاركة المسلمين في جمع الغنائم فأرادوا النزول من الجبل وحاول أميرهم أن يمنعهم وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «لا تبرحوا مكانكم..» وتنازعوا في ذلك فمنهم من قال: نبقى امتثالاً لأمر النبي ﷺ، ومنهم من نزل اغتنامًا لكسب الغنيمة^(١).

والنزاع والخلاف شر، وهو أعظم أسباب الفشل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- لما أتم الصلاة خلف عثمان- رضي الله عنه- وسئل في ذلك وهو ممن لا يرى الإتمام في السفر- قال: «الخلاف شر»، وصدق رضي الله عنه وأرضاه^(٢).

﴿وَعَصَيْتُمْ﴾، «المعصية»: مخالفة الطلب، بترك المأمور، أو ارتكاب المحظور، أي: وخالفتم الرسول فيما أمركم به من البقاء على الجبل، أي: وعصيتم الله والرسول؛ لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله تعالى، والمراد بهذا: ما حصل من الرماة. وترتيب الأمور الثلاثة في الآية حسب ترتيبها في الحصول؛ الفشل، فالتنازع، فالعصيان والمخالفة.

(١) سيأتي تحريجه قريبًا بتمامه ولفظه.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك (١٩٦٠)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَبْتُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾، ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا أَرَبْتُمْ﴾: مصدرية، وفي قوله: ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾: موصولة، أي: من بعد ما أراكم الذي تحبون من نصركم وهزيمة أعدائكم وانخذالهم وتوليتهم الأدبار وغنم ما معهم.

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ تفصيل لـ ﴿وَتَنَزَعْتُمْ﴾، وتبين لـ ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾، وأن المراد به الذين يريدون الدنيا، و«من» في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ في الموضوعين تبعيضية، و﴿مَنْ﴾ في الموضوعين موصولة، أي: بعضكم يريد الدنيا، وهم الذين رغبوا في المغنم لما رأوا هزيمة العدو- وليس المراد بإرادة الدنيا هنا ما ينافي إرادة الآخرة- كما هو حال الكفار الذين يريدون الدنيا فقط ولا حظ لهم في الآخرة ولا نصيب، بل ليس لهم فيها إلا النار، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النُّكْرُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

بل هذا كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُبْخِشَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي: وبعضكم الذي يريد الآخرة، كالذين ثبتوا على الجبل، والذين نالوا شرف الشهادة وغيرهم.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: ثم بعد أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم الذي تحبون من نصركم وهزيمتهم ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: ردكم ودفعكم عنهم وأدالهم عليكم بسبب ما حصل منكم من الفشل والتنازع والمعصية، أي: بسبب ما أصابكم من أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنْ هَذَا أَقْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَبِمَا كَفَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٧٩].

والتعبير بقوله: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ يفيد إقبال المسلمين الشديد وشدة رغبتهم على القضاء عليهم وتوقعهم اكتمال النصر لهم، وهزيمة عدوهم- لكنه- بسبب فشلهم

وتنازعهم ومعصيتهم وقع عليهم ما ليس بالحسبان، فصرفهم وكفهم عنهم.
قال ابن كثير^(١): «فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة، وفشل بعض المقاتلة، تأخر الدعم الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة».

عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: «لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبدالله بن جبير، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتونا ظهرنا علينا فلا تعينونا» فلما لقيناهم هربوا حتى رأينا النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبدالله: عهد إليّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا. فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم. فأصيب سبعون قتيلاً. فأشرف أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تحبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لا تحبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك. فقال أبو سفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: «أحببوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «أحببوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم أمر بها، ولم تسؤني»^(٢).

وفي رواية عن البراء - رضي الله عنه - قال: «جعل النبي ﷺ على الرجال يوم أحد - وكانوا سبعين رجلاً - عبدالله بن جبير. فقال: «وإن رأيتونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتونا هزمتنا القوم، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن. فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي: قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله، لنا تين الناس فلنصيبين من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني

(١) في «تفسيره» (١١٣/٥).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة أحد (٤٠٤٣)، وأحمد (٤/٢٩٣).

عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيئوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات. ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه، قال: كذبت، والله، يا عدو الله، إن الذين عدت أحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك. قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: اعلُ هُبْلُ. قال النبي ﷺ: «ألا تجيئون؟» قالوا: يا رسول الله: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «ألا تجيئون؟» قال: قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(١).

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبتليكم، أي: ليختبركم ويمتحنكم في صرفكم عنهم. والابتلاء يكون في الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال سليمان - عليه السلام -: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعمة^(٢)
 فيبتلي الله بعض القوم بالخير والنعمة ليتبين هل يشكر أم يكفر، ويبتلي بعض الناس بالشر والنقم ليتبين هل يصبر أم يجزع.
 ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي: والله لقد عفا الله عنكم، والجملة كسابقتها مؤكدة باللام والقسم المقدر، و«قد».

وأقسم عز وجل على عفوه عنهم وأكدته؛ لأنه قد يتبادر إلى أذهانهم أن الله - كما

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب (٣٠٣٩).

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص ٥٧٧).

ابتلاهم بسبب ما حصل منهم من الفشل والتنازع والمعصية - سوف يعاقبهم أيضاً على ذلك.

كما أقسم في أول الآية على صدق وعده لهم لثلاث يتبادر إلى أذهانهم - بسبب ما أصابهم - أن الله لم يصدقهم وعده.

والمعنى: ولقد تجاوز الله عنكم، فلم يعاقبكم على ما حصل منكم من فشل وتنازع وعصيان، ولذلك صرف عدوكم فلم يستأصلكم.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله صاحب فضل وزيادة عليهم، ومن أعظم ذلك هدايتهم للإيمان وتوفيقهم للإسلام، وشمولهم برحمته وعفوه، ولهذا عفا عنكم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: والله ذو فضل عليكم، وفي ذلك عدة فوائد منها وصف المذكورين بالإيمان، وتعميم فضله - عز وجل - لجميع المؤمنين، وبيان علة تفضله عليهم وهي الإيمان - إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف.

٢- عناية الله تعالى بالمؤمنين حيث يحذرهم من طاعة الكافرين.

٣- وجوب الحذر من الكافرين، وتحريم طاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

٤- شدة خطر طاعة الكافرين؛ لأنها سبب للارتداد على الأعقاب والرجوع عن الإسلام، والانقلاب بالخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

٥- أن الكفار ليسوا بنصحة للمؤمنين، مهما ادعوا النصح لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

وهذا خبر الذي يعلم السر وأخفى - سبحانه وتعالى؛ ولهذا يجب الحذر كل الحذر أن يكون تبادل المصالح بين المسلمين وبينهم على حساب التنازل عن شيء من ثواب

- الدين ومبادئ الإسلام أو تكون مصالحتهم أو مهادنتهم على حساب ذلك.
- ٦- أن الكفر خسران، وأهله هم الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.
- كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ١-٣].
- فلا خسارة تفوق الخسارة في الدين، فهي الخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا ينجبر، وكما قيل:
- وكل كسر فإن الله جابره وما لكسر قناة الدين جبران^(١)
- ٧- بلاغة القرآن الكريم في التنفير عن طاعة الكافرين والرجوع عن الدين بتشبيه ذلك بالارتداد على الأعقاب ومشى القهقري، والسير على الوراء وعلى غير هدى.
- ٨- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].
- ٩- أن الله تعالى ناصر المؤمنين، وهو خير الناصرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.
- ١٠- الإشارة إلى أن طاعة الكافرين من توليهم واتخاذهم أولياء ونصراء؛ لأن الله لما حذر من طاعتهم أعقب ذلك بقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.
- ١١- جواز إطلاق «الناصر» على غير المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ بالجمع، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَنَصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، لكنه - عز وجل - هو خير الناصرين.
- ١٢- تعظيم الله - عز وجل - لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿سَكُنْتُمْ فِي بَيْتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم، كما قال عز وجل: «الكبرياء إزاري والعظمة ردائي»^(٢).
- ١٣- بشارة الله تعالى للمؤمنين ووعدهم لهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿سَكُنْتُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص ٨٠).

(٢) سبق تحريجه.

١٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِيْكُمْ فِي الْمَسْتَقْبَلِ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُ مَا شَاءَ مَتَى شَاءَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٠٧].

١٥- قدرة الله تعالى العظيمة الباهرة في هزيمة الكفار من الداخل، بإلقاء الرعب في قلوبهم، مهما كانت قوتهم الظاهرة.

١٦- أن إلقاء الرعب في قلوب الكفار من أقوى أسباب الهزيمة لهم، والنصر للمؤمنين؛ لأن الرعب إذا وقع في القلب خارت القوى وعجز العدو عن المقاومة واستسلم وهذا من خصائص هذه الأمة، كما قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(١).

١٧- أن مدار قوة البدن وشجاعته وضعفه وانهزامه على قوة ثبات القلب، فإن ثبت القلب قوي البدن وقاوم، وإن ضعف القلب ضعف البدن وانهزم.

١٨- أن سبب إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إشراكهم بالله ما لا دليل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، وبقدر عظم شركهم بالله يكون عظم الرعب في قلوبهم، إذ لا أمن إلا لأهل الإيمان والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ هُمْ مَهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

١٩- إثبات الحكمة والعللة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ غَيْبَهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعال الله من الجهمية وغيرهم.

٢٠- أنه لا دليل للمشركين، ولا حجة لهم على شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

٢١- أن الأحكام التعبدية توقيفية، فلا يجوز التعبد لله بشيء لا دليل عليه، أو التقليد على غير هدى.

(١) سبق تخرجه.

- ٢٢- تسفيه عقول المشركين؛ لإشراكهم بالله ما لا دليل عليه من عقل أو نقل.
- ٢٣- أن مأوى الكافرين ومصيرهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾
- ٢٤- إثبات الآخرة، والجزاء فيها على الأعمال، وإثبات النار، وأنها موجودة معدة مأوى للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾. أي: وماواهم في الآخرة النار، مجازة لهم على كفرهم وشركهم.
- ٢٥- الإشارة إلى خلود الكافرين في النار؛ لأن المأوى محل الإقامة الطويلة، أو الأبدية.
- ٢٦- ذم النار وتقييحها وأنها بئس المثوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسَّسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.
- ٢٧- أن الذين كفروا وأشركوا بالله هم الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسَّسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ فوصفهم بالكفر والشرك والظلم، وقد قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].
- ٢٨- إثبات نصر الله تعالى للمؤمنين في أحد، كما وعدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ واستمر معهم النصر حتى حصل منهم الفشل والنزاع والعصيان.
- ٢٩- إذن الله تعالى كوناً وشرعاً للمؤمنين بقتل أعدائهم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذنه الكوني والشرعي.
- ٣٠- أن ما حصل للمسلمين يوم أحد من صرفهم عن العدو سببه فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾.
- ٣١- أن الفشل والتنازع والعصيان من أسباب الخذلان وفوات النصر، مما يوجب الحذر من ذلك والأخذ بأسباب النجاح والنصر من وحدة الكلمة ولزوم الطاعة وغير ذلك.
- ٣٢- أن المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة؛ وأن الواجب على من أنعم

الله عليه بما أحب أعظم من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾؛ لأن الواجب مقابلة النعمة بالشكر والطاعة لا بالمخالفة والمعصية، ولشؤم هذه المعصية أصاب المسلمين ما أصابهم. ومعصيته ﷺ في هذا المقام عظيمة من وجهين؛ الأول: أن أمره ﷺ شرع يجب اتباعه، والثاني: أنه ﷺ قائد وولي أمر يجب اتباع أمره ولو لم يكن رسول. ٣٣- أن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.

٣٤- الإشارة إلى أن من أسباب ما حصل للمسلمين من الفشل والنزاع والمعصية كون بعضهم يريد الدنيا.

٣٥- أن الصحابة- رضي الله عنهم- ليسوا في عصمة من أن يريد بعضهم الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ لكن لهم رضوان الله عليهم من الصحبة والفضائل والسوابق في الإسلام ما يكفر ويمحو ما كان منهم. ويكفيهم أن الله تعالى عفا عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾.

قال ابن القيم^(١): «﴿مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وهذا خطاب للذين شهدوا معه الواقعة، ولم يكن فيهم منافق؛ ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية»^(٢).

قال ابن القيم: والذين أريدوا بهذه الآية هم الذين أدخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة، حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون».

٣٦- أن صرف المسلمين عن عدوهم- بسبب ما حصل منهم من الفشل والنزاع

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٣٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦٥/١٤١، ١٤٢).

والمعصية ابتلاء لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ لِبَتْلِكُمْ﴾.
 ٣٧- عفو الله - عز وجل - عما حصل يوم أحد من المؤمنين من الفشل والتنازع
 والمعصية، وإرادة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾؛ ولهذا صرف
 عز وجل أعداءهم عنهم فلم يستأصلوهم.

٣٨- فضل الله - عز وجل - على المؤمنين بالعفو عنهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ
 ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو فضل خاص، كما أنه ذو فضل عام على جميع الخلق،
 كما قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ فَأَثْبِكُمْ عَمَّا يَغْمِرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ فَأَثْبِكُمْ عَمَّا يَغْمِرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ۞

قوله: ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ ﴿صَرَفَكُمْ﴾ ﴿ أَوْ بـ ﴿عَفَا عَنْكُمْ﴾، أو متعلق بمحذوف، والتقدير: اذكروا حين تصعدون، وقيل غير ذلك.

﴿ تَصْعَدُونَ ﴾: بضم التاء، و«الإصعاد»: السير في الأرض والذهاب فيها والإسراع فيها هرباً؛ لأن الأرض تسمى «الصعيد»، كما قال تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦]، يقال: أصعد في الأرض إذا ذهب فيها، قال الشاعر:

هواي مع الركب البيانين مُصْعَدٌ جنيبٌ وجشاني بمكة مُوثِقٌ (١)
وقال الأعشى (٢):

فإن تسألني عني فيا ربَّ سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

(١) البيت لجعفر بن عُبَلة الحارثي. انظر: «شرح حماسة أبي تمام» للفارسي (٢/ ٨٧).

(٢) انظر: «ديوانه» ص (١٣٥).

وقال أيضًا:

ألا أيهذا السائلي أين أصعدت فإن لها في أهل يشرب موعدا
والمعنى: إذ تذهبون في الأرض مسرعين فارين جادين في الهرب. وقيل: إذ تصعدون
في الجبل فرارًا. وكل هذا حصل من بعض الصحابة يوم أحد فمنهم من فر وهرب في
الأرض، ومنهم من صعد الجبل.

كما في حديث البراء- رضي الله عنه- بعد أن ذكر قول بعض الرماة: «إنا والله لنائين
الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين. فذلك الذي
يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثني عشر رجلاً...»
الحديث^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من
الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهبوه قال: «من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في
الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهبوه أيضًا، فقال: «من يردهم عنا
وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل
كذلك حتى قتل السبعة. فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصَفْنَا أصحابنا»^(٢).

وعن أبي عثمان النهدي قال: «لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهم
رسول الله ﷺ غير طلحة بن عبيدالله وسعد- عن حديثهما»^(٣).

وعن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ
وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتها قبل ذلك اليوم
ولا بعده- يعني جبريل وميكائيل- عليهما السلام»^(٤).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم
فعلوا برسول الله وهو حيثئذ يشير إلى ربايعته، واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب- مناقب المهاجرين (٣٧٢٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٢٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٦).

ﷺ في سبيل الله»^(١).

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: «جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى إذا صار رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم»^(٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْكُمْ مَعْطُوفًا عَلَىٰ تَضَعُدُونَ﴾ و«اللي» الانعطاف على الشيء والعكوف عليه، والمعنى: لا تعطفون على أحد، ولا تلتفتون إلى أحد، ولا تعرجون على أحد، لا على نبيكم، ولا على أصحابه، ودينه، من الدهش والرعب وشدة الهرب خوفاً من القتل، لا يفكر أحدكم إلا في نجاته بنفسه.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن الرسول يدعوكم في أخراكم، أي: يناديكم إلى عباد الله، إلى عباد الله^(٣).

﴿فِي أُخْرَبِكُمْ﴾ أي: من ورائكم وخلف ظهوركم مما يلي القوم، وهذا يدل على شجاعته ﷺ وثباته.

كما أن من سيرته ﷺ في قيادته أن يكون في مؤخرة الجيش مسaire لضعيفهم ورفقاً

٣٣٠

وفي قصة جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- أنه كان يسير على جمل له قد أعيأ، فمر النبي ﷺ فضربه فدعا له، فسار بسير ليس يسير مثله... الحديث^(٤).

﴿فَأْتَبَكُمُ غَمًّا يَغْمِرُ﴾: معطوف على «تصعدون»، و«أتاب»: تنصب مفعولين، الأول ضمير المخاطب، والثاني «غمًّا»، أي: فجازاكم على فراركم وهربكم، و«الثواب»

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أحد (٤٠٧٣)، ومسلم في الجهاد والسير- غزوة أحد (١٧٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٢٩١١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤٨/٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الشروط- إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى (٢٧١٨)، ومسلم في

المساقاة- بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥).

يطلق على الجزاء على العمل، إن خيرًا فخير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]، وإن شرًّا فشر، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَارَةَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦].

﴿عَمَّا يَغْمِرُ﴾: هذا من تمام الثواب، وليس هو سبب الثواب، والباء في قوله: ﴿يَغْمِرُ﴾ للمصاحبة، أي: وأثابكم غمًّا مع غم، أي: بغم يصحبه غم، أي: بغموم متتابعة، ويجوز كون الباء بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي كُذُوعِ التَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. أي: فأثابكم غمًّا على غم، أي: بغموم متعددة لكن لا يلزم أن تكون متتابعة، أي: فجازاكم على ما حصل منكم بغموم متتابعة أو متعددة؛ منها: غم فوات النصر والغنيمة بعد أن ظهرت لكم بوارق النصر، ومنها: غم الهزيمة والانكسار الذي حصل لكم، ومنها: غم ما أصابكم من القتل والجراح والأسر، ومنها: الغم الذي أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل، فجازاهم الله تعالى بغموم متعددة مترادفة عليهم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم، وفرارهم وإسلامهم النبي ﷺ وأصحابه، وعدم استجابتهم له وهو يدعوهم. والجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

وقيل: الباء للبدل. والتقدير: فأثابكم غمًّا بدل غم، أي: فأثابكم غمًّا بدلًا من الغم الذي حصل منكم للرسول ﷺ.

والمعنى: فجازاكم غمًّا بما أصابكم بدل غمكم للرسول ﷺ بعصيانكم أمره وفراركم عنه.

وهذا يغمه في هذا الموقف من وجهين؛ الأول: أنه رسول الله، أمره واجب الاتباع، والثاني: أنه قائدكم وولي أمركم تجب عليكم طاعته. فما حصل لكم من المصائب والغم مقابل ما وقع للرسول ﷺ من غم بسبب عصيانكم أمره.

وقيل: فأثابكم غمًّا يوم أحد بغمكم يوم بدر للمشركين، فما أصابكم يوم أحد بدل ما أصابهم يوم بدر.

والأول أظهر وهو الذي يدل عليه قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾

وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ، اللام: للتعليل، فالجملة تعليل لقوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ ۗ﴾، أي: فأثابكم غمًا بغم؛ لأجل أن لا ﴿تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ﴾. بمعنى أنه - عز وجل - أثابكم غمًا بغم لأجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم؛ لأن هذه الغموم ينسي بعضها بعضًا، فينسي أكبرها أصغرها، وآخرها أولها، كما أن في تعددها توطيئًا للنفوس بتمرينها على الصبر على المصائب وتخفيف تحمل المشاق عليها.

فما حصل للمؤمنين من فوات النصر والغنيمة أنساهم إياه ما حصل لهم من الهزيمة والانكسار والقتل والجراح، ثم أنساهم تلك الغموم ما هو أعظم منها وهو ما سمعوا من أنه ﷺ قد قتل، ثم أنساهم ذلك كله وخففه عليهم تأكدهم من حياته وبقائه وسلامته، وهكذا المصائب والفتن كما قال ﷺ: «يرقق بعضها بعضًا»^(١).

وقوله: ﴿تَحْزَنُوا ۗ﴾ منصوب بـ«كي».

و«الحزن»: الغم والتحسر على ما فات ومضى، و«ما» في الموضعين: موصولة، أي: لأجل أن لا تحزنوا على الذي فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على الذي أصابكم من الهزيمة والقتل والجراح والأسر، إذا تحققت أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات واغبتطم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة.

وبين قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ۗ﴾ وقوله: ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ﴾ طباق.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۗ﴾ ﴿خَبِيرٌ ۗ﴾: مأخوذ من «الخبر»، وهو: العلم ببواطن الأمور، ومنه سمي الزارع «خبيرًا»؛ لأنه يدفن الحب ويخفيه، ومن ذلك سميت «المزارعة» بالمخبرة.

أي: والله - عز وجل - ذو خبرة تامة ببواطن الأمور ودقائقها وخفياتها. وإذا كان عز وجل خبيرًا بالبواطن والدقائق والخفيات فخبرته وعلمه بالظواهر والجلائل والجلليات من باب أولى.

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما»: تفيد العموم، وهي موصولة أو مصدرية، أي: بجميع الذي تعملون، أو بجميع عملكم من أعمال القلوب والجوارح، من الأفعال والأقوال، وفي ختم الآية بهذه الجملة وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى خبرته - عز وجل - بعملهم محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب مع التراخي. أي: ثم أنزل الله عليكم ﴿مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ «ال» في الغم للجنس، أي: من بعد كل الغموم السابقة؛ لقوله: ﴿فَأَثْبِكُمْ غَمًّا يَغْمِرُ﴾ أي: بغموم متعددة ملاحقة.

﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾: مفعول به منصوب لـ ﴿أَنْزَلَ﴾، و﴿نُّعَاسًا﴾ بدل اشتغال من ﴿أَمَنَةً﴾. ومعنى ﴿أَمَنَةً﴾ أي: أماناً. و«النعاس» مقدمة النوم، أو النوم الخفيف. وقيل: ﴿أَمَنَةً﴾: مفعول لأجله، و﴿نُّعَاسًا﴾: مفعول ﴿أَنْزَلَ﴾ ويقوي كون ﴿أَمَنَةً﴾ مفعولاً لأجله قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١٢]، أي: إذ يغطيكم النعاس لأجل أمنكم.

﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء: «تغشى» أي: الأمنة، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَغْشَى﴾ أي: النعاس.

والغشيان والتغشية: التغطية، كما قال تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١].

والخطاب في قوله: ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ للمؤمنين، أي: يغطي عقول طائفة

منكم، وهم أهل الإيمان واليقين والثبات الواثقون بوعد الله تعالى ونصره، طمأنة لهم وتثبيتاً لقلوبهم وإراحة لأبدانهم وتجديداً لنشاطهم؛ لأن الحزن والألم على المصاب تبدأ خفته من أول نومة بعده.

عن أبي طلحة - رضي الله عنه - قال: «غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه»^(١).

وعنه - رضي الله عنه - قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه»^(٢).

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن طائفة قد أهتمتهم أنفسهم، و«طائفة»: مبتدأ، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ صفة لـ«طائفة» أي: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ فلم يغشهم النعاس لما هم عليه من الهم والخوف والقلق، والخائف لا يأتيه النعاس.

ومعنى ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: قد أوقعتهم أنفسهم في الهم، فلم يكن لهم هم سوى أنفسهم وسلامتها، فلم يهتموا لدينهم ولا لنبيهم ولا لأصحابه، لضعف إيمانهم أو نفاقهم، كما قال أبو طلحة رضي الله عنه: «والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همة إلا أنفسهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾»^(٣).

ولهذا لم يصف هذه الطائفة بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ كما وصف الطائفة الأولى.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ جملة ﴿يَظُنُّونَ﴾ في محل رفع خبر لـ«طائفة».

ويجوز كونها في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يظنون بالله غير الحق. أي:

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٢)، والترمذي في «التفسير» (٣٠٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة أحد (٤٠٦٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦٢/٦).

يظنون بالله بقلوبهم.

﴿عَيْرَ الْحَقِّ﴾: مفعول مطلق نائب عن المصدر؛ لتأكيد معنى الظن، أو مفعول أول لـ ﴿يَظُنُّونَ﴾، و﴿يَاللَّهِ﴾: مفعول ثاني. ومعنى ﴿عَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: ظناً غير ظن الحق، و﴿الْحَقِّ﴾: الشيء الثابت، أي: يظنون بالله ظناً غير صحيح، وغير الحق، أي: ظن الباطل، ولم يحدد هذا الظن إلا بأنه غير الحق، أي: ليس بحق؛ ليعم جميع الظنون الباطلة التي ظنوها.

﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: بدل من قوله: ﴿عَيْرَ الْحَقِّ﴾، أو مفعول مطلق؛ لبيان نوع الظن. أي: ظن أهل الجاهلية الذين لا علم عندهم؛ لأن الجاهل عدم العلم، كما قال السموأل^(١):

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول
وقال النابغة:

وليس جاهل شيء مثل من علما^(٢)

والمعنى: يظنون بالله غير الحق ظن أهل الجاهل الذين لا علم ولا معرفة لهم بالله تعالى وعظمته وكمال أسائه وصفاته وأحكامه وما يجب له، وما ينزه عنه، كظنهم أن الله يديل الباطل على الحق إدالة يضمنحل معها الحق، وأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمنحل، وأنه يسلمه للقتل، وأن ما أصابهم ليس بقضاء الله وقدره، ولا حكمة فيه، ونحو ذلك فأساؤوا الظن بالله تعالى وبدينه وبرسوله ﷺ؛ لما رأوا من ظهور المشركين في ذلك اليوم، وهذا هو ظن أهل الشك والريب والنفاق، والكفر والشرك، ظن السوء.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آهْلِهِمْ أَبَدًا وَرُزِيتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٩٢).

(٢) عجز بيت للنابغة. انظر: «ديوانه» (ص ١٠٢).

وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من ﴿يَطُنُّونَ﴾، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يَطُنُّونَ﴾، أي: حال كونهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: يقولون بألسنتهم بعضهم لبعض: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو إفصاح عما تنطوي عليه قلوبهم من كونهم قد أهمتهم أنفسهم، ومن ظنهم بالله غير الحق.

﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿هَلْ﴾ للاستفهام، ومعناه هنا الإنكار والنفي، أي: ليس لنا من الأمر من شيء؛ ولهذا رد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

أي: يقول هؤلاء الطائفة الذين قد أهمتهم أنفسهم الظانين بالله غير الحق، ظن الجاهلية: ليس لنا من الأمر شيء، ولم يؤخذ رأينا ولا مشورتنا، ولم نراجع في الأمر.

﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي: من الشأن والتدبير في الحرب والقتال.

﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى للإنكار والنفي، أي: ليس لنا من الأمر أي شيء كان ومهما قل، فالأمر والتدبير كله لغيرنا.

وكأنهم يقولون أيضًا: أقحمنا وأدخلنا في أمر لا رأي لنا فيه ولا خيرة، ولا طائل تحته، ويتنصلون من مسؤولية ما حصل. وقيل: المعنى: ما لنا من أمر النصر والظهور من شيء.

﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «كله» برفع «كل» على أنها مبتدأ خبره ﴿لِلَّهِ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقرأ الباقون ﴿كُلُّهُ﴾ بنصبها على أنها توكيد لـ ﴿الْأَمْرَ﴾ وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

والأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ، أي: قل لهم يا محمد: إن الشأن كله لله. فله - عز وجل - الأمر الكوني وتدبير الكون كله، وله - سبحانه - الأمر الشرعي، كما قال تعالى:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من فاعل يقولون، أي:

يضمرون ويسرون في أنفسهم.

﴿مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة، أي: الذي لا يظهره ولا يعلنونه لك، أو نكرة موصوفة، أي: شيئاً لا يظهره لك، والخطاب للنبي ﷺ.
 ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾: بدل من قوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، أو استثنائية، وهي بيان للذي يخفون في أنفسهم ولا يبدونه للرسول ﷺ، وهو أنهم يقولون، أي: يقول بعضهم لبعض فيما بينهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾.

عن الزبير - رضي الله عنه - قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره. قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ لقول معتب»^(١).

أي: لو كان لنا من الأمر شيء في هذه الغزوة والخروج إليها ﴿مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: ما خرجنا إليها، وما قتلنا ههنا، أي: في أحد، وكأنهم في هذا يشيرون إلى ما جرى حين استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أحد، فأشار عليه بعضهم بالخروج وبخاصة الشباب الذين لم يشهدوا بدرًا، وقال بعضهم ومنهم عبدالله بن أبي وغيره: بل نبقي في المدينة، ونقاتلهم من أعلى السطوح وفي الشوارع إذا دخلوا، وكان النبي ﷺ يميل إلى هذا، لكنه ﷺ عزم على الخروج، فدخل بيته ولبس لامة الحرب وخرج.

فالذين رأوا البقاء وعدم الخروج هم - والله أعلم - الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: ما خرجنا من المدينة، وما قتلنا في أحد - يعنون: من قتل منهم. وهذا منهم تكذيب لله تعالى، وإنكار لحكمته، واعتراض على قدره، وتسفيه لرأي الرسول ﷺ وأصحابه، وتزكية لأنفسهم؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٧٩٥)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/١٦٨)، بأخصر من هذا.

قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و﴿لَوْ﴾: شرطية، و﴿كُنْتُمْ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَبَرَزَ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب الحضرمي وورش عن نافع وحفص عن عاصم: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ بضم الباء، وقرأ الباقون: «بيوت» بكسرها في جميع القرآن. أي: قل لهم يا محمد: لو كنتم في بيوتكم في المدينة ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، أي: لظهر وخرج الذين كتب وقدر عليهم القتل ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، و«مضاجع» جمع «مضجع» وهو مكان النوم، كما قال تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، ويطلق على مكان الموت والقتل، ومكان الدفن في القبر.

أي: أن بقاءكم في بيوتكم في المدينة لا يمنع من خروج من كتب وقدر عليهم القتل منكم ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: إلى أماكن قتلهم واضطجاعهم في قبورهم، فما حصل لكم قدر مقدر محتتم، لا محيد لكم عنه ولا مناص ولا مفر لكم منه، ولا ينجي حذر من قدر.

وكما قيل:

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها^(١)
وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو علي طريقها^(٢)

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، والمعطوف عليه مقدر، أي: فعل ذلك؛ ليقضي الله أمره، وليبتلي ما في صدوركم، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: الذي في صدوركم.

والابتلاء: الاختبار والامتحان، أي: وليختبر الله ويمتحن ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

(١) البيتان قيل: لأحمد بن فارس، وقيل: للمعري، وقيل: لعبدالعزیز الدريني. انظر: «المستطرف» (١/٤٩١).

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/٢١٥)، «بدائع الفوائد» (١/١١٩)، «مدارج

السالكين» (١/١٥).

أي: الذي في صدوركم، وهي القلوب وما فيها من المضمرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَيُّهَا
تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أي: ليمتحن بما جرى عليكم الذي في صدوركم وقلوبكم من الإيمان والنفاق،
فالؤمن يزداد بذلك إيماناً و يقيناً، والمنافق ومن في قلبه مرض يظهر ذلك على جوارحه
وفلتات لسانه.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ معطوف على: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾، والتمحيص: التخليص
والتنقية والتصفية، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: وليخلص الذي في قلوبكم من إرادة الدنيا
أو التسخط والاعتراض على قدر الله تعالى، وغير ذلك من وساوس الشيطان.

فالابتلاء والامتحان للقلوب التي في الصدور، والتمحيص والتخليص والتنقية لما
في القلوب، لا للقلوب نفسها، فبالابتلاء للقلوب، والتمحيص لما فيها يتميز المؤمن من
المنافق، والطيب من الخبيث، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن القيم^(١): «فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من
قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم المنة
التامة في هذا وفي هذا».

وكما قيل:

لله در النائبات فإنها صدأ اللئام وصيقل الأحرار^(٢)

وكم وراء المحنة من منحة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الجملة استثنائية، أي: والله ذو علم واسع ﴿بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما فيها من المكونات من المعتقدات
والنوايا، والصالح والفساد، والسرائر والضمائر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٢٦).

(٢) البيت لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص ٢٨).

وَنَعَلَهُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴿ق: ١٦﴾.

وإذا كان عز وجل ذا علم واسع بالقلوب وما فيها من المكنونات فعلمه بكل ما ظهر من باب أولى، أي: والله ذو علم واسع بالقلوب، وما فيها، قبل ابتلائها، وتمحيص ما فيها، وبعده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿تَوَلَّوْا﴾: أدبروا وهربوا وانهمزوا، حيث لم يبق مع الرسول ﷺ إلا نحو ثلاثة عشر رجلاً منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم (١).

﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب على الظرفية بمعنى «حين».

﴿الْتَقَى﴾، أي: تقابل، أي: يوم تقابل الجمعان وتلاقيا وجهًا لوجه.

﴿الْجَمْعَانِ﴾ مشني: «جمع»، أي: جمع الرسول ﷺ والمسلمين معه، وجمع الكفار بقيادة أبي سفيان - وذلك يوم أحد.

﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر.

﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: دعاهم إلى الزلل وأوقعهم فيه، والزلل: الخطأ، والزلة: الخطئية.

أي: إنما أوقعهم في الزلل والتولي والانهزام يوم أحد الشيطان، أي: إنما أوقعوا فيما وقعوا فيه وحصل عليهم ما حصل بسبب الشيطان وتسويله.

فلو اعتصموا بطاعة الله تعالى ما كان له عليهم من سلطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ الباء للسببية، و﴿مَا﴾: موصولة أو مصدرية، بسبب بعض الذي كسبه، أو بعض كسبهم من الذنوب والمعاصي، من مفارقة موقعهم وعصيان أمر

(١) سبق تخرجه. وانظر: «زاد المعاد» (٣/٢١٣).

الرسول ﷺ، والتنازع والتعجل إلى الغنيمة، فكان سبباً في تسلط الشيطان عليهم واستزلاله لهم، وفي هذا إبطال لما عرّض به المنافقون من إلقاء تبعة ما أصابهم على أمر الرسول ﷺ بالخروج.

والمعاصي يجر بعضها بعضاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها»^(١).

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ غَيْبَاتِنَا لِيَجْزِيَ اللَّهُ ذُنُوبَ الَّذِينَ كَانُوا يُصْنَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وكرره للتأكيد، والامتنان، والجملتان كل منهما مؤكدة بالقسم المقدر، ولام القسم، و«قد»، أي: والله لقد عفا الله عنهم، والضمير يعود إلى الذين تولوا.

و«العفو»: ترك المؤاخذة على الذنب والتجاوز عنه.

أي: ولقد تجاوز الله عما كان منهم من المخالفة والفرار فلم يستأصلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ استئناف وتعليل لما قبله، أي: ولقد عفا الله عنهم؛ لأنه سبحانه غفور حلیم.

ومعنى ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾

[النجم: ٣٢].

و﴿الْمَغْفِرَةَ﴾: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو حلم واسع وذو أناة، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يتأنى به

ويدعوه إلى التوبة والإنابة، ويمهل ولا يهمل. قال ابن القيم^(٢):

وهو الحلیم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١٢٦/٢).

(٢) «التونية» (ص ١٤٨).

الفوائد والأحكام:

- ١- تذكير المؤمنين بما وقع منهم من المخالفة والفرار، وعدم إجابة دعوة الرسول ﷺ لهم بالرجوع إليه والكرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَضَعُودُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٰ أُخْرَانِكُمْ﴾، وفي هذا توبيخ وعتاب لطيف لهم.
- ٢- ينبغي للمسلم أن لا يغفل وينسى إخوانه فلا يلتفت إليهم في خصم الأحداث مهما عظمت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وأنزل الله تعالى هذه الآية عجباً من صنيع أبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- الذي آثر ضيفه بالعشاء، ونام هو وزوجه وأولاده جياً رضي الله عنه وأرضاه^(١).
- ولما أصيب عكرمة وبعض الصحابة- رضي الله عنهم- في اليرموك وعرض عليهم الماء أتر كل منهم وهو جريح مثلث أحوج ما يكون إلى الماء أن يدفع الماء إلى الآخر، وكانوا ثلاثة فماتوا كلهم ولم يشرب أحد منهم^(٢).
- ٣- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ﴾.
- ٤- شجاعته ﷺ وثباته مما يلي القوم بعد أن فر كثير من أصحابه، ودعوته ﷺ لهم للرجعة والكرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٰ أُخْرَانِكُمْ﴾.
- ٥- حنكته ﷺ في قيادة الجيش حيث يكون في آخر القوم رفقا بهم، وتفقداً لأحوالهم، ومسايرة لضعيفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٰ أُخْرَانِكُمْ﴾.
- ٦- ينبغي لقادة الجيوش في الإسلام أن يكون لهم أسوة برسول الله ﷺ في ثباته وشجاعته وحسن قيادته للجيش.
- ٧- حكمة الله تعالى فيما أصاب به المسلمين من الغموم، ليُخفف وينسي بعضها بعضاً، فلا يحزنوا على ما فاتهم من النصر والغنيمة، ولا ما أصابهم من الخذلان وإدالة العدو

(١) أخرج القصة البخاري في تفسير سورة الحشر (٤٨٨٩)، ومسلم في الأشربة- إكرام الضيف (٢٠٥٤)،

والترمذي في تفسير سورة الحشر (٣٣١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩٦/٨-٩٧).

عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَثْبَبَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾.

٨- أن ما أصاب المسلمين من الغموم مقابل مخالفتهم الرسول ﷺ وغمهم له ﷺ، والجزاء من جنس العمل، وهذا من عدل الله عز وجل.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله - عز وجل - وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله

تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

وفي هذا رد على الجهمية وغيرهم، ممن ينفون الحكمة في أفعال الله وأحكامه، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

١٠- تربية الإسلام أتباعه على الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره وعدم الحزن على ما فات من محبوب، وما وقع من مكروه؛ لأن الحزن لا يرد فائتاً، ولا يرفع ما وقع من مكروه. والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره يقوي النفس والعزيمة ويجعل الإنسان يمضي قدماً ولا يتعثر ويتغلب بعون الله وتوفيقه على مصائب ومتاعب الحياة.

١١- خبرة الله تعالى واطلاعه وعلمه الواسع بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع الذي تعملون من أعمال القلوب والجوارح ومن الأفعال والأقوال.

١٢- التحذير من المخالفة، والوعد لمن أطاع الله، والوعيد لمن عصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ومقتضى خبرته محاسبة الخلق ومجازاتهم على أعمالهم خيرا وشرها.

١٣- إثبات الاختيار للإنسان وأنه يعمل ويفعل بمحض إرادته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَصَعَّدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ﴾ وقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ وقوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾. وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور لا اختيار له كالسعة في الهواء.

١٤- أن العمل يطلق على القول، كما يطلق على عمل القلب وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٥- امتنان الله - عز وجل - على المؤمنين بعد أن تابعت عليهم الغيوم بإنزاله عليهم أمانة نعاسًا؛ لطمأنة قلوبهم وأمانًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

١٦- إثبات العلو المطلق لله تعالى بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ﴾.

١٧- أن من نعمة الله تعالى على العباد النعاس والنوم الذي به راحة الأبدان والقلوب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩].

١٨- أن طائفة ممن شهد أحدًا من المسلمين لم ينتفعوا من هذا النعاس الذي أنزل الله أمانة بل بقوا على ما هم عليه من غم؛ لأنهم قد أهتمهم أنفسهم، ليس لهم هم سواها ونجاتها، لقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الآية.

١٩- ينبغي للمجاهد أن يكون همه عز الإسلام وإعلاء كلمة الله، وأن يكون شجاعًا ويبيع نفسه لله، لا أن يكون همه نفسه ونجاتها؛ لأن الله ذم من كان هذه صفته.

٢٠- ظن هؤلاء المذكورين بالله غير الحق؛ لقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ وهو دليل على أنهم قد أهتمهم أنفسهم، وسببه أيضًا أنهم قد أهتمهم أنفسهم.

٢١- أن من ظن بالله غير الحق فهو جاهل بالله - عز وجل - وما يجب له، ولم يقدر الله - عز وجل - حق قدره، ظان بالله ظن الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ﴾.

٢٢- وجوب حسن الظن بالله تعالى في جميع الأحوال فإن كثيرًا من الخلق قل أن يسلم من سوء الظن بالله تعالى والاعتراض على حكمته وقدره وخاصة عند وقوع المصائب والنوائب، فعلى المسلم أن يفتش نفسه. قال الشاعر:

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيًا^(١)
وقال ابن القيم^(٢):

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

(١) البيت للأسود بن سريع، وقيل: للفرزدق، وقيل: لذي الرمة. انظر: «البيان والتبيين» (١/٣٦٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/٢١١-٢١٢)، «بدائع التفسير» (١/٥٢٤).

ولا تظنن بنفسك قط خيراً
وقل يا نفس مأوى كل سوء
وظن بنفسك السوأى تجدها
وما بك من تقى فيها وخير
وليس بها ولا منها ولكن
فكيف بظالم جان جهول
أبرجى الخير من ميت بخيل
كذلك وخيرها كالمستحيل
فتلك مواهب الرب الجليل
من الرحمن فاشكر للدليل

٢٣- اعتراض المذكورين على الرسول ﷺ في خروجه إلى أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء.

٢٤- أن الأمر كله لله؛ الأمر الكوني والأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، وفي هذا إبطال لقول القدرية النفاة الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاءه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

٢٥- وجوب امتثال أمر الله تعالى الشرعي، والرضا بالتسليم لأمره الكوني القدري.

٢٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الآية.

٢٧- ذم هؤلاء المذكورين بكونهم يخفون في أنفسهم ما لا يظهره للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

٢٨- أن ما يخفيه هؤلاء في أنفسهم ولا يبذونه للرسول ﷺ هو اعتراضهم على خروجه، وعلى قدر الله تعالى في ذلك، وفي قتل من قُتل منهم، وهذا أشد في ذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾.

٢٩- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ وإذا كان ﷺ لا يعلم الغيب في حياته وبعد وفاته من باب أولى. وقد قال الله تعالى له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٣٠- أن ما قدره الله تعالى وقضاه كائن لا محالة، ولا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

٣١- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

٣٢- عناية الله تعالى برسوله ﷺ ببيان وإظهار ما يخفيه هؤلاء وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات أنه مبلغ عن الله تعالى.

٣٣- الإشارة إلى أن الشهداء يدفنون في أماكن استشهداهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ: أمر بقتلى أحد أن يردوا إلى مصارعهم، وكانوا قد نقلوا إلى المدينة»^(١).

٣٤- أن ما أجراه الله تعالى على المؤمنين من خروج إلى أحد وما حصل لهم بسبب عصيانهم لأجل أن يمتحن الله ما في صدورهم وقلوبهم من إيمان ونفاق ويمحص ما في قلوبهم من إرادة الدنيا والاعتراض على قدر الله ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

٣٥- أن مدار الأعمال صحة وفساداً، وقبولاً وعدمه على ما في الصدور والقلوب.

٣٦- أن الابتلاء بالتكاليف أو المصائب ليس المقصود منه المشقة على العبد، وإنما المقصود منه تصفية ما في صدره وتمحيص ما في قلبه، مما ينافي الإخلاص من الشوائب.

٣٧- علم الله الواسع التام بما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفي هذا وعد ووعد؛ وعد لمن أخلص لله تعالى وأضمر الخير وأحسن الظن، ووعد لمن كان على ضد ذلك؛ لأن مقتضى علمه - عز وجل - بذات الصدور أن يجاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٣٨- أن سبب تولى من تولى من المؤمنين يوم أحد استئزال الشيطان لهم بسبب بعض ما اكتسبوا من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

(١) أخرجه النسائي في الجناز - أين يدفن الشهيد (٢٠٠٤)، وابن ماجه في الجناز - ما جاء في الصلاة على الشهداء ودفنهم (١٥١٦).

- ٣٩- أن تسلط الشيطان على بني آدم بسبب الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.
- ٤٠- أن سبب الوقوع في المعاصي هو استزلال الشيطان وتزيينه لها.
- ٤١- أن المعاصي يجر بعضها بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].
- ٤٢- تحريم الفرار إذا التقى الجمعان، والتحذير منه؛ لأن الله ذمّه، وجعله من استزلال الشيطان.
- ٤٣- أن للشيطان تسلطاً على بني آدم في إيقاعهم في الزلل، وتزيين المعاصي لهم، مما يوجب الاستعاذة بالله منه، والحذر من اتباع خطواته.
- ٤٤- عفو الله- عز وجل- عما حصل من بعض المؤمنين من التولي لما التقى الجمعان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وأكد عز وجل هذا لهم لطمأنة قلوبهم. قال ابن القيم^(١): «لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضاً عفا الله عنه».
- ٤٥- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة.
- ٤٦- إثبات صفة الحلم الواسعة لله- عز وجل- وأنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، لعله يتوب؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.
- ٤٧- عظم فضل الله- عز وجل- ومغفرته وحلمه بعفوه عن عباده المؤمنين؛ ولهذا عفا سبحانه عن الذين تولوا وفروا يوم التقى الجمعان مع عظم ما ارتكبوه.
- ٤٨- أن الصحابة- رضي الله عنهم- ليسوا بمعصومين من الوقوع في الخطأ والذنوب والمعاصي، ولكنهم أقرب إلى التوبة والإنابة، وإلى عفو الله تعالى من غيرهم.

* * *

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٢٦).

قال الله تعالى: ﴿يَتَّخِئُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قال تعالى: ﴿يَتَّخِئُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

ذكر الله - عز وجل - اعتراض المنافقين على قضاء الله تعالى وقدره بقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾، ثم نهى الله - عز وجل - المؤمنين عن التشبه بالكفار فيما هم عليه من الكفر واعتراضهم على قضائه تعالى وقدره.

قوله تعالى: ﴿يَتَّخِئُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾. ﴿لَا﴾: ناهية، والكاف في قوله: ﴿كَالَّذِينَ﴾ للتشبيه بمعنى «مثل» أي: لا تكونوا مثل الذين كفروا من المنافقين وغيرهم في اعتراضهم على قضاء الله وما هم عليه من المعتقدات والأفعال والأقوال الباطلة.

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ليست للتعدي، أي: ليست للتبليغ كالتي في قولك: قلت لزيد افعل كذا، أي: ليست لتعدي وتبليغ القول إلى إخوانهم؛ لأن إخوانهم قد قتلوا أو ماتوا، ولكنها هنا: للتعليل، وقالوا لأجل إخوانهم، أي: وقالوا عن إخوانهم، أو بمعنى: «في»، أي: وقالوا في إخوانهم، أي: في شأن إخوانهم أي: إخوانهم من النسب والقرباة ممن قُتل من المؤمنين، أو إخوانهم في الكفر ممن قُتل من الكفار، أو إخوانهم في النسب والدين.

﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعض أهل العلم: ﴿إِذَا﴾ هنا: ظرف للماضي بدليل قوله: «قالوا»، و﴿ضَرَبُوا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾

وقال بعضهم: ﴿إِذَا﴾ هنا لمجرد الظرفية والزمان، وهي مسلوبة الاستقبال. والضرب في الأرض، هو السير والسفر فيها؛ لتجارة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ يَصْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وسمي السير والسفر ضرباً في الأرض أخذاً من ضرب الأقدام على الأرض أثناء السفر.

﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾، ﴿أَوْ﴾: عاطفة، و﴿غُزًى﴾: على وزن «فُعَل» جمع: «غاز»، يقال في جمعه: «غُزًى» و«غزاة»، وهم المجاهدون في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّبُوا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]. والمعنى: إذا ساروا في الأرض وسافروا فيها؛ لتجارة ونحو ذلك فماتوا، أو كانوا غزاة في سبيل الله فقتلوا.

وقدّم الضرب في الأرض على الغزو؛ لأن الضرب في الأرض أكثر، كما أنه يشرع لأهداف كثيرة كالتجارة وطلب العلم ونحو ذلك.

﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتَلُوا﴾ هذه جملة مقول القول السابق.

«لو»: شرطية، وهي: حرف امتناع لامتناع، ﴿كَانُوا﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة

﴿مَا مَاتُوا﴾ أي: لو كان عندنا مقيمين في البلد ما ماتوا وما قتلوا.

﴿وَمَا قَتَلُوا﴾: معطوف على قوله: ﴿مَا مَاتُوا﴾ أي: ولو كانوا عندنا في البلد ولم

يغزوا ما قتلوا، وهذا من باب اللف والنشر المرتب.

فقوله: ﴿مَا مَاتُوا﴾ يقابل ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوا﴾ يقابل ﴿أَوْ

كَانُوا غُزًى﴾ أي: لو كانوا عندنا لم يسافروا ما ماتوا، أي: ولو كانوا عندنا لم يغزوا ما

قتلوا، كقولهم في الآية الثانية: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وهذا كذب منهم واعتراض على قدر الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ

لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام: لام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَتْهُ سَالِةً فَسَرْوَاتٍ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: لتكون عاقبة قولهم هذا أن يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، أي: أن يترتب على قولهم واعتقادهم هذا أن يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، ولم يفدهم ذلك شيئاً.

و«جعل» هنا بمعنى «صبر» تنصب مفعولين؛ الأول ﴿ذَلِكَ﴾ والثاني ﴿حَسْرَةً﴾. ومعنى ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: حزناً شديداً وأسى وندماً في قلوبهم، فلا يكادون ينسون مصيبتهم؛ لأنهم يرون أن مصابهم بسبب خروجهم، لا بقضاء الله وقدره، وإنهم لو لم يخرجوا ما أصابهم هذا المصاب، فلا يزالون متلهفين على ما أصابهم وعلى ما فاتهم.

﴿وَاللَّهُ يُمَيِّتُ وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده - عز وجل - الحياة والموت، وهو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا أحد يحيا أو يموت إلا بمشيئة الله تعالى وقدره، ولا مدخل للضرب في الأرض أو الغزو في ذلك، فمن قدر الله موته بأي أرض سيموت فيها، في بلده أو خارجها، ومن قدر الله موته بأي سبب سيموت به، ومن قدر الله قتله بأي أرض سيقتل فيها، في بلده أو خارجها، ومن قدر الله قتله بأي سبب من الغزو أو غيره سيقتل به، ولا يزداد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضاء الله وقدره، كما قال: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنَ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

ولا يُقَرَّبُ سبب مهما عظم موت أو قتل من لم تحن وفاته. ولا تنجي أسباب السلامة مهما كانت ولا حذر من قدر، وكما قال خالد بن الوليد - رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»^(١).

﴿وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخلف بياء الغيبة: «يعملون» ويعود الضمير إلى الذين كفروا، أي: والله بما يعمل هؤلاء الكفار بصير. أي: والله بجميع الذي يعمل هؤلاء أو بجميع عملهم بصير.

(١) سبق تخريجه.

وقرأ الباقر بقاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، والخطاب للذين آمنوا، أي: والله بجميع الذي تعملون أو بجميع عملكم أيها المؤمنون بصير. وقد يكون خطاباً لهم وللذين كفروا، أي: والله بما تعملون أيها المؤمنون أنتم والذين كفروا ﴿بَصِيرٌ﴾.

ومعنى ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع عليه عالم به، فلا يخفى عليه منه شيء، ولا من جميع أعمال العباد، فهو - عز وجل - ذو بصر يبصر ويرى أعمال العباد وغيرها كما قال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١). وهو - سبحانه وتعالى - ذو بصر وإحاطة وعلم بأعمال العباد، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١٥٧) ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١٥٨).

نهى الله - عز وجل - المؤمنين عن التشبه بالكفار الذين يرون القتل في سبيل الله أو الموت فيه منقصة ومغرماً، ثم أتبع ذلك ببيان أن ذلك مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون؛ لأنه سبب موصل إلى مغفرة الله تعالى ورحمته وذلك خير مما يجمعون، وأن كل من ماتوا أو قتلوا فإنها مرجعهم إلى الله تعالى وحشرهم إليه فيجازي كلاً بعمله. وقدم في الآية الأولى القتل في سبيل الله على الموت؛ لأن القتل في سبيل الله أفضل ونصيب صاحبه من المغفرة والرحمة أوفر - غالباً - بينما قدم في الآية الثانية الموت على القتل؛ لأن الموت أكثر من القتل، ولأن الميت والمقتول كلاهما في الحشر إلى الله تعالى سواء - مع ما في ذلك من التفنن ورد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده.

قوله: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: مؤذنة بأن قبلها قسماً، والخطاب للمؤمنين، أي: والله لئن قتلتم في سبيل الله، أي: في الجهاد لإعلاء كلمة الله. وقد يحمل ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على ما هو أعم، فيشمل من قتل في الجهاد لإعلاء

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

كلمة الله أو في الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق ونحو ذلك.

﴿أَوْ مُتَّمًّا﴾ ﴿أَوْ﴾: عاطفة، ﴿مُتَّمًّا﴾ قرأ نافع وحزمة والكسائي وخلف بكسر الميم: «متم» في هذا الموضع والذي بعده، من مات الرجل ييات، وقرأ الباقون بضم الميم في الموضعين: ﴿مُتَّمًّا﴾ من مات الرجل يموت. أي: أو متم من غير قتل في سبيل الله. ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم في قوله: ﴿وَلَّيْنِ﴾ أي: لمغفرة من الله تعالى لذنوبكم، والمغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ورحمة من الله تعالى لكم.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قرأ حفص عن عاصم بياء الغيبة: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ على الالتفات أي: خير مما يجمع الكفار أو الخلق كلهم، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «تجمعون» والخطاب للمؤمنين.

و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾: موصولة، تفيد العموم. أي: خير مما يجمع الكفار والخلق كلهم من الدنيا كلها، وخير مما تجمعون أيها المؤمنون من الغنائم ومن الدنيا كلها. فمن قتل في سبيل الله نال منازل الشهداء، ومن مات في غير الجهاد في سبيل الله مات على الإيمان ونال ثواب المؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَّيْنِ مُتَّمًّا أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَّيْنِ مُتَّمًّا أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ اللام كالتي قبلها موطئة للقسم، أي: والله لئن متم أو قتلتم. أي: لئن متم من غير قتل في سبيل الله، أو قتلتم في سبيل الله.

﴿لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، ﴿وَلَّيْنِ﴾، ﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بأن مردهم ومرجعهم إلى الله تعالى من مات منهم من غير قتل، ومن قتل منهم في سبيل الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿البقرة: ٢٢٣﴾، وفي الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (١).

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا﴾.
- ٢- تشریف المؤمنین وتكریمهم بندايمهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وفي هذا إغراء بالاتصاف بهذا الوصف، وأن الانتهاء عما نهى الله عنه وعدم التشبه بالكفار من مقتضيات الإيمان، وأن التشبه بهم منافٍ للإيمان.
- ٣- النهي عن التشبه بالكفار وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والنهي يقتضي التحريم، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، وقد قال ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» (٢).
- وفي نهيه - عز وجل - عن التشبه بالكفار مع ذكر قولهم في الاعتراض على قضاء الله بقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾، وقولهم لإخوانهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ما يدل على أن هذا من كفرهم.
- وسواء كان التشبه بهم عن قصد أو عن غير قصد، لكن إذا كان ذلك عن قصد كأن يكون ذلك تعظيماً لهم، أو إعجاباً بهم ونحو ذلك، فهذا أشد خطراً وأكد وعيداً. كما أن التشبه بهم في الأمور الدينية أشد خطراً من التشبه بهم في الأمور العادية؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية والعبادات فيه تعظيم لدينهم وما هم عليه من المعتقدات والعبادات الباطلة أو المنسوخة بدين الإسلام.
- ٤- ذم الكفار وما هم عليه من الكفر اعتقاداً وفعلاً وقولاً؛ لنهي الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم.
- ٥- أن الكفار إخوة فيما بينهم بالكفر، كما أن الناس كلهم إخوة في النسب مؤمنهم وكافرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِخْوَانِهِمْ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، والنسائي في الجنائز

(١٨٣٦)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٦)، من حديث عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس - لبس الشهرة (٤٠٣١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

٦- جواز الضرب في الأرض والسفر فيها، فإن كان لأمر مشروع، كطلب علم أو تجارة أو نحو ذلك فهو مشروع، ولهذا- والله أعلم- قدم الضرب في الأرض على الغزو- إضافة إلى أن الضرب في الأرض هو الغالب. وإن كان الضرب في الأرض والسفر فيها لأمر جائز، فهو جائز ما لم يترتب على ذلك محظور، كالسفر لأغراض محرمة، أو لبلاد الكفر، ونحو ذلك.

٧- مشروعية الغزو والجهاد في سبيل الله.

٨- اعتراض الكفار على قضاء الله وقدره، وعلى الرسول ﷺ في خروجه إلى أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا﴾.

٩- أن الاعتراض على قضاء الله وقدره، وعلى أمر الرسول ﷺ من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

١٠- أن الندم على ما مضى والحزن على ما فات لا يجدي شيئاً، وهو أمر مذموم؛ لما فيه من اعتراض على قدر الله، وكونه من عمل الكفار، وفي الحديث: «فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

١١- أن عاقبة الاعتراض على قضاء الله وقدره حسرة في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: حسرة تلازم قلوبهم وحزناً وأسى.

وهذا بخلاف الإيذان بقضاء الله وقدره، فإن به تخفيف المصاب، وانسراح الصدر، وثبات القلب، وهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»^(٢).

١٢- أن قدر الله نافذ وحكمه- عز وجل- الكوني تام ولا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بعد أن ذكر قول الكفار عن إخوانهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٢/٢٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (١٢/٢٣).

مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا ﴿١٣﴾.

١٣- أن الله - عز وجل - هو الذي يحيي ويميت، أي: بيده الإحياء والإماتة؛ لقوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

١٤- اطلاع الله - عز وجل - على أعمال العباد ورؤيته لها وعلمه بها؛ لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن أحسن العمل ووعيد لمن أساء؛

لأن مقتضى بصره - عز وجل - وعلمه بأعمال العباد أن يحاسبهم ويجازيهم على

خيرها وشرها.

١٥- أن من قتل في سبيل الله، أو مات من المؤمنين فله مغفرة من الله ورحمة خير من

الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ

وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فالأول فاز بنيل الشهادة في سبيل الله، والثاني فاز

بالموت على الإيثار، وكلاً وعد الله الحسنَى.

١٦- عظم مغفرة الله تعالى ورحمته، وعظم ما أعده من المغفرة والرحمة لمن قتل في

سبيله، أو مات من المؤمنين.

١٧- إقسام الله - عز وجل - على وعده بالمغفرة والرحمة لمن قتلوا في سبيله أو ماتوا من

المؤمنين - وهو أصدق القائلين - تأكيداً لذلك الوعد، وتعظيماً للموعود به.

١٨- تسلية من قتل في سبيل الله، ومن مات من المؤمنين، وبشارتهم بذكر ما أعد الله

لهم من عظيم مغفرته ورحمته، مما هو خير من الدنيا وما فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

١٩- كمال سعادة المؤمنين عند الله تعالى، فبمغفرته لهم زوال المرهوب، وبرحمته لهم

حصول المطلوب.

٢٠- أن التخلية قبل التحلية.

٢١- أن المفاضلة قد تكون بين شيئين بينهما بعد تام؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ

خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئاً بالنسبة لمغفرة الله ورحمته.

بل قد ترد المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما في قوله تعالى:

- ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] أي: خير مستقرًا وأحسن مقيلًا من مستقر أهل النار ومقيلهم؛ لأن النار شر محض لا خير فيها.
- ٢٢- زيادة التسلية والبشارة لمن مات من المؤمنين أو قُتل في سبيل الله ببيان أن مرجعهم إليه وجمعهم لديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ مَتَّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.
- ٢٣- أن مرجع الخلائق كلهم من مات منهم أو قتل إلى الله تعالى وحشرهم إليه، لا مفر إلا إليه، فيجازي كلًا بما عمل.
- ٢٤- إثبات البعث والمعاد وحشر العباد وجمعهم عند الله تعالى، وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم

* * *

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهَنَ بِهِمْ وَيَسْرِ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

قوله: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ﴾ الفاء للتفريع، أو استثنائية، والباء حرف جر تفيد السببية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿رَحْمَةٍ﴾: مجرورة بالباء، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لَئِن لَّهُمْ﴾، ونكرت «رحمة» للتعظيم.

أي: فبسبب رحمة من الله لك ولأصحابك لنت لهم، أو أي شيء جعلك لينا لهم لولا رحمة الله بك وبهم. وفي هذا امتنان من الله - عز وجل - عليه ﷺ وعلى أمته.

﴿لَئِن لَّهُمْ﴾ أي: كنت لينا لأصحابك وأمتك، رفيقا بهم: ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، فأحبوك، واجتمعوا عليك.

فقد كان ﷺ لينا حسن الخلق والتعامل مع أصحابه، كما كان ﷺ رؤوفاً رحيماً بأمته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا

تَنفِرًا»^(١)، وقال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»^(٢)، وقال ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»^(٤).

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿لَئِنْتَ لَهُمُ﴾، وفيها بيان وإيضاح لمعنى ﴿لَئِنْتَ لَهُمُ﴾ أي: لنت لهم، ولم تكن فظًّا غليظ القلب، أي: ولم تكن شديدًا- وبضدها تمييز الأشياء.

و«لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، ﴿كُنْتَ﴾: فعل الشرط، ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: جواب الشرط، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿فَظًّا﴾: خبر كان، و«الفظ»: السبيء الخلق، الجافي الطبع، غليظ القول والفعل. قال الشاعر:

أخشى فظاظه عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم^(٥)
وقال الآخر:

يُيكى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل^(٦)

﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ غلظ القلب: قساوته، وغلظ القلب: قاسي القلب الذي لا يلين وليس في قلبه رأفة ولا رحمة- وهذا هو سبب الفظاظه.

وفي حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «وإن أبعد

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، من حديث أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٨٠)، والنسائي في الطهارة (٥٦)، والترمذي في الطهارة (١٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥).

(٥) البيت لإسحاق بن خلف، انظر: «شرح حماسة أبي تمام» (١٨٣/٢).

(٦) البيت لمهلل بن ربيعة، وقيل: للمخبل. انظر: «شرح ديوان الحماسة للمرزوقي» (ص ٤٢٠).

الناس من الله القلب القاسي»^(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(٢).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تُقَبَّلُونَ الصبيان فما تُقَبَّلُهم، فقال النبي ﷺ: «أَوْأَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»^(٣).

﴿لَا تَفْضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لتفرق أصحابك من حولك وانصرفوا وتركوك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْهَوْا أَنْفُسَهُمْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

وفي قوله: ﴿مِنْ حَوْلِكُمْ﴾ دلالة على شدة ابتعادهم عنه، أي: لتفرق من حولك، وابتعدوا عنك كل البعد.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن مما جاء في صفته ﷺ في التوراة: «ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح»^(٤).

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، للتفريع على قوله: ﴿لَئِن تَ لَهُمْ﴾ أي: فتجاوز عن أصحابك، وسامحهم ولا تؤاخذهم فيما يقع منهم من تقصير في حقك، من ترك واجب لك أو ارتكاب منهي في حقك.

وما أكثر ما حصل له ﷺ من الأذى وخاصة من بعض المنافقين.

عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قسم النبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: «والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله». قلت: أمّا أنا

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١١)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٨)، وأبوداود في الأدب (٥٢١٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩١١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٥).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير - تفسير سورة الفتح (٤٨٣٨)، وأحمد (١٧٤/٢).

لأقولن للنبي ﷺ، فأتيته وهو في أصحابه، فساررتة؛ فشق ذلك على النبي ﷺ، وتغير وجهه وغضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته. ثم قال: «قد أؤدي موسى بأكثر من ذلك فصبر»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «بينما النبي ﷺ يُقسِمُ جاء عبد الله بن ذي الحُوَيْصِرَةَ التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل»، قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه. قال: «دعه فإن له أصحابًا يُحَقِّرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(٢).

ولما خاصم الأنصاري الزبير - رضي الله عنه - في شِراجِ الحَرَّةِ التي يسقون بها النخل، وقال النبي ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمك. فتلون وجه رسول الله ﷺ^(٣).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذته جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته. ثم قال: مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء^(٤).

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: واطلب لهم المغفرة من الله فيما يقع منهم من تقصير في حق الله تعالى، سواء كان بسبب تقصيرهم في حقك أو في غير ذلك من حقوق الله تعالى؛ لأن ما يجب للرسول ﷺ، بل وما يجب لغيره من الخلق كل ذلك من حق الله تعالى؛ لأن الله هو الذي أوجب ذلك كله.

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٣٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٧)، وأبوداود في الأفضية (٣٦٣٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٧)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٣)، من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٧).

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ المشورة: استطلاع رأي المستشار، أي: شاور أصحابك واستطلع آراءهم واطلب منهم المشورة.

﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في الشأن، و﴿الْأَمْرُ﴾ واحد الأمور، أي: شاورهم في الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر وتجربة ونحو ذلك.

ولهذا كان ﷺ يستشير أصحابه في كثير من الأمور تشجيعاً لهم وتطبيعاً لخواطريهم واستئناساً برأيهم، فعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان..» (١).

واستشارهم في أسرى بدر فأشار عليه أبو بكر - رضي الله عنه - باستبقائهم وفدائهم، وأشار عليه عمر - رضي الله عنه - بقتلهم، وكان ﷺ يميل إلى رأي أبي بكر - رضي الله عنه - فاستبقاهم، فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُوتَ عَرَضِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ تَوَلَّا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٧-١٩] (٢).

كما استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أحد، فأشار أكثرهم بالخروج فخرج (٣). كما استشارهم يوم الأحزاب فأشار عليه سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بحفر الخندق حول المدينة (٤).

كما استشارهم في قصة الإفك فقال ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس في رجل بلغني أذاه في أهلي» (٥).

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير - الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣) - وسيأتي ذكره وتخرجه بتامه في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى.

(٣) سبق تخرجه في ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١].

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٨٤/٦).

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، وأبو داود في النكاح (٢١٣٨)، والترمذي

قال البخاري - رحمه الله^(١): «وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمراء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره». وقال: «وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباناً، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل».

وقد تشاور الصحابة - رضي الله عنهم - في أمر الخليفة بعد رسول الله ﷺ، واستشار أبو بكر - رضي الله عنه - الصحابة في قتال أهل الردة، وجعل عمر - رضي الله عنه - الأمر شورى بعده في ستة عيّنهم رضي الله عنه وعنهم.

والاستشارة كما تكون في أمور الأمة الهامة والعامّة تكون في الأمور الخاصة بين الناس بين أفراد المجتمع بين الأقارب والأزواج والإخوان والأصدقاء وسائر أفراد المجتمع، كما قال تعالى في الزوجين: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقد امتدح الله - عز وجل - هذه الأمة بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقد قيل: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»^(٢). وقال الشاعر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى
وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
برأي نصيح أو نصيحة حازم
فإن الخوافي قوة للقوادم^(٤)

في التفسير (٣١٨٠)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (١٩٤ / ٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) انظر: «صحيح البخاري مع فتح الباري» كتاب الاعتصام - باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

[الشورى: ٣٩]، ﴿وَتَشَاوُرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] [٣٣٩ / ١٣].

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص ٣٠٠).

(٣) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» (١ / ٢٤٦).

(٤) البيت لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (٤ / ١٧٣).

وقال الآخر:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد أشيرا عليّ بالذي تريان^(١)
والشورى في الأصل مما جبل عليه الإنسان في فطرته السليمة في طلب الصلاح
والنجاح في المساعي إذا سلم من آفة الأنانية والاستبداد أو الاستكبار، ولم تنزل
الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر، فقد قال تعالى عن بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا
الْمَلِكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، والاستشارة ليست
لكل أحد وإنما يستشار أهل الدين والعقل والعلم والحكمة والرأي والتجربة والحزم
والعزم والقوة والنصح والأمانة، ونحو ذلك، وأهل التخصص كل في مجال تخصصه.
ولا يستشار من لا يطمئن إلى نصحة للأمة كأهل الكفر والفسق والنفاق وأهل البدع
والأهواء وأرباب الشهوات، ونحوهم.

وليس من شرط الشورى في الإسلام أن يؤخذ فيها رأي أكثر الناس كما يزعم
أدعياء الديمقراطية الموهومة، فإن أكثر الناس ودهماءهم أتباع كل ناعق، والحكم في
الإسلام لشرع الله تعالى وفق الكتاب والسنة، والشورى إنما تكون فيما ليس فيه حكم
شرعي مما يستجد من القضايا والنوازل، فسيطلع رأي أهل الشورى فيها بما يتفق مع
ما جاء في الكتاب والسنة ولا يتعارض معها.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الفاء للتفريع، و«إذا» ظرفية مضمنة معنى الشرط. أي:
فإذا صممت على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة سواء
كان مما استظهرته من أهل الشورى، أو مما تبين لك سداه من بين آراء أهل الشورى،
كما يقال في المثل: «ما بين الرأيين رأي».

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط. أي: فاعتمد على الله تعالى، وعلى
حوله وقوته وحده، لا على مشورتك وحدك.

وفي هذا أمر له ﷺ بفعل السبب باستشارة أصحابهم واستطلاع رأيهم، وبالاعتماد
على الله - عز وجل - وحده، والمضي قدمًا فيما عزم عليه من أمر بعد التوكل على الله -

(١) البيت لابن الدمينة. انظر: «حماسة الخالدين» (ص ٧٠).

وعدم التردد.

و«التوكل على الله» صدق الاعتماد على الله تعالى في جلب النفع ودفع الضر مع تمام الثقة به - سبحانه وتعالى، وحسن الظن به، وفعل الأسباب.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، وترغيب بالتوكل على الله، أي: فتوكل على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين عليه، أي: يحب المعتمدين عليه وحده المفوضين أمورهم إليه، ومن أحبه الله تعالى أكرمه. نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠).

قوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾: شرطية، ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾: فعل الشرط، وقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: جواب الشرط، وقرن بالنفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: إن يقدر الله نصركم - كما حصل في بدر.

﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، «لا»: نافية للجنس نص في العموم، ﴿غَالِبٌ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: إن ينصركم الله فلا أحد يغلبكم أيًا كان، ومهما كان عليه من القوة عدة وعدداً.

وهذا مما يوجب التعلق بالله تعالى وحده، وطاعته والحذر من معصيته وسبب خذلانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا اتَّصِرُوا إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ «الخذلان»: عدم النصر، بدليل مقابلته لقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ وقوله بعده: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: وإن يقدر الله خذلانكم، ويتخل عن نصركم ويكلكم إلى أنفسكم بسبب معصيتكم له ومخالفة أمر رسول الله ﷺ كما حصل في أحد. ومن وكل إلى نفسه هلك؛ ولهذا جاء في الدعاء: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفه عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت» (١).

﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٠)، من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنه.

وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

و«من» في قوله: ﴿فَمَنْ ذَا﴾ اسم استفهام بمعنى النفي مشرب بالتحدي، أي: فلا أحد ينصركم من بعده، كأنه يقول: وإن يقدر الله خذلانكم فتتحداكم أن ينصركم أحد من بعده، ولو اجتمع لكم من بأقطارها، و﴿ذَا﴾: اسم إشارة، أي: فمن هذا الذي ينصركم من بعده؟!

وفي الآية مقابلة بين قوله: ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ و﴿يَخْذُلُكُمْ﴾، وبين قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ الواو: عاطفة، وقدم الجار والمجرور «على الله». على متعلقه «يتوكل»؛ لإفادة الحصر، أي: وعلى الله وحده لا على غيره فليعتمد المؤمنون.

والفاء في قوله: ﴿فليتوكل﴾ رابطة لشرط مقدر، واللام للأمر، أي: وعلى الله وحده، لا على غيره، فليعتمد المؤمنون حقاً. وخص المؤمنين لأن إيمانهم يوجب عليهم التوكل على الله وحده، ولا إيمان لأحد بدون التوكل على الله تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يُغْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١).

رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾ أي: يخون» (١).

(١) أخرجه أبو داود في الحروف (٣٩٧١)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٩)، والطبري في «جامع البيان» (١٩٤/٦، ١٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠٣/٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٦٠١)، (٥٦٠٢) - وقال الترمذي: «حسن غريب». والحديث من رواية خصيف بن عبد الرحمن. وقد قال عنه الإمام أحمد: «شديد الاضطراب». «تهذيب التهذيب» (١٢٤/٣). وقال ابن حجر في «التقريب»: «سعى الحفظ خلط بأخرة» وقد اضطرب فيه خصيف فجعله تارة من حديث عكرمة عن ابن عباس، وتارة من حديث مقسم عن ابن عباس، وتارة من حديث عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس. ولهذا أورده ابن عدي في «الكامل في الضعفاء والمتروكين» (٧٢/٣) في ترجمة خصيف بن عبد الرحمن.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يُغْلَ﴾ بفتح الياء وضم الغين على البناء للفاعل، وقرأ الباقون: «يُغْل» بضم الياء وفتح الغين بالبناء للمفعول. و«نبي»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وما كان لنبي من الأنبياء أن يغل. والغلول: أخذ شيء من الغنيمة خفية قبل قسمتها، ويطلق على الخيانة في كل ما يتولاه الإنسان من الأموال لغيره.

والمعنى على قراءة (يُغْل) بالبناء للفاعل، أي: وما كان لنبي من الأنبياء أن يقع منه الغلول لا شرعاً وقدرًا؛ لا غلول المال بأخذه من الغنيمة خفية أو من غيرها، ولا غلول العلم بكتمان بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته، بل هم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ، وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقد أخذ الله عليهم الميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. والمعنى على قراءة (يُغْل) بالبناء للمفعول، أي: ما كان لنبي أن يُغْلَ غيره شرعاً بأن يكسب النبي ﷺ ومن معه غنيمة ثم يقوم أحد بإخفاء شيء منها وأخذه. هذا أمر محرم لا يجوز شرعاً؛ لأن الغنيمة لجميع المسلمين، لكن هذا قد يقع قدرًا، وقد وقع هذا في عهد النبي ﷺ. ففي الحديث أنه ﷺ «رأى رجلاً يتقلب في النار في بردة غلها» (١).

وقيل: النفي بمعنى النهي، أي: لا يُغْلَ أحد. وقيل: معنى (يُغْل) يتهم بالغلول. ﴿وَمَنْ يَغْلُ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم. ﴿يَغْلُ﴾: فعل الشرط، أي: ومن يغلل بإخفاء المال وأخذه من نبي أو غيره - على سبيل افتراض وقوع الغلول من أي نبي؛ لأن الله نفى أن يقع ذلك من الأنبياء شرعاً وقدرًا. ﴿يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف الياء، والكسرة قبلها دليل عليها.

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾: موصولة، تفيد العموم، أي: يأت بجميع الذي غل وأخفى

(١) سيأتي ذكره وتخرجه بتمامه، قريباً.

وأخذ من المال يوم القيامة على رؤوس الأشهاد حاملاً له على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً أو غير ذلك؛ فضيحة له وعذاباً معنوياً له يوم القيامة.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، أي: ثم بعد أن تأتي كل نفس بما غلّت يوم القيامة فضيحة لها، ﴿تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو مصدرية، أي: تعطى كل نفس من أهل الغلول أو غيرهم الذي كسبت، أو كسبها وافيًا، أي: تعطى جزاء عملها وافيًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. وجعل الكسب مكان الجزاء؛ لبيان أن الجزاء من جنس العمل والكسب، وبحسبه.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: حال، أي: حال كونهم لا يظلمون، أي: لا ينقصون من أجورهم وحسناتهم شيئًا، ولا يزدون في سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وذلك لكمال عدل الله عز وجل؛ لأن الصفات المنفية تدل على كمال ضدها، فنفي الظلم عنه - عز وجل - يدل على كمال عدله، كما أن نفي الموت عنه في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، يدل على كمال حياته. وهكذا.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمَصِيرُ﴾ (١١٢).

قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناها: الإنكار والنفي. والفاء: عاطفة، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، والفاء العاطفة محلها في الأصل قبل الهمزة، والتقدير: «فأمن اتبع». وقيل: الهمزة داخلية على جملة مقدره تناسب المقام.

و«من»: اسم موصول، أي: أفيستوي ويكون الذي اتبع وطلب رضوان الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، من ترك الغلول وغيره في جزائه في الحياة وبعد الممات، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه.

﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الكاف: للتشبيه، بمعنى «مثل»، و﴿بَاءَ﴾ بمعنى: رجع ﴿بَسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، وسخط الله: غضبه وعدم رضاه،

أي: كالذي رجع متلبسًا بغضب من الله بتركه ما أمر الله به، وارتكابه ما نهى الله عنه من الغلول وغيره، واستحق عقاب الله، وعظيم عذابه.

وبين قوله: ﴿ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ مقابلة.
﴿ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ الواو: عاطفة، أي: ومرجعه الذي يأوي إليه ويستقر فيه، ﴿ جَهَنَّمُ ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لشدة ظلمتها وجهمتها وحرها وبُعد قعرها.
﴿ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾، «يس»: فعل جامد؛ لإنشاء الذم، و﴿ الْمَصِيرُ ﴾ فاعله، وهو المرجع، والمآل والمآب.

والمخصوص بالذم محذوف، أي: ويس المصير ﴿ جَهَنَّمُ ﴾، أو ويس المصير «مصيره». فنفي عز وجل أن يكون من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، أي: لا يستوي هذا وهذا، أي: لا يستويان في حكم الله وجزائه، لا في الدنيا ولا في الآخرة وشتان بينهما، فالأول: مؤمن، والثاني: كافر، وشتان بين عمل كل منهما، فالمؤمن: اتبع في عمله رضوان الله، والكافر: اتبع في عمله ما يسخط الله، وشتان بين جزاء كل منهما فالمؤمن: مأواه جنات النعيم، والكافر: مأواه جهنم ويس المصير.

قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١١٣).

نفى عز وجل أن يكون من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم درجات عند الله.

والضمير في قوله: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ يعود إلى الفريقين من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله. وجاء بضمير الجمع ﴿ هُمْ ﴾ مراعاة لمعنى «من» في قوله: ﴿ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ ﴾، وقوله: ﴿ كَمَنْ بَاءَ ﴾؛ لأن معناها الجمع.

﴿ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي: منازل مختلفة متفاوتة عند الله تعالى بحسب تفاوتهم في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأأنعام: ١٣٢].

فالذين اتبعوا رضوان الله في أعالي الدرجات وكل من كان منهم لرضوان الله أتبع كانت درجته أرفع.

والذين باؤوا بسخط في أسافل الدرجات، وكل من كانت مباءته بسخط الله أعظم كانت دركته أسفل.

فهم درجات عند الله، فالذين آمنوا فوق الذين كفروا، وأهل الإيمان درجات في إيمانهم، ودرجات في نعيمهم وثوابهم، وأهل الكفر درجات في كفرهم، ودرجات في عذابهم وعقابهم.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مطلع على الذين يعملون وعلى عملهم مشاهد له عالم به، لا يخفى عليه منه شيء، ظاهراً كان أو باطناً، حقاً كان أو باطلاً. وفي هذا وعد لمن عمل صالحاً، ووعد لمن عمل خلاف ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- رحمه الله - عز وجل - بالنبي ﷺ وبأمة بأن جعله ليناً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمْتَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ﴾ وفي هذا امتنان من الله تعالى عليه ﷺ وعلى أمته.

٢- أن اللين صفة محمودة امتدح الله بها نبيه ﷺ وجعلها بسبب رحمته - عز وجل - له ولأمة، لهذا ينبغي لولاة أمور المسلمين وأصحاب المسؤوليات في الأمة كبيرها وصغيرها الاتصاف بها، وقد قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»^(١).

ولكن اللين الممدوح ما كان ليناً من غير ضعف - مع قوة من غير عنف، كما كانت صفته ﷺ؛ ولهذا لما أنشد النابغة الجعدي قصيدته المشهورة. والتي ختمها بقوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدر

قيل: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده هذين البيتين: «أحسنتم أو أجدت، لا يفضض الله فاك»، قيل: فعاش مئة وعشرين سنة لم تسقط له سن، أو كلها سقطت له سن نبتت^(٢).

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ومطلع هذه القصيدة:

خليلي غضا ساعة وتمهجر ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

٣- امتداح الله تعالى لنبيه ﷺ بأن كان ليناً لأمته غير فظ ولا غليظ القلب؛ لقوله تعالى:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

٤- ذم الفظاظة وغلظة القلب وقساوته، وأنها سبب لنفور الناس ممن اتصف بها، والحيلولة دون استفادة الناس من علمه ودعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ

الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

٥- ميل النفوس بطبيعتها لمن لان لها وأحسن التعامل معها، ونفورها ممن كان بضد ذلك. وكما قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان^(١)

٦- الترغيب في لين الجانب وحسن الخلق، والتحذير من الفظاظة وغلظة القلب وقساوته وسوء الخلق.

٧- ينبغي للأباء والموجهين والمربين والمعلمين والدعاة وغيرهم أن يكون لهم أسوة بالرسول ﷺ في لين جانبه، وحسن خلقه في تعاملهم، وأن يتعدوا كل البعد عن الفظاظة والغلظة والجفاء وسوء الخلق؛ لكي تثمر جهودهم، فكم من مربٍ وعالم وداعية لم يستفد الناس من علمه، ولا من جهوده بسبب فظاظته وغلظته وسوء خلقه. وإذا كان الرسول ﷺ المؤيد بالوحي لو كان فظاً غليظ القلب لانفض أصحابه من حوله. فكيف بمن دونه ﷺ.

ومن المؤسف أن تجد كثيرًا من دعاة النصرانية وغيرها من الملل من هم أئين في التعامل وأحسن خلقًا من كثير من دعاة الإسلام.

وفيها قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنما لنبغي فوق ذلك مظهرًا

قيل: لما أنشد هذا البيت قال له النبي ﷺ: «أين المظهر يا أبا ليلى؟»، قال: الجنة. قال: «أجل، إن شاء الله». انظر: «ديوان النابغة الجعدي» ص (٦٩)، وانظر: «المطالب العالية» (١٦/٣٨٣ رقم ٤٠٣٢)، «أحاديث الشعر» (ص ١٠٩)، «مجمع الزوائد» (٨/١٢٦)، «كنز العمال» (١٣/٦٠٠ حرف النون/٣٧٥ رقم ٤٢).

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/٢٥٠).

٨- فضل العفو عن الناس والترغيب فيه؛ لأن الله - عز وجل - أمر به رسوله ﷺ فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، كما امتدح به المتقين في قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وأمر به ورغب فيه، فقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وتكفل بثوابه إذا كان على سبيل الإصلاح، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

٩- أن ما كان من حق للرسول ﷺ ولو خاصاً فهو من حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى لما أمر الرسول ﷺ بالعفو عن حقه بقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أمره ﷺ بالاستغفار عن حق الله تعالى فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ولأن الله تعالى هو الذي أوجب حق الرسول ﷺ - كما أوجب حقوق غيره من الخلق، فكل ذلك من حق الله، والتقصير فيه تقصير في حق الله.

١٠- ينبغي الجمع بين العفو والإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فالاستغفار بعد العفو من قبيل الإحسان.

١١- أمر الله - عز وجل - للنبي ﷺ باستشارة أصحابه، وذلك والله أعلم - فيما ليس فيه وحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وذلك لما في مشورته لهم من تطيب خواطنهم، واستظهار آرائهم، وتعليم الأمة المشورة.

١٢- مشروعية الشورى في الإسلام؛ لأن الله - عز وجل - أمر بها رسوله ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، وقد يكون للندب حسب الحاجة إلى المشورة، وإذا كان الرسول ﷺ مأموراً بالاستشارة فغيره من ولاة أمور الأمة من باب أولى، فيتأكد في حقهم استشارة من تحت ولايتهم في أمور الأمة، فيستشار العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويستشار العارفون بالسياسة وشؤون القتال والحرب فيما يعرفون، ويستشار كل فيما يخصه ويختار للشورى في الأمور الهامة أهل الدين والنصح والعقل والحكمة وسداد الرأي والخبرة والتجربة. ويجب على من استشير محض النصح لمن استشاره؛ لأن المستشار مؤتمن، كما قال

ﷺ: «المستشار مؤتمن»^(١).

وقال ﷺ: «الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٢). والنصيحة للرسول ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم - وإن كانت مطلوبة دائماً إلا أنها في حال طلبهم المشورة والنصيحة أوجب وأوكد.

١٣ - سمو مبادئ الإسلام وتعاليمه وأحكامه في أمره بالشورى لما فيها من المصالح العظيمة.

فهي في المقام الأول: طاعة الله تعالى، وهي في المقام الثاني: صمام أمان للأمة بإذن الله تعالى، توفيق بالأخذ بها إلى الرأي الأرشد والأصوب في قراراتها في قضاياها ومشكلاتها الداخلية والخارجية، والسلامة من المزالق الخطيرة التي قد تحصل بسبب الأنانية واستبداد المسؤول أو ولي الأمر وتفرد به بالرأي؛ لأن الفرد مهما كان عليه من الخدق والدهاء وحسن التدبير سيفوته الكثير، ويصعب عليه وحده المقارنة بين المصالح والمفاسد، والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات.

وهي في المقام الثالث: سبب لاجتماع الأمة وسلامتها من الاختلاف والتفرق بسبب الاعتراض على ما يصدر من ولي الأمر من قرارات؛ لعلم الناس أن هذه القرارات قد أخذ فيها رأي أهل الحل والعقد والرأي والمعرفة في الأمة. وبهذا تسلم الأمة من الاضطراب والفوضى، وتسد الطريق أمام المتربصين بها من الداخل والخارج.

وقد أحسن حافظ إبراهيم - رحمه الله - في قوله في قصيدته العمرية^(٣) التي تعتبر من روائع الشعر العربي مشيداً بمواقف عمر - رضي الله عنه - في جعل الأمر بعده شورى:

(١) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨٢٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ٩١).

يا رافعاً راية الشورى وحارسها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله
إن ظل بعد ثلاث رأيهم شعباً
فاعجب لقوة نفس ليس يصر فيها
درى عميد بني الشورى بموضعها
وما استبد برأي في حكومته
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به
جزاك ربك خيراً عن محبيها
وللمنية آلام تعانيها
إلى الجماعة إنذاراً وتنبها
فجرد السيف واضرب في هودياها
طعم المنية مرّاً عن مرامياها
فعاش ما عاش بينها ويعليها
إن الحكومة تغري مستبديها
رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

كما أن المشورة دليل على رجحان عقل المستشار وحكمته وتواضعه، وحسن قصده في البحث عن الأفضل غالباً، وفيها مصلحة عظيمة له؛ لأنه بالاستشارة يضيف إلى عقله وتجاربه عقول من استشارهم وتجاربهم ويأخذ خلاصة أفكارهم، فيسلم من الاستبداد بالرأي الذي قد يكون هو أول ضحاياه. وفيها ستر لعيوبه وعدم تحميله المسؤولية وحده عند الخطأ.

كما أن المشورة أيضاً مصلحة للمستشار تجعله يشعر بقيمته في الأمة، ويشارك في حل قضاياها ومشكلاتها، فينشط في تقديم محض المشورة والنصح لها، ولكل من استشاره.

١٤- ينبغي بعد المشورة والعزم على الأمر التوكل على الله تعالى والمضي قدماً فيه، بعد الجمع بين فعل السبب والاعتماد عليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

١٥- ينبغي الحذر من التردد الذي به فساد الرأي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. فينبغي الجمع بين تدبر الأمر وإبرام الرأي وعدم العجلة، وبين العزم والتوكل على الله والمضي قدماً وعدم التردد، كما قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر
فإن فساد الرأي أن تتعجلاً^(١)
وقال الآخر:

(١) البيت لعيسى بن موسى. انظر: «زهر الآداب» (١/٢٥٧).

- إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا^(١)
- ١٦- أن النبي ﷺ قد يحتاج كغيره من البشر إلى المشورة، وخاصة فيما ليس فيه وحى؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.
- ١٧- محبة الله تعالى للمتوكلين عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.
- ١٨- إثبات المحبة لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ومن آثارها الثواب، وليست هي الثواب كما يقوله منكروها من أهل البدع.
- ١٩- عدم محبة الله تعالى للذين لا يتوكلون عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: ولا يجب من لم يتوكل عليه.
- ٢٠- فضل التوكل على الله والترغيب فيه؛ لأن الله رتب عليه محبته تعالى لأهله.
- ٢١- أن من قدر الله نصره فلا غالب له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾. وتحقق نصر الله مرهون بالإيمان وعمل الصالحات، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].
- ٢٢- كمال قوة الله - عز وجل وقدرته، ووجوب طاعته والتعلق به والاستعانة به وحده في طلب النصر وغير ذلك.
- ٢٣- أن من قدر الله خذلانه فلا ناصر له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

(١) البيت للمنصور. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

٢٤- وجوب الحذر من أسباب الخذلان، بمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، وأمر رسوله ﷺ.

٢٥- وجوب التوكل على الله تعالى وحده، والاعتماد عليه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢٦- أن التوكل على الله من مقتضيات الإيمان ومن صفات المؤمنين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢٧- نفي وقوع الغلول من الأنبياء شرعاً وقدراً، فلا يجوز وقوعه منهم شرعاً، ولا يمكن أن يقع منهم قدراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

٢٨- أنه لا يجوز شرعاً لأحد أن يغل من الغنيمة التي اكتسبها النبي في حربه؛ لقوله تعالى: (أَنْ يَغُلَّ) على قراءة ضم الياء وفتح الغين على البناء للمفعول.

٢٩- شدة حرمة الغلول؛ لأن الله - عز وجل - نزه منه أنبياءه، وتوعد عليه بأن من يغلل يأت بما غل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. فهو محرم بالإجماع وكبيرة من كبائر الذنوب.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ، فقالوا: فلان شهيد، حتى أتوا على رجل، فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها - أو عباءة». ثم قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». قال: فخرجت فناديت، ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»^(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، قال: «لا أَلْفَيْنَ أَحَدِكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقْبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رِغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْتَنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتَنِي. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدِكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقْبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْتَنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتَنِي. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدِكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - غلط تحريم الغلول (١١٤)، وأحمد (١/٣٠).

القيامة على رقبته رقاغ تحفق، فيقول: يا رسول الله، أعثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أعثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك»^(١).

وعن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وما؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ وما نهي عنه انتهى»^(٢).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: كان على نَقْلِ النبي ﷺ رجل يقال له كَرْكُرَةٌ، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عبادة قد غلها»^(٣).

وعن زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك. فقال: «إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين»^(٤).

عن أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدي يقال له: ابن اللثبية على الصدقة، فجاء، فقال: هذا لكم، وهذا أهدي إلي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر. ثم رفع يديه حتى

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٧٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٣١)، وأحمد (٤٢٦/٢).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٣٣)، وأبو داود في الأفضية (٣٥٨)، وأحمد (١٩٢/٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد - القليل من الغلول (٣٠٧٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٩).

(٤) أخرجه أبو داود في الغلول - تعظيم الغلول (٢٧١٠).

رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت ثلاثاً» (١).

٣٠- أن الجزء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَمَلْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٣١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِمَا عَمَلْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٣٢- كمال قدرة الله- عز وجل- حيث يجعل الغال يأتي بما غل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَمَلْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وهو- عز وجل- على كل شيء قدير.

٣٣- موافاة كل نفس ومجازاتها بما عملت من غير زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

وهذا لا ينافي مجازاة الإنسان بثواب دعاء غيره له، وثواب القربات التي أهديت له أو تُصدق بها عليه، من صدقة أو حج وغير ذلك؛ لثبوت ذلك بالأدلة الصحيحة. كما لا ينافي مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ إلى أضعاف كثيرة- كما ثبت بالأدلة.

٣٤- انتفاء الظلم في محاسبة الخلائق يوم القيامة؛ لأن حسابهم عند الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٣٥- شتان بين من اتبع رضوان الله تعالى؛ ونال رضي الله تعالى، وسعد في الدنيا والآخرة، وبين من رجع بسخط من الله، فشقي في الدنيا والآخرة وكان مأواه إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا.

٣٦- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

٣٧- إثبات صفة السخط لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

٣٨- أن من سخط الله تعالى عليه عدَّبه بالنار، وانتقم منه؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنْ بَاءَ

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٢)، وأبو داود في الخراج (٢٩٤٦)، وأحمد

﴿سَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٣٩- وجوب الحذر من التعرض لسخط الله تعالى وغضبه؛ لأنه سبب للمصير إلى النار.

٤٠- إثبات النار وأنها موجودة الآن، وأن من أسماؤها «جهنم»؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوْتُهُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾.

٤١- أن النار مظلمة شديدة القعر شديدة الحر؛ لهذا سميت «جهنم».

٤٢- ذم النار وأنها بسُّ المصير والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾.

٤٣- أن الناس درجات عند الله، فأهل الإيمان فوق أهل الكفر، وأهل الإيمان فيما بينهم درجات في إيمانهم، وفي نعيمهم، كما أن أهل الكفر درجات في كفرهم، ودرجات ودرجات في عذابهم.

٤٤- اطلاع الله - عز وجل - التام وعلمه الواسع بما يعمل العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعد لمن أساء؛ لأن مقتضى علمه مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا أَقْلُ هُوَ مِن عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنِتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ .

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يستوي من اتبع رضوان الله بمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، ثم أتبع ذلك ببيان منته على المؤمنين في بعث الرسول ﷺ منهم، وإنقاذهم به وبما جاء به من الوحي والعلم مما كانوا فيه من الضلال المبين، وهي المنة العظمى والنعمة الكبرى، التي هي أصل كل نعمة ومنة.

كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ [الجمعة: ٢].

وهذا استجابة لدعوة إبراهيم - عليه السلام - بقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد من الله على المؤمنين، أي: أنعم عليهم وتفضل، و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرفية بمعنى «حين» أي: حين بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ويحتمل أن تكون «إذ» للتعليل، أي: لأنه بعث فيهم رسولاً

من أنفسهم، ففيها بيان لمحل المنة ومبدئها وهو حين بعث ﷺ فيهم، وفيها تعليل للمنة، أي: لأنه بعثه فيهم.

ومعنى ﴿بَعَثَ فِيهِمْ﴾ أي: أرسل فيهم، وسميت الرسالة «بعثاً»؛ لأن بها إخراج الناس من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿فِيهِمْ﴾ «في» للظرفية؛ لأن النبي ﷺ بعث في سطة المؤمنين نسباً وقرابة؛ ولهذا قال الله تعالى له: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿رَسُولًا﴾ أي: مرسلًا من عند الله - عز وجل - ونكر للتعظيم، أي: عظيم القدر، جليل الشأن.

﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: منهم ومن جنسهم، فهو منهم نسباً يتكلم بلسانهم، وبشر مثلهم، كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أي: من جنسكم، فكونه منهم ومن أنفسهم أبلغ في المنة، وأتم للنعمة؛ ليألفوه ويفهموا خطابه، ويكون أنصح لهم وأشفق عليهم، بل؛ ولتقوم الحجة به عليهم، بخلاف ما لو كان من غير جنسهم، كأن يكون من الملائكة أو الجن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِبَلْسَانٍ قَوْمِيهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، الجملة في محل نصب، صفة لـ ﴿رَسُولًا﴾، والمعنى: يقرأ عليهم آياته، وهو القرآن الكريم.

والتلاوة: تطلق على التلاوة لفظاً بقراءة القرآن عليهم، وتطلق على التلاوة معنى بيان معانيه لهم، وتطلق على التلاوة حكماً ببيان أحكامه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في

ركوعه وسجوده: سبحانه ربنا وبحمدك، يتأول القرآن^(١) يعني: يعمل به ويطبقه.
لكن قد يحسن هنا أن يحمل قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ على تلاوة آيات القرآن وقراءتها عليهم لفظاً؛ لقوله بعده: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.
﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾ أي: ويظهرهم طهارة معنوية بأمرهم بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، ونهيهم عن الشرك والمعاصي، والأخلاق الذميمة، مما كانوا عليه في الجاهلية.
كما يظهرهم من الأحداث والنجاسات الحسية بأمرهم بالوضوء من الحدث الأصغر والغسل من الحدث الأكبر، والحث على النظافة عموماً.
﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾.
و﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن، سمي بذلك؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ۗ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨-٧٩].
ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ رُّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۗ﴾ [بأيدي سفرة ١٥] كرام بررة [عبس: ١٣-١٦].
ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين، والمعنى: ويعلمهم القرآن؛ ألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، والعمل بها.
وقال بعضهم: المراد بالكتاب في الآية «الكتابة» أي: ويعلمهم الكتابة؛ لأن العرب كانوا أميين، فلما نزل القرآن العظيم تعلموا الكتابة فصاروا يكتبونه للرسول ﷺ، وبهذا تعلموا الكتابة.
ولا منافاة بين القولين، فالرسول ﷺ علمهم القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وعلمهم الكتابة بأمره لهم بكتابة القرآن الكريم، فتعلموا القرآن وتعلموا الكتابة.
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ﴿الْكِتَابَ﴾، والمراد بالحكمة عند أكثر أهل

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٧)، ومسلم في الطهارة (٤٨٤)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٧)، والنسائي في التطبيق (١١٢٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٩).

العلم: السنة، أي: ويعلمهم القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، أي: القرآن والسنة.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالحكمة في الآية: الحكمة في مشروعية الأحكام، أي: ويعلمهم الحكمة في مشروعية الأحكام، أي: أسرار الشريعة كحكمة مشروعية الصلاة وأنها صلة بين العبد وربّه، ونحو ذلك. وحكمة مشروعية الزكاة وأن بها تزكية المال، وتزكية نفس الغني ونفس الفقير - وهكذا.

ولا منافاة بين القولين فيجوز حمل قوله: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ على تعليم السنة، وتعليم أسرار الشريعة، والحكم في مشروعية الأحكام مما يقوي الإيمان ويزيده.

﴿وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الواو: حالية، و«إن» مخففة من الثقيلة؛ ولهذا جاءت اللام في خبرها ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، واسمها: ضمير الشأن محذوف، والضمير في ﴿كَانُوا﴾ يعود إلى المؤمنين.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة الرسول ﷺ فيهم.

﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ اللام هي الفارقة التي تشعر بكون «إن» مخففة، و«في» للظرفية.

﴿ضَلَالٍ﴾ بُعد وتيه عن الحق وجهل.

﴿مُبِينٍ﴾ أي: بين واضح ظاهر لكل ذي بصيرة وعقل.

أي: وإنهم كانوا من قبل بعثته ﷺ لفي ضلال وتيه ويُبعد عن الحق بين واضح، قد أحاط بهم إحاطة الطرف بمظروفه وإحاطة السوار بالمعصم - وفي هذا تعظيم لمنة الله تعالى ونعمته عليهم، حيث أنقذهم به من هذا الضلال المبين.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَمْ نَقُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥).

قوله: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ الهمزة للاستفهام، وفيه معنى الإنكار والتفريع والتقرير والتعجب، والواو: عاطفة، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، أي: وألما أصابتكم مصيبة، و«لما» هنا: شرطية بمعنى: «حين» أي: أوحين أصابتكم مصيبة،

﴿أَصَابَتْكُمْ﴾: فعل الشرط، وجملة ﴿قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا﴾: جواب الشرط.

ومعنى ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾: حلت ووقعت بكم.

﴿مُصِيبَةٌ﴾ هي ما حصل لهم يوم أحد من قتل سبعين رجلاً منهم وإدالة المشركين عليهم.

والمصيبة في الأصل: تشمل كل ما يصيب الإنسان من نقص، في النفس والأهل والولد والمال وغير ذلك.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَيْهَا﴾ الجملة في محل رفع صفة لـ ﴿مُصِيبَةٌ﴾، وفيها تسلية لهم وتخفيف لمصابهم، بتذكيرهم بما أصابوه قبل من عدوهم.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، أي: قد أصبتم مثلها مرتين من عدوكم - يعني يوم بدر حيث قتل المسلمون منهم سبعين رجلاً، وأسروا سبعين، فالمجموع مائة وأربعون، كُثر من قتل من المسلمين يوم بدر مرتين، وجعل الأسرى كالقتلى؛ لأن الأسر لا يقل عن القتل لما فيه من إذلال المأسور، وكونه عرضة للقتل؛ لأن الإمام مخير في الأسرى بين الفداء بهال أو بأسير مسلم، أو الرق، أو القتل، أو المن عليهم بإطلاق سراحهم بلا شيء، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَتُدُّوا لَوَاقِفَٰمَآ مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَآءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

﴿قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا﴾، ﴿أَنِّي﴾ هنا: استفهامية، فيها معنى الإنكار والتعجب.

﴿هَذَا﴾ أي: ما حصل لهم من قتل وهزيمة، أي: من أين أصابنا هذا الذي أصابنا، كما في قوله: تعالى: ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]. أي: من أين لك هذا الرزق؟

وقال بعضهم: المعنى: كيف أصابنا هذا المصاب ونحن نقاتل مع رسول الله؟ كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧]. أي: كيف يكون له الملك علينا؟

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿هُوَ﴾ أي: الذي أصابكم ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ للسببية، أي: هو بسبب منكم، وهو ما حصل منهم من الفشل

والتنازع والعصيان، ومخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ وتركهم مواقعهم، التي أمرهم الرسول ﷺ بلزومها فوق الجبل، حيث ظنوا أن المعركة قد انتهت، فنزلوا للمشاركة في الغنائم، فحصل ما قدر الله تعالى من مصاب على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ ﴾ [النساء: ٧٩].

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ختم عز وجل الآية بهذه الجملة، للدلالة على أنه سبحانه لو شاء لنصركم؛ لأنه على كل شيء قدير، ينصر من يشاء بفضلته، ويخذل من يشاء بعدله، وله في ذلك كله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤]، ويوضح هذا ويبينه قوله بعده: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَيَاذِنِ اللَّهُ ﴾.

«إن»: حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبرها، وهو على وزن «فعليل»، يدل على كمال قدرته وعظمته.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَيَاذِنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآية السابقة المؤمنين، تسلياً لهم وتخفيفاً لمصائبهم في «أحد» بأنهم قد أصابوا مثليه من عدوهم - يعني في بدر، مبيناً أن ما أصابهم في أحد هو من عند أنفسهم، ثم أتبع ذلك ببيان أن ذلك بإذن الله - عز وجل - الكوني وقضائه القدري، فجمع لهم بين بيان أنهم السبب فيما أصابهم يوم أحد، مع تسليتهم وتخفيف مصائبهم بذكر ما أصابوا قبل من عدوهم، وبيان أن ما أصابهم إنما هو بقضاء الله وقدره.

قوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ ﴾ الواو: استثنائية، و«ما»: شرطية، و﴿أَصَابَكُمْ﴾ فعل الشرط، ﴿فَيَاذِنِ اللَّهُ﴾ جواب الشرط.

أي: وما أصابكم من القتل والهزيمة ﴿يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ﴾، أي: يوم التقى جمع

المسلمين وجمع المشركين، أي: جيش المسلمين وجيش المشركين، وذلك في أحد.
﴿فَيَاذِنِ اللَّهُ﴾: جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فهو كائن بإذن الله، أي: بإذن الله الكوني وقضائه القدري، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

والباء في قوله: ﴿فَيَاذِنِ اللَّهُ﴾ للسببية؛ ولهذا صح أن يعطف عليه قوله: ﴿وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: وليعلم الله المؤمنين، أي: وليتبين ويتميز ويظهر أهل الإيثار حقاً الذين صدقوا في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم إنه بقدر الله ورضوا به، وتابوا إلى الله، مما سبب لهم ذلك، وهو العصيان والمخالفة. فالعلم هنا علم ظهور، أي: وليعلم المؤمنين علماً يترتب عليه الجزاء وذلك بعد أن يقع ويظهر منهم الإيثار، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وهو سبحانه وتعالى قد علم أزلماً المؤمنين والمجاهدين من غيرهم، أي: علم من سيؤمن ومن سيجاهد، ومن ليس كذلك، ولكنه لا يترتب على هذا العلم ثواب ولا عقاب.

﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ معطوف على ما قبله.

والذين نافقوا هم الذين يظهرون الإيثار ويبطنون الكفر، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي فقد كان ممن لا يرى الخروج إلى أحد، ولما خرج ﷺ انخذل عبدالله بن أبي أثناء الطريق ورجع بثلاث الجيش.

قال ابن القيم^(١): «ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين عن الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم فسمعوا المؤمنون، وسمعوا رد الله

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٢٧).

عليهم، وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه».

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ الجملة: معطوفة على ﴿نَافِقُوا﴾، أو حال على تقدير: «قد»، أي: وقد قيل لهم: تعالوا، «أو»: استثنائية، وأضمر القائل في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ ليعم كل من قال لهم ذلك، سواء الرسول ﷺ أو غيره، والضمير (لهم) يعود إلى الذين نافقوا.

﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا.

﴿فَنَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قاتلوا وجاهدوا؛ لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

﴿أَوْ أَدْفَعُوا﴾ ﴿أَوْ﴾: عاطفة، والجملة: معطوفة على ﴿فَنَتَلُوا﴾، أي: ادفعوا العدو عن أنفسكم وحرماكم وأموالكم وأوطانكم.

أي: إن لم تكن لديكم رغبة في القتال في سبيل الله، فعلى الأقل ادفعوا العدو عن أنفسكم وحرماكم وأموالكم وأوطانكم.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون لمن يقول لهم: ﴿تَعَالَوْا فَنَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا﴾.

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾: شرطية، ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل الشرط، وجوابه ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون؛ تبريراً لانخذالهم ورجوعهم من الجيش وتركهم القتال: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: لو نعلم قتالاً يحصل بينكم وبين العدو ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وذهبنا معكم، ولكننا لن نتبعكم لعلمنا أنه لن يكون هناك قتال. وهم في الحقيقة يعلمون أنه سيحصل قتال؛ لأن المشركين جاؤوا من بلاد بعيدة، وهم يتحرقون غيظاً على المسلمين، بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين.

وقيل: معنى قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أي: ما هو إلا إلقاء النفس في التهلكة.

﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: هم للكفر في هذا اليوم أو هذا الوقت الذي انخذلوا

(١) سبق تخرجه.

فيه عن المسلمين، ورجعوا وبرروا لأنفسهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَبَعَنَّكُمْ﴾.

﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، لنفاقهم، ولهذا قال:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: الجملة: استثنائية لا محل لها، أو في محل نصب على الحال.

أي: يقولون قولاً ظاهراً بأفواههم، أي: بألسنتهم، من دعوى الإيثار والتبرير الكاذب لانخراطهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَبَعَنَّكُمْ﴾ ونحو ذلك.

﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ «ما» موصولة، أو نكرة موصوفة، أي: الذي ليس في قلوبهم، أو قولاً ليس في قلوبهم من الكفر، والعلم بأنه سيقع قتال ونحو ذلك؛ لأن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان.

وقيل: إن قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ للتأكيد والمبالغة، كما يقال: «أبصرت بعيني، وسمعت بأذني».

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ﴿أَعْلَمُ﴾ أفعل تفضيل، و«ما» موصولة، أو مصدرية،

أي: بالذي يكتُمون أو بكتماهم، ﴿يَكْتُمُونَ﴾: يخفون ويضمرون ويسرون.

أي: والله أعلم من غيره بالذي يخفون ويضمرون في قلوبهم من الكفر ونحو ذلك؛ ولهذا فضحهم عز وجل، وبيّن أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ

أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٨﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ هنا صفة لـ«الذين» في قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ

نَافِقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: قالوا لإخوانهم ظاهراً ممن استشهدوا يوم أحد؛ لأن المنافقين

إخوان في الظاهر للمسلمين، وإن كان بينهم في الباطن أبعد مما بين المشرق والمغرب، وشتان بين أهل الكفر وأهل الإيثار، وقيل: المراد إخوانهم في النسب.

واللام في قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ بمعنى: «عن» أو بمعنى: «في»؛ لأن «إخوانهم» هؤلاء

قد ماتوا. فالمعنى: قالوا عن إخوانهم أو في إخوانهم - أي: بعد ما قتلوا.

﴿وَقَعَدُوا﴾ الجملة: في محل نصب على الحال بتقدير «قد»، أي: وقد وعدوا.
 أي: قالوا لإخوانهم حال كونهم قعودًا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ فجمعوا بين سوء الفعل بالتخلف عن القتال، وسوء القول بالاعتراض على قضاء الله وقدره.
 وقيل: جملة ﴿وَقَعَدُوا﴾ معطوفة على ﴿قَالُوا﴾، فتكون معترضة بين ﴿قَالُوا﴾ ومعمولها وهو: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

أي: لو أطاعونا في مشورتنا عليهم بعدم الخروج إلى أحد، وفي الرجوع وترك القتال.
 ﴿مَا قُتِلُوا﴾ قرأ هشام عن ابن عامر: «ما قُتِلُوا» بالتشديد، والتقتيل: المبالغة في القتل، وربما المثلة.

وقرأ الباقون بالتخفيف: ﴿مَا قُتِلُوا﴾ أي: ما قتلوا مع من قتل، كما لم نقتل نحن، وكأنهم بهذا دفعوا عن أنفسهم الموت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأصحاب هذه المقالة.
 ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: فادفعوا عن أنفسكم الموت.
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا. لا تقدرّون على ذلك ولا تستطيعونه.

وهذا من باب التحدي لهم، أي: لستم بصادقين في أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، وليس بإمكانكم دفع الموت عن أنفسكم، ولو تخلفتم، فالموت سيأتيكم، كما قال تعالى: ﴿أَيِنَّمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].
 وكما قيل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد^(١)

الفوائد والأحكام:

١ - منة الله تعالى العظمى ونعمته الكبرى على المؤمنين ببعث رسول فيهم من أنفسهم؛

(١) البيت لابن نباتة السعدي. انظر: «الدر الفريد» (٤٤٧/٧)، «وفيات الأعيان» (١٩٣/٣).

لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ ولهذا أكد عز وجل هذه المنة بالقسم.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بكونه مبعوثاً من الله تعالى.

٣- أن المنة ببعث الرسول ﷺ إنما هي على المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم المتبعون له المنتفعون بهذه النعمة والمنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

علماً أنه ﷺ رسول للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٤- أن من عظم المنة ببعث الرسول ﷺ في المؤمنين كونه منهم يعرفونه ويعرفهم ويفهمون عنه كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾.

٥- وجوب شكر نعمة الله تعالى علينا وفضله ببعثه محمد ﷺ بطاعة الله - عز وجل - واتباع رسوله ﷺ.

٦- لا ينبغي أن يُدل الإنسان بإيماؤه أو بعمله على الله تعالى؛ لأن المنة في هداية من اهتدى للإيمان إنما هي لله عز وجل؛ ولهذا قال عز وجل رداً على الأعراب: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

٧- أن مهمة الرسول ﷺ تبليغ رسالة ربه بتلاوة آيات الله على من أرسل إليهم وتطهيرهم من الأرجاس المعنوية والحسية وتعليمهم الكتاب والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

٨- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فأضاف التزكية - وهي التطهير - إلى الرسول ﷺ، والرسول ﷺ إنما هو سبب لذلك والمزكي والمطهر حقاً هو الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٩- أن بالإيمان زكاء النفوس وطهارتها، كما أن في الوضوء والغسل طهارة الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

١٠- قيام الإسلام في دعوته على العلم، وعلى تزكية النفوس، والطهارة المعنوية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

١١- أن الناس قبل بعثته ﷺ كانوا في ضلال مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا زيادة لمنة الله تعالى على المؤمنين ببعثته ﷺ، وهدايتهم به من الضلال المبين.

١٢- توبيخ الله تعالى للذين قالوا لما أصيبوا يوم أحد ﴿أَنْ هَذَا﴾؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنْ هَذَا﴾.

١٣- تسلية المؤمنين، وتخفيف مصابهم في أحد بتذكيرهم ما أصابوا من عدوهم في بدر؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾، وأن ما أصابهم بقضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذَنْ لَآلَهُ﴾.

١٤- ينبغي مقارنة ما يحصل من محن ورزايا بما يقابل ذلك - مما هو أعظم - من منح وعطايا؛ فإن هذا مما يعين على تحمل المصائب ويهون وقعها، وأحرى بشكر النعم وعدم كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾.

وقد قال ﷺ: «انظروا لمن هو دونكم، ولا تنظروا لمن هو فوقكم، فإن ذلك أحرى ألا تزردوا نعمة ربكم»^(١).

١٥- أن ما أصاب المسلمين يوم أحد من الهزيمة إنما هو من عند أنفسهم، أي: بسبب منهم وهو العصيان والمخالفة.

١٦- أن ما يصيب الناس من المصائب إنما هو بسبب أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَنَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩] وفي هذا

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق (٢٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إثبات الأسباب.

١٧- إثبات صفة القدرة التامة لله - عز وجل - وأنه - سبحانه - ذو قدرة تامة على كل شيء وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٨- في ختم الآية بهذه الجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: دلالة على قدرة الله تعالى التامة على نصر مَنْ يشاء بفضله، وخذلان من يشاء بعدله، وله الحكمة في ذلك ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٩- لا تنافي بين كون مصاب المؤمنين سببه من عند أنفسهم بما حصل منهم من العصيان والمخالفة، وكون ذلك بإذن الله، أي: بقضاء الله وقدره.

٢٠- أن كل ما يجري في الكون من المصائب وغيرها كل ذلك بقضاء الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَقَى الْجَمْعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾.

٢١- أن الله - عز وجل - قد يقدر المصيبة على المؤمن؛ لأسباب وحكم يعلمها.

٢٢- أن من حكمة مصاب المؤمنين يوم أُحد أن يتميز ويظهر المؤمنون حقيقة من المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

٢٣- إثبات النفاق، وقدمه في هذه الأمة، ولم يبرز إلا في المدينة، لما قويت شوكة المسلمين، فأصبح أناس يظهرهم الإسلام نفاقاً، ويبطنون الكفر خوفاً من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

٢٤- نکوص المنافقين عن القتال في سبيل الله، والدفاع عن الأنفس والحرمات والأوطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنِّتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا﴾.

٢٥- أن من لم يرغب في القتال في سبيل الله بنية خالصة، فلا يعذر في ترك الدفاع عن الحرمات والأوطان؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا فَنِّتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا﴾.

٢٦- فعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا في سبيل الله، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن الحرمات والأوطان.

٢٧- تبرير المنافقين لموقفهم المخزي في النكوص عن القتال بالكذب الذي لا يمكن تصديقه ولا ينظلي على أحد؛ لقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَتَّبَعَنَّكُمْ﴾ وقوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٢٨- أن ما حصل من المنافقين يوم أحد من النكوص عن القتال ومن الاعتراض على قضاء الله وقدره ونحو ذلك يدل على أنهم- وإن كانوا في الظاهر من المؤمنين- فهم للكفر أقرب منهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمَّ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

٢٩- تعليم الاحتراس في الحكم على الأشخاص؛ لقوله تعالى: ﴿هُمَّ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾؛ ولهذا لا ينبغي الحكم من بعض الظواهر على ما في البواطن.

٣٠- تذبذب المنافقين بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر، كما قال تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

٣١- أن الكفر والإيمان صنوان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمَّ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

٣٢- الإشارة إلى أن الإيمان يزيد وينقص- كما أن الكفر يزيد وينقص، وأنها مراتب، وأن الإنسان قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، وأن الإنسان قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمَّ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

٣٣- فضح المنافقين، وأن ما في قلوبهم يخالف ما يقولونه بأفواههم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٤- أن القول باللسان لا يرفع دون مواطئة القلب لذلك، فمن أظهر الإيمان بقوله، أو بقوله وفعله، دون اعتقاد ذلك في قلبه فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].
فشهد عز وجل بكذبهم لقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

٣٥- أن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٦- أن الله تعالى أعلم من غيره بما يكتمه المنافقون ويخفونه مما يخالف ما يظهرون؛ ولهذا فضحهم وأظهر نفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

٣٧- اعتراض المنافقين على قضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا﴾.

٣٨- أن المنافقين في الظاهر إخوان للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾.

٣٩- جمع المنافقين بين الفعل القبيح بالقعود عن القتال، والقول القبيح بالاعتراض على قدر الله، والتشيط عن القتال في سبيله.

٤٠- تحدي المنافقين الذين قالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا﴾ بدفع الموت عن أنفسهم، إن كانوا صادقين في مقاتلتهم هذه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وفي هذا تأكيد وتحقيق كذبهم.

٤١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾.

٤٢- أن ما قدر الله تعالى نافذ لا محالة، ولا يمكن رده بحال من الأحوال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَاءِ اتِّمُّهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَولِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩).

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة ما يدل على جبن المنافقين، وحبهم للحياة، وخوفهم من الموت، وظنهم أن الحذر ينجي من القدر، وأن القتل في سبيل الله خسارة، ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فضل الشهادة في سبيل الله، وما أعدده الله للشهداء في الحياة البرزخية الكريمة عنده من ألوان النعيم الذي لا يناله سواهم، والذي يغبطهم عليه من مات على فراشه من الجبناء، إضافة إلى ما في الآيات من تعزية وتسلية للمسلمين بقتلاهم.

سبب النزول:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُصِيبَ إِخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴾ (١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ (٢).

قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ قرأ ابن عامر: «قُتِلُوا» بالتشديد.

وقرأ الباقون: ﴿ قُتِلُوا ﴾ بالتخفيف.

والخطاب في قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾: للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، والمعنى:

ولا تظنن.

﴿ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: الذين قتلوا في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، كما

قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٣).

وهذا عام لكل من قتل في سبيل الله في «بدر» أو في «أحد» أو في غير ذلك.

و﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾: دينه وطريقه وشرعه.

﴿ أَمْوَاتًا ﴾: مفعول ثانٍ لـ «تحسب»، ومفعولها الأول: الاسم الموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾

أي: لا تظنن الذين قتلوا في الجهاد لإعلاء كلمة الله أمواتاً، ولا يخطر ذلك ببالك.

﴿ بَلْ أَحْيَاءُ ﴾، ﴿ بَلْ ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿ أَحْيَاءُ ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي:

بل هم أحياء، أي: بل هم - وإن ماتت أبدانهم - أحياء بأرواحهم حياة برزخية خاصة

بهم، بها يحسون ويتلذذون ويتنعمون ويشعرون.

﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ بالقرب منه في دار كرامته، كما قال ﷺ: «أرواح الشهداء في أجواف

طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك

القناديل» الحديث (٤).

(١) أخرجه أحمد (١/٢٦٥-٢٦٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٠)، والطبري في «جامع البيان» (٦/٢٢٨)،

والحاكم في الجهاد (٢/٨٨)، وفي التفسير (٢/٢٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٤١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سيأتي تخريجه بتمامه.

﴿يُرْزَقُونَ﴾ الرزق: العطاء، أي: يعطون رزقهم في الجنة، فعن مسروق قال: سألتنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألتنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوها من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٧).

قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿فَرِحِينَ﴾: حال. والفرح: السرور، وهو دليل كمال الرضا، أي: مسرورين معتبطين.

﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾، «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: بالذي أعطاهم الله، من ألوان النعيم، الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، حسناً وكثرة وعظمة ولذة، من غير مكدر ولا منغص.

﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾، ﴿مِنْ﴾: للسببية، أي: بسبب تفضله عليهم وزيادته لهم مما لم يستحقوه بعملهم، لكن بتفضله - عز وجل - عليهم، وبهذا جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: معطوف على ﴿فَرِحِينَ﴾، أو على ﴿يُرْزَقُونَ﴾، أي: فتم لهم النعيم والسرور وجعلوا يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

(١) أخرجه مسلم في الإمامة - بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠١)، والطبري في «جامع البيان» (٦/٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٥).

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا. والبشارة الإخبار بما يسر، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا بشر بما يسره استنارت بشرته.

﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، أي: الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم، ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: من بعدهم، أي: ينتظرون قتلهم في سبيل الله ولحوقهم بهم، لينالوا ما نالوه من الشهادة والمنزلة الرفيعة، والثواب العظيم. ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الجملة في محل جر بدل من قوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، أي: بأن لا خوف عليهم، أي: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بأن لا خوف عليهم، و﴿أَلَا﴾ أصلها: «أن لا» أدغمت «أن» المصدرية بـ«لا» النافية.

وقوله: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا هم يحزنون على ما مضى من أمرهم، ولا على ما خلفوه وراءهم. وبانتفاء الخوف والحزن عنهم يتم لهم الفرح والسرور، بحصول المطلوب من النعيم الحسي والمعنوي، وزوال المرهوب من الخوف والحزن.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾. ذكر عز وجل في الآية السابقة فرح الذين قتلوا في سبيل الله بما أعطاهم الله من فضله، واستبشارهم بالذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم، ثم أتبع ذلك بذكر استبشارهم بما هو أعظم أي: بنعمة من الله وفضل وما ادخر الله لهم من عظيم الأجر. قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الجملة: استئنافية.

﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، ويهنئ بعضهم بعضًا، بنعمة من الله وتفضل وزيادة منه تعالى من النعم والفضل العظيم في جنات النعيم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي بكسر همزة «إن»: «وإنَّ الله» فتكون الجملة: استئنافية، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾، فتكون معطوفة على «نعمة» أي:

وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. أي: لا يضيع ثواب أعمالهم فيتركها سدى، بل يشكرهم عليها وينميها لهم ويجازيهم عليها أعظم الجزاء، وسمى ثوابهم أجراً؛ لأن الله ضمنه وتكفل به لهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢).

عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما انصرف المشركون عن أحد وبلغوا الروحاء^(١) قالوا: لا محمداً قتلتموه، ولا الكواعب أردفتهم، وبئس ما صنعتهم، ارجعوا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا، حتى بلغوا حمراء الأسد^(٢)، وبئر أبي عتبة، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (٣).

وعن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبوك منهم، الزبير وأبوبكر، لما أصاب رسول الله ﷺ - ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في إثرهم». فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبوبكر والزبير» (٤).

قال ابن القيم^(٥): «ولما انقضت الحرب انكفاً المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم. قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن هُم جنّبوا

(١) الروحاء قرية بين مكة والمدينة تبعد عن المدينة نحو ثلاثة وسبعين كيلاً.

(٢) حمراء الأسد موضع على ثمانية أميال من المدينة.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير - قوله: ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلِ﴾ (١١٠٨٣)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨١٦/٣) عن عكرمة مرسلًا. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٧٧/٨): «رجالهم رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس».

(٤) أخرجه البخاري في المغازي - باب ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٤٠٧٧).

(٥) في «زاد المعاد» (٢٤١-٢٤٢)، وانظر: «بدائع التفسير» (١/٥٢٨-٥٢٩)، «جامع البيان» (٢٤٠/٦) وما بعدها، «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/١٢١).

الخييل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأنحرن فيها. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة ولما عزموا على الرجوع إلى مكة، أشرف على المسلمين أبوسفیان، ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر. فقال النبي ﷺ: قولوا: نعم، قد فعلنا. قال أبوسفیان: فذلكم الموعد، ثم انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال. فقال له عبدالله بن أبي: أركب معك. قال: لا. فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعاً وطاعة، واستأذنه جابر بن عبدالله، وقال: يا رسول الله، إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد. وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيؤخذ له، فلحقه بالروحاء - ولم يعلم بإسلامه - فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم. فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فقال أبوسفیان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل؛ فإني لك ناصح. فرجعوا على أعقابهم إلى مكة.

قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل جر صفة لـ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد يكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين استجابوا لله والرسول.

ومعنى ﴿اسْتَجَابُوا﴾: أجابوا، والسين والتاء؛ للتأكيد والمبالغة، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى - غالباً، أي: أجابوا دعوة الله تعالى وانقادوا لأمره.

﴿وَالرَّسُولِ﴾ الواو: عاطفة، وحذف الفعل واللام من المعطوف، فلم يقل:

«واستجابوا للرسول» في إشارة إلى أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله تعالى، كما أن أمر الرسول ﷺ أمر الله تعالى، أي: الذين استجابوا وانقادوا لأمر الله والرسول ﷺ لما دعاهم إلى الخروج، والذي أمرهم بذلك هو الرسول ﷺ بأمر الله تعالى له. و«ال» في الرسول للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود بالأذهان محمد ﷺ.

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «القرح» بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها: «القرح»، و«ما»: مصدرية، أي: من بعد إصابة القرح لهم.

وهو ما حصل لهم في أحد من القتل والجراح، والتعب والألم النفسي، حيث قتل منهم سبعون، وجرح النبي ﷺ، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته، وغير ذلك.

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ ﴾، أي: للذين أحسنوا بالاستجابة لله والرسول، واتباع أمر الله تعالى ورسوله.

﴿ وَاتَّقُوا ﴾، أي: واتقوا الله تعالى بترك مخالفة أمر الله تعالى ورسوله.

﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: ثواب عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه وغير ذلك، لا يقدر قدر عظيمته إلا من وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٣).

لما ثنى معبد أبو سفيان ومن معه كما تقدم، مرَّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غداً زبيياً بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ، وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقالوا: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴿الَّذِينَ﴾ صفة ثانية للمؤمنين، والمراد بالناس هنا الركب الذين أوصاهم أبو سفيان من عبد القيس فيهم نعيم بن مسعود الأشجعي.

﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ المراد بـ﴿النَّاسِ﴾ هنا أبو سفيان ومن معه من المشركين ﴿جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أي: جمعوا لكم الجموع من الرجال والعدة والعتاد للكرة عليكم واستئصال بقيتكم.

﴿فَأَخَشَوْهُمْ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، أي: فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فزادهم هذا القول إيماناً إلى إيمانهم، ولم يشنهم ذلك عن المضي قدماً لما أمرهم به رسول الله ﷺ، وهكذا - فإن المصائب تلو المصائب تمحص المؤمنين وتزيدهم إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١].

ولهذا لما رأى المؤمنون الأحزاب يوم الخندق قد حاصروا المدينة قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].
﴿وَقَالُوا﴾ ثقة بالله، وتوكلاً عليه.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، «الحسب» بمعنى «الكافي»، أي: كافينا الله إياهم، وكافينا كل شيء، ومهما جمعوا لنا من جموع، فلا نخشى سوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ الوكيل: اسم من أسماء الله - عز وجل - أي: الوكيل على خلقه، ومعناه: المفوض إليه أمور خلقه القائم بمصالحهم، الذي يُعتمد عليه في دفع الضرر وجلب النفع، الكافي لمن توكل عليه. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/٢٤٨)، «السيرة النبوية» لابن هشام (١/١٢١)، «زاد المعاد» (٣/٢٤٢)،

«بدائع التفسير» (١/٥٢٩-٥٣٠).

الوكيل الله، أو هو.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - «أنها تفاخرت هي وزينب - رضي الله عنهما - فقالت زينب: زوجني الله، وزوجكن أهاليكن. وقالت عائشة: أنزلت براءتي من السماء في القرآن. فسلمت زينب، ثم قالت: كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل؟ فقالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين» (٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٤).

أي: فرجعوا عائدين إلى المدينة بعد أن بلغوا حمراء الأسد، وأقاموا بها ثلاثة أيام، وبعد أن تأكدوا من رجوع أبي سفيان وأصحابه إلى مكة.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ حيث كفاهم من ملاقات العدو والقتال.

﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: وتفضل وزيادة من الله تعالى لهم بأن كتب لهم أجر هذه الغزوة وثوابها تاماً دون قتال.

وفضل الله واسع، فإن من نوى عملاً وحال العذر بينه وبين ذلك العمل، فإن الله يكتب له أجر ذلك العمل تاماً.

﴿لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ أي: لم يصبهم أي سوء، لا من قتل ولا جراح ولا أي أذى. ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم الراء: «رُضْوَان»، وقرأ الباقون بكسرهما: ﴿رِضْوَانٍ﴾.

أي: واتبعوا ما يرضي الله تعالى باستجابتهم لله تعالى والرسول، واستكفائهم بالله

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٧/١٩٤-١٩٥)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٢٥).

وتوكلهم عليه، فحصل لهم السلامة من ملاقات العدو والقتال، والفوز برضوان الله تعالى بالاستجابة له وطاعته والتوكل عليه، وهو كما يقال: «غنيمة باردة».

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب فضل عظيم على عباده، ومن ذلك تفضله - عز وجل - على المؤمنين بأن صرف عدوهم عنهم فرجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسههم سوء، وكتب لهم أجر هذه الغزوة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ،﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: دخلت فيها «ما» النافية على «إِنَّ» المؤكدة فكفتها عن العمل.

والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى ما قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ أو إلى من قال ذلك، أو إلى الأمرين معاً. والخطاب للمؤمنين، والميم للجماعة.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ،﴾، ﴿يُخَوِّفُ﴾: ينصب مفعولين، الأول محذوف، والتقدير: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوفكم أولياءه المشركين، أي: يوهمكم أنهم ذوو بأس وقوة وشدة، ويعظمهم في نفوسكم؛ لتخافوهم، وتتركوا الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب تخويف الشيطان لكم. وأولياء الشيطان هم أتباعه وحزبه من المشركين، وأهل الكفر والمعاصي.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا»: ناهية، أي: فلا تخافوا أولياء الشيطان، فتركوا الجهاد خوفاً منهم، فنواصيهم بيدي، وهم أذل وأحق وأضعف من أن تخافوهم.

﴿وَخَافُونَ﴾ أي: وخافوني وحدي، فأطيعوني، ولا تحالفوا أمري. وأنا أكفيكم إياهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: جملة شرطية، وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم وخافوني؛ لأن الإيمان يقتضي إثارة خوف الله تعالى على خوف غيره.

الفوائد والأحكام:

١- أن من قتلوا في سبيل الله فليسوا بأموات، بل أحياء عند ربهم حياة برزخية خاصة ولا ينبغي أن يظن بأنهم أموات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

٢- فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله؛ لعظم ما أعد الله لمن قتل في سبيله عنده من الرزق والفضل وألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآيات.

وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»^(١).

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: لما قتل أبي يوم أحد، جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهوني. والنبي ﷺ لم يئن. وقال النبي ﷺ: «لا تبكيه - أو ما تبكيه، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»^(٢).

وعنه - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أما علمت أن الله أحيا أباك، فقال له: تمنّ عليّ. فقال له: أرد إلى الدنيا، فأقتل مرة أخرى. فقال: إني قضيت الحكم، أنهم إليها لا يرجعون»^(٣).

وفي رواية عنه - رضي الله عنه - قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟ قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً ودينًا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: «ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي، تمنّ عليّ أعطك. قال: تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم لا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧)، وأحمد (١٢٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة أحد (٤٠٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦١/٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢٣١/٦)، و«الحاكم» (١١٩/٢-٢٢٠).

يرجعون، وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

- ٣- تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال والتعرض للشهادة.
- ٤- إثبات أن الأنبياء أحياء عند ربهم حياة برزخية بأرواحهم؛ لأنه إذا ثبت هذا للشهداء فالأنبياء من باب أولى؛ لأن مرتبة الأنبياء أعلى من مرتبة الشهداء - مع ما خصَّ الله تعالى به الأنبياء من تحريم أجسادهم على الأرض (٢).
- كما أن في الآية إبطالاً لمن زعم أن النبي ﷺ حي في قبره، محتجاً بالآية، وبأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الشهادة، ولا إشكال في أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الشهادة. والآية إنما فيها دلالة على حياة الشهداء حياة برزخية بأرواحهم فقط دون حياة أبدانهم، فكيف يستدل بها على حياة النبي ﷺ في قبره بدنه. والصحيح أن حياة النبي ﷺ إنما هي حياة برزخية حياة الروح فقط.
- ٥- إثبات نعيم البرزخ، وعظم ما أعدّه الله للشهداء في حياتهم البرزخية من علو درجاتهم عنده في دار كرامته وقربهم منه، ورزقهم، وفرحهم واستبشارهم بمن سيلحق بهم من إخوانهم وسلامتهم من الخوف والحزن، واستبشارهم بنعمة من الله وفضل؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١١٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.
- وبهذا جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم الروح بالفرح والاستبشار، والأمن من الخوف والحزن، بين النعيم الحسي، والنعيم المعنوي، بين حصول المطلوب، وزوال المرهوب.
- ٦- تلاقي أرواح الشهداء وتبشير بعضهم بعضاً.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وفي الجهاد - فضل الشهادة في

سبيل الله (٢٨٠٠)، وابن حبان (٤٩٠/١٥)، والحاكم (٢٠٣/٢) - وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) سبق تحريجه.

٧- ينبغي نسبة النعم إلى مسديها وهو الله - عز وجل - وإسناد الفضل إليه فهو أهل الفضل سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَاءِ آتَيْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، فمنه - عز وجل - جميع النعم، وهو صاحب الفضل كله.

٨- تكفل الله - عز وجل - بأجر المؤمنين وضمانه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بعدم إضاعة أجرهم، وسماه «أَجْرًا» تأكيداً لضمانه لهم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مع الشهادة بإيمان هؤلاء إشارة إلى أن كل عمل من جهاد وغيره فهو مبني على أصل الإيمان، كما أن فيه إشارة إلى واسع رحمة الله تعالى وفضله بعموم هذا الوعد لجميع المؤمنين من قاتل أو قُتل في سبيل الله، ومن لم يُقاتل.

١٠- ثناء الله تعالى على الصحابة - رضي الله عنهم - باستجابتهم لله والرسول بالخروج إلى المشركين بعد أحد مع ما هم فيه من المصاب العظيم، والإحسان والتقوى وزيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

١١- أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مع حذف العامل: «استجابوا»، واللام من المعطوف، وهو قوله: ﴿وَالرَّسُولِ﴾.

١٢- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو التي تقتضي التشريك، في باب التشريع والأمر والنهي والطاعة والمعصية والاستجابة نحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

١٣- أن المؤمن حقاً يزداد بالمصائب ثباتاً ورسوخاً وإقداماً وإيماناً.

١٤- أن استجابة الصحابة- رضي الله عنهم- لله والرسول من الإحسان والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

١٥- عظم ما أعدّه الله تعالى للذين أحسنوا و اتقوا من الأجر؛ لأن الله وصفه بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾ ولا يقدر عظمة هذا الأجر إلا العظيم سبحانه، وفي هذا ترغيب بالإحسان والتقوى.

١٦- قوة إيمان الصحابة- رضي الله عنهم- و يقينهم وتوكلهم على الله تعالى وخشيتهم منه وحده، واستكفاؤهم به وحده، وعدم خشيتهم من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

١٧- إثبات زيادة الإيـان ونقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

١٨- ينبغي التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه وخشيته دون سواه، والحذر من المرجفين.

١٩- أن المصائب والشدائد تمحص الناس، وتزيد في الإيـان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٢٠- أن الله تعالى هو الحسب والكافي وحده، فمن استكفاه كفاه وحفظه ووقاه من جميع الشرور، ولو اجتمع عليه جميع الخلق ما نالوه بسوء؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقوله: ﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾.

٢١- أن الله- عز وجل- نعم «الوكيل» الموكول إليه شؤون خلقه، الكافي لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْوَكِيلُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٢٣- استحباب قول هذه الكلمة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وبخاصة عند الغم والأمور العظيمة؛ لما لها من الأثر العظيم فقد قالها إبراهيم- عليه السلام- حين

ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

فجعل الله النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وانقلب محمد ﷺ وأصحابه بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

٢٤- تحصيل الصحابة- رضي الله عنهم- باستجابتهم لله والرسول، واستكفائهم بالله- عز وجل- وتوكلهم عليه المصلحتين معًا؛ الأولى رجوعهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، والثانية اتباعهم رضوان الله تعالى.

فسلموا من ملاقاته العدو والحرب، ونالوا أجر هذه الغزوة، وفازوا باتباع رضوان الله باستجابتهم لله والرسول، ومن اتبع رضوان الله أثابه الله وأكرمه.

٢٥- نعمة الله تعالى على هؤلاء بتسليمه لهم من الحرب ولقاء العدو، وتفضله عليهم بأجر هذه الغزوة دون عناء أو قتال.

٢٦- إثبات صفة الرضا لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

٢٧- أن الله- عز وجل- صاحب الفضل العظيم على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

٢٨- تحقير وتهوين أمر الشيطان وإرجافه بالتخويف من أوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾.

٢٩- عداوة الشيطان للمؤمنين، ودفاعه عن أوليائه الكافرين، بتخويف المؤمنين منهم.

٣٠- يجب أن لا يخاف المؤمنون من أولياء الشيطان؛ لضعف كيده وإياهم، ويجب عليهم الخوف من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

٣١- أن من شرط صحة الإيذان أن لا يخاف المؤمن إلا من الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مَبْدُثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ .

بيّن عز وجل في الآية السابقة أن الشيطان يخوف أوليائه ونهى المؤمنين عن الخوف منهم وأمرهم بخوفه وحده- في إشارة واضحة إلى أن الشيطان وأوليائه أذل وأحقر من أن يخاف منهم، وهذا في الدنيا، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعد لهم في الآخرة من الخسران، والعذاب العظيم، وفي هذا تهديد لهم.

قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي «يُحْزِنُكَ» من الرباعي: «أحزن»، وقرأ الباقون: «يَحْزُنُكَ» بفتح الياء وضم الزاي من الثلاثي: «حَزَنَ»، والخطاب للنبي ﷺ. و«الحزن» الهم والغم.

أي: لا تهتم بهم ولا تبال لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفِ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صِدْقًا بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقد كان ﷺ من شدة حرصه على هداية قومه يحزنه الذين يسارعون في الكفر والعناد والمخالفة والشقاق، ويضيق بذلك حتى أنه يُحشى على نفسه من الهلاك، وحتى نهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ فَتَسْكُ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]،

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: عام في كل من سارع في الكفر من المنافقين والمرتدين وغيرهم، ومعنى ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: يسارعون إلى الدخول في الكفر ويعجلون إلى إظهاره، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤١].

﴿إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تعليل للنهي قبله، أي: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنهم ﴿لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ مهما سارعوا في الكفر، وإنما يضررون أنفسهم.

و﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لن يضروا الله أي شيء من الضرر، أي: لن يستطيعوا أن يلحقوا به أي شيء من الضرر وإن قل، كما قال تعالى في الحديث: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»^(١). ولن يستطيعوا إطفاء نوره، لأنه - عز وجل - متم نوره ولو كره الكافرون، لا تضره - عز وجل - معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة المطيع، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً»^(١).

﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ إرادة كونية قدرية، أي: يريد الله ويشاء بحكمته بكونهم يسارعون في الكفر.

﴿أَلَا يَجْعَلُ لَهُمُ﴾ «أن» حرف مصدرى ونصب، و«لا» نافية. والمصدر المؤول في محل نصب مفعول «يريد». والمراد بالجعل هنا: «الجعل الكوني».

﴿حَظًّا﴾ أي: نصيباً.

﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة يوم القيامة.

(١) سبق تخريجه.

﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، الواو: عاطفة، أي: ولهم عقاب عظيم، من حيث كيفه وكمه ونوعه وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا مَنْ وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

نهى عز وجل الرسول ﷺ أن يحزنه الذين يسارعون في الكفر مبيتاً أنهم لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب عظيم، ثم أكد ذلك في هذه الآية اهتماماً به وتقديرًا له وتأكيدياً.
قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، أي: اختاروا الكفر على الإيمان.

﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ ذكر هذا أولاً تعليلاً لتسليية الرسول ﷺ، ثم أكده هنا بالخبر استقلالاً للاهتمام به، وهو هنا أظهر في التعريض باقتصار الضرر عليهم، كأنه قيل: إنما يضررون أنفسهم.

﴿أَلِيمٌ﴾ على وزن «فعليل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجه حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

بيّن عز وجل في الآيتين السابقتين أن الذين كفروا لن يضرروا الله شيئاً، وتوعدهم بعذاب عظيم وأليم، ثم نهاهم في هذه الآية أن يحسبوا أنها يمليه الله لهم خير لأنفسهم، وإنما ليزدادوا إثماً، وتوعدهم بعذاب مهين.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ حمزة بتاء الخطاب: «ولا تحسبن» والخطاب للنبي ﷺ ولن يصلح له، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

والمعنى على قراءة الخطاب: «ولا تحسبن» أيها المخاطب، أي: ولا تظنن الذين كفروا أنها نملي لهم خير لأنفسهم.

والمعنى على قراءة الغيبة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: ولا يظنن الذين كفروا أنها نملي لهم

خير لأنفسهم، ويجوز أن يكون مسندًا إلى ضمير غائب، يراد به النبي ﷺ وغيره، أي: ولا يحسبن النبي ﷺ أو ولا يحسبن أحد ﴿أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، «أن»: حرف مشبه بالفعل للتوكيد، و«ما» اسم موصول في محل نصب اسم «أن» أي: أن الذي نملي لهم خير، أو مصدرية، أي: أن إملأنا لهم خير.

ومعنى ﴿نُمَلِّي لَهُمْ﴾ أي: نمهلهم ونؤخر عقوبتهم، وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿نُمَلِّي﴾ في الموضعين؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر «أن»، وهو: اسم تفضيل، ﴿لِّأَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾ أي: لا يحسبوا أن الإملاء لهم خير من معاجلتهم بالعقوبة.

أي: لا يظنن الذين كفروا أننا إمهالنا لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة خير لهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للحصر، واللام في: ﴿لِيَزْدَادُوا﴾: للتعليل؛ أي: ما نملي لهم إلا لأجل أن يزدادوا إثمًا إلى إثمهم، فيزداد عذابهم. ويجوز أن تكون اللام: للعاقبة، أي: إنما نملي لهم ونمهلهم؛ لتكون العاقبة أن يزدادوا إثمًا.

والمعنى على التقديرين أن ذلك استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: مهين مذل لهم، ولكل من عذب به يبينهم ويذلهم، أي: عذاب معنوي ينصب على القلوب، لا يقل عن العذاب الحسي، والجزاء من جنس العمل؛ لأنهم إنما كفروا استكبارًا، فعوقبوا بعذاب يذلهم ويبينهم.

فوصف عذاب الكافرين في هذه الآية بأنه: ﴿عَظِيمٌ﴾، و﴿أَلِيمٌ﴾، و﴿مُهِينٌ﴾. من حيث كيفه وكمه ونوعه ونحو ذلك، و﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجه حسيًا للبدن، و﴿مُهِينٌ﴾ مذل معنويًا للنفس والقلب.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُطَلِّعَكُمْ عَلَى الْعَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. في هذا- وفي ختام الآيات في قصة أحد- تأكيد لما سبق التنبيه عليه في هذه القصة، وهو حكمة الله تعالى البالغة فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة؛ لتمييز المؤمنين من المنافقين. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: نافية، واللام في ﴿لِيَذَرَ﴾: لام الجحود، وينصب المضارع بعدها بإضمار «إن»، ﴿لِيَذَرَ﴾، أي: ليرك، أي: ما كان الله ليرك المؤمنين الخالص من النفاق. ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة والضمير ﴿أَنْتُمْ﴾ للمسلمين عموماً بما فيهم المناقون.

ويدل على أن المراد ب﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الخالص منهم، وأن المراد بقوله: ﴿أَنْتُمْ﴾ عموم المسلمين أنه لم يقل: «ليذكركم على ما أنتم عليه» ففي هذا تنبيه على أن المراد بضمير الخطاب أكثر من المراد بلفظ المؤمنين؛ ولهذا لم يقل: على ما هم عليه. والمعنى: يمتنع شرعاً غاية الامتناع أن الله يترك المؤمنين الخالص من النفاق على الذي أنتم أيها المسلمون عليه من الالتباس والاختلاط، وعدم تمييز الخبيث من الطيب. ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قرأ يعقوب وحزرة والكسائي وخلف بضم الياء الأولى وتشديد الياء الأخرى: «يُمِيزُ»، وقرأ الباقر بفتح الياء والتخفيف «يَمِيزُ» و﴿حَتَّى﴾ للغاية، و﴿يَمِيزَ﴾ بمعنى: يفصل.

أي: إلى غاية أن يفصل بين الخبيث والطيب، أي: يبين ويظهر الخبيث من الطيب. و«الخبيث» و«الطيب» من الأوصاف التي تطلق على الأعيان والأقوال والأفعال والمعتقدات.

المراد هنا ب«الخبيث» المنافق، و«الطيب» المؤمن. والمعنى: ما كان الله ليرك المؤمنين على الحال الذي أنتم عليه، من عدم تمييز أهل الإيمان الخالص من أهل النفاق حتى يميز ويظهر المؤمن الخالص من المنافق بالابتلاء بالجهاد وغيره مما تظهر به علامات المنافق، وبما ينزله الله من الوحي على رسوله.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَمُّعِ فَمَا أَذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَّالُوا فَاقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فَمَا لَنَا لَاتَجْمَعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

فقد تميز في أحد وما حصل به من مصاب على المسلمين المؤمنون الخالص من المنافقين؛ المؤمنون الذين زادهم ما أصابهم يوم أحد إيماناً وتوكلاً على الله - تعالى - وثباتاً، من المنافقين الذين نكصوا عن الجهاد، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، ونجم نفاقهم وأظهروا ما كانوا يكتُمونه.

فامتدح الله - عز وجل - المؤمنين الصادقين وأثنى عليهم. وفضح المنافقين، وهتك أستارهم، وبهذا عرف المسلمون أن بين ظهرائهم عدواً أشد عليهم من الأعداء الظاهرين، وهكذا الشدائد فيها تمييز الصادق من الكاذب، والعدو من الصديق. وكما قيل:

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي^(١)

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾، معطوف على قوله: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾،

و﴿ مَا ﴾: نافية، واللام في ﴿ لِيُطْلِعَكُمْ ﴾: لام الجحود، والخطاب عام لجميع الخلق.

ومعنى ﴿ لِيُطْلِعَكُمْ ﴾: ليظهركم، أي: وما كان الله ليظهركم على الغيب فتميزون به الخبيث من الطيب، أي: تميزون المؤمن الخالص من المنافق؛ لأن الإيمان والنفاق من الأمور الباطنة في الصدور والقلوب.

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن»: للاستدراك.

﴿ يَجْتَبِي ﴾: يختار ويصطفي.

﴿ مِنْ رُسُلِهِ ﴾: من رُسُلِهِ، أي: من بعض رسله.

﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾: من موصولة، أي: الذي يشاء، فيطلعه على الغيب الذي يريد

اطلاعه عليه، كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿ عَلِمُوا الْغَيْبَ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣﴾

(١) انظر: «مجاني الأدب» (٢٧/١)، «المنهاج الواضح للبلاغة» (٢/١٢١). وينسب للشافعي.

إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٦-٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

أي: يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم. ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

كما كان ﷺ يعرف المنافقين، وقد أخبر صاحب سره حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - بأسمائهم.

﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: حققوا إيمانكم بالله تعالى بالتصديق التام بالله - عز وجل - وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والانقياد التام لشرعه، والرضا والتسليم لقدره.

﴿وَرُسُلِهِ﴾ بالتصديق بهم جميعاً وبما جاؤوا به من الشرع من عند الله - عز وجل - والانقياد والاتباع لما جاء به خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

والمؤمن في حاجة دائماً إلى الإيمان بالله ورسوله، أي: بأن يوفقه تعالى إلى الإيمان بالله ورسوله في كل لحظة، وأن يوفقه فيه ويثبته عليه، ويزيده منه، ويعينه عليه، وقد قال الله - عز وجل - للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]. وأمرنا أن نقول في الفاتحة وفي كل ركعة من الصلاة: ﴿أَعِدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الآية: ٧]؛ لأن المؤمن في حاجة في كل لحظة إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، ويهديه فيه، ويثبته عليه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: تحقيق الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لشرع الله، والرضا والتسليم لقدره.

﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا﴾ الواو: استثنائية، أي: وإن تومنون وتصدقوا بقلوبكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ بجوارحكم، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات.

﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلکم ثواب عظيم، لا يقدر قدره إلا من أعطاه لكم، ووصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى. وسمى عز وجل ثوابهم «أجراً»؛ لأنه تكفل به وضمنه لهم تفضيلاً منه وكرماً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ مِنَ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

المال هو عصب الجهاد والقتال في سبيل الله، ولهذا - والله أعلم - ختم الآيات في قصة أحد في التحذير من البخل في المال، ومنع حقوق الله تعالى فيه من الإنفاق في الجهاد وغيره.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قرأ حمزة بتاء الخطاب وفتح السين: «ولا تحسبن»، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح خطابه، أي: ولا تظنن أيها المخاطب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة مع كسر السين: «ولا يحسبن»، وقرأ الباقون بياء الغيبة مع فتح السين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾.

أي: ولا يحسبن، أي: ولا يظنن هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ مِنَ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

«البخل»: هو منع الحقوق الواجبة في المال، وهو ضد الكرم.

﴿بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ مِنَ فَضْلِهِ﴾، «ما»: موصولة، أي: بالذي أعطاهم الله.

﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: من تفضله - عز وجل - وزيادته وليس ذلك من كسبهم وكدهم، ولا باستحقاقهم ذلك على الله تعالى، وهو مال الله تعالى استخلفهم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفُسُكُمْ مِمَّا جَعَلْنَا لَكُمْ مَسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقد أحسن القائل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع^(١)

﴿هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، عائد على «البخل» المأخوذ من قوله:

﴿يَبْخُلُونَ﴾، وهذا المقدر: مفعول أول «يحسبن»، و﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثان و﴿خَيْرًا﴾: اسم تفضيل، أي: لا يظنن البخل والشح خيراً لهم من الإنفاق والعطاء.

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص ١٧٠).

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، وفيه تأكيد لنفي كونه خيراً. والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى البخل المفهوم من قوله: ﴿يَبْخُلُونَ﴾، و﴿شَرٌّ﴾: اسم تفضيل، أي: بل هو أي: البخل شر لهم في دينهم وديارهم وأخراهم، أي: البخل شر لهم من العطاء، والعطاء ليس فيه شر - من حيث الأصل - بل هو خير، ولكن الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم؛ لأنهم يظنون أنهم إذا أنفقوا افتقروا. وقد قال الله - عز وجل -: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال» (١).

﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلُؤِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الجملة: في موقع التعليل، لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، وهي وعيد وتهديد لهم.

والسين في قوله: ﴿سَيَطُوفُونَ﴾ للتنفيس والدلالة على تحقق وقوع عذابهم وقربه، و«يطوفون» مشتق من الطُوق، كطوق القميص ونحوه، والتطويق: جعل الشيء طوقاً في العنق.

و«ما»: موصولة، بمعنى الذي، أي: سيطوفون الذي بخلوا به يوم القيامة. والمعنى: سيجعل الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة يعذبون به كما قال ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ مُثَلَّ لِمَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعاً أَقْرَعُ لَهُ زَبِيَّتَانِ يَطُوقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشَدْقِيهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الآية» (٢).

وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل له مال لا يؤدي حق ماله إلا جعل له طوقاً في عنقه، شجاع أقرع، وهو يفر منه، وهو يتبعه، ثم قرأ مصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب - استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، من حديث - أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة - إثم مانع الزكاة (١٤٠٣)، والنسائي في الزكاة (٢٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ الآية.

والجزء من جنس العمل، فحيث بخلوا بما آتاهم الله من فضله، ومنعوا حق الله تعالى فيه عوقبوا وعذبوا بأن جعل ذلك طوقاً في أعناقهم يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لما كان الذي يبخل بالمال إنما يبخل به ليبقى له بين عز وجل في هذه الآية أن المال لن يبقى له وأن له - عز وجل - ميراث السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

والواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾: اعتراضية، و(الله): جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر للحصر والاختصاص، أي: والله وحده ميراث السموات والأرض.

والجملة اعتراضية بين قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والمعطوف عليه وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والغرض منها: بيان أن المال لن يبقى لمن بخل به بل سينتقل منه إلى أن ينتهي إلى الله تعالى ميراث السموات والأرض.

ولله ميراث السموات والأرض بعد فناء سكانها وما فيها وزوال كل ملك وملكه وكل ما ملك، فيتحول ميراثها وينتهي إلى الله - عز وجل - فترد جميع الأملاك إلى مالكتها الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بياء الغيبة «يعملون» أي: بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله.

وقرأ الباقر بقاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما تعملون كلكم؛ أنتم أيها المؤمنون وهؤلاء الذين يبخلون. و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿خَبِيرٌ﴾، أي: مطلع على أعمالكم دقيقة وجليلها، خفيها وجليلها، باطنها وظاهرها.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٧/١)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠١٢). وقال الترمذي:

وختم الآية بهذا واضح المناسبة؛ لأن من الناس من يملك أموالاً طائلة ويخل في الزكاة والحقوق فيها، والناس لا يعلمون عنه، وفي هذا الختام تذكير له بأن عمله لا يخفى على العليم الخبير.

وبهذه الآية انتهى الحديث عن قصة غزوة أحد والتي بدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآية: ١٢١].

الفوائد والأحكام:

- ١- دفاع الله تعالى عن نبيه وتسليته له، وتشريفه وتكريمه بخطابه - عز وجل - له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية.
- ٢- حرص النبي ﷺ على هداية الناس؛ ولهذا يحزنه ﷺ كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، كما قال تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].
- ٣- ينبغي بذل الجهد في الدعوة إلى الله تعالى وعدم الاكتراث بالمعاندين والمخالفين.
- ٤- ذم المسارعين إلى الكفر الذي فيه هلاكهم، وكان الأجدر بهم المسارعة إلى الإيمان.
- ٥- انتفاء الضرر عن الله تعالى، فلا تضره - سبحانه - معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، ومن كفر فلا يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.
- ٦- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾.
- ٧- حرمان المسارعين بالكفر من النصيب في الآخرة، وتوعدهم بالعذاب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزَابًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- ٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزَابًا فِي الْآخِرَةِ﴾.
- ٩- الإشارة إلى أن الحظ الأوفر هو حظ الآخرة، فمن حرمه فهو المحروم والخاسر حقاً.
- ١٠- أن الكفار لهم حظ من الدنيا؛ لمفهوم قوله: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزَابًا فِي الْآخِرَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هُنَّ وَأَنْزَلْنَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

[الإسراء: ٢٠].

١١- الجمع لهؤلاء الكفار بين عقوبتين: فوات حظهم ونصيبيهم من الآخرة، والعذاب العظيم في النار، بين فوات المرغوب والمطلوب، وحصول المكروه والمرهوب.

١٢- بيان حكمة الله تعالى في كون هؤلاء يسارعون في الكفر، وهي ما يريد كونه من حرمانهم من حظ الآخرة، وتعذيبهم بالعذاب الأليم.

١٣- تسفيه من اختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾.

١٤- تأكيد نفي الضرر عن الله تعالى وأن هؤلاء لا يضرهم سوى أنفسهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَدَابُ آلِيمٍ﴾.

١٥- أن الله يمهل ولا يهمل فلا ينبغي أن يُغتر بامهال الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّئِهِمْ حَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾.

١٦- استدراج الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطَمِّئِهِمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَأَمَّا لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

وقال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) [هود: ١٠٢] (١).

١٧- لا ينبغي الاغترار بالنعم، فليست دليلاً على الخير والرضا مطلقاً.

١٨- إثبات زيادة الإثم والكفر ونقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِثْمًا﴾ وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصانه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١٩- الوعيد للكافرين بالعذاب المهين الذين يهينهم ويذلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَدَابُ

(١) سبق تخرجه.

مُهَيْنٌ ﴿٢٠﴾

٢٠- أن الجزء من جنس العمل، فحيث استكبر هؤلاء الكفار عن عبادة الله تعالى جازاهم الله بعذاب مهين يهينهم ويذلهم - وكما يدين المرء يدان.

٢١- شدة عذاب الكفار، فهو عظيم من حيث كيفه وكمه ونوعه، وهو أليم مؤلم موجه للأبدان حسيًا، ومهين للقلوب والأنفس معنويًا.

٢٢- اقتضاء حكمة الله تعالى أنه لا بد أن يميز الخبيث من الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، وذلك بالابتلاء بالجهاد وغيره، وبالوحي من عند الله عز وجل.

٢٣- انقسام الناس إلى خبيث وطيب، مؤمن وكافر، ومؤمن مخلص، ومنافق - وهكذا الأعمال والأقوال والأعيان فيها خبيث وطيب.

٢٤- أن الخبيث لا يساوي الطيب في أي شيء كان، والمنافق لا يساوي المؤمن المخلص، فالمؤمن طيب ظاهر والمنافق خبيث نجس.

٢٥- أن علم الغيب مما اختص الله - عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكَ الْغَيْبِ﴾، فمن ادعى علم الغيب فهو كاذب كافر، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

٢٦- اصطفاء الله تعالى واختياره من رسله من يشاء، وإطلاعه إياهم على شيء من الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِۦ مَنْ يَشَاءُ﴾، كما قال تعالى:

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦ أَحَدًا﴾ ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِۦ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَٓ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ﴿[الجن: ٢٦-٢٨].

٢٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، وهي الإرادة الكونية.

٢٨- وجوب الإيمان بالله ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٢٩- فضل الإيثار والتقوى؛ لأن الله رتب عليهما الأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٠- أن الإيمان هو الأصل وعليه تبنى الأعمال؛ لهذا قدم الإيمان على التقوى، التي هي فعل الأوامر واجتناب النواهي، فقال: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَسْتَفُؤْا﴾.

٣١- تكفل الله- عز وجل- بثواب المؤمنين المتقين؛ لهذا سماه «أجرًا».

٣٢- عظم ثواب من آمن و اتقى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. فلا يعلم عظم هذا الأجر إلا من وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

٣٣- أن البخل شر محض وبخاصة منع الواجب في المال كالزكاة والنفقة الواجبة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾.

٣٤- لا ينبغي أن يظن أن البخل سبب للغنى وبقاء المال، وأن الإنفاق سبب للفقر وفناء المال؛ لأن هذا من الشيطان، بل العكس صحيح، فالإنفاق سبب لزيادة المال وسلامته، والبخل سبب لنقصانه وهلاكه. هذا ما دلت عليه النصوص، وشهد به الواقع.

٣٥- تذكير أهل البخل بأن ما عندهم من مال مما تفضل الله به عليهم، وفي هذا توبيخ لهم على البخل به؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَاءِ آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

٣٦- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٣٧- أن الجزء من جنس العمل، فمن بخل بما أوجه الله عليه طوّقه الله يوم القيامة.

٣٨- أن الله- عز وجل- ميراث السموات والأرض، وكل ما فيها سينتقل وينتهي إليه- عز وجل- فلا المال يبقى لصاحبه، ولا صاحب المال يبقى لماله، والبقاء للحق القيوم، الآخر الذي لا شيء بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣٩- أن المال من الله- عز وجل- ومن فضله ابتداءً، وأن مرده ومرجعه إليه انتهاءً، كما أن مبدأ الخلاق منه ومحياهم منه، ومماتهم ونهايتهم إليه، كما قال عز وجل:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣].

٤٠- علم الله - عز وجل - بأعمال العباد؛ دقيقتها وجليلها، خفيها وجليلها، باطنها

وظاهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وفي هذا وعد لمن أحسن العمل ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى علمه - عز وجل -

أن يحاسب الخلائق ويمجزيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُوْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

بعد أن أسدل الستار على قصة أحد، محذراً في آخرها من البخل ومتوعداً أهله، أتبع ذلك بذكر قبائح اليهود، والذين هم ردة للمشركين والمنافقين في المدينة، وجرأتهم على الله بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إمعاناً منهم في دفع تحذيره - عز وجل - عن البخل ووعيد أهله.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: افتقر ربك؛ يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية» (١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «دخل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بيت المدراس، فوجد ناساً من يهود كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأخبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع. فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٢٨/٣). وانظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٣/٢).

عنده، تجدوناه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. قال فنحاص: والله يا أبابكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا، ويعطيناه، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا. فغضب أبوبكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء. فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحذ ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك: فأنزل الله - جل ثناؤه - فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَسَّمَعْتَ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَفُؤْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] (١).

وقد روي أنها نزلت في حبي بن أخطب.

قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، تقديره: والله لقد سمع الله، و«قد»: حرف تحقيق، فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، و«قد».

والله - عز وجل - هو أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

وإنما أقسم الله - عز وجل - على هذا الخبر للتأكيد والمبالغة في تهديد هؤلاء ووعيدهم. والسمع من الصفات الذاتية الثابتة لله - عز وجل - أي: ذو سمع واسع، يسمع جميع

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/٢٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٨٢٨-٨٢٩).

الأقوال والأصوات، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تجادله في زوجها وما بيني وبينها إلا ساتر فلما أسمع كلامها وقد سمع الله صوتها من فوق سبع سموات»^(١).

﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أي: لقد سمع الله قول الذين قالوا هذه المقالة، من اليهود، منهم: فنحاص بن عازر، وحبي بن أخطب.

وذلك لما حذر عز وجل عن البخل وتوعد أهله وحث على الصدقة، وقد جمعوا في هذه المقالة السيئة بين أمرين في غاية القبح والشناعة، الأول: وصفهم الله بالفقر، والثاني: أنهم هم الأغنياء. أي: أنهم أغنى من الله تعالى الله عن قولهم.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ قرأ حمزة بالياء: «سيكتب»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿سَنَكْتُبُ﴾. وقراءة: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ بضمير المتكلم؛ لأنه - عز وجل - هو الأمر لملائكته بكتابة أقوال العباد، وهذا ما بيته القراءة الثانية بالياء: «سيكتب»، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْخَفِيظِينَ﴾^(١٠) ﴿كِرَامًا كَانِينِينَ﴾^(١١) ﴿يَعْمُونَ مَا نَقْفَلُونَ﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَأَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

و﴿مَا﴾: موصولة، أو مصدرية، أي: سنكتب أو سيكتب الذي قالوا، أو قولهم. والمعنى: سنكتب ملائكتنا الذي قالوا من الإفك والفرية على الله عز وجل.

وفي هذا تهديد ووعد لهم، أي: سنكتب الذي قالوا ونحاسبهم ونجازيهم عليه.

﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ قرأ حمزة برفع القتل: «وقتلهم»، وقرأ الباقون

بنصبه: ﴿وَقَتْلَهُمْ﴾.

وهو معطوف على قوله: ﴿مَا قَالُوا﴾ أي: سنكتب قولهم وقتلهم الأنبياء، وفي عطفه

على قوله: ﴿مَا قَالُوا﴾ ونضمه معه إيداناً بسوابقهم القبيحة فلا يستبعد منهم أي جرم.

و﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾ جمع «نبي»، والمراد به: ما يشمل الأنبياء والرسل.

(١) أخرجه النسائي في الطلاق، باب في الظهار (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨).

﴿بِعَيْرِ حَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف بحال من الضمير في «قتلهم» وهذا قيد كاشف؛ لأن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق. وفائدة هذا القيد أمران؛ الأول: بيان الواقع، وأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق. والثاني: المبالغة في التشنيع عليهم حيث يقتلونهم بغير موجب لقتلهم، بل ظلماً وعدواناً.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ معطوف على ﴿سَنَكْتُبُ﴾.

قرأ حمزة بالياء: «ويقول»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَنَقُولُ﴾.

وفي هذا وعيد وتهديد لهم، أي: ونقول لهم؛ تبيكياً وتقريعاً وإهانة لهم وتحقيراً ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: تجرعوه وأحسوا به وتألوا.

وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب مع العذاب الحسي، كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار المحرقة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١١٢).

هذا من جملة مقول القول، أي: ونقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ونقول لهم: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى توبيخهم وعقابهم بقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية.

أي: بسبب الذي قدمت أيديكم، أو بسبب تقديم أيديكم، أي: ذلك الذي عوقبتم به بسبب الذي قدمت أيديكم وعملت أنفسكم. وإنما يضاف التقديم إلى الأيدي؛ لأنها أداة البطش والعمل والأخذ والعطاء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلْمَرَّةُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ﴾ [النبا: ٤٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على «ما» في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾

أي: ذلك بما قدمت أيديكم، وبأن الله ليس بظلام للعبيد.
 و(ظلام) هنا على وزن «فَعَال»، يراد بها النسبة، أي: ليس بذئ ظلم للعبيد، فلا
 يظلم أحدًا منهم، لا بقليل ولا بكثير؛ لأنه - عز وجل - حرّم الظلم على نفسه، قليله
 وكثيره، وجعله بين عباده محرّمًا.

﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ «العبيد» جمع «عبد» والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية
 الخضوع والانقياد الكوني، الذي يشمل المؤمن والكافر، وجميع الخلق، فالله - عز
 وجل - لا يظلم أحدًا من الخلق، بل يجازي كلًّا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء
 بعدله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ اٰلَيْنَا اَلَّا نُوْمِنَ لِرَسُوْلٍ حَتّٰى يٰتِيَنَا بِقُرْاٰنٍ
 تَاْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ اِنْ
 كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٨٢﴾.

هذا أيضًا من كذب اليهود وافتراءاتهم الباطلة على الله تعالى.

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ اٰلَيْنَا﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: في محل جر صفة
 لـ ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾.

﴿عٰهَدَ اٰلَيْنَا﴾ أي: أمرنا وأوصانا وصية موثقة بالعهد في كتبه وعلى السنة
 رسله ﴿اَلَّا نُوْمِنَ لِرَسُوْلٍ﴾ «أن»: حرف مصدرى ونصب، و«لا»: نافية، والمصدر
 المؤول ﴿اَلَّا نُوْمِنَ﴾ في محل جر بـ«في» مقدره، والتقدير: في ألا نؤمن، أي: في
 عدم الإيمان.

والمعنى: ألا نصدق لأي رسول أيا كان فيما جاء به.

﴿حَتّٰى يٰتِيَنَا بِقُرْاٰنٍ تَاْكُلُهُ النَّارُ﴾، ﴿حَتّٰى﴾: للغاية، أي: إلى غاية أن يأتينا
 ﴿بِقُرْاٰنٍ﴾ القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من الصدقات من الأطعمة والذبائح وغير
 ذلك.

ومعنى ﴿يٰتِيَنَا بِقُرْاٰنٍ﴾ أي: بأن يتقرب إلى الله بقربان ثم تنزل نار من السماء فتأكل
 كل هذا القربان.

وكان هذا علامة على قبول القربان، كما قال بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى عن بني آدم: ﴿وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۗ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. قالوا: فتقبل من أحدهما بأن نزلت نار من السماء فأكلت قربانه دون قربان أخيه.

وهكذا كانت الغنائم في الأمم السابقة إذا غنموا غنيمة من الكفار جمعوها ثم نزلت نار من السماء فأكلتها، حتى أحل الله - عز وجل - الغنائم لهذه الأمة، كما قال ﷺ: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»^(١).

فرعموا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا ولا يصدقوا لأي رسول إلا إذا أتاهم بهذه الآية، بأن يقرب أو يقربوا قرباناً فتأكله النار، فحصر وأية الرسل بهذا، وهذا تحكم على الله - عز وجل - وعلى رسله.

وآيات الرسل ومعجزاتهم إنما تكون على ما يناسب هداية وإصلاح أقوامهم، كما قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٢).

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ. أي: قل لهم إظهاراً لكذبهم. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ونكَّر ﴿رَسُولٌ﴾ للتكثير، أي: قد جاءكم رسل كثيرون.

﴿مِّن قَبْلِي﴾ أي: من قبل مجيئي وبعثتي.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالآيات والحجج والبراهين والدلائل الواضحات الشرعية والكونية التي تبين وتبرهن على صدق رسالاتهم.

﴿وَبِالذِّى قُلْتُمْ﴾: معطوف على البيئات، أي: جاءكم رسل من قبلي بالبيئات،

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيذان (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاؤوكم بالذي قلتم، وهو الإتيان بقربان تأكله النار.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر دل عليه ما بعده، أي: إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم، وكان من هؤلاء الرسل الذين قتلوهم زكريا ويحيى عليهما السلام. واللام في: «لِمَ»: حرف جر، و«ما»: استفهامية، حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها. أي: فلم قتلتموهم، وقد جاؤوكم بالآيات البيئات، وبالذي قلتم، والاستفهام للإنكار.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أن الله عهد إليكم بما قلتم، وأنكم تؤمنون بالرسول إذا جاؤوكم بهذه الآية التي طلبتم.

وقد عدل هنا عن مطالبتهم بصدق مقالتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ - إلى قوله لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من باب موافقة الخصم والتسليم له؛ لإفحامه، ودحض حجته، أي: إذا كنتم تزعمون أن الله عهد إليكم ألا تؤمنوا الرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار فقد جاءكم رسل من قبلي بهذه الآية التي ذكرتم، وبما هو أعظم منها من الآيات البيئات، فلم كذبتموهم وقتلتموهم؟

فلو كنتم صادقين في طلبكم هذه الآية لكنتم آمتتم بمن جاؤوكم من قبلي بها، وبأعظم منها، أي: أنكم لا تريدون تصديق الرسل، وإنما تريدون تكذيبهم، ولستم بصادقين في أن الله عهد إليكم بما ذكرتم، ولا أنكم تؤمنون بالرسول لو جاءكم بذلك.

وفي تقديم قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: دلالة على أن ما جاءت به الرسل من الآيات أعظم من الآية التي طلبوها، وأن الآية التي طلبوها وهي الإتيان بقربان تأكله النار دون تلك الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ

وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب قومه له.

قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ الفاء: عاطفة، والخطاب للنبي ﷺ، والواو في ﴿كَذَّبُوكَ﴾

لكل من كذب الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ والتقدير: فإن كذبوك فتسل، أو فلا تحزن فقد كذب رسل كثيرون من قبلك. أي: كذبهم أقوامهم، أي: فهذه سنة قديمة في الأمم مع الرسل قبلك.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر:٤]، لأن ﴿رُسُلٌ﴾ جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه إثبات التاء وحذفها.

﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ صفة لـ: ﴿رُسُلٌ﴾ أي: فليس تكذيب أمهم لهم عن قصور بما أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد جاؤوا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات البينات والحجج والبراهين الواضحات الدالة على صدقهم.

﴿وَالزُّبُرِ﴾ قرأ ابن عامر بإعادة الباء: «وبالزبر»، وقرأ الباقر بدونها: ﴿وَالزُّبُرِ﴾، وهي: جمع «زبور»، وهو «فعل» بمعنى «مفعول»، أي: مزبور، بمعنى مخطوط. وقيل: مأخوذ من «زبر»: إذا زجر.

والمراد بالزبر: كتب الأنبياء والرسل، مما يتضمن مواعظ وزواجر وتذكير، مثل كتاب داود عليه السلام «الزبور»، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، وكذا الإنجيل.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَالْكِتَابِ﴾ بمعنى «المكتوب» و«ال» فيه للجنس، أي: جنس الكتب التي أنزلها الله تعالى كالتوراة والإنجيل.

﴿الْمُنِيرِ﴾ صفة لـ(الكتاب) أي: البين الواضح الجلي، المبين للحق، المنير لطريق الهداية، الذي فيه بيان الأحكام الشرعية.

ويحتمل كون «ال»: للعهد، والمراد بـ«الكتاب»: التوراة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

وقد قال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦].

كما قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ ﴿١٨١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

والعطف في قوله: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ منظور فيه إلى التوزيع، فبعض الرسل جاء بالزبر، وبعضهم جاء بالكتاب المنير، وكلهم جاؤوا بالبينات. ويحتمل أن يكون العطف هنا: من عطف الصفات لا من عطف الذوات، أي: أن ما جاءت به الرسل مشتمل على الآيات البينات والحجج والبراهين، وعلى الزبر والمواعظ، وعلى بيان الحق للناس وإنارة الطريق لهم، وهذا حق.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥).

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ﴿كُلُّ﴾ من صيغ العموم.

و﴿نَفْسٍ﴾ تطلق على الروح والبدن، أي: كل الأنفس ذائقة الموت، أي: ذائقة طعم الموت، أي: لا بد أن تموت وتذوق وتتجرع غصص الموت وسكراته، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وقال ﷺ وهو يجود بروحه: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»^(١).

قال الشاعر:

لكل جديد لذة غير أنني وجدت جديد الموت غير لذيذ^(٢)

والمعنى: كل نفس من أنفس الإنس والجن والملائكة وجميع ما خلق الله من الحيوانات ستموت، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٦) ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُ الذُّكْرَ وَالْإِكْرَامَ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٤٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيت لضابغ بن الحارث، وينسب للحطيفة. انظر: «أمثال العرب» (ص ٩٦)، «الأغاني» (١٨/٢)،

«مجمع الأمثال» (٢/٢٢٣)، «المستقصى في أمثال العرب» (٢/٢٩١)، «نهاية الأرب» (٣/٢٩٧)،

«خزانة الأدب» (٢/٤١١)، «زهر الأكم» (٣/٢٢).

مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﷻ [الزمر: ٦٨].

وفي الحديث: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحب ما شئت فإنك مفارقه»^(١).
وقال الشاعر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب^(٢)
وقال الآخر:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد^(٣)
وقال الآخر:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها لكان رسول الله حياً مخلداً^(٤)
وقال الآخر:

تَعَزَّ فلا شيءٌ على الأرض باقياً ولا وَزَرَ مما قضى الله واقياً^(٥)
وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد^(٦)
وقال الآخر:

كُتِبَ الموت على الخلق فكم قَلَّ من جمع وأفنى من دُول^(٧)
﴿وَلَئِنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الواو: عاطفة، و«إنها»: أداة حصر،

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت للشاعر محمد بن صالح العثيمين، شاعر حوطة بني تميم من قصيدة مؤثرة في رثاء صديقه عبدالله العجيري، ملحقة بآخر «ديوان ابن مشرف» ص ١٨٧.

(٣) البيت لابن نباتة السعدي. انظر: «الدر الفريد» (٧/ ٤٤٧)، «المغني» للسيوطي (٣٧٩).

(٤) انظر: «الكشكول» (١/ ٢٨٩)، والبيت ينسب لحسان.

(٥) البيت لم ينسب لقائل. انظر: «الجنى الداني» (ث ٩٢)، «أوضح المسالك» (١/ ٢٧٥)، «المغني» للسيوطي (٦١٢).

(٦) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» (ص ٣٤٧)، «العمدة في محاسن الشعر» (١/ ٣٤).

(٧) البيت لأبي الورددي. انظر: «ديوانه» (ص ٧١).

أي: لا توفون أجوركم إلا يوم القيامة.

ومعنى: ﴿تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم وافيًا من غير نقصان يوم القيامة. وهذا لا ينافي أن ينالوا شيئًا من ثواب أعمالهم في البرزخ، كما لا ينافي أن ينالوا شيئًا من ثواب أعمالهم في الدنيا؛ لأن الإنسان يجد شيئًا من آثار عمله في الدنيا فإن كان عمله صالحًا وجد من آثار السعادة بقدر ذلك وإن كان عمله سيئًا وجد شيئًا من آثار ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنذِيقَنَّهٗم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وأما توفية الأجور على التمام والكمال فإن ذلك لا يكون إلا في الآخرة.

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿زُحِرَ﴾: فعل الشرط، ومعنى ﴿زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾، أي: أبعد ودفع عنها ببطء وشدة ومشقة، ولو بعد جهد جهيد؛ لأن النار حفت بالشهوات، وقيل: أبعد عنها بسرعة وعجلة.

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ معطوف على ما قبله.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، أي: فقد أفلح وربح كل الربح؛ لأنه نجا من المرهوب وهي النار، وحصل على المطلوب وهي الجنة - نسأل الله تعالى من فضله. وهذا يحتاج إلى عمل، قال ﷺ: «فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه»^(١).

﴿وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية.

و﴿الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا﴾ هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لدنوها زمنًا فهي قبل الآخرة من حيث الزمن، ولدنوها وانحطاطها قدرًا، فهي لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما

(١) أخرجه مسلم في الإمامة - وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١).
 وقال ﷺ: «موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢).
 ﴿إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، والمتاع: ما يتمتع به ثم ينتهي.
 و﴿الْغُرُورِ﴾: الخداع، أي: وما الحياة الدنيا إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، كما قال
 تعالى في سورة الحديد: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾ [الآية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا
 تَغْرَبَنَّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ
 الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
 إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وكم من أناس اغتروا وانخدعوا فيها وفي زينتها وزخرفها، فتحول عزمهم ذلاً
 وغناهم فقراً، وفرحهم وسرورهم ترحاً وبؤساً.
 وإذا أردت أن تنظر إلى غرورها العاجل وحقارتها فتأمل في أحوال المتؤمنين على
 الأسرة في المستشفيات أو في البيوت، ممن فقدوا وعيهم أو كادوا أن يفقدوه، وارث
 لحالك، ولا ترث لحالم.

قال الشاعر:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق^(٣)

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغرك ما فيها من الزخارف واحذر من دواهيها

وقال الآخر:

إياك والدنيا الدنية إنها هي السحر في تخيله وافترائه

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد

(١٦٤٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) البيت لأبي نواس. انظر: «ديوانه» (ص ١٩٢).

متاع غرور لا يدوم سرورها وقال الآخر:	وأضغاث حلم خادع ببهائه ^(١)
ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض وقال الآخر:	على الماء خانته فروج الأصابع ^(٢)
هي الدنيا تقول بملء فيها فلا يغرركم مني ابتسام وقال الآخر:	حذار حذار من بطشي وفتكي فقولي مضحك والفعل مبكي ^(٣)
هي الليالي وقاك الله صولتها كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول فأيقظتنا سهام للردى صعب وقال الآخر:	فضول حتى على الآساد في الأجم نمنا بها تحت أفنان من النعم يرمى بأفجع حنف من بهن رمي ^(٤)
ومكلف الأيام ضد طباعها وإذا رجوت المستحيل فإنها	متطلب في الماء جذوة نار تبنى الرجاء على شفير هار ^(٥)

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات صفة السمع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾، فهو - عز وجل - ذو سمع واسع، يسمع جميع الأصوات، جهرها وخفيها.
- ٢- تهديد اليهود بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَكَتُتُبْ مَا قَالُوا﴾ فأخبر عز وجل بسماع قولهم تهديداً لهم، وأقسم على ذلك وأخبر بكتابته تأكيداً لذلك.
- ٣- شدة عداوة اليهود لله تعالى ووقاحتهم وجرأتهم العظيمة على الله تعالى بقولهم:

(١) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص ٧٨).

(٢) البيت لأبي نواس. انظر: «العقد الفريد» (٣/٤٧).

(٣) البيتان لأبي الفرج الساوي. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص ٥٣).

(٤) الآيات لأبي عبد الله العقيلي. انظر: «نفع الطيب» (٤/٥٢٩).

(٥) البيتان لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص ٢٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

٤- شدة غرور اليهود واستكبارهم وبغيهم، حيث وصفوا الله بالفقر والنقص، وأثبتوا الكمال والغنى لأنفسهم.

٥- إثبات كتابة أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾.

٦- قتل اليهود لكثير من الأنبياء، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَهُمُ الْآلِئِيَاءَ﴾.

٧- جمع اليهود بين الطعن في توحيد الله بوصفه بالفقر، والطعن في رسله بتكذيبهم وقتلهم، فلم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يشهدوا لرسله بالصدق، بل كذبوهم وقتلوهم.

٨- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَيْرِ حَقِّ﴾ فهذا قيد لبيان الواقع.

٩- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الآية.

١٠- الجمع هؤلاء بين العذاب الحسي البدني بالحريق بالنار وبين العذاب المعنوي النفسي بالتوبيخ والإهانة؛ كقوله تعالى: ﴿دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

١١- الرد على من قال: إن أهل النار يكونون جهنمين لا يحسون بألمها؛ لقوله تعالى: ﴿دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿ [الأعلى: ١٢-١٣]. أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل حياة شقاء وعذاب.

١٢- أن ما هدد الله به اليهود وتوعدهم به من العذاب البدني والنفسي بسبب ما قدمته أيديهم، أي: بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٣- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٤- أن مجازاة الله تعالى للخلائق بحسب أعمالهم.

١٥- نفي الظلم عن الله- عز وجل- وأنه- سبحانه- لا يظلم أحداً من الخلق ولا

مثقال ذرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].
وذلك؛ لكمال عدله؛ لأن الصفات المنفية تدل على كمال ضدها.

١٦- كذب اليهود وافتراءهم على الله - عز وجل - بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا تُوْمِنَ لِرِسُوْلٍ حَتّٰى يَأْتِيَنَا بِقُرْبٰنٍ تٰكُلُهٗ النَّارُ﴾.

١٧- إفحام اليهود ودحض حجتهم بما يدعون، فقد ادعوا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقران تأكله النار فلم يطلب منهم عز وجل دليلاً على صدق قولهم، ولا أكذبهم فيه، بل قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾.

وبهذا برهن على كذبهم وعدم صدقهم في دعواهم، لأنهم لو كانوا صادقين في دعواهم لآمنوا بالرسل الذين جاؤوهم بهذه الآية التي طلبوها، وبما هو أعظم منها من الآيات البينات. وحيث لم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وقتلوهم دل هذا على عدم صدقهم في هذه الدعوى، وأن قصدهم إنما هو تكذيب الرسل، وهذا من باب موافقة الخصم والتنزل معه؛ لإفحامه ودحض حجته.

١٨- تصديق النبي ﷺ وشهادته للرسل من قبله، وما جاؤوا به من البينات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

١٩- أن اليهود قد جاءتهم رسل من قبله ﷺ بالبينات، وبالذي قالوه، أي: بقران تأكله النار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾.

٢٠- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه بذكر تكذيب الأمم قبله لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبُوبِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: فإن كذبك قومك فقد كذب رسل كثيرين من قبلك كذبهم أقوامهم، فلست أول رسول يكذب، ولا قومك أول المكذبين للرسل، ولا شك أن في هذا تسلية

له وتهويناً لمصابه، كما قالت الخنساء^(١):

ولولا كثرة الباكين حوي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما سيكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

٢١- في تسلية النبي ﷺ بذكر ما جرى لمن قبله من الرسل من التكذيب حث له على التأسي بهم والصبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤].

٢٢- إقامة الرسل السابقين الحجة على أمهم بما جاؤوا به من الآيات البيّنات والمواعظ والشرع المبين للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

٢٣- أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - مشاعل نور ومنارات هدى في أقوامهم فيما جاؤوا به من الوحي من عند الله - وأعظمهم وأفضلهم في ذلك خاتمهم محمد ﷺ.

٢٤- أن الموت حق لا بد منه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

٢٥- أن توفية الأجور بكاملها وتمامها إنما تكون يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَسْأَلَنَّ نُؤْفَقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا لا ينافي مجازاة الإنسان بشيء من عمله في الدنيا، وكذا في البرزخ - كما هو مقتضى النصوص. لكن توفية الأجور كاملة إنما تكون يوم القيامة.

٢٦- الحث على المبادرة بالأعمال الصالحة، والاستزادة منها قبل فوات الأوان، وحلول الموت.

٢٧- إثبات القيامة، وما فيها من الحساب والجزاء.

٢٨- أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز؛ لنجاته من المهوب، وحصوله على المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

٢٩- حقارة الدنيا والتزهيد فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾.

(١) انظر: «ديوانها» (ص ٨٤).

٣٠- التحذير من الاغترار بالدنيا، وزخرفها، ومتاعها الزائل، والانخداع بها؛ لقوله

تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

وقد قال ﷺ: «فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا

كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد والرفاق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة

(٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله لتبلون، فالجملة مؤكدة بلام القسم، وبالقسم المقدر، ونون التوكيد، والخطاب للمؤمنين، فأخبر عز وجل المؤمنين بأنهم سيبتلون بما ذكر، وأقسم على تحقيق ذلك وأكده.

والابتلاء: الاختبار، ويكون في الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وكما قال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوكَ بِمَا أَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال ﷺ: «يبلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»^(١). والمعنى: لتبلون في أموالكم في إنفاقها في الجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك من النفقات الواجبة والمستحبة، وفيما يصيبها أيضًا من الآفات والجوائح، وتسلب الكفار عليها.

﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾، أي: وتبلون في أنفسكم بالجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

من التكاليف، وفيما يصيبكم من القتل والجراح والأمراض وغير ذلك، في ذات أنفسكم وفيمن تحبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: معطوف على ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ مؤكداً مثله بلام القسم وبالقسم المقدر، ونون التوكيد.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: من اليهود والنصارى.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: ومن الذين أشركوا بالله من قريش وغيرهم من المشركين.
﴿أَذْحَكِ كَثِيرًا﴾ من القول، من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم، ومن الافتراء على الله ووصفه بما لا يليق كما قال اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولهم: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولهم: «استراح يوم السبت»^(١)، وغير ذلك.

وكقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وكقول اليهود للنبي ﷺ: «راعنا» ويورون بالرعونة.

وكقول المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ سحر أو كهانة، ونحو ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقولهم عنه ﷺ بأنه ساحر كذاب وكاهن ومجنون وشاعر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ [ص: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تِنَالِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].

(١) انظر: «جامع البيان» (٢١/٤٦٥-٤٦٧).

فهو أذى كثير، ويؤذي كثيراً، لكنه لا يضر المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾ ولم يقل: «ضرراً كثيراً»، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذَىٌ﴾ [آل عمران: ١١١].

﴿وإن تصبروا﴾، الواو: استثنائية، والصبر: الحبس والمنع، أي: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله. وهو أقسام ثلاثة؛ صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والمعنى: وإن تصبروا على ما ابتليتم به في أموالكم وأنفسكم، وعلى ما سمعتم من الذين أتوا الكتاب ومن المشركين من الأذى الكثير. والصبر من أعظم ما يعين بتوفيق الله على تخطي الصعاب، وتحقيق الآمال، والقيام بالأعمال، وهو من أفضل الأعمال، وفي الحديث: «وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(١).

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: وتتقوا الله - عز وجل - بفعل أوامره واجتناب نواهيه. والمراد بالتقوى هنا - والله أعلم - اتقاء ما نهى الله تعالى عنه من التجاوز والاعتداء على سبيل الانتقام ممن اعتدى عليكم وآذاكم، بل عاملوه بالعدل، وهذا يدل على أنه ليس المراد بالصبر: ترك القتال، وعدم ردع المعتدي والمؤذي.

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والإشارة إلى ما رغب الله فيه من الصبر والتقوى، أي: فإن ذلك، أي: المذكور.

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، «عزم الأمور» من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«العزم» هنا: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: من الأمور التي يعزم عليها، والعزم: إمضاء الرأي، وعدم التردد بعد تبين الرأي، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (١٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عَلَى اللَّهِ ﴿[آل عمران: ١٥٩]. وكما قيل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا^(١)

فالصبر وتقوى الله مما عزم الله عليه وأمر به وأكدته، ومن عزائم الأمور التي يتنافس فيها المتنافسون، وهي من الصفات العالية التي وصف بها الكُمَّل من الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولا يوفق لها إلا أهل الهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

قال ابن كثير^(٢): «فكان من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر فلا بد أن يؤدي، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله عز وجل».

وقد روى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - أخبره قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا﴾ الآية. قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم^(٣).

وظاهر معنى الآية وسياقها أنها نزلت بعد أحد، أي بعد الأمر بالقتال. فهي تؤكد حصول الابتلاء في الأموال ببذلها في الجهاد وغير ذلك، والابتلاء بالنفوس بالتضحية بها في القتال في سبيل الله، وما يصيبها من الجراح والألم في ذلك، والصبر على ذلك وتقوى الله بعدم الاعتداء والتجاوز في الانتقام.

وأحسن ما في هذا أن يحمل قول أسامة رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله حتى أذن الله فيهم» على أنه ليس المراد به الإذن بالقتال ومشروعيته فقد كان مشروعاً قبل نزول الآية، وإنما المراد به الإذن الكوني. وكل من القتال والصبر والصفح مأمور به في الوقت والمقام المناسب له.

(١) البيت للمنصور. انظر: «زهر الآداب» (١/٢٥٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/١٥٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٨٣٤)، وأخرجه البخاري مطولاً في التفسير (٤٥٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَّنًا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ أخذ الله. والميثاق: العهد الثقيل المؤكد، سمي بذلك أخذًا من الوثاق، وهو الحبل الذي يشد به ويربط، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا انْخَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ [محمد: ٤].

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: الذين أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، أخذ الله عليهم الميثاق بما أنزل عليهم في التوراة والإنجيل. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر بياء الغيبة: «ليبينه»، وقرأ الباقون بقاء الخطاب على الالتفات: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، واللام في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾: للقسام، أي: والله لتبينه للناس.

والضمير في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، وفي ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ يعود إلى ﴿الْكِتَابَ﴾، وما أخذه الله عليهم فيه من الميثاق من الإيثار والعمل بما فيه، ومن ذلك الإيثار بمحمد ﷺ وأتباعه. ومعنى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾: أي: لتظهرنه للناس وتوضحنه لهم، عملاً به وبيانا وتعليلًا له، وهو ميثاق على كل من أعطاهم الله الكتب، وعلمهم العلم أن يبينوا للناس ما يحتاجون إليه.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: معطوف على ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، داخل ضمن المقسم عليه، أي: ولا تخفونه عن الناس، وهو تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾؛ لأن البيان ضد الكتمان، أي: لتبينه للناس بيانًا تامًا لا كتمان فيه.

والكتمان قد يكون بإخفاء بعض الآيات، كما قال تعالى: ﴿جَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد يكون الكتمان بتحريف معاني بعض الآيات، وحملها على معان باطلة، وكتمان

معانيها الحقيقية، ومن ذلك قول النصارى: إن محمد بن عبد الله ليس هو الذي بشر به عيسى؛ لأن الذي بشر به عيسى اسمه: «أحمد»، وهذا اسمه محمد. وهذا كتموا ما أخذ الله عليهم من الميثاق بالإيمان به وتصديقه واتباعه.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ الفاء: للتعقيب، وفيها إشارة إلى مسارعتهم إلى ذلك، وضمير الهاء في «نبذوه» يعود إلى الكتاب، وإلى ما أخذه عليهم من الميثاق في بيانه وعدم كتمانها.

أي: فطرحوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: خلفهم، ولم ينبذوه بين أيديهم وأمامهم، بل نبذوه وراء ظهورهم من شدة الإعراض عنه والاستكبار، والاستخفاف به، وعدم المبالاة، وإضاعته وإهماله، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَاهِدًا تَبَذَّهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠].

﴿وَأَشْرَوْا بِهِ﴾، أي: واستبدلوا بالكتاب، وبما أخذ الله عليهم من الميثاق بالإيمان به والعمل بما فيه وبيانه وعدم كتمانها.

﴿مَمْنًا﴾ من الرشوة ومتاع الدنيا، والجاه والمنصب والرياسة.

﴿قَلِيلًا﴾ أي: زهيدًا حقيرًا، وكل ما في الدنيا قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْفَى﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿فَبَسَّ مَا بَشَرْتُمْ﴾ الفاء: استثنائية، و«بَسَّ»: فعل ماض جامد؛ لإنشاء الذم، و«ما»: نكرة موصوفة، في محل نصب تمييز للضمير المستتر في «بَسَّ»، ويجوز كونها مصدرية. والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها في محل نصب تمييز للضمير المستتر.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن

عباس، فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي معذبًا، لنعذبن أجمعون؟ فقال ابن عباس: «وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾».

وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سأهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سأهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما آتوا من كتبهم ما سأهم عنه» (١).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذ خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية» (٢).

وفي رواية: أن مروان بن الحكم قال لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: يا أبا سعيد، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل؟ فقال أبو سعيد: إن هذا ليس من ذلك، إنما ذاك أن ناساً من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثًا، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم؛ ليرضوهم ويحمدوهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبو سعيد: وهذا يعلم هذا - يعني - زيد بن ثابت. فقال مروان: أكذلك يا زيد؟ قال: نعم صدق أبو سعيد. ثم

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٨)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠١٤)، وأحمد (٢٩٨/١)، والواحدي ص (٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٧)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٧)، والطبري في «جامع البيان» (٣٠٠/٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (٩١).

قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذلك - يعني رافع بن خديج..»^(١).
وقد اختار بعض المفسرين - منهم الطبري - أن الآية نزلت في أهل الكتاب.
واختار بعضهم - منهم القرطبي، وابن كثير وغيرهم - أنها نزلت في الفريقين، من
أهل الكتاب والمنافقين^(٢).
قال ابن كثير^(٣): «ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية
عامة في جميع ما ذكر. والله أعلم».
قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بقاء
الخطاب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح خطابه، أي: لا تظنن
أيها المخاطب.
وقرأ الباقون بياء الغيبة «لا يحسبن» أي: لا يظنن هؤلاء الذين يفرحون. وقرأ
بعضهم بكسر السين، وبعضهم بفتحها من ﴿تَحْسَبَنَّ﴾.
﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم.
﴿بِمَا آتَوْا﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي أتوا، أي: بالذي فعلوا من كتمان ما أخذ الله
عليهم من الميثاق في كتابه، ومن ذلك كتمان أمر النبي ﷺ، ونبد كتاب الله وميثاقه خلف
ظهورهم، والاستبدال به ثمناً قليلاً من الدنيا، ومن النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر.
﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾، الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في
محل نصب مفعول، أي: ويحبون حمد الناس لهم.
﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي لم يفعلوه.
أي: ويحبون أن يحمدهم الناس على الذي لم يفعلوه من الإيمان والصلاح وبيان
الحق واتباعه.

(١) أخرجه ابن مردويه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١٥٨/٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣٠٧/٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٣٠٦-٣٠٧/٤)، «فتح الباري» (٣٠١/٩)، (٣٠٢).

(٣) في «تفسيره» (١٥٨/٢).

والآية وإن كانت نازلة على سبب خاص فهي عامة في كل من فرح بما أتى من الباطل من الكفر والبدع والمعاصي وأحب أن يحمد بما لم يفعل من الإيمان واتباع الحق والطاعة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة وضم الباء: «يحبسبهم» أي: فلا يظنن هؤلاء أنهم ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

وقرأ الباقر بناء الخطاب وفتح الباء: ﴿فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ﴾ أي: فلا تظننهم أيها المخاطب، كما قرأ بعضهم بكسر السين وبعضهم بفتحها.

﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾، «المفازة»: مكان الفوز والنجاة، أي: فلا يظنن أنفسهم ولا تظننهم أيها المخاطب بمكان يفوزون به وينجون به من العذاب، فلا نجاة لهم من العذاب، بل سيصيرون إليه، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم عذاب مؤلم موجه حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للأنفس والقلوب، وقدم الخبر؛ لتأكيد عذابهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩).

توعّد عز وجل الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من أهل الكتاب والمنافقين بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك ببيان أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، في إشارة واضحة إلى أن تعذيبه لهم أمر يسير عليه؛ لكمال ملكه وتمام قدرته، وفي هذا تحذير لهم ولغيرهم عن مخالفته ومعصيته، كما أن في هذا تكذيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾، الواو: استثنائية، (الله): جار ومجرور خبر مقدم، للدلالة على الحصر والاختصاص، وأن له - عز وجل - وحده ملك السموات والأرض، هو المالك لذلك كله والمتصرف فيه.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، «القدرة»: التمكن من الفعل بلا عجز، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلِلَّةٌ لِّعِجْزِهِ ۚ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

[فاطر: ٤٤]. فقابل عز وجل العجز بالقدرة، وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلق به ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته وشمولها لكل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله - عز وجل - على ما أخبر به بقوله: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية - وهو أصدق القائلين؛ تأكيداً لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوكُنَّ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

٢- ابتلاء المؤمنين في أموالهم، بالإنفاق في الجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك من وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة، وبما يصيبهم في أموالهم من الجوائح والآفات، وتسلط الكفار عليها، وابتلاؤهم في أنفسهم بالجهاد في سبيل الله، وما يصيبهم في ذلك من قتل وجراح وألم، وبما يصيبهم من الأمراض وغير ذلك؛ لتمييز الصابر المتقي من غيره؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٣- أذى أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين بما يسمعه المؤمنون منهم من قبيح القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، وهذا من الابتلاء.

٤- توطين نفوس المؤمنين بإخبارهم بالابتلاء في أموالهم وأنفسهم وسماع أذى أهل الكتاب والمشركين قبل وقوعه، مما يهون عليهم وقعه والصبر عليه إذا وقع، كما أن في ذلك زيادة لإيمانهم ويقينهم إذا وقع كما أخبر الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

٥- أن الابتلاء في الأموال من أعظم ما يبتلى به، ولهذا قدمه الله - عز وجل - على الابتلاء بالأنفس؛ لأن المال قوام الحياة، وتلفه وهلاكه قد يكون سبباً لتلف الأنفس وهلاكها.

٦- أن أهل الكتاب وبخاصة اليهود أشد أذى للمسلمين من المشركين، لهذا قدموا

عليهم في الآية، وذلك لشدة عداوتهم للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

٧- ينبغي الحذر من أهل الكتاب والمشركين، والاحتراز ما أمكن منهم ومن أذاهم والاستعداد لدحض باطلهم وافتراءاتهم.

٨- الحث على الصبر والتقوى والترغيب فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

٩- فضيلة الصبر والتقوى وأنها من عزائم الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

١٠- ينبغي أخذ الأمور بالعزم؛ لأن الله امتدحه؛ لما فيه من صلاح الأمور والأحوال.

١١- التذكير بما أخذه الله على أهل الكتاب من الميثاق، من بيان ما أنزله الله عليهم وعدم كتمانها، وبخاصة الإيثار بمحمد ﷺ؛ توبيخاً وتهديداً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

١٢- شدة إعراض أهل الكتاب واستكبارهم واستهانتهم بما أخذه الله عليهم من الميثاق لبيان الكتاب، حيث نبذوه وراء ظهورهم ولم يبينوه بل كتموه؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

١٣- استبدال أهل الكتاب بما أخذه الله عليهم من الميثاق ثمناً زهيداً من متاع الدنيا وما فيها من الجاه والمناصب والرئاسات الزائلة الحقيرة، مما يدل على دنو همتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَوْا بِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

١٤- حقارة الدنيا وما فيها من المتاع والجاه والمناصب والرياسات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾.

١٥- ذم الثمن الذي أخذه أهل الكتاب بدلاً من الميثاق الذي أخذه الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيْسَسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ حيث أخذوا القليل الأدنى بدلاً عن الكثير الأعلى.

١٦- وجوب بيان العلم وبذله، وتحريم كتمانها، وعظم مسؤولية العلماء في الأمة؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ورُبان السفينة، والموقعون عن الله عز وجل. فعليهم تحمل المسؤولية أمام الله تعالى في تبصير الأمة وتعليمها وقيادتها إلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها

- وأخراها قال ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(١).
- ١٧- تحذير العلماء من المداهنة والمحابة في بيان العلم وإظهاره وبيان الحق، ومن سلوك مسالك علماء السوء من أهل الكتاب.
- ١٨- تهديد الذين يفرحون بما أتوا من الباطل من كتمان الحق، والكذب والنفاق من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم، وذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.
- ١٩- ذم الذين يحبون أن يمدحهم الناس بما لم يفعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، وفي الحديث: «ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة»^(٢)، وقال ﷺ: «المتشيع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٣).
- ٢٠- أن من أحب أن يمدح ويثنى عليه بما فعل من الخير واتباع الحق لا يدخل تحت الذم، بل قد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، وقد قال إبراهيم- عليه السلام-: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، لكن إن كان قصد من أحب أن يمدح بما فعل هو مجرد حمد الناس له والرياء والسمعة فهذا محرم لا يجوز.
- ٢١- الوعيد والتهديد للذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوه، وأنهم لن ينجوا من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.
- ٢٢- أن هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا عذاباً أليماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
- ٢٣- ينبغي أن لا يفرح الإنسان- حتى بما أتى من الخير- فرح بطر واختيال، وإنما فرح استبشار، كما ينبغي للإنسان أن يخلص لله تعالى في عمله، وأن لا يطلب المدح من

(١) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٥٨)، والترمذي في العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وأحمد

(٢/٢٩٦، ٤٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١١٠)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٣٠)، وأبو داود في الأدب

(٤٩٩٧)، من حديث أساء رضي الله عنها.

- الناس، وأن يخشى أن يقع في الرياء والسمعة؛ كما قال حصين بن عبدالرحمن لما سأل سعيد بن جبیر أصحابه: «أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال حصين: قلت أنا؛ ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكنني لدغت»^(١).
- ٢٤- أن الله - عز وجل - وحده ملك السموات والأرض ملكاً مطلقاً لأعيانها وما فيها، وتصرفاً مطلقاً فيها وبها فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢٥- يجب أن يكون تصرف الملوك والملاك بما تحت أيديهم وفق شرع الله تعالى؛ لأن ملكهم لذلك ملك مقيد، وهم وما تحت أيديهم ملك الله تعالى.
- ٢٦- لا يجوز اختصاص أحد بشيء مما أوجده الله لعامة الخلق إلا بمقتضى الشرع؛ لأن الملك كله لله؛ ولهذا قال ﷺ: «من أحيأ أرضاً ميتة فهي له»^(٢).
- ٢٧- عموم قدرة الله - عز وجل - لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٨)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثِيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - «أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلث الليل الآخر قعد فظفر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى ختام هذه الآيات العشر من سورة آل عمران»^(١).

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿فِي خَلْقِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ ﴿إِنَّ﴾، أي: إن في إبداع وإيجاد السموات والأرض على غير مثال سابق، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿البقرة: ١١٧، الأنعام: ١٠١﴾.

و«الخلق» معناه: الإبداع والإيجاد على غير مثال سبق، وأصله: التقدير: ثم الإيجاد والتنفيذ، كما قال زهير^(٢):

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٨٦).

أي: ولأنت تنفذ وتوجد ما قدرت.

أي: أن في إيجاد السموات والأرض وتعددتها وكبرها وسعتها، وكثرة ما أودع فيها من المخلوقات العظيمة والمنافع الكثيرة، وما هما عليه من انتظام السير والحركة، والإحكام والإتقان، وبديع الصنع، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وإن في اختلاف الليل والنهار. أي: في تعاقبها وتداخلها وطول أحدهما وقصر الآخر، وتساويها أحياناً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

واختلافها أيضاً في كون الليل مظلمًا والنهار مضيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

واختلافها فيما يقع ويتغير فيها من الأحوال من حر وبرد، وشدة ورخاء، وفقر وغناء، وعز وذل، ونعيم وخذلان، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

﴿ لَايَتِ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، ﴿ لَايَتِ ﴾: اللام للتوكيد، و(آيات): اسم ﴿ إِيَّتِ ﴾ مؤخر، و(آيات): جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: علامة ملكه.

والآيات نوعان: آيات شرعية، وآيات كونية، وهي المرادة في هذه الآية. أي: لآيات كونية دالة على كمال قدرة الله تعالى وقوته وعظمته، وكماله في ذاته وصفاته؛ في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه. ففي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من الآيات العظيمة والدلائل العجيبة ما يبهر الناظرين، ويأخذ بلباب عقول المتفكرين، ويدل على عظمة الخالق وكمال قوته، وتمام قدرته وشمولها، وحكمته، وعظيم سلطانه، وسعة علمه ورحمته وعموم فضله، ووجوب شكره وطلب مرضاته، وتعلق القلب به وإخلاص العبادة له وحده، كما قال تعالى: ﴿ سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي: لأصحاب الألباب، و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾: جمع «لب» وهو العقل، وسمي العقل لباً؛ لأنه خالص للإنسان، كما أن اللب خالص الحبة؛ ولهذا قال ﷺ عن العقل: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١).

أي: لآيات لأصحاب العقول الذين يتتبعون بعقولهم بالتفكير والنظر في آيات الله تعالى، ويستدلون بها على عظمة الخالق وكماله في ذاته وصفاته، في ربوبيته وألوهيته

(١) أخرجه البخاري في الإبان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، فيهدتون بالتفكر في هذه الآيات إلى الرشد في دينهم وإلى الحق^(١). وقد أحسن القائل:

فواعجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(٢)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآية السابقة أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب، ثم بين صفاتهم في هذه الآية وما بعدها، ليدل على أنه ليس كل ذي لب وعقل ينتفع بالآيات، وإنما ينتفع بها الذين ترشدهم عقولهم إلى النظر والتأمل في الآيات وإلى اتباع الحق.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: في محل جر صفة لـ ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يذكرون الله بقلوبهم بالتفكر في عظمة الله تعالى والتأمل في آياته الكونية والشرعية وغير ذلك، وبألسنتهم بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك، وبجوارحهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك.

﴿قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: حال، أي: حال كونهم ﴿قِيَمًا﴾ على أقدامهم، وحال كونهم ﴿قُعُودًا﴾ أي: جلوسًا، وحال كونهم ﴿عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: مضطجعين على جنوبهم.

والمراد أنهم يذكرون الله تعالى على أي حال كانوا عليها، أي: في جميع أحوالهم. وفي حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٣).

(١) انظر ما سبق في الكلام على الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(٢) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١١١٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٥٢)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «التفكير»: إعمال الفكر والعقل، وهو من أعظم أنواع العبادة، أي: ويتأملون بأفكارهم وعقولهم في كيفية خلق السموات والأرض وعظمة ذلك، وأنها لم تخلق عبثاً، وإنما خلقت لأمر عظيم، ولهذا يقولون:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا. والمراد بالربوبية في الآية وما بعدها الربوبية الخاصة، ربوبية التوفيق والنصر والتأييد.

﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ «ما»: نافية. والإشارة «هذا» تعود إلى خلق السموات والأرض، أي: ما خلقت هذا الخلق العظيم ﴿بَطْلًا﴾: صفة لمصدر محذوف، والتقدير: خلقاً باطلاً، أو حال من «هذا»، وهي حال لازمة، لا يستغنى عنها؛ لأنها لو حذفت لاختل الكلام، أي: ما خلقت هذا في حال أنه باطل.

ويجب الوصل بين ﴿بَطْلًا﴾ وما قبله؛ لثلا يفهم السكوت على ما قبله معنى فاسداً، والباطل: ضد الحق، والمعنى: ما خلقت السموات والأرض باطلاً، أي: لعباً وهواً وعبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٣٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿سُبْحَانَكَ﴾، «سبحان»: مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف، والتقدير: نسبحك تسيحك.

والتسيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين أي: تنزيهاً لك أن تخلق السموات والأرض باطلاً وعبثاً.

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، و«قنا» مأخوذ من الوقاية، أي: واجعل لنا وقاية من عذاب النار، بتوفيقنا لتفواك بعمل ما أمرتنا به، وترك ما نهيتنا عنه، ومغفرة ذنوبنا، ورحمتنا فننجو من النار.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (١١٢).

هذه الآية كالتعليل لما قبلها، أي: قنا عذاب النار؛ لأنك من تدخل النار فقد أخزيت. قوله: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا.

﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ﴾، ﴿مَنْ﴾: شرطية، ﴿تَدْخِلِ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقتراحه بـ«قد».

وقوله: ﴿مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ﴾: يشمل كل من يدخل النار من الكفار والعصاة. ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ «الخزي»: الفضيحة، وهتك الستر والإهانة والإذلال على رؤوس الأشهاد، أي: فقد فضحته وهتك سترته وأهنته وأذلتته على رؤوس الخلائق، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابًا مُّقِيمًا﴾ [هود: ٣٩].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر؛ تأكيداً للنفي، و﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾: للاستغراق في النفي، أي: ما لهم من أي أنصار، أي: من أي أعوان يمنعونهم أو يخلصونهم من النار قبل دخولها أو بعده. وأظهر هنا في مقام الإضمار فلم يقل: «وما لهم من أنصار»؛ للتسجيل عليهم بالظلم ووصفهم به، وربط الحكم بعلته، وبيان أن الظلم هو سبب دخولهم النار وخزيهم، ولتعميم الحكم، وأن كل ظالم سيدخل النار، ولا ناصر له - وفي هذا كله التحذير من الظلم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾، أي: يا ربنا إننا سمعنا، أي: سمعنا سماعاً حسيّاً بأذاننا، وسمعاً معنوياً بقلوبنا، ﴿مُنَادِيًا﴾، المنادي: الذي يرفع صوته بالنداء بالكلام؛ لأجل أن يسمع، ومنه سُمي «الأذان»: بالنداء.

أي: سمعنا داعياً، وهو الرسول محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

﴿يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾، صفة لـ ﴿مُنَادِيًا﴾، أي: يدعو للإيمان، وقال ﴿لِلْإِيمَنِ﴾ باللام، ولم يقل: «إلى الإيمان»؛ لأن اللام ألصق.

وفي قوله: ﴿مُنَادِيًا﴾ بالتنكر، وقوله: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ تعظيم لشأن المنادي، ولشأن المنادي به: فالمنادي محمد ﷺ أفضل وأشرف منادٍ وداعٍ إلى الله تعالى، والمنادى به هو الإيمان بالرب عز وجل، أعظم وأكرم نداء.

﴿أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، ﴿أَنْ﴾: تفسيرية، أي: يقول: آمنوا بربكم، أو مصدرية، أي: بأن آمنوا بربكم؛ يقولون هذا تحدثاً بنعمة الله تعالى، على ما أنعم به من إرسال هذا المنادي، محمد ﷺ.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه، والإذعان والانقياد له.

﴿فَأَمَّا﴾ الفاء: للتعقيب، تفيد مبادرتهم للإيمان، وتسبب الإيمان عن السماع من غير مهلة، والمعنى فآمننا بربنا.

﴿فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء: عاطفة، تفيد السببية، أي: فبسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا، أي: استر ذنوبنا وتجاوز عنا.

والمراد بالذنوب هنا- والله أعلم- الكبائر، فهي التي تحتاج إلى مغفرة الله تعالى، إما بقبوله التوبة منها، وإما بتفضل منه- عز وجل- بمغفرتها، ويؤيد هذا قولهم بعده:

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ تكفير السيئات: سترها ومحوها. و«سيئات» جمع «سيئة»، والمراد بها هنا- والله أعلم- الصغائر- وهي التي تكفر بالأعمال الصالحة وبالمصائب، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٣)- من حدث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب»^(١).

وسميت «سيئات» لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره مباشرة أو غير مباشرة، فتسوء صاحبها في الحال بظهور آثارها السيئة على نفسيته بالاضطراب والقلق وضيق الصدر، وعلى وجهه وبشرته بالانقباض والاسوداد، وعلى مسار حياته وأموره وأحواله- بحيث تتعسر أموره، وفي الحديث: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(٢). وتسوء صاحبها في المآل عندما يجاسب ويجازى ويعاقب عليها.

وقد تسوء السيئات غير صاحبها مباشرة، إذا كانت متعدية، أي: فيها اعتداء على الغير. وقد تكون مساءتها للغير غير مباشرة إذا كانت غير متعدية، لكنها تسوء الغير مساءة عامة للعباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَتَوْفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، الواو: عاطفة، والوفاة: الموت، أي: وأمتنا واقبضنا مع الأبرار، و«الأبرار»: جمع «بار»، أو جمع «برّ»، وهو كثير البر والخير، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

وسمي الموت وفاة؛ لأن الميت قد استكمل أجله ورزقه وعمله. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

والمراد بالمعية هنا في قولهم: ﴿وَتَوْفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ المعية والمصاحبة الحكيمة، لا

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٤٢)، وأحمد (٣٠٣/٢).

(٢) سبق تخريجه.

الزمنية؛ لتعذر وفاة الأبرار في آن واحد.

أي: واقبضنا إليك إذا قبضتنا في عداد الأبرار وجملتهم، واحشرنا معهم، واجمعنا بهم. وليس هذا منهم دعاء بالموت، وإنما هو دعاء بملازمة البر، والاستمرار عليه إلى الممات، كما قال يوسف - عليه السلام -: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أي: توفني على الإسلام إذا توفيتني، وكما قالت مريم - عليها السلام: ﴿بَلِّغْتَنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، فليس هذا دعاء بالموت، وإنما معناه: يا ليتني مت قبل أن يقع هذا.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَعَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

الْعَهْدَ﴾ ﴿١١٤﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَعَايِنَا﴾، أي: يا ربنا وآتنا، أي: وأعطنا.

وفي تصديرهم كل دعواتهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: بندائهم ربهم عز وجل باسم الربوبية الخاصة دلالة على قوة إيمانهم، وشدة تعلقهم بربهم، وتعظيمهم له، وخضوعهم له وتلذذهم بمناجاته بهذا الدعاء.

﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«آت»، أي: الذي وعدتنا من دخول الجنة، أو من النصر ودخول الجنة، أي: ما وعدتنا من ثواب الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، أي: على السنة رسلك، وقيل: على الإيمان برسلك، والأول أصح. والمعنى: يا ربنا، وأعطنا الذي وعدتنا على السنة رسلك، من النصر ودخول الجنة بالتوفيق لفعل أسبابه، والاستمرار على ذلك حتى الممات على الإيمان.

ويدل لصحة هذا قوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ﴾ مع أنهم لم يطلبوا هنا عدم إضاعة أعمالهم، ويؤيد هذا قولهم قبله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الخزي: الفضيحة والإهانة والإذلال، أي: ولا تفضحنا يوم القيامة بين الخلائق.

﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنك لا تخلف الميعاد، وهذه من الصفات السلبية المنفية، التي تدل مع نفي هذه الصفة إثبات كمال ضدها، فكونه - عز وجل - لا يخلف الميعاد يدل على كمال صدقه، وتمام وفائه بوعده، كما يدل على كمال وتمام قدرته؛ لأن إخلاف الوعد إنما يكون بسبب أمرين، إما كذب الواعد، أو عجزه وعدم قدرته على الوفاء بوعده، ووعده الله تعالى حق، وهو أصدق القائلين، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [١٩٥].

قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الفاء للتعقيب، تفيد سرعة إجابته لهم، و«استجاب» بمعنى «أجاب» أي: أجابهم ربهم، قال الشاعر:

وداع داعيا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب (١)
أي: فلم يجبه.

و«استجاب» أبلغ من «أجاب»؛ لأن السين والتاء للتأكيد، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى - غالبًا.

وكما سألوه - عز وجل - باسم ووصف الربوبية الخاصة ﴿رَبَّنَا﴾ ربوبية النصر والتأييد واللفظ والعناية الخاصة، أجابهم بذلك فقال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾ هذا تفسير للاستجابة، أي: فاستجاب لهم ربهم، قائلاً: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: بأني لا أضيع عمل عامل منكم، أي: لا

(١) البيت لكعب بن الأسود الغنوي يرثي قريباً له. انظر «الأصمعيات» (ص ٩٦).

أهدر ولا ألغى عمل عامل منكم، أي: جزاء عمل عامل منكم.

وهذا دليل على أن المراد بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَانَتَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تحقيق قبول أعمالهم وسلامتها من الحبوط؛ لينالوا بذلك ما وعدهم الله به على السنة رسله.

و﴿عَمَلٍ﴾: مضاف، و﴿عَمِلٍ﴾ مضاف إليه، فيقتضي العموم لأي عمل قل أو كثر، فإن الله لا يضيعه، والعموم لكل عامل منهم، فإن الله لا يضيع عمله، أيًا كان هذا العامل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَاحِسِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ ﴿مِنْ﴾ بيانية، بيان لـ ﴿عَمِلٍ﴾ أي: سواء كان هذا العامل ذكرًا أو أنثى، وقدم الذكر؛ لأنه أفضل من حيث العموم.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: الذكر من الأنثى والآنثى من الذكر، وكلكم سواء في الاستجابة لدعائكم، وحفظ أعمالكم، ومجازاتكم عليها، كما قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلرِّجَالِ﴾ [النساء: ٣٢].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، الفاء للتفريع على قوله: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ﴾ فهو من ذكر الخاص بعد العام؛ لأهمية الخاص.

﴿هَاجَرُوا﴾: خرجوا من بلادهم وتركوها وانتقلوا إلى بلاد الإسلام، والهجرة في اللغة: الترك. وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: ضُيِّقَ عليهم، وأُجْتُوا واضطُروا إلى الخروج من ديارهم، كما حصل للنبي ﷺ وكثير من أصحابه - رضي الله عنهم - كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١] أي: يضطرونكم بأذاهم لكم للخروج، كما قال كعب بن زهير^(١):

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٢٣).

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
أي: قائل قائلهم من المسلمين اخرجوا من مكة، وذلك لما لقوا من أذى المشركين.
وقد قال ورقة بن نوفل عندما انطلقت خديجة بالنبي ﷺ إليه في بدء الوحي، وأخبره
ﷺ بما رأى قال ورقة: «يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال
رسول الله ﷺ: «أوخرجني هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا
عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»^(١).

﴿وَأُودُوا﴾ أي: وأصابهم الأذى بالقول والفعل قبل الهجرة والإخراج وبعد ذلك.
﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: في طريقي وسبيل مرضاتي وديني، كما حصل للنبي ﷺ حيث
وضع سلا الجزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة»^(٢).
وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه^(٣)، ورماء
المشركون بالسكر والجنون والشعر والكهانة وغير ذلك - كما أشار إلى ذلك القرآن
الكريم في مواضع عدة.

كما أودى أصحابه - رضي الله عنهم - وعُدُّبوا، منهم بلال وخباب وغيرهما.
﴿وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر: «وقاتلوا وقتلوا»، وقرأ حمزة والكسائي
وخلف: «وقتلوا وقاتلوا»، وقرأ الباقون كالأولى لكن بالتخفيف: «وقتلوا وقتلوا».
أي: «وقتلوا» أي: قاتلوا الكفار وجاهدوهم في سبيل الله.
﴿وَقَاتِلُوا﴾ أي: وقتلهم الكفار في سبيل الله، وكانوا شهداء.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو يخطب على
المنبر، قال: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، أيكفر الله عني

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٠)، ومسلم في الجهاد والسير - ما لقي النبي ﷺ من الأذى (١٧٩٤)،
والنسائي في الطهارة (٣٠٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام
(٦١/٢).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥)، من حديث عائشة - رضي الله عنها.

سيئاتي؟ قال: نعم، ثم سكت ساعة. قال: أين السائل آنفًا؟ فقال الرجل: ها أنا ذا. قال: ما قلت؟ قال: رأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم، إلا الدين، سارني به جبريل آنفًا^(١).
وقراءة (قُتِلُوا) بالتشديد معناها شدة القتل.

وليس المراد بالآية أنهم جميعًا قتلوا، فيكون الوعد بقوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ﴾ الآية خاصًا بمن (قُتِلَ)، وإنما معنى الآية: ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ فمنهم من قتل، ومنهم من لم يقتل، والجميع منهم من قتل ومن لم يقتل موعدون بقوله تعالى: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الآية، ويدخل في هذا المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم.

قوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، الجملة: خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ واللام في قوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾: للقسم.

فالجملة مؤكدة بلام القسم، وبالقسم المقدر، ونون التوكيد، والتقدير: والله لا تكفرون عنهم سيئاتهم.

فبسبب ما حصل منهم وما حصل لهم من هجرتهم وإخراجهم من ديارهم، وإيذائهم في سبيل الله ودينه، وقتالهم للكفار، وقتل من قتل منهم واستشهاده في سبيل الله، بسبب هذه الأشياء الخمسة أقسم الله - عز وجل - على تكفير سيئاتهم، أي: محو ما وقع منهم من السيئات، أي: الذنوب الصغائر، التي تكفرها الأعمال الصالحة والمصائب.

﴿وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَجْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، الجملة: في محل رفع معطوفة على جملة: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾، مؤكدة مثلها باللام، والقسم المقدر، ونون التوكيد، أي: والله لأدخلنهم ﴿جَنَّتِ بَجْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

و﴿جَنَّتِ﴾ جمع «جنة» وهي البساتين والمنازل التي أعدها الله تعالى لأوليائه المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٥٥).

وقال ﷺ لأم حارثة: «إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»^(١).
وتأتي ﴿جَنَّتٍ﴾ في القرآن الكريم كثيرًا مجموعة، فيراد بها أنواع الجنات، كما تأتي
كثيرًا منفردة ﴿جَنَّةً﴾ ويراد بها مطلق الجنس.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، الجملة: في محل جر صفة لـ ﴿جَنَّتٍ﴾، أي: تجري
وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها، وبين جنباتها الأنهار، يشربون منها
ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها، يُصَرَّفونها كيف شاؤوا من غير أخذود، قال ابن القيم:
أنهارها في غير أخذود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان^(٢)

وهي أنواع أربعة كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ
وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ بَيْنَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿ثَوَابًا﴾: مصدر مؤكد لعامل محذوف، والتقدير: لأثيبتهم
ثوابًا. وقيل: حال من جنات، أي: مثابًا بها.

والثواب: اسم لما يثاب به، أي: لما يجازى به، كالعطاء: اسم لما يعطى، كما في قوله
تعالى: ﴿هَلْ تُؤْتُونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] أي: هل جوزي.
وقد يطلق الثواب على الإثابة، أي: على فعل المثيب.

﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: منه - عز وجل - وعنده، وفي هذا تعظيم لهذا الثواب؛ لأنه من
العظيم سبحانه وتعالى، ومن عنده؛ ولهذا قال ﷺ في الدعاء الذي علمه أبو بكر رضي
الله عنه: «واغفر لي مغفرة من عندك وارحمني»^(٣).

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ الجملة: مؤكدة لما سبق أي: والله عنده حسن الجزاء
لمن عمل صالحًا، أي: الثواب الحسن، الذي لا أحسن منه، فهو يجازي الحسنة بعشر
أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأعد لأوليائه في دار كرامته من النعيم ما

(١) سبق تحريجه.

(٢) «النونية» (ص ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)،
والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

لا يحيط به الوصف.

كما قال ﷺ عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) [السجدة: ١٧].

الفوائد والأحكام:

١- عظم ما في الكون من الآيات الدالة على معرفة الله تعالى وعظمته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

٢- عظم خلق السموات والأرض وما فيها من الأعيان والمنافع، وعظم اختلاف الليل والنهار في تعاقبها واختلاف الأحوال فيها، وغير ذلك.

٣- الحث على التأمل والنظر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وما في ذلك من الآيات العظيمة.

٤- منة الله - عز وجل - ونعمته على العباد في إيجاد هذه الآيات العظيمة في الكون لتكون منارة لهم للطريق إليه والإقبال عليه، وأعلامًا شاهدة على توحيده بالربوبية

(١) سبق تخرجه.

- والألوهية وكمال الذات والصفات.
- ٥- منة الله عز وجل ونعمته على الخلق باختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا، وتساويهما أحيانًا، وتقلب الأحوال فيها من حر وبرد ونحو ذلك لما في ذلك من المنافع لهم.
- ٦- أن الذين ينتفعون بالآيات الكونية والشرعية هم أصحاب الألباب والعقول، الذين يُعملون عقولهم في الآيات ويستفيدون منها؛ لذلك خصّهم الله تعالى فقال: ﴿لَأَيِّتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ومن عداهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُم أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].
- ٧- فضيلة أصحاب الألباب والعقول النيرة التي تتأمل وتنظر في آيات الله والثناء عليهم؛ لأن الله خصّهم بالذكر.
- ٨- أن العقل الذي هو مناط المدح هو عقل الرشد الذي يهدي ويرشد صاحبه إلى الحق ويمنعه عن الباطل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]. أي: لذي لب وعقل يحجز صاحبه عما لا يليق. أما عقل: الإدراك، فهو مناط التكليف، لكن لا يمدح به.
- ٩- الثناء على أصحاب الألباب والعقول بذكرهم الله تعالى على جميع أحوالهم وتفكرهم في خلق السموات والأرض، ودعائهم ربهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآيات.
- ١٠- الترغيب بذكر الله تعالى على الدوام، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. وعن عائشة - رضي الله عنها - أنه ﷺ: «كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه»^(١). وقال ﷺ: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في الحيض - ذكر الله تعالى حال الجنابة وغيرها (٣٧٣)، وأبو داود في الطهارة (١٨٥)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، من حديث عبدالله بن بسر رضي الله عنه.

١١- أن من أيسر الأعمال ذكر الله تعالى حيث يستطيع الإنسان القيام به على أي حال كان.
١٢- جواز ذكر الله تعالى حال الجنابة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾ الآية.

١٣- مشروعية ذكر الله تعالى حال كون الإنسان مضطجعاً على جنبه، وأنه لا يعد استهانة بالذكر ولو كان ذلك بقراءة القرآن.

١٤- الثناء على الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ويعلمون أنها لم تخلق باطلاً وعبثاً، ترغيباً فيه وحشاً عليه، لقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا﴾، وقد ذم عز وجل الذين لا يتفكرون في آياته، فقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

١٥- فضيلة التفكر في آيات الله الكونية؛ لأن الله أثنى على الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، وفي الأثر: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»^(١). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه»^(٢).

وقال عيسى عليه السلام: «طوبى لمن كان قلبه تذكراً وصمته تفكراً، ونظره عبثاً»^(٣).

١٦- إثبات أن الله - عز وجل - خلق السموات والأرض بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا﴾، والصفات المنفية تدل مع النفي على إثبات كمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].
وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الآية: ٣].

(١) روي هذا عن ابن عباس وأبي الدرداء وأنس - رضي الله عنهم. انظر: «روح المعاني» (١/ ٣٧٠).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٠).

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٠).

١٧- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، ومن أن يخلق هذا

الخلق باطلاً وعبثاً؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾.

١٨- أن من تفكر في خلق السموات والأرض متجرداً عن الهوى قاده ذلك إلى أن الله

تعالى لم يخلق هذا الخلق باطلاً وعبثاً، وإنما خلقه لأمر عظيم، ولحكمة بالغة، وهو

تحقيق العبودية لله تعالى، ومجازاة الخلائق بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]،

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]،

وقال تعالى: ﴿أَيْحَسِبُ الَّذِينَ أَنْسَنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ

أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

وقد أحسن القائل (١):

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح (٢)

١٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين، والتوسل إليه تعالى بدعائه باسم الرب

ووصف الربوبية الخاصة؛ لأن من أخص معاني الربوبية الخلق والملك والتدبير،

والعناية بالمربوب والرحمة له والرأفة به والشفقة؛ ولهذا كان جل دعاء الأنبياء- عليهم

السلام- والصالحين بهذا الاسم، كما في دعاء أولي الألباب في هذه الآيات، فقد ابتدأوا

دعاءهم وخللوه بندائه تعالى بهذا الاسم خمس مرات إظهاراً للخضوع له- عز وجل-

والتضرع إليه وشدة حاجتهم إليه.

٢١- أن من أعظم وأول ما يدعو به أصحاب العقول ربهم سؤاله الوقاية من النار؛

(١) البيت للطبرائي. انظر: «شرح لامية العجم» (ص ١٢٤).

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» (ص ١).

لقولهم: ﴿سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وطلب النجاة من المهوب مقدم على سؤال المطلوب، وكما يقال: التخلية قبل التحلية.

٢٢- أن الدعاء ينبغي أن يكون بعد الثناء على الله تعالى؛ لقولهم: ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ ثم أتبعوا ذلك بالدعاء بقولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وما بعده. وفي الحديث: أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته، ولم يحمد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال ﷺ: «عجل هذا» ثم قال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء»^(١).

٢٣- جمع هؤلاء بين الذكر والتفكير والخوف من النار؛ بخلاف ما عليه كثير من الخلق من التفريط مع الأمن من مكر الله.

٢٤- إثبات النار وعذابها وما فيها من الخزي لمن أدخل فيها، ووجوب الحذر منها، وسؤال الوقاية منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ.

٢٥- أن من أدخله الله النار فقد أخزاه وأذله.

٢٦- أن الظلم سبب لدخول النار، والظالمون والكفار هم أهلها، ولا ناصر لهم يدفع عنهم أو ينقذهم من عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾.

٢٧- إعلان المؤمنين منة الله تعالى ونعمته عليهم في بعثة محمد ﷺ يدعوهم إلى الإيمان؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.

٢٨- أن مهمة الرسول ﷺ، وكذا الرسل قبله دعوة الناس للإيمان بربهم، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَن ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.

٢٩- شهادة الأمة للنبي ﷺ بالبلاغ؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.

(١) أخرجه أبو داود في الدعاء (١٤٨١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧)، من حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

٣٠- في قرن الدعوة للإيمان باسم ووصف الربوبية تذكير للعباد بنعمة ربوبيته تعالى لهم، فهو خالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبرهم.

٣١- مبادرة أصحاب الألباب والعقول إلى الإيمان، والاستجابة للمنادي، لقولهم: ﴿فَقَامْنَا﴾.

٣٢- جواز التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة في الدعاء؛ لقولهم: ﴿فَقَامْنَا رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، وكما جاء في قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فقال بعضهم لبعض: «إنه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تتوسلوا إلى الله بصالح أعمالكم» الحديث (١).

٣٣- أن مغفرة الذنوب وتكفير السيئات مطلب شرعي لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ إذ لا أحد يسلم من الذنوب والسيئات.

٣٤- أن المعاصي منها ما يسمى ذنوباً ومنها ما يسمى سيئات؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فالذنوب المراد بها الكبائر التي تحتاج إلى مغفرة الله، إما تفضلاً منه سبحانه، أو بسبب التوبة منها، ونحو ذلك. وأما السيئات فالمراد بها الصغائر، وهي التي تكفر بالأعمال الصالحة، أو بالمصائب ونحو ذلك.

٣٥- جواز سؤال الوفاة مع الأبرار، أي: على ما ماتوا عليه من الإيمان والبر، والحشر معهم وفي جملتهم وعدادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

وكما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَقَّفِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٣٦- فضيلة الأبرار وعلو مكانتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ حيث رغب هؤلاء الوفاة معهم.

٣٧- كمال إيمان هؤلاء المؤمنين بوعد الله تعالى لهم على السنة رسله بالجنة والثواب العظيم، وإيمانهم برسله؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٣٨- أن النجاة من المهوب مقدمة على حصول المطلوب؛ لهذا قدم هؤلاء سؤال

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

- الوقاية من النار ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات ثم سألوا الوفاة مع الأبرار وإيتائهم ما وعدهم الله على السنة رسله.
- ٣٩- أن الرسل هم الوساطة بين الله وبين خلقه، وهم المبلغون عن الله وحيه ووعدته ووعدته؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾.
- ٤٠- إثبات الرسل والرسالات، ووجوب الإيمان بهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾.
- ٤١- إثبات يوم القيامة وما فيه من الخزي والذل للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.
- ٤٢- جمع هؤلاء المؤمنين في دعائهم بين الرجاء والخوف، بين رجاء الله والثقة بوعدته وثوابه وبين الخوف من الله ومن عذاب النار والخزي يوم القيامة.
- ٤٣- أن الله تعالى لا يخلف الميعاد، لكمال صدقه وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.
- ٤٤- إجابة الله تعالى دعاء هؤلاء المؤمنين ونضمامهم تحت ربوبيته الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.
- ٤٥- أن الله تعالى يجازي كلاً بما عمل، ولا يضيع عنده عمل عامل، مهما كان العمل قلة وكثرة، وأياً كان العامل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾.
- ٤٦- تساوي العاملين في الجزاء أمام الله تعالى، حسب أعمالهم، ذكورهم وإناثهم.
- ٤٧- تضييق المشركين على المؤمنين في مكة حتى أخرجوهم إلى الهجرة وأخرجوهم من ديارهم، وأذيتهم لهم بسبب إيمانهم ومقاتلتهم لهم وقتلهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.
- ٤٨- أن الهجرة والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، والقتال والاستشهاد سبب لتكفير السيئات، ودخول الجنات والثواب الحسن من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُنُوبَهُمْ جَاءَتْ بِجَرِيٍّ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾، وقد أكد هذا بلام القسم، والقسم المقدر ونون التوكيد.

- ٤٩- فضل الهجرة والصبر على الأذى في سبيل الله، والقتال والاستشهاد في سبيله.
- ٥٠- أن الهجرة أفضل من القتال في سبيل الله؛ لتقديم قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ في الآية.
- ٥١- لا يلتذ بحصول المطلوب إلا بعد زوال المرهوب، ولهذا قدم تكفير السيئات في الآية على دخول الجنات.
- ٥٢- إثبات الجنات التي أعدها الله منازل للمؤمنين وما فيها من الأنهار الجارية تحت أشجارها وقصورها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.
- ٥٣- عظم ما أعد الله للمؤمنين، يؤخذ من قوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾ بالتنكير، أي: جنات عظيمة، ومن قوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فكونه من عند الله يدل على عظيمته التي لا يقدر قدرها إلا العظيم سبحانه وتعالى.
- ٥٤- أن أحسن الثواب وأعظمه وأجله من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.



قال الله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايِدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يَغْرَنَكَ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، و(يغرن) فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصح خطابه، أي: لا يغرنك أيها الرائي تقلب الذين كفروا في البلاد.

﴿تَقَلُّبُ﴾: التقلب: التردد والتصرف والتنقل، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: الذين أنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه وكذبوا رسله أو شيئاً من ذلك. ﴿فِي الْبِلَادِ﴾: جمع «بلد» يجمع على «بلاد» وعلى «بلدان».

والمعنى: لا يخذعك أيها الرائي تردد الذين كفروا وتصرفهم في البلاد والأرض وتنقلهم من بلد إلى آخر في تجاراتهم وصناعاتهم وأعمالهم وما هم فيه من النعم ورغد العيش، فتظن أنهم على شيء وتخدع بما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤].

والمصيبة أن كثيراً من المسلمين قد اغتروا وانبهروا بما عليه الغرب فصاروا دعاة لتقليدهم - ليس بما هو مطلوب من الأخذ بأسباب التقدم الصناعي والحضارة والرقي - ولكن بما هم عليه من التحلل عن الدين والأخلاق، فكانوا دعاة للتغريب والسفور، والتخلي عن الثوابت والأخلاق الإسلامية لسان حالهم ومقالهم كما قال الشاعر:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم

فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله
هل العلم في الإسلام إلا فريضة
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعللا
ودك حصون الجاهلية بالهدى
ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم
فلا تنكروا هذي الحقيقة إنها
أوائله في عصرها المتقدم
فماذا على الإسلام من جهل مسلم
وهل أمة سادت بغير التعلم
بصائر أقوام عن المجد نوم
وقوض أطناب الضلال المخيم
رويداً فقد قارفتهم كل مآثم
لأبين من هذا الحديث المرجم^(١)

﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ هذه الجملة وما بعدها: تعليل للنهي السابق، و﴿مَتَّعٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو متاع قليل، والمعنى: لأنه متاع قليل، والضمير يعود إلى ﴿نَقَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ﴾. أي: أن ما هم فيه من القلب في البلاد والنعم مع ما هم عليه من الكفر.

والمَتَّعُ: كل ما يتمتع ويتلذذ ويتنعم به من منفعة عاجلة، من مأكَل ومشرب أو ملبس أو مسكن أو مركب، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿قَلِيلٌ﴾ أي: قليل في كفه وكيفه، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها، فهو زهيد حقير ليس بشيء بالنسبة لما أعد لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، قليل في زمنه فما أسرع ما يزول أو يزول الإنسان عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿ثُمَّ مَا وَنَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: للعطف مع التراخي، وجيء بها هنا للإشارة إلى حقارة ذلك المتاع مهما طال مدته، إذا كانت نهايتهم إلى هذا المآل القبيح المؤلم، فهو مجرد استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۗ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

(١) الأبيات للشاعر معروف الرصافي. انظر: «ديوانه» (ص ١٩٨).

أي: ثم مصيرهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ أي: النار، وسميت بهذا الاسم؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿وَيَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الواو: استثنائية، و(بئس): فعل جامد لإنشاء الذم، و﴿الْمِهَادُ﴾: فاعل (بئس)، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: وبئس المهاد هي - يعني جهنم.

و﴿الْمِهَادُ﴾: الفراش والمقر الذي يستقر فيه، ومنه (مهاد الطفل أو مهده) أي: فراشه، ومنه سميت الأرض مهادًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦]، أي: مقرًا تستقرون عليها.

والمعنى: وبئس الفراش والمهاد جهنم للذين كفروا، وبئس ما مهدوا لأنفسهم، وفي هذا إشارة إلى أن هذا المصير بسبب ما جتته أنفسهم، وما كسبته أيديهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ ﴿١١٨﴾.

قوله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد النون «لكن»، وقرأ الباقون بتخفيفها، ﴿لَكِنَّ﴾ وهي: حرف استدراك، وجيء بالاستدراك هنا؛ للإشارة للبون الشاسع والفرق الواسع بين ما متع به الذين كفروا في الدنيا، وبين ما أعد للمتقين من الجنات والنزل والخير عند الله - زيادة على مشاركتهم لغيرهم في متاع الدنيا.

﴿اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، الذي رباهم وأيدهم ووقفهم بربوبيته الخاصة، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف، خبر مقدم؛ لتأكيد حصول ذلك لهم، و﴿جَنَّاتٌ﴾: خبره، والجمله خبر ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سبق الكلام عليه قريبًا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الجنة لا تفتنى ولا ينقطع نعيمها، ولا يفنى أهلها باتفاق المسلمين؛ لتضافر

أدلة الكتاب والسنة على ذلك.

﴿ نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾: حال من ﴿ جَنَّتُ ﴾، وصح مجيء الحال منها؛ لأنها تخصصت بالوصف بقوله: ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾.

والنزل: ما يعد للنزول، وهو: الضيف عند أول قدومه من القرى والكرامة، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٣١) ﴿ نَزَّلَا مِنْ عَفْوَِرٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣١-٣٢]، وهم ضيوف على أكرم الأكرمين منذ دخولهم الجنات وإلى الأبد، ولهم هذا النزول على الدوام.

﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي: منه - عز وجل - وعنده - وهذا مما يزيده عظمة وكثرة، لأنه من أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وعنده سبحانه.

﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ الواو: استثنائية، و«ما»: اسم موصول.

أي: والذي عند الله من الفضل والزيادة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما ذكر؛ كما قال تعالى: ﴿ هُمْ مَأْ يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، أي: لهم الجنة. ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم كما قال ﷺ (١). وأيضاً: وما عند الله من الحياة الطيبة والكرامة، ﴿ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ مما هم فيه في الدنيا، ومما يتقلب فيه الكفار من متاع قليل زائل.

و«الأبرار»: جمع «بر» أو جمع «بار»، وهم: أهل «البر» وهو حسن الخلق وحسن العمل، ف«الأبرار»: المكثرون من فعل الطاعات والخيرات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يُشْرِكُونَ بِعَائِدَةِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣٣).

ذكر الله - عز وجل - فيما سبق من السورة أنه أخذ ميثاق أهل الكتاب؛ لبيان للناس وعدم كتمانهم، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ثم بين في هذه الآية

(١) سبق تخريجه.

وقبل ختام السورة أن بعضًا من أهل الكتاب يؤمن بالله تعالى حق الإيمان، وبما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل عليهم، وفي هذا إنصاف لأهل الكتاب واحترام من أن يظن أنهم على شاكلة واحدة.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ «إِنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿مِنْ أَهْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر «إِنَّ» مقدم، و﴿الْكِتَابِ﴾: مضاف إليه، و﴿مِنْ﴾ تبعية، أي: وإن بعض أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية، وهم قلة من اليهود، منهم عبدالله بن سلام وغيره، وكثير من النصارى، منهم النجاشي ملك الحبشة وغيره.

قال ابن كثير^(١) في كلامه على هذه الآيات: «وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً، كما وجد في عبدالله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْبَهُمُ اللَّهُ يَمَا قَالُوا جَنَّتِ جَعْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية [المائدة: ٨٢-٨٥].

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما قرأ سورة ﴿كَهَيْعَصَ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه، حتى أخضبوا لحامهم؛ ولهذا لما مات النجاشي قال ﷺ لأصحابه: «إِنْ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبْشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ» فخرج إلى الصحراء، فصَفَّهم، وصلى عليه^(٢).

واللام في قوله: ﴿لَمَنْ﴾: لام الابتداء للتوكيد، و«مَنْ»: اسم موصول مبني في محل نصب اسم «إِنَّ» مؤخر، أي: للذي يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

(١) في «تفسيره» (١٦٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري في الجنازات - الرجل ينعى في أهل الميت بنفسه (١٢٤٥)، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وأخرجه مسلم في الجنازات (٩٥٣)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْكُمْ﴾ الواو: عاطفة، أي: ويؤمن بالذي أنزل إليكم، والخطاب لهذه الأمة، أي: ويؤمن ويصدق بالوحي الذي أنزل إليكم على لسان نبيكم ﷺ من القرآن والسنة، وعموم ذلك للناس جميعاً، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار»^(١).

﴿وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ويؤمن بالذي أنزل إليهم من الوحي، فاليهود منهم يؤمنون بما أنزل في التوراة، والنصارى يؤمنون بما أنزل في الإنجيل، ومن ذلك ما جاء في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦].

﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾: حال، أي: حال كونهم خاشعين لله، والخشوع لله هو: الذل والخضوع له - عز وجل - والطاعة.

﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ أي: لا يستبدلون ولا يأخذون ولا يطلبون، ﴿بِعَايَتِ اللَّهِ﴾ أي: بالتصديق بآيات الله الشرعية والعمل والحكم بها وبيانها.

﴿ثُمَّنَّاقِلِيًّا﴾ أي: ثمناً زهيداً حقيراً من الدنيا، من المال أو الجاه أو الرياسة، ونحو ذلك - مقابل تكذيبهم بها وكتماهم لها - كما هو حال كثير من أهل الكتاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَّنَّاقِلِيًّا فَنَسُوا مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الإشارة: لمن آمن من أهل الكتاب بالله وبما أنزل إليهم، وما أنزل إلى هذه الأمة، ولم يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾ رفعة لهم وتعظيماً لشأنهم.
 ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾؛ تأكيداً لحصول الأجر لهم.
 ﴿أَجْرُهُمْ﴾ جزاؤهم وثوابهم، وسمى عزوجل ثوابهم أجراً؛ لأنه ضمنه لهم

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وتكفل لهم به.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من ربهم - عز وجل - ومدخر لهم عنده، وفي هذا تعظيم لأجرهم، وتأکید لضمانه لهم وبيان قريهم من ربهم عز وجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ﴿إِنَّكَ﴾: للتوكيد، والسرعة: عدم التباطؤ في الشيء. والله - عز وجل - سريع الحساب من وجوه عدة.
الأول: أن أجله وحسابه آت، وكل آت قريب.

والثاني: أن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، فمهما طال عمره فهو قصير، بل الدنيا كلها قليلة بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١).

والثالث: أن الإنسان يجد في الحال شيئاً من ثمرة وآثار عمله، فإن عمل خيراً وجد من آثار ذلك نوراً في وجهه وتيسيراً في أموره، وإن عمل شراً وجد من آثار ذلك سواداً في وجهه وعسراً في أموره.

ففي الآية على هذا: إخبار بقرب أجرهم، وأنه يبادر لهم بشيء من أجرهم في الدنيا، كما يبادرون بأجرهم كاملاً يوم القيامة.

الرابع: أنه - عز وجل - يحاسب الخلائق على وجه السرعة ولا يحتاج إلى طويل وقت لحسابهم؛ لأنه لا يخفى عليه منهم ولا من أعمالهم شيء، كما قال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله يحاسب الخلائق في نصف يوم؛ لقوله تعالى:

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩). وقال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]، قالوا: فيحاسب عز وجل الخلائق في نصف النهار الأول ثم في النصف الثاني من النهار يقيل أهل الجنة فيها. قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ختم الله - عز وجل - هذه السورة العظيمة بأمر المؤمنين في هذه الآية الكريمة بهذه الوصايا الأربع العظيمة، التي عليها مدار صلاح أمر الدين والدنيا والآخرة، وعز الإسلام ونصر المسلمين، وهي: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله تعالى؛ ولهذا رتب الله - عز وجل - عليها الفلاح في الدنيا والآخرة.

ولا يخفى ما في الأمر بهذه الوصايا العظيمة من تجديد عزائم المؤمنين، وبعث همهم، ورفع معنوياتهم، وغمر قلوبهم بالرجاء، بعدما أصابهم ما أصابهم في أحد، بسبب مخالفة الرُّماة أمر الرسول ﷺ.

قوله: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا ﴾ أي: اصبروا على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وعلى قتال الكفار، وبدأ بالصبر لأن معه النصر والظفر، وبه تُجح المطالب، ونيل المآرب، وقد أحسن القائل:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا للصابر (١)
وقال الآخر:

والصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل (٢)

﴿ وَصَابِرُوا ﴾ «المصابرة» على وزن «المفاعلة» كالمقابلة، ونحو ذلك، وهي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر، أي: الصبر في وجه الصابر، وتكون بين اثنين، أو فريقين فأكثر، وهي: أخص من الصبر، وأشد على النفس، ونتيجتها تكون لأطول الصابرين صبراً، وأشدهم مقاومة، وهي: من أسباب الانتصار على العدو وعلى الخصم، كما قال

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «أوضح المسالك» (١٧٢/٤).

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «ربيع الأخيار» (ص ٢١٢).

الشاعر^(١):

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبراً
أي: وصابروا الأعداء، أي: غالبوهم بالصبر، كما أنهم يغالبونكم فيه، فكونوا
أصبر منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهْتَوْا فِي آيْتَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

والفرق بين «الصبر» و«المصابرة» أن الصبر هو حال الصابر في نفسه، والمصابرة
حاله في الصبر مع خصمه، أي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر.

﴿وَرَابِطُوا﴾ هذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى، ف«الصبر»: دون «المصابرة»،
و«المصابرة»: دون «المرابطة»، و«المرابطة»: مفاعلة من الربط، وهو: ربط الخيل
للمحاربة في الثغور، وللجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والمرابطة: الثبات والملازمة، والإقامة على الصبر والمصابرة في حراسة ثغور
المسلمين، وقاتل الأعداء، وفي عبادة الله تعالى. أي: وربطوا في الثغور وفي قتال
الأعداء. قال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»^(٢).

وعن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة
خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه
رزقه، وأمن الفتان»^(٣).

وعن عثمان - رضي الله عنه - سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم في سبيل الله
خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»^(٤).

(١) هذا البيت للناطقة الجعدي. انظر: «ديوانه» (ص ٧٢). وينسب لزفر بن الحارث في اعتذاره عن انهزام قومه.
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد - فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي
رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة - فضل الرباط (١٩١٣).

(٤) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٦٩)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٧)، وأحمد (١/٦١، ٦٤، ٦٥).
وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقية كان في الساقية، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»^(٢).

وأيضاً: ورابطوا على العبادة وداوموا عليها في مكانها، ومن ذلك انتظار الصلاة بعد الصلاة، كما قال ﷺ: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»^(٣).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا أعم مما قبله، أي: اتقوا الله في فعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأن التقوى هي جماع هذه الأمور الثلاثة: الصبر والمصابرة والمرابطة، وملاك الأمر كله، فلا ينفع الصبر، ولا المصابرة، ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على الصبر والمصابرة والمرابطة.

قال ابن القيم^(٤): «المرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته».

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهوب، وأعظم ذلك وأجله الفوز بالجنة ورؤية العزيز الجبار، والنجاة من النار.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن الاغترار بما عليه الكفار من التقلب في البلاد، وما هم فيه من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾. وفي هذا أيضاً: تسلية

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩). وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة - فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١)، والنسائي (١٤٣)، والترمذي في الطهارة (٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/٥٤١).

- لرسول ﷺ والمؤمنين لما يرون عليه الكفار من التقلب في البلاد والنعم.
- ٢- أن الله - عز وجل - يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فليس التمكين في الدنيا دليلاً على رضى الله ومحبته.
- ٣- استدراج الكفرة والعصاة بالنعم والخيرات، فتنة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمَلِّ لَهُمْ إِن كِيدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ لِّلْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُبُّدًا﴾ [الطارق: ١٧].
- ٤- أن المؤمن قد يتلى بالفقر وضيق العيش ونحو ذلك؛ ليرجع إلى الله تعالى، ويسلم من الأشر والبطر، كما قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^(١).
- وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه»^(٢).
- وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: جئت رسول الله ﷺ، فإذا هو في مشربة، وإنه لعلى حصير، ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وعند رجله قرظ مصبور، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكت، فقال: «ما يبكيك»؟ قلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله! فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة»^(٣).
- ٥- أن من أوتي الإيمان فقد أعطي خيراً كثيراً - يقصر دونه من حرم الإيمان ولو ملك الدنيا بحذافيرها، فلا ينبغي أن نعتز بها في أيدي الكفار من الدنيا - وقد خسروا الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَلَّذِي كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَنَعَ

(١) أخرج الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، من حديث أنس رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

- الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿ [القصص: ٦١].
- ٦- أن الدنيا كلها متاع قليل، عمرها، وما فيها من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿متاع قليل﴾ فلا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].
- وقال ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم لينظر به يرجع»^(١).
- ٧- الإشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن الحذر كل الحذر من الافتتان في الدنيا وما فيها من الزخرف ومتاع الغرور، فلا ينتقل منها من شيء إلى شيء؛ طلباً للترف والرفاهية فينغمس في وحلها، وينسى الهدف الذي خلق له، وهو عبادة الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠].
- ٨- أن مصير الذين كفروا إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ﴾.
- ٩- شدة ظلمة النار وجهتها وشدة حرها وبعد قعرها؛ لهذا سميت بـ﴿جَهَنَّمَ﴾.
- ١٠- أن ما يحصل عليه الكفار من التقلب في البلاد، ومتاع الدنيا القليل سرعان ما ينسيهم إياه ما يصيرون إليه من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].
- وفي الحديث: «أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصنع في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يارب»^(٢).
- ١١- أن النار بئس الفراش والمقر لمن مهد لنفسه المصير إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ

(١) أخرجه مسلم- في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٨٥٨)، من حديث المستورد أخي بني فهر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- صبح أنعم أهل الدنيا في النار (٢٨٠٧)، من حديث

أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ الْمَهَادُ ﴾

١٢- الإشادة بحال المؤمنين ومآلهم وما أعد لهم في الآخرة من الكرامة- مهما كانوا عليه في الدنيا من ضيق الحال أو سعتها؛ لقوله تعالى: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ الآية.

١٣- فضيلة التقوى والترغيب فيها والإغراء بها أعد الله لأهلها من جنات تجري تحت قصورها وغرفها وأشجارها الأنهار.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمتقين.

١٥- خلود أهل الجنة فيها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿ حَلِيدِينَ فِيهَا ﴾، وعلى هذا تكاثرت الأدلة وأجمعت الأمة.

١٦- عظم ما أعد لأهل الجنة من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾. فوصفه بـ«النزل» وهو ما يقدم للضيف أول قدومه من القرى والكرامة. فهذا النزول لهم عند الله تعالى على الدوام؛ لأبدية الجنة، بخلاف نزل الضيف، فإنما يكون أول قدومه ثم ينقطع، كما بين عز وجل أنه من عنده، فلا يقدر قدر عظمته إلا الذي منحهم إياه، وهو أكرم الأكرمين.

١٧- شتان بين حال الكفار وحال المتقين في الدارين، فالكفار متعوا في الدنيا قليلاً وصار مآلهم ومقرهم النار، والمتقون فازوا برضى ربهم في الدنيا مع ما متعوا فيها، وصاروا إلى الجنات وضيافة أكرم الأكرمين.

١٨- أن ما عند الله تعالى للأبرار خير مما ذكر في الآية، وخير مما هم فيه في الدنيا، وخير مما يتقلب فيه الكفار في الدنيا من النعم؛ لقوله-تعالى: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾.

١٩- الثناء على بعض أهل الكتاب بالإيمان بالله، وما أنزل على النبي ﷺ وأمته من الوحي في القرآن والسنة، والإيمان بما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل؛ لقوله

تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

٢٠- كمال عدل الله- عز وجل- بإسناد الفضل لأهله، والثناء على من آمن من أهل الكتاب، والاحترام من أن يظن أنهم سواء وأنهم كلهم كفار، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا

سَوَاءٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

٢١- إخلاص هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب لله تعالى وخشوعهم وذلمهم له، وتعظيمهم لآياته عملاً بها وبياناً لها؛ لقوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشَتَّرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ ثُمَّ قَلِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ يَبْكَونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

٢٢- التعريض بدم أكثر أهل الكتاب لكفرهم بالله وكتمانهم آياته.

٢٣- وعد الله تعالى هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بالأجر العظيم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، بل إن الله - عز وجل - وعدهم بمضاعفة أجرهم مرتين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٥﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

وفي الحديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران» (١) الحديث.

٢٤- إثبات الحساب، وسرعة حساب الله - عز وجل - للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

٢٥- الترغيب في ثواب الله لمن أطاعه واتقاه، والترهيب من عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

- ٢٦- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا﴾.
- ٢٧- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندايتهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما بعده من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢٨- وجوب الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.
- ٢٩- ينبغي مصابرة الأعداء ما أمكن؛ إقامة للحق، ودفعاً للباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَابِرُوا﴾.
- ٣٠- الحث على المراقبة في ثغور المسلمين وفي الجهاد في سبيل الله، والمداومة على عبادة الله تعالى، والصلاة ولزوم الطاعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾.
- ٣١- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ٣٢- الوعد بالفلاح والفوز لمن صبر وصابر وربط واتقى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

- ٥..... تفسير سورة آل عمران
- ٧..... المقدمة
- ٧..... أ- اسم السورة:
- ٧..... ب- مكان نزولها:
- ٧..... ج- فضلها:
- ٧..... د- موضوعاتها:
- ٢٣..... ﴿الْعَمَّ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّمُ (٢)﴾... ﴿الآيات [١-٤]﴾
- ٢٣..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)﴾... ﴿الآيات [٥-٩]﴾
- ٢٣..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْفِرَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾
- ٥٥..... ﴿الآيات [١٠-١٣]﴾
- ٧٠..... تفسير قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٤-١٧]﴾
- ٧٠..... تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾
- ٩٣..... ﴿الآيات [١٨-٢٠]﴾
- ٩٣..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (١١)﴾... ﴿الآيات [٢١-٢٥]﴾
- ١١١..... ﴿الآيتين [٢٦، ٢٧]﴾
- ١٢٢..... تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ...﴾
- ١٢٢..... ﴿الآيتين [٢٧، ٢٨]﴾
- ١٣٢..... ﴿الآيتين [٢٧، ٢٨]﴾
- ١٣٢..... تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...﴾
- ١٤١..... ﴿الآيات [٣٠-٣٢]﴾

- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾...﴾
 الآيات [٣٣-٣٧] ١٥٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً...﴾ الآيات
 [٣٨-٤١] ١٧٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ...﴾ الآيات [٤٢-٤٤]
 [٤٤] ١٨٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ الآيات [٤٥-٥١] ١٩٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾ الآيات [٥٢-٥٤]
 [٥٤] ٢١٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ...﴾ الآيات
 [٥٥-٥٨] ٢٢٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ...﴾ الآيات [٥٩-٦٣]
 [٦٣] ٢٣٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ الآيات [٦٤-٦٨]
 [٦٨] ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ...﴾
 الآيات [٦٩-٧٤] ٢٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ...﴾ الآيات [٧٥-٨٠]
 ٢٧٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾
 الآيات [٨١-٨٣] ٢٩٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمَّنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ...﴾ الآيات [٨٤-٩٢] ٣٠٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ...﴾

- ٣٣١ [٩٥-٩٣] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾...﴾
- ٣٣٨ [٩٧، ٩٦] الآيتين
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّهَلُّوا أَلِكِنَابٍ لِّمَ تَكْفُرُونَ بِنَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾...﴾
- ٣٥٧ [١٠١-٩٩] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾...﴾
- ٣٧٢ [١٠٥-١٠٢] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ الآيات [١٠٩-١٠٦]
- ٣٩٢ [١١٢-١١٠] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات [١١٢-١١٠]
- ٤٠١ [١١٥-١١٣] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآيات [١١٥-١١٣]
- ٤١٧ [١١٧، ١١٦] الآيتين
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾
- ٤٢٤ [١٢٠-١١٨] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ حَبَالًا...﴾
- ٤٣٠ [١٢٩-١٢١] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ...﴾ الآيات [١٢٩-١٢١]
- ٤٤٦ [١٣٢-١٣٠] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ الآيات [١٣٢-١٣٠]
- ٤٧٠ [١٣٦-١٣٣] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾
- ٤٧٨ [١٤٣-١٣٧] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
- ٤٩٧ [١٤٣-١٣٧] الآيات
- الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾...﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ الآيات [١٤٤-١٤٤]
- ٥١٨ [١٤٨]

- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤَيِّرُكُمْ عَلَىٰ
- أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾... ﴿الآيات [١٤٩-١٥٢]..... ٥٤٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ
- فِي آخِرَتِكُمْ... ﴿الآيات [١٥٣-١٥٥]..... ٥٥٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي
- الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَانُوا وَمَا قِيلُوا... ﴿الآيات [١٥٦-١٥٨]..... ٥٧٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْنَضُوا مِنْ حَوْلِكَ... ﴿
- الآيات [١٥٩-١٦٣]..... ٥٨٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ... ﴿الآيات
- [١٦٤-١٦٨]..... ٦١٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ
- يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾... ﴿الآيات [١٦٩-١٧٥]..... ٦٢٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا... ﴿الآيات
- [١٧٦-١٨٠]..... ٦٤٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ... ﴿الآيات
- [١٨١-١٨٥]..... ٦٥٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَتُجْلِبُوا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ... ﴿الآيات [١٨٦-١٨٩] ٦٧٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
- الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾... ﴿الآيات [١٩٠-١٩٥]..... ٦٨٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾... ﴿الآيات [١٩٦-٢٠٠]
- ٧٠٧
- ٧٢٣..... فهرس الموضوعات

دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958